

المكتبة
المستطير

كلية الآداب - جامعة دمشق

تاريخ

العصر العباسي

الطبعة الرابعة

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق



منشورات جامعة دمشق

١٤١٧ - ١٤١٦ هـ

١٩٩٧ - ١٩٩٦ م



الدكتورة
أمينة بطيار

959.587

492701

ب. ط

ت

تاريخ

العصر العباسي

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق

الهيئة العامة لبنية الأسكندرية
959.587492701
ب. ط. ت
٤٨٧٤١



مقدمة

العصر العباسي هو العصر الذهبي للخلافة العربية الإسلامية ، العصر الذي اكتملت فيه حضارتها ونضجت ، عصر يشمل حقبة زمنية تزيد على خمسة قرون ، ويشمل اراض واسعة تمتد من بلاد ماوراء النهر والسند شرقا حتى ساحل المحيط الأطلسي غربا ، ومن جبال طوروس واورمينية شمالا حتى المحيط الهندي جنوبا .

ينتسب العباسيون خلفاء هذه الدولة الى العباس بن عبد المطلب عم الرسول الكريم ، الذي كان على قيد الحياة حين توفي الرسول . فقد تسلم احفاده حكم الخلافة العربية الإسلامية اثر قيامهم بثورتهم التي اعدوا لها اعدادا كبيرا . واستطاعوا بذلك ان يطيحوا بالخلافة الاموية ، وان يرسو قواعد الخلافة العباسية على انقاضها .

اهتم عدد من المؤرخين من عرب ومستشرقين بدراسة العصر العباسي ، واستطاع بعضهم ان يصل الى نتائج قيمة في هذا المجال ، ولكن بعض مناحي الحياة في الخلافة العباسية ، مازالت تحتاج الى دراسة واعية ، يبذل فيها الباحثون جهدهم وامكاناتهم ، ويستقصون المصادر الاصلية للوصول الى نتائج صحيحة . وقد بذلت جهدي ان اكون في عداد هؤلاء الباحثين ، وان يكون بحثي هذا عملا علميا بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وسيرا مع الخطة المرسومة للبحث ، فاني قسمته الى خمسة ابواب . ومهدت له في مطلع الباب الاول بدراسة الظروف العامة التي ادت الى قيام الخلافة العباسية ، ثم تناولت بالبحث والاستقصاء الدعوة العباسية ، فطرحنا جانبا كون الدعوة العباسية حركة قومية فارسية ، واثبتنا انها حركة عربية اصيلة ، ساهم فيها الفرس مساهمة جادة للاطاحة بالامويين ، وللوصول الى حقوقهم التي منحهم اياها الاسلام عن طريق نجاح الاسرة الجديدة في الوصول الى الحكم ، التي اتخذت من شعار المساواة بين العناصر الإسلامية المختلفة شعارا لها ، دون ان ادعي بأنني اول من

اثبت ذلك . وقسمت هذا الباب الى قسمين ، تناولت في القسم الاول الحديث عن المرحلة السرية للدعوة العباسية ، كما تناولت في القسم الثاني المرحلة العلنية ومراحل حروب الدعوة حتى اعلان الخلافة العباسية .

اما الباب الثاني ، فقد خصصته لدراسة الاوضاع العامة في الدور العباسي الاول ، وبداته بالبحث في مميزات هذا الدور العامة، ثم تحدثت عن الاوضاع السياسية للخلافة العباسية في هذا الدور ، واوضحت ما بذله خلفاء العباسيين من جهد لتوطيد وتثبيت اركان الحكم العباسي ، وعن القوى المناهضة التي قامت في وجههم ، ثم انتقلت للحديث عن الاوضاع العامة في كل قطر من الاقطار التي شملتها اراضي الخلافة ، وبعد ذلك تحدثت عن العلاقات الخارجية بين العباسيين والدول المعاصرة .

اما الباب الثالث فقد خصصته لدراسة عصر سيطرة قادة الاثراك ، وبحثت قضية الصراع حول السلطة ، وبذلت اهتماما كبيرا في الحديث عن الصراع الاجتماعي والسياسي الذي ساد هذا العصر ، مع التركيز الشديد على الاسباب التي ادت اليه، والنتائج التي اسفرت عنه .

اما الباب الرابع وهو بنظري اهم الابواب جميعا ، فقد خصصته للحديث عن اهم مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في فترة البحث ، ودراسة الحضارة في هذه الفترة ، لها أهمية خاصة لان العصر العباسي كان يمثل نسيجا وحده من حيث سمات الخلافة وبروز وظائف جديدة في الدولة لم تكن معروفة في الفترات السابقة ، كما ان هذه الفترة كانت فترة نضوج للوظائف التي وجدت قبل هذا العصر ، يضاف الى ذلك عملية الاختلاط والتمازج بين الشعوب التي كان يتألف منها المجتمع في ذلك الحين ، ذلك التمازج الذي ادى الى جانب اسباب هامة أخرى متعددة ، الى نضوج الحضارة العربية الاسلامية التي بدت وكأنها شمس بين كواكب صغيرة جدا ، أخذت تبث اشعاعها في عالم العصور الوسطى على من يحيط بها . فأصبحت بغداد وغيرها من المدن كعبة للعلم ، وملتقى للعلماء في مجالات العلوم المختلفة .

وقد اقتصرت في دراستي في هذا الكتاب على البحث في الخلافة العباسية في الفترة الممتدة من سنة ١٣٢ - ٣٣٤ هـ ، وهي فترة تشمل مايمكن ان يسمى بالعصر الذهبي للخلافة العباسية ، وفترة عصر سيطرة قادة الاثراك، وهذه الدراسة تغطي ساعتين من مقرر تاريخ العصر العباسي الذي خصص له اربع ساعات اسبوعية .

وأود أن أذكر بأن بحثي لأوضاع الخلافة العباسية في هذه الفترة ، لم يكن الهدف منه استقصاء جميع أحداث فترة الحكم العباسي ، لأن ذلك تعجز عن استيعابه الصفحات القليلة المخصصة ، ولذلك فأنني حاولت قدر جهدي رسم الخطوط العريضة لأهم هذه الأحداث ، بما يتفق ومفردات منهاج المقرر ، بحيث تكون الصورة أقرب الى الواقع ، وقد استخدمت من أجل ذلك أهم المصادر والمراجع العامة والمتخصصة استخداماً مفيداً بعد دراسة واستقصاء للمتحيّزة منها ، والتي تتميز بالحياد التام والنظرة الموضوعية الخالصة .

وبعد فاني أرجو ان أكون قد وفقت بما بذلته من جهد لإخراج هذا البحث على وجه مرض ، وان كان فيه ما يقصر عن الهدف ، فأرجو ان يكون في محاولاتي القادمة ما يعوضه ، والله ولي التوفيق .

أمينة بيطار

مفردات مقرر تاريخ العصر العباسي

السنة الثالثة - قسم التاريخ

- ١ - الاوضاع العامة للخلافة والعالم المحيط بها اثر قيام الخلافة العباسية .
والعوامل التي ادت الى سقوط الخلافة الاموية .
- ٢ - الثورة العباسية عوامل نجاحها ، الفترة السرية ، النقباء والدعاة وأعمالهم .
الفترة العلنية والتصدي للثورة . حروب الدعوة ، اعلان الخلافة العباسية . دور
العناصر المختلفة في الدعوة . سمات الخلافة العباسية . وأدوارها .
- ٣ - الدور العباسي الاول ، خلفاء هذا الدور ، ومميزات هذا الدور .
- توطيد وتثبيت حكم بني العباس ، الموقف العدائي المتبادل بين العباسيين
وبني أمية وانصارهم ، سياسة العباسيين تجاه القبائل العربية والمدن الشامية، ثورة
نصر بن شبيب العقيلي ، ثورات اجناد الشام وموقف العباسيين منها ، الصراع بين
افراد الاسرة العباسية ، موقف العباسيين من الخوارج ، حركات الشيعة في الدور
العباسي الاول ، الصراع بين العرب والموالي : الصراع السلمي، الشعبوية ، الزندقة،
الصراع بين الخلفاء والوزراء . الصراع المسلح : الراوندية ، المقتنية ، البابكية .
الاضاع في مصر وبلاد النوبة . الاوضاع العامة في بلاد المغرب . الاوضاع في الاندلس .
- العلاقات الخارجية : مع البيزنطيين ، الكارولنجيين ، الهند ، الصين .
- أهم مظاهر الحضارة :
- نظام الحكم : النظام السياسي ، الخلافة ، الوزارة ، الكتابة والحجابة .
- النظام الاداري ، النظام العسكري ، النظام المالي ، النظام القضائي ، الحياة
الاقتصادية ،
- الحياة العلمية والعمرانية . الاوضاع الاجتماعية .
- ٤ - الدور العباسي الثاني :

– طور النفوذ التركي : خلفاء هذا الطور ، الاعتماد على الاتسراك في الجيش ونتائجه ، أمرة الامراء .

الايوضاع العامة ، الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ونتائجها ، الدول المستقلة في هذا الدور .

– الدور البويهى : بلاد الديلم وشعبها ، شعب الديلم والاسلام ، الديلم والتشيع ، ظهور الاسرة البويهية ، استيلاء اولاد بويه على بغداد ، معز الدولة ، عز الدولة بختيار ، عضد الدولة ، تمزق الدولة البويهية بعد عضد الدولة ، انحدار الحكم البويهى ، التحولات الاقتصادية والاجتماعية .

– الدور السلجوقي : هجرة التركمان الى خراسان . التركمان والدولة الغزنوية ، الصراع على خراسان حتى معركة داندانقان ، قيام السلطنة السلجوقية ، سلطنة طغرل بك الزحف السلجوقي على بغداد ، حركة البساسيري ، هجرة التركمان نشاطهم في العراق والجزيرة واسية الصفري وارمينية وبلاد الشام ، التركمان العراقية ، سلطنة الب ارسلان ، معركة مناكرد ، الاقطاع العسكري ، سلطنة ملك شاه ، الصراع بين السلطنة والخلافة ، استيلاء التركمان على بلاد الشام ، الزحف نحو مصر ، بركياروق وتمزق الامبراطورية السلجوقية ، سلطنة محمد ، سلطنة سنجر ، الخلافة وصراعها مع السلطنة ، الخليفة الناصر وحركة الفتوة ، ظهور المغول وزحفهم على بلاد الاسلام حتى سقوط بغداد .

– الدول المستقلة عن الخلافة العباسية :

الطاهرية – السامانية – الصفارية ، دولة طبرستان ، الدولة الغزنوية ، القراخانية ، الحمدانية في الموصل ثم حلب ، العقيلية ، المرداسية ، بنو مزيد ، الطولونية ، الاخشيدية ، الخلافة الفاطمية (الطور المصري) ، دول شبه الجزيرة العربية .

الباب الأول

تمهيد

أ - الأوضاع العامة للخلافة الإسلامية ، والعالم المحيط بها ، اثر قيام الخلافة العباسية :

يطلق اسم العصر العباسي على الفترة الزمنية التي تمتد من ١٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨ م ^(١) . وينتسب العباسيون مؤسسو هذه الخلافة والقائمون بأمرها الى العباس بن عبد المطلب ، عم الرسول الذي كان على قيد الحياة عند وفاة الرسول .

حكمت الاسرة العباسية في مطلع عهدها ، العالم الاسلامي ، بحدوده التي ورثتها عن الاسرة الاموية . (انظر خريطة رقم ١) وضمت تحت جناحيها اسبانيا والبرتغال في اوربا - عدا الزاوية الشمالية الغربية منها المسماة اوشثوريش - ، وشمالى افريقية ، وجنوب غربي قارة آسية ، فضمت بالتالي :

١ - في قارة آسية المنطقة التي يحدها شمالا حوض نهر سيحون ^(٢) والسواحل الجنوبية لبحر الخزر (قزوين) ومرتفعات القفقاس وأرمينية وجبال

(١) يمكن ان تسمى الفترة المذكورة في المتن والممتدة من سنة ١٣٢ - ٦٥٦ هـ العصر العباسي العراقي وذلك انه بعد سقوط الخلافة على يد الفول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، عادت السلالة ثانية الى تسلم الحكم في مصر سنة ٦٥٩ هـ ، ولم يكن الخليفة العباسي فيها امر ولا نهى سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة ، والامر كله للماليك . واستمرت الخلافة العباسية الشكلية قائمة يستمد منها سلاطين المماليك وبعض القوى الاسلامية شرعية حكمهم ، حتى دخول العثمانيين الى مصر . وابعاد الخليفة العباسي المتوكل على الله عنها سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م .

(٢) - نهر مشهور كبير بما وراء النهر بعد سمرقند في حدود بلاد الترك . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٣ ، ص ٢٩٤ .

طوروس ، وشرقا حوض نهر السند ، ومن الجنوب الشرقي الخليج العربي ، ومن الجنوب بحر العرب ، ومن الغرب البحر المتوسط والبحر الاحمر .

٢ - في افريقية ، المنطقة الشمالية بكاملها المطلة على البحر الابيض المتوسط شمالا ، والبحر الاحمر شرقا ، وشمالا السودان حتى الشلال الثالث للنيل والصحراء الافريقية الكبرى جنوبا ، والمحيط الأطلسي غربا .

٣ - في قارة اوربة اسبانيا والبرتغال عدا شمالها الغربي (٣) .

الا ان خلفاء العباسيين لم يستطيعوا الحفاظ على وحدة اراضي الدولة العربية الاسلامية ، بل كان الامتداد المكاني لهذه الدولة بين مد وجزر .

وان نظرة متفحصة لهذه الرقعة المكانية التي كان يضمها العالم العربي الاسلامي تحت جناحيه في مطلع العصر العباسي ، لتدل على سعة هذه الدولة العربية الاسلامية ، واذا شملت هذه النظرة العالم المعروف آنذاك . لا تضحى عظمتها بشكل اكبر . ومكائنها في عالم العصور الوسطى . ففي شرق هذه الدولة بلاد الهند التي تفتقر الى الوحدة السياسية ، فقد كانت موزعة الى ممالك متعددة تحكمها أسر محلية . وفي الشمال الشرقي من الخلافة العربية الاسلامية تمتد الصين وعلى رأسها اسرة تانغ (٦١٨ - ٩٠٧ م) . وقد احست بالخطر العربي الاسلامي ، وقوة الخلافة في المناطق الشرقية ، فجمعت قوتها الكاملة ، حيث واجهت جيوش العباسيين في معركة طلس سنة ١٣٣ هـ / ٧٥١ م بعد فترة وجيزة من استلامهم الحكم (٤) .

اما شرق بلاد ما وراء النهر (ترانس أوكسانيا) فقد كانت منتجعا للقبائل التركية التي تجوب السهوب الممتدة بين شمال البحر الاسود والخزر (قزوين) وبحر آرال . ولم تكن هذه القبائل التركية قد نالت شيئا من الحضارة بل كانت تعيش عيشة بدوية خالصة تنتقل طلبا للكلأ والماء ، وكثيرا ما دفعتها الظروف

(٣) - للتعرف على الاراضي التابعة للخلافة العربية الاسلامية في العهد الراشدي والاموي انظر اطلس التاريخ الاسلامي هاري وهازارد : ترجمة وتحقيق خورشيد وزيادة وغيرهم ، ص ٨ .
(٤) - ليلى صباغ : معالم العصر العباسي ، املية لطلاب اللغة العربية ، سنة الثالثة ص ٤٢ .

الطبيعية ، ومطالب الحياة الى اجتياز مناطقها الى بلاد ما وراء النهر حيث تستقر هناك ، وتتصل بالقبائل المستقرة قبلها والمعتنقة للديانة الاسلامية ، فتتأثر بها .

وفي شمال الخلافة العربية الاسلامية ، تقوم الامبراطورية البيزنطية التي تسيطر على آسية الصغرى ، والبلقان وعلى جنوبي شبه جزيرة ايطاليا ، كما يمتد نفوذها على الجزر المنتشرة شرقي المتوسط وجنوبه ، وكانت هذه الدولة قد ارتطمت بصدمات كبيرة وقاسية قد افقدتها صوابها اثر انسحابها من بلاد الشام ومصر ، وشمال افريقية ، وتبعية هذه المناطق للخلافة العربية . ثم مشاركة العرب لها في السيادة على البحر المتوسط منذ معركة ذات الصواري^(٥) . وكانت أوضاع هذه الدولة سيئة في هذه الفترة فقد وقعت في عداء مع العرب المسلمين فأخذوا في غزو أراضيها ومحاولة فتح عاصمتها القسطنطينية^(٦) . كما اصطدمت بمطامع القبائل السلافية والبلغارية في أراضيها ، ومحاولاتهم المتكررة للاستقرار في شبه جزيرة البلقان^(٧) .

ولم تكن المنطقة جنوب الخلافة الاسلامية في افريقية تشكل دولة موحدة ، عدا غانا التي كانت قد أسست دولة منذ القرن الرابع الميلادي . وكانت علاقة العرب المسلمين مع هذه البقاع تقتصر على المبادلات التجارية .

اما أوروبا فكانت على الشكل الاتي :

القبائل المتبربرة التي مزقت الامبراطورية الرومانية قد توضع في البقاع التي وفدت اليها ، وكونت ممالك اقطاعية متميزة ، منها دولة القوط في اسبانيا التي قضى عليها العرب المسلمون سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م^(٨) . ودولة الفرنجة في بلاد الغال التي كانت تحكم من قبل الاسرة الكارولنجية وكان على رأسها عند قيام

(٥) - انظر ابراهيم احمد العدوي : الامويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ،

طبعة ثانية ص ١٠٠ - ١١٦ .

(٦) - Bury : A History of the later Roman Empire 1931., P II., PP 312-313

(٧) - ابراهيم احمد العدوي : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٨) - انظر احمد بدر : دراسات في تاريخ الانبلس وحضارتها ، ص ١٧ - ١٩ .

الخلافة العباسية يبيان الثالث ١٢٩ - ١٥٠ هـ / ٧٤٧ - ٧٦٨ م والد شارلمان (٩) ، ولايضاح مدى تأخر هذه الدولة قياسا لحضارة الخلافة العربية الاسلامية في ذلك الحين ، يمكننا ذكر موقف شارلمان من الهدية التي وصلته من الخليفة العباسي هارون الرشيد وبشكل خاص حين تفحص الساعة الدقاقة ، والتي ظن ان بها شياطين (١٠) .

اما القبائل المتبربرة التي استقرت في انكلترا على انقاض الحكم الروماني فيها فقد شكلت سبع ممالك تتنافس فيما بينها ، كما كانت ايطاليا موزعة بين قوى رئيسية ثلاث : القوة اللومباردية في الشمال ، والبابوية في الوسط ، والبيزنطية في الجنوب والشمال الشرقي . وفي شرقي أوروبا فان القبائل السلافية كانت تسعى لتثبيت ذاتها على أرض شبه جزيرة البلقان منذ القرن السابع الميلادي (١١) . في حين لا يرى في موقع روسيا وبولونيا في تلك الفترة سوى قبائل جوابة (١٢) .

وهكذا فاننا نجد بناء على هذه اللوحة السريعة ، او النظرة الشاملة للعالم المعروف آنذاك ، أنه لم تكن هناك دولة تضاهي حضارة واتساع الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي . وقد كانت هذه الدولة تضم شعوبا عديدة ، والكثير منها يحمل حضارات غنية . وعلى الرغم من أن الحكم العربي الاسلامي لهذه المناطق كان قد استقر فيها لمدة قرن تقريبا منذ أن تم فتحها ، فإن هذا المجتمع لم يكن عند استلام العباسيين السلطة قد اصطبغ في جميع بقاعه بالصبغة العربية الاسلامية . فالدين الاسلامي لم يصبح دين الغالبية العظمى ، على الرغم من اعتناق الكثيرين له ، ولا سيما في مصر وشمال افريقية وبلاد فارس وما وراء النهر . فقد ظلت الشام محافظة على صبغتها النصرانية حتى القرن الثالث للهجرة ، وكذلك ايريا (الاندلس) . أما اللغة العربية فهي كذلك لم تبتلع اللغات السائدة بين الاقوام

(٩) - Muir : the Caliphate., Its Rise Decline and Fall., Beirut 1963., P. 464.

(١٠) - فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ، ص ١٩٥ - العباسيون الاوائل ، جزء ٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ - زهدي الداية : هارون الرشيد وشارلمان ، مجلة الهلال ١٩٣٢ ، ص ٩٦٨ - ٩٦٩ .

(١١) - صباغ : المرجع السابق ، ص ٤٢ - ٤٤ .

(١٢) - عن روسيا وسكانها في العصر العباسي - انظر رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان الطبعة الثانية من ص ١٧٥ - ١٩٤ .

التي ضمتها وخاصة تلك التي تختلف لغاتها اختلافا جذريا عن اللغة العربية التي كان لها حضارة سائلة راقية كالفرس . فاللغة العربية لاقت قبولا وتداولاً في مصر والشام والعراق ، وإلى حد ما في شمالي افريقية لاقتشار الآرامية فيها وتشابه جذور لغاتها معها . ويعود هذا الأمر إلى سماحة الإسلام وحكامه الذين تركوا حريسة المعتقدات لسكان البلاد المفتوحة ، وحين فرضوا عليهم الجزية تكفلوا بحمايتهم والدفاع عنهم ، ولا يعني هذا أن خلفاء العرب المسلمين لم يبذلوا جهوداً لاجل نشر الإسلام واللغة العربية ، بل كانت الامثلة على نشاطهم في هذا المجال كثيرة ومتعددة ، ومن قبيل ذلك بناء المساجد العديدة في المناطق المفتوحة حديثاً وبث دعاة الإسلام بين صفوف عناصر السكان في هذه البلاد لنشر الدين . ويمكن أن نجعل ما فعله الخليفة عبد الملك بن مروان من تعريب للدواوين ، وما فعله عمر بن عبد العزيز تجاه المسلمين الجدد من حيث اعفائهم من ضريبة الجزية من قبيل نشر الإسلام واللغة العربية بطريقة غير مباشرة ، فاعتنق الكثيرون منهم الإسلام .

ب - عوامل سقوط الخلافة الأموية :

قبل أن نستعرض الدعوة العباسية ، لا بد لنا من ذكر العوامل التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية ، لأن العباسيين استغلوا بعض عوامل الضعف هذه لمصلحتهم ، فكانت عوامل سقوط الخلافة الأموية من عوامل نجاح الدعوة العباسية ، وأول هذه العوامل :

— انهيار القاعدة العريضة التي كان يعتمد عليها خلفاء الأمويين . وهي وحدة البيت الأموي ، ووحدة عرب الشام ، اثر الثورة التي اطاحت بالوليد الثاني ، نتيجة مؤامرة اشترك فيها بعض رجالات البيت الأموي كيزيد بن الوليد الاول ، وسادات قبيلة كلب مثل منصور بن جمهور الكلبي . لقد كان مقتل الوليد نذيراً بانهيار الاسرة الأموية ، وعلى ايدي رجال من بني أمية انفسهم ، فالوليد الثاني لم يكن خارجاً أو مدسوساً على السلطان ، وإنما خليفة له بيعة في الاعناق ، وقد استخلف من قبل هشام بن عبد الملك . لذا فان مقتله كان نقطة البدء في تحدي فكرة الشرعية ومسماراً ضخماً في نعش الخلافة ، كمنصب له قدسيته وهيئته (١٣) .

(١٣) - د . نبیه العاقل : دراسات في تاريخ بني أمية ، ص ٢٩٨ .

لقد اعتمد الامويون منذ أن قامت خلافتهم في بلاد الشام على أهله كمجموعة واحدة تؤيد البيت الاموي بكل ما تستطيع ، وتمنحه ثقته ، وكان بنو كلب العنصر البارز في هذا التجمع الشامي المساند للبيت الاموي . ففرقت الاحداث الاخيرة هذه الجماعة الموحدة ، وخلقت بينها تيارات عديدة يرتبط كل منها بفئة وجد أن مصالحه معها . وقد أدى تصدع القاعدة التي يعتمد عليها البناء الاموي الى تصدع البناء الاموي بكامله . وفقد هذا البيت هيئته في جميع الاطراف ، وشعر الناقمون والثائرون الذين يعملون في الخفاء ، والمتآمرون الذين يعدون العدة لاستلاب السلطة أن فرصة ذهبية قد سنحت ، وأن هذه الفرصة يجب أن تستغل وأن تكون الضربة قاضية . لان البيت الحاكم لا يستطيع الرد عليها . وهكذا كثر الشاغبون وعمت الفتن الاطراف ، وظهر على مسرح الاحداث مغامرون وطلاب ثروة وجاه ، يريدون أن يحققوا لانفسهم في هذا الظرف ما عجزوا عن تحقيقه حين كان الجسد الاموي صلبا متماسكا (١٤) .

— عايشت الخلافة الاموية الاحزاب السياسية والدينية في بداية نشأتها وتطورها ، تلك الاحزاب التي أدى صراعها على منصب الخلافة الى اضعاف الخلافة الاموية ومن ثم الى سقوطها . وكانت هذه الاحزاب في البداية عربية المحتد ، الا انه لم يلبث أن تسلل اليها عناصر أخرى غير عربية من العناصر التي كانت تشكل الخلافة الاسلامية . وقد دانت بعض هذه العناصر بالاسلام لاستغلاله والاستفادة منه لتحقيق مآرب شتى . فاستغلت الوضع ورفدت الاحزاب الناشئة بمفاهيم متنوعة . ومن هذه الاحزاب حزب الخوارج والشيعة والمرجئة (١٥) .

والشيعة والخوارج اقدم الفرق السياسية والدينية في الاسلام . ثفرا من شجرة واحدة (انصار علي بن ابي طالب) . كان السبب المباشر لنشأة الخوارج

(١٤) — عاقل : المرجع السابق ص ٢١٩ ، ومن اجل الثورات التي قامت في بلاد الشام . في هذه الفترة انظر السعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ - ومروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ١٥٩ حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، جزء ٢ ، ص ١٥٣ . Muir : OP- cit., P. 418 .

(١٥) — عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي الى ايام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٢١٠ وما بعدها .

مسألة التحكيم ابان معركة صفين • فثار قسم من شيعته عليه لقبوله بالتحكيم •
وتنادوا أن لا حكم الا لله ، وقد تزعم هذه الفرقة المنشقة شبت بن ربيعي الرياحي ،
وعبد الله بن الكواء اليشكري ، ويزيد بن قيس الارحبي (١٦) • وكان الخوارج
في غالبيتهم من تميم وبكر وهمذان وغيرها من قبائل الكوفة (١٧) •

وقد خرج علي الى المنشقين وجادلهم في رأيهم ، واقنعهم بالعودة الى صفه •
فاقتنعوا ودخلوا معه الكوفة وانضموا اليه • وقد سميت هذه الجماعة الاولى
باسم الحرورية لاجتماعهم في حروراء • ولكنهم مالبثوا ان نقضوا عهدهم وعادوا
الى العصيان ، بحجة ان عليا وعدهم أن يسير بهم دون ابطاء لمحاربة أهل الشام ،
فلما لم يفعل ، وأرسل ابا موسى الاشعري لحضور جلسة التحكيم ، اعتبروا
أنفسهم في حل من طاعته ، وخرجوا عليه من جديد ، حتى اضطر الى قتالهم في
النهر وان (١٨) •

وهكذا كان نشوء هذه الفرقة التي استمرت طوال العصر الاموي ، ومن
بعده العباسي (١٩) ، شوكة في حلق الدولة العربية الاسلامية ، وأبدت رأيها في
الخلافة ، ومن يستحقها • فقالت بأن الخلافة حق لكل عربي مسلم حر • ثم تطور
هذا الرأي بعد دخول اعداد وفيرة من الموالي ضمن صفوفها ، فجعلت الخلافة حقا
لكل مسلم شرط العدل ، وبذلك فان هذه الفرقة مثلت الديمقراطية في الاسلام •

وتشدد هؤلاء في آرائهم ، فجعلوا الجهاد فرضا لقتال اعدائهم من معتصبي
الخلافة (٢٠) • وقد رأت بعض فرقهم قتال كل من لم يقل برأيهم • وقالوا بأن

(١٦) - السعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ص ٤٠٥ •

(١٧) - يرى بعض مؤرخينا بان الخوارج من عرب الردة ، الذين خرجوا أثناء الفتوح وبعدها عن
شبه الجزيرة العربية ، ليستوطنوا الكوفة والبصرة • وممن آمن بحرفية الدين وضرورة اخضاع
السياسة له •

(١٨) - عاقل : عصر الرسول والراشدين ، ص ٣١٨ •

(١٩) - مازالت بعض فرقهم موجودة •

(٢٠) - لم يكن الخوارج فرقة واحدة ، بل انقسموا الى فرق متعددة ، اختلفت في درجة تشدها
في ارائها • انظر من اجل ذلك ابن خلدون : العبر ، مؤسسة الاعلمي بيروت ، جزء ٣ ، ص ١٤١
وما بعدها وانظر يوليوس فلهاوزن : احزاب المعارضة في صدر الاسلام ، ترجمة بدوي ، الطبعة الثانية
ص ٤٢ - ٤٣ • وانظر عمر فروخ : المرجع السابق ، ص ٢١٠ •

العمل جزء من الايمان ، وجعلوا مرتكب الكبيرة كافرا ، وغير ذلك من أمور (٢١) .
وقد وجد هؤلاء بين الموالي والاعراب المماثلين لهم اجتماعيا بيئة صالحية .
فانتشرت آراؤهم في منطقة الجزيرة ، وفي جنوب العراق ، وفارس ، وسواحل
شبه الجزيرة الشرقية ، واليمن ، وفي شمالي افريقية .

حارب الخوارج أعداءهم حربا لا هوادة فيها ، ووقفوا موقفا حازما من علي
ابن ابي طالب ومن الامويين . واضطر الاخيريون الى تجهيز الجيوش لقتالهم
باستمرار . وكانوا بذلك سببا من أسباب اضعاف الامويين واشغالهم . وتعطيل
الجزء الاكبر من قوتهم . ففسحوا المجال بذلك واسعا امام القوى المعادية
للأمويين (٢٢) .

اما الشيعة شيعة علي ، فقد رأوا أنه أحق من كل الذين تولوا الخلافة قبله ،
لقربته من الرسول وفضله (٢٣) ولأن الرسول أوصى له بها ، كما رأوا أن الامامة
(الخلافة) ليست قضية مصلحة يمكن أن تفوض الى نظر المسلمين ، فينتخبون
من شاؤوا لتوليها ، بل هي قضية اصولية ، وهي ركن الدين (٢٤) . فأيدوه
وناصروه ، وقاتلوا معه الاعداء ، وعلى الرغم من تمسك علي بأصول الدين وفقه
الاسلام (٢٥) ، فقد فشل أمام دهاء وسياسة معاوية ، وبالتالي فقد ارتفع شأن
معاوية وأهالي الشام أنصاره . وانخفض رصيد علي وأنصاره في العراق ، وانتهى
الامر بقتله على يد الخوارج (٢٦) .

وعلى حين قتل علي ، فإن أنصاره التفوا حول أبنائه الحسن (٢٧)

-
- (٢١) - انظر عمر فروخ : المرجع السابق ، ص ٢١٠ .
(٢٢) - انظر عن حركاتهم في العصر الأموي : كتاب الدكتور نبيه عاقل : دراسات في تاريخ بني
أمية ، صفحة ١١٥ - ١٢٤ .
(٢٣) - فلهونن : المرجع السابق ، ص ١١٢ .
(٢٤) - ابن خلدون : مقدمة ، دار الشعب ، ص ١٧٥ .
(٢٥) - عن صفات علي انظر ما قاله ضرار بن ضمرة لمعاوية في المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ،
ص ٤٣٣ .
(٢٦) - المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٤٢٣ وما بعدها - نبيه عاقل : تاريخ عصر
الرسول ، ص ٣٢٤ .
(٢٧) - نبيه عاقل : المرجع السابق ، ص ٣٢٧ .

والحسين (٢٨) أولا • ثم خلف ابنه محمد بن الحنفية (٢٩) • ووقع هؤلاء الشيعة في عدااء مع الامويين ، وزاد هذا العدااء اضطرابا موقف الامويين من هذه الفرقة • واستخدمهم القسوة والشدة في القضاء على ثوراتهم • وكمثال على ذلك فاجعة كربلاء ، تلك الفاجعة التي أدت الى ازدياد ترابط الشيعة ، وكثرة المتعاطفين معهم ، وبشكل خاص الموالي • وقد أدت سياسة الشدة التي اتبعها الامويون معهم الى انقلاب حركتهم الى عقيدة دينية مطبوعة بطابع الحزن والالام والتوبة والندم • وتكررت حركات الشيعة وكثرت فرقهم حتى أصبحوا أخطر الاحزاب على بني أمية ، وكان لهم دور اساسي في القضاء على حكمهم (٣٠) •

— واذا عدنا الى نهاية فترة حكم الخلافة الاموية ، لوجدنا بأن مروان بن محمد آخر خلفائهم لم يتول الخلافة بتفويض ولاية العهد • ولم تكن له بيعة في الاعناق من قبل من سبقه من الخلفاء • بل اعتلى المنصب بقوة السلاح • وبالتالي فان الامويين لم يجتمعوا حوله ، كما لم يجتمع عرب الشام على خلافته • وقد أدى ذلك الى ثورات كثيرة قامت في وجهه • منها ثورة سليمان بن هشام الذي اتخذ موقفا مؤيدا ليزيد الثالث • كما ثار ضده عرب اليمن في كل مناطق الشام في فلسطين والاردن وحمص وتدمر (٣١) •

— ويضيف المؤرخون ان مروان بن محمد ابن أمة كردية ، ولم يكن من عادة الامويين تولية ابناء الاماء ، وهذا السبب هو الذي أبعد مسلمة بن عبد الملك عن الخلافة ، على الرغم من انه كان أهلا لذلك • واذا كان هذا رأي بعض المؤرخين ، فان بعضهم الآخر وعلى رأسهم المسعودي (٣٢) كان يرى بأن يزيد بن الوليد هو ابن أمة فارسية ، ومع ذلك فقد تولى الحكم • وبالتالي فان توليه ابناء الاماء كان نادرا ولكنه عرف قبل خلافة مروان بن محمد •

(٢٨) — المسعودي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، من ص ٦٤ — ٧٢ — نبیه عاقل : دراسات في تاريخ

بني أمية ، ص ٥٢ وما بعدها •

(٢٩) — المسعودي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٨٧ — نبیه عاقل : المرجع السابق ، ص ٩٩

٢٣٠ — عمر فروخ : المرجع السابق ، ص ٢١١ — ٢١٢ •

(٣١) — نبیه عاقل : المرجع السابق ، ص ٢٩٩ وما بعدها •

(٣٢) — مروج الذهب ، جزء ٣ ، ص ٢٣٩ •

— فشل الامويون بتنظيم حكومة مركزية قوية • واعتمدوا على ولاية أعطوهم
صلاحيات واسعة ، وأن بعض ولايتهم — وان كانوا على درجة عالية من قوة
الشخصية والاخلاص للامويين — الا أنهم تصرفوا كحكام مستقلين ، وفعلوا ما
رأوه صالحا في رأيهم • كما أن الامويين لم يقفوا مركزهم في مدينة دمشق لأنهم
في أغلبهم لم يستقروا بها ، بل قضوا معظم أوقاتهم في مدن على أطراف الصحراء •
وفي المدة الأخيرة تركزت اقامتهم في مناطق الشام الشمالية •

— لم يكن للخلافة الاموية جيش نظامي ، وكانوا يدعون الجند حين
الضرورة (٣٣) • أما الفرق العسكرية التي عرفت ، مثل فرقة الذكوانية وغيرها ،
فقد ظهرت في نهاية فترة العصر الاموي (٣٤) • أما تنظيمات الشرطة والامن
الداخلي — ان استطعنا استخدام هذا التعبير — فلم تكن على درجة متقدمة ،
كما ان اعدادها لم تكن كافية ، بدليل انتشار التنظيمات السرية دون وصول
خبرها الى الخليفة •

— وإذا أضفنا الى ذلك أن الامويين جعلوا من خراسان ولاية تابعة لولاية
العراق — ماعدا فترات بسيطة تمثلت في عهد عمر بن عبد العزيز والفترة الاولى
من حكم يزيد بن عبد الملك — وان ولاية العراق لم يكن يهمهم الا أن تكون هذه
المنطقة خزينة لهم • وإذا استرجعنا وضع العراق في العصر الاموي ، وما نشب فيه
من ثورات معادية للامويين ، لادررنا مدى ما كان يكلف به أهالي المناطق الشرقية
من أعباء مادية ، وبالتالي لادررنا سبب ابتعاد قلوب هؤلاء عن الامويين ،
واستعدادهم للانضمام الى الدعوات المضادة ، وبالتالي لادررنا سبب انضمامهم
الى الدعوة للرضا من آل البيت •

(٣٣) — من المعروف ان الامويين كانوا يدعون الرجال حين الحاجة • ومثالنا على ذلك الجيش
الذي وجهه يزيد بن معاوية الى المدينة حيث دعا مسلم بن عقبة الناس للسير معه : انظر الطبري :
المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٤٨٥ • وكذلك دعوة المحجاج الناس للحاق بجيش المهلب لقتال
الخوارج • كما ان المهلب جمع جيشا من أهل البصرة لقتال الخوارج • انظر الدينوري : الاخبار
الطوال ، ص ٢٧٢ •

(٣٤) — انظر عاقل : المرجع السابق ص ٣٠٢ •

— أما ما يذكره المؤرخون عن وصول حكام ضعاف الى سدة الخلافة ، فهو سبب وضع دون دراسة علمية للعصر الاموي . ولتوضيح ذلك وتفي فكرة وصول حكام ضعاف أثروا على مجرى الخلافة وكانوا سببا من الاسباب التي أدت الى سقوطها ، لابد من استرجاع الاوضاع الخلفية منذ خلافة هشام بن عبد الملك . ويعتبر الخليفة هشام بن عبد الملك مثال الخلفاء من حيث المقدرة السياسية والادارية ، ويمكن مقارنته بالوليد بن عبد الملك ، ومعاوية بن أبي سفيان . استمر في حكمه حتى سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، وتولى مروان بن محمد الخلافة في سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٥ م وكان على درجة كبيرة من المقدرة السياسية والعسكرية . والدليل على ذلك ما قام به من أعمال عسكرية بطولية وتهديته لثورات متعددة ، وذلك بالإضافة للتنظيمات العسكرية التي أجراها (٣٥) . ولم يحكم الوليد بن يزيد — اذا كان هو المقصود بالخلفاء الضعاف — فترة تجعل هذا الضعف يؤثر على سير الخلافة الاموية . فحكمه وحكم يزيد الثالث لم يتجاوز السنتين ، وبالتالي فان ضعفهما مهما بلغت درجته فلن يؤدي الى سقوط الخلافة الاموية . واذا كان الوليد الثاني ضعيفا فان أعوانه لم يكونوا كذلك . فقد كان عامله على المدينة يوسف بن محمد الثقفي . وفي دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج الثقفي ، وفي خراسان نصر بن سيار ، كما استبقى البرش الكلبي مستشار عمه في منصبه (٣٦) .

— استيقاظ روح العصبية القبلية بين عرب الشمال والجنوب . وتفضيل الخلفاء الامويين لقبيلة أو لاخرى حسب الظروف كان له اثره في تفور القبائل من القتال ، وفتور حماسها للذود عن الخلافة الاموية . ومما لاشك فيه ان استيقاظ روح العصبية القبلية ، كان بسبب السياسة التي سار عليها خلفاء بني أمية . فقد عمل معظم هؤلاء الخلفاء على تقريب أحد فرعي القبائل العربية اليهم دون الاخرى الا من عمل منهم على حفظ التوازن القبلي وكانوا قلائل (٣٧) .

وتنتيجة لهذه السياسة التي سار عليها الخلفاء الامويون فقد التهمت نار الاحن

(٣٥) — عاقل : المرجع السابق ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٣٦) — عاقل : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣٧) — انظر عمر رضا كحالة : معجم القبائل العربية ، ٣ اجزاء ، طبعة دار العلم للملايين ،

بيروت ١٩٦٨ ، جزء ٣ ، صفحة وحاشية ص ٩٩١ .

والاحقاد بين الفرعين ، اندلع لهيبها أول الامر في بلاد الشام مركز الخلافة الاموية . وأسفر ذلك عن حروب كثيرة بين هذه القبائل كادت تخرب بلاد الشام . ثم مالبت أن تطاير شذاهها الى غيرها من الولايات الاسلامية . وغدت بقاع كثيرة من الدولة مسرحا للاضطدام بين هذه القبائل . فقد نشبت ثورة يزيد بن المهلب في العراق ، واتخذت طابع العصية ، وان لم تكن العصية هي السبب في خروج ابن المهلب عن الطاعة (٣٨) . وانتقلت العصية الى خراسان ونشب فيها النزاع بين فرعي قبائل العرب بسبب تعارض مصالحهما (٣٩) . وقد استغل دعاة العباسيين هذه الفوضى السياسية ، وقاموا بنشر دعوتهم . ومما لاشك فيه أنه كان يزيد في اضرار نار المنافسة بين هذه القبائل ، ما كان يحدث من تفاخر بين ابنائها حتى أمام الخلفاء انفسهم ، الى جانب هجاء الشعراء وتفاخرهم (٤٠) .

وبدت القبائل العربية وكأنها أنهكت لهذا التذبذب بينها من قبل خلفاء الامويين . حتى انها انفرجت عن مساعدة مروان بن محمد في محنته . بدا ذلك واضحا في معركة الزاب . فكان مروان بن محمد كلما نادى على قبيلة من القبائل لنصرته ، تبتعد منه وتطلب منه أن ينادي على القبيلة الاخرى قبلها (٤١) . فلم يتحمس العرب القيسية للقتال مع مروان ، بل انهم على العكس وثبوا عليه في دمشق . كذلك يثس العرب اليمنية من الامويين عامة ، وانقلبوا الى حزب معاد ، وانضموا للدعوة العباسية ، وكانوا من اكبر انصارها (٤٢) . وهكذا يبدو انه على الرغم من أن الاحداث هي التي كانت تفرض على الخلفاء الامويين الانحياز لأحد

-
- (٣٨) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٧٢ - ثابت اسماعيل الراوي : العراق في العصر الاموي من الناحية السياسية والادارية والاجتماعية ، مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٥ ، ص ١٨٤ . احمد زكي صفوت : عمر بن عبد العزيز ، من سلسلة اقراء ، طبع ونشر دار المعارف القاهرة ٦٣ ، ص ٦٩ .
- (٣٩) - فان فلوتن : السيادة العربية في عهد بني امية ، مطبعة السعادة ١٩٣٤ ، ص ٦٢ - ٦٣ .
- (٤٠) - عن اسباب العصية القبلية ودورها في سقوط الخلافة الاموية : انظر المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، من ص ٢٤٢ - ٢٤٦ - وانظر سيد امير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص ١٤٦-١٤٨ .
- (٤١) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٣٤ .
- (٤٢) - فاروق عمر : طبيعة الدعوة العباسية الطبعة الاولى ، طبعة دار الارشاد بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١٢٤ نقلا عن الامامة والسياسة .

الفرعين القبليين • فان هذا الانحياز أدى الى استيقاظ روح الغصية القبلية بينهما • وأدى الى تفور الفرعين عن مساندتهما وانحياز العرب اليمينية الى العباسيين • وكان لهذا ما كان من دور بارز في انهزام مروان بن محمد في معركة الزاب • ثم اضطراره الى الانسحاب من بلاد الشام ومقتله • وسقوط الخلافة الاموية •

— وقد أجمل أحد شيوخ بني أمية أسباب سقوط الخلافة الاموية فقال :
(انا شغلنا بانفائنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا • فظلمنا رعيتنا فيئسوا من انصافنا ، وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا • وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا • ووثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أمورنا دوننا أخفوا علمها عنا • وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعاديونا فتظافروا معهم على حربنا ، وطلبنا اعداؤنا فعجزنا لقلّة أنصارنا ، وكان استتار الاخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا) (٤٣) •

— لقد أدت هذه الحركات المتعددة الى اضطراب جبل الامن ، فهاجت الفتنة واندلعت الثورات في كل مكان • ومع كل ذلك فقد تمكن مروان من القضاء على حركات العرب اليمينية في الشام • (٤٤) كما استطاع القضاء على حركة عبد الله بن معاوية في العراق ، ففر الى خراسان (٤٥) • وكذلك فانه تمكن من القضاء على ثورات الخوارج • وقام بكل ذلك بكفاية ومقدرة (٤٦) • ولكنه حين تمكن من القضاء على هذه الحركات كان مشرق الخلافة الاسلامية يشتعل نارا • فقد قامت حركة تطالب باصلاح الاوضاع الاجتماعية ، وهي حركة الحارث بن سريج (٤٧) ،

(٤٣) — المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٣ ، ص ٢٤١ •

(٤٤) — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١١٣ — ١١٤ •

(٤٥) — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١١٥ •

(٤٦) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣٤٤ — ٣٤٧ و ص ٣٤٨ و ص ٣٤٩ — ٣٥٣ و

ص ٣٧٤ — ٣٧٦ — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٦٤ وما بعدها حتى ص ١٦٩ •

(٤٧) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٩٣ — ٢٩٥ — و ص ٣٠٩ — ٣١٠ ، و ص ٣٣٠ —

٣٣٤ • — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١١٥ — ١١٧ •

كما اندلعت ثورات قبلية قام بها جديع بن علي الكرمانى • ولما قتل قاده ابنه علي
الشورة (٤٨) •

— كان التدمير يعم المنطقة الشرقية ، فخراسان ومنطقة ما وراء النهر بعناصرها
العربية المسلمة التي استوطنتها بعد الفتح والفارسية المسلمة منذ انتشار الاسلام ،
وفي الفترات التالية ، والتركية المسلمة حديثا كانت في حالة تدمير • فقد ابقى
الامويون ضريبة الجزية والخراج على المسلمين الجدد ، اللهم ماعدا عمر بن عبد
العزيز • كما اثقلوا كاهل الاهالي بضرائب اضافية كضريبة المهرجان والنوروز ،
وغيرها •

وفوق كل هذا وذاك فان هذه الفئة حرمت من العطاء ، ويتضح ذلك مما قاله
أحداهم للخليفة عمر بن عبد العزيز حين قابله (يا أمير المؤمنين عشرون الفا من
الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من اهل الذمة يؤخذون
بالخراج) . وكان جواب عمر الى واليه (انظر من صلى قبلك الى القبلة فضع عنه
الجزية) (٤٩) •

وعلى هذا الشكل فقد تدمير الموالى من الظروف السيئة التي عاشوها ، ولم
تكن هذه الظروف وفقا عليهم ، بل ساءت حال الكثيرين من العرب • فقد تسلطت
الارستقراطية العربية التي برزت زمن الحكم الاموي ، وفئة الدهاقين (٥٠) من
رجال الاقطاع الفارسي — التي استمر نفوذها في ظل البيت الحاكم — على الفئات
الآخري من الموالى والعرب وعلى فئات الشعب فتدمرت منهم ، ويؤيد تدمير بعض

(٤٨) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٨٥ — ٢٩٣ ، و ص ٣٦٧ — ٣٧١ و ص ٣٨٦

— ٢٨٨ •

(٤٩) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٥٥٩ ويلاحظ أن عامة المسلمين خلطوا بين الجزية
والخراج ، فعلى حين يذكر الرجل لعمر بأن جماعته أسلموا ويؤخذون بالخراج علما بأن ما يرفع عن
الذمي حين يسلم ضريبة الجزية . وقد أدرك عمر بن عبد العزيز الموقف وخاطب عامله بوضع
الجزية عن الناس •

(٥٠) — الدهاقين / هم طبقة النبلاء من الفرس المحليين وكانوا في العهد الساساني مسؤولين عن
تنظيم الضرائب وجبايتها . وكانت الدولة تعفيهم من الضرائب ، بينما يقع عبؤها على كاهل الفلاحين •

فئات العرب من الأوضاع في خراسان ما أورده الدكتور فاروق عمر (٥١) حيث يقول :

(ان المتذمرين من العرب المستقرين ، التابعين لقبائل متباينة الذين حرّموا من العطاء ، والذين نظروا بعين الحسد الى اخوانهم المقاتلة من أصحاب الامتيازات ، كان هؤلاء العرب المستقرين يأملون تغيرا في الطبقة الحاكمة ، ان هذا يفسر حقيقة كسب الدعوة العباسية لا لليمانية وحلفائهم الربعية فحسب ، بل وحتى المضربة الذين كانوا يشعرون بخيبة أمل) •

ويتضح من هذا بأن قسما من العرب الذين لم يكن لهم شرف الاتصال بالطبقة الحاكمة واولئك الذين هاجروا الى خراسان لمشاكلهم للدولة الاموية كانوا يعيشون كغيرهم على هامش الاحداث ، ويشعرون باهمال السلطة الاموية لشؤونهم ، كما كانوا يخضعون لنظام الضرائب القاسي ، وجور الدهاقين المكلفين بجباية الضرائب في المقاطعات الشرقية ، فتعصبوا بعضهم لبعض ، وتكتلوا ضمن عصابات وأحلاف جديدة ، وانضموا الى صفوف الثائرين على الدولة الاموية ، وأيدوا الثورة العباسية ، ووقفوا صفا واحدا مع الموالي ضد الفئة العربية الاخرى التي تتمتع بالامتيازات وتتقاسمها مع فئة الدهاقين ممثلي الارستقراطية الفارسية (٥٢) . وفوق هذا وذاك ، فان العرب المقاتلة ، كان لهم ما يدعوهم الى التذمر والشكوى ، فقد كانوا يواجهون بين الفينة والفينة لاختصاص البقاع الثائرة والمتمردة فيما وراء النهر ، ولما كانت الثورات متكررة فقد جمد المقاتلة بالثغور وفي خطوط القتال ، ولم يسمح لهم بالعودة الى أهلهم وذويهم لقضاء فصل الشتاء .

يضاف الى اسباب تدميرهم شعورهم بالغبن المادي ، اذ أن حكام الامويين لم يكونوا يعطونهم حقهم من الفبيء والغنائم . فالنفائس يحتفظون بها لأنفسهم أو

(٥١) - الدعوة العباسية ، ص ٨٣ .

(٥٢) - أن استمرار نفوذ الدهاقين في العهد الاسلامي نتج عن بنود المعاهدة التي عقدت بين المسلمين ومرزبان مرو حين فتحت خراسان ، وقتل يزيدجرد الثالث آخر اكاسرة الفرس وكان من بنود هذه المعاهدة انه ليس للمسلمين شأن بتقدير الضرائب ، بل عليهم ان يتسلموا مقدارها من الدهاقين . الذين تركت ادارة خراسان بيدهم . انظر فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

يرسئونها الى الخليفة ، ليكتسبوا مكانة في البلاط • بينما يصر شيوخ القبائل
المقاتلة على الاحتفاظ بأربعة اخماس الغنيمة وهي حقهم الشرعي •



وهكذا تضافرت عوامل متعددة ، أدت الى سقوط الخلافة الاموية وقيام
العباسية ، وأصبح مروان بن محمد غير قادر على الصمود أمام جميع القوى التي
تضافرت ضده ، ولا سيما الدعوة العباسية التي استغلت اضطراب الاوضاع في
أرجاء مناطق الخلافة غاية الاستغلال • وخرجت من السرية طارحة شعاراتها التي
رأت أنها ستكون الدواء لمعظم أدواء المجتمع • وعاش الناس هذه الفترة المضطربة
من تاريخ الخلافة الاموية عيشة يسودها التشاؤم • وانبرى بعض الشعراء يصفون
الوضع العام ، فهذا أحدهم يقول :

أبيت أرعى النجوم مرتفقاً	إذا استقلت تجرى أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة	غدعم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن	بالشام كل شجاء شاعها (٥٣)

وقال نصر بن سيار مخاطباً مروان بن محمد ، واصفاً الحالة المتردية في البلاد
والعواقب التي ستنتج عنها فقال :

انا وما نستكتم من أمرنا	كالشور اذ قرب للناخس
أو كالتي يحسبها أهلها	عذراء بكرها وهي في الناس
كنا نرفيها فقد مزقت	واتسع الخرق على الراقع
كالشوب اذا أنهج فيه البلى	أعيا على ذي الحيلة الصانع (٥٤)

(٥٣) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٨٦ .

(٥٤) - المسعودي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٥٨ .

الدعوة العباسية

واجه خلفاء بني أمية ، كما مر معنا عددا من حركات المعارضة ، وعلى رأسها حركات الشيعة ، التي تدعو فيما تدعو اليه ، لبني هاشم (اهل البيت) بصفة عامة ولعلي وأبنائه من بعده بصفة خاصة . وقد قام اتباع تلك الحركة الاخيرة ، بثورات عديدة في العصر الاموي باءت جميعها بالفشل . بينما لم يرفع أبناء وأحفاد العباس سلاحا في وجه الامويين . وكل ما قاموا به هو اظهار تأييدهم لبني عموميتهم وتعاطفهم مع حركاتهم . ويفاجأ المرء بعد هذه الظواهر بنجاح العباسيين في تأسيس خلافتهم اثر سقوط خلافة الامويين ، فكيف تم هذا الامر ؟ أو بصيغة اخرى كيف انتقلت الدعوة من الهاشميين الى العباسيين ؟ . يبدو أن طموح العباسيين للوصول لمنصب الخلافة ظهر متأخرا وبعد انقسام شيعة علي اثر الضربات العديدة التي تلقوها . وان كان الغموض يكتنف بداية ظهور هذا الطموح والظروف التي بدأ فيها أول مطالب بالخلافة لآل العباس ، وهو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ^(١) .

ولتوضيح ذلك لا بد من ذكر الروايات المتعددة في هذا المجال ، والتعليق عليها .

تذكر بعض المصادر أن محمد بن علي بويع بالامامة من قبل أبي هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب ، وكان الاخير قد ذهب الى دمشق بناء على دعوة من الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك . وعلم سليمان اثناء هذه المقابلة بأن لابي هاشم دعوة سرية وأن له انصارا يطيعونه . فأحب ان يتخلص منه ، فأوعز

(١) - المعروف بأن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس كان يقيم في بلدة الحميمة جنوب البحر الميت ، وكانت قد اقطعت لابيهِ علي بن عبد الله .

بدس السم له عقب مغادرته لدمشق (٢) . وحين شعر أبو هاشم بتردي حالته بعد أخذه للطعام المسموم ، وهو في منطقة قريبة من الحميمة ، أدرك بأنه لا مجال للتردد ، وأن عليه أن يدخل الحميمة ، وفيها قام بمبايعة محمد بن علي قائلاً له : انا كنا ظن أن الامامة والامر فينا ، فقد زالت الشبهة ، وصرح اليقين ، فانك الامام ، وان الخلافة في ولدك فعليك بالكوفة ، فان فيها شيعتك وأهل مودتك ، واجتنب الشام فليس محتملاً دعائك ، ولا يصلح لهم . وعليك بخراسان ، فوجه الى خراسان رجلاً ، وأمره ان يدعو الى الرضا من آل محمد ولا يسمي أحداً . كما سلمه وصية أبيه (٣) ، التي فيها ان الامر صائر اليه ، والى ولده ، وأعلمه الوقت الذي يكون فيه والعلامات وكل ما ينبغي أن يعمل به . كما أعلمه ماروي عن أبيه علي بن أبي طالب ، بأن الامر لعبد الله بن الحارثية ثم عبد الله اخوه (٤) . وازضافة الى ذلك فقد أعلمه ان له دعاة وكشف له عنهم . وأعطاه العلامات وسلم له خاتماً كان في اصبعه يختم به الكتب الى الدعاة ، (٥) وكتب يعلم شيعته من أهل خراسان والعراق أن الامر صائر الى ولد محمد بن علي ، وأمرهم بقصده من بعده ، فرضوا به وسلموا الامر الى بني العباس (٦) . ويثير موضوع هذا التنازل شكوكاً وتساؤلات يصعب القطع بها . فمن المعروف ان آل العباس لم يظهروا في أي فترة سابقة ادعاء أو طموحاً في موضوع الخلافة ، لأن جدّهم العباس أسلم متأخراً ، وان كان يظهر عطفه على ابن أخيه (٧) . وكان موقف أبناء العباس في الصراع بين العلويين والامويين ، ولاسيما بعد مقتل علي أشبه بموقف العباس ، يؤيدون أبناء عمومتهم دون أن يقفوا موقفاً عدائياً صريحاً من الامويين . ما عدا ما ذكر عن العذاب

(٢) - عن تفاصيل هذه الرواية ، انظر العيون والحدائق : المؤلف مجهول ص ١٨١ .

(٣) - قد تكون هي الصحيفة الصفراء التي يذكرها المؤلف المجهول في مخطوطة اخبار العباس ووالده .

(٤) - المقرئ : مخطوطة المقي في تاريخ مصر والواردين اليها . نسخة مصورة عن مجلدة باريس في مكتبة الدكتور سهيل زكار ، ورقة ٧٦ وجه وظهر .

(٥) - العيون والحدائق : ص ١٧١ - وانظر المعارف لابن قتيبة ، تحقيق ثروت عكاشة الطبعة الثانية . دار المعارف بمصر ١٩٦٩ ، ص ٢١٧ فهو يذكر هذه الرواية باختصار .

(٦) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٦٤ وجه وظهر - العيون والحدائق ، ص ١٧١ .

(٧) - انظر فيما سبق .

الذي ناله عبد الله بن علي العباسي على يد الأمويين من ضربه بالشمس ، وصب الزيت فوق رأسه وبقية الى جزيرة دهلك (٨) . كما أنه من المعروف أن آل علي وشيعتهم يتمسكون بحقهم في الخلافة تمسكا وصل بالكثيرين الى حد الغلو والتطرف ، ومن هؤلاء الكيسانية ، وأبو هاشم زعيمهم ، وإذا قرأنا الرواية نفسها كما أوردها ابن طباطبا ، (٩) لوجدنا ان هناك خلافا بين الروايتين ، فابن طباطبا يرى أن أبا هاشم لم يتنازل عن الامامة لمحمد بن علي ، بل يذكر بالحرف الواحد : (... فأعلمه أنه ميت وأوصى اليه ، وكان بصحبته جماعة من الشيعة فسلمهم اليه وأوصاه فيهم . ثم مات رضي الله عنه ، فتهوس محمد بن علي بن عبد الله بالخلافة منذ يومئذ) . وقد يأخذ المرء كلمة أوصى اليه ، بأن أبا هاشم أوصى اليه بالخلافة، ولكن تنمة الرواية توضح المقصود .

والى جانب هذه الرواية ، فان هناك روايات اخرى جاءت في متن كتب التاريخ مغايرة لهذه الرواية ، منها ما ذكره صاحب كتاب العيون والحدائق ايضا والمقرئزي (١٠) ، عن بيعة محمد بن علي فقال (لما اراد الخراسانيون القيام في أمر الدعوة لواحد من آل رسول الله (ص) ، قالوا لا يصلح هذا الامر الا لرجل من هؤلاء القوم ، ولا يصلح الا لرجل يجمع الناس على أن فيه ثلاث خصال يكون أعظمهم شرفا وأفضلهم في نفسه ديننا وأسخاهم كفا ، فيكون قوم يتبعونه لشرفه وموضعه ، وقوم يتبعونه لبراعته وفضله ، وقوم يتبعونه لشجاعته وكرمه . فقدموا المدينة . فدلّوهم على محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فمضوا اليه .) وتدل هذه الرواية دلالة صريحة على ان الفضل في البيعة لمحمد بن علي يعود للخراسانيين . وأن هؤلاء كانوا يريدون رجلا من أهل البيت سواء أكان علويا أم عباسيا أم جعفريا .

(٨) - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقة ٦٤ ظهر وقد وردت برواية اخرى في ورقة ٦٥ ظهر عن محمد بن علي واصناف الى ذلك انه اخذ منه ماله .

(٩) - ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار بيروت ١٩٦٦ ، ص ١٤٣ .

(١٠) - العيون والحدائق ، ص ١٧٩ - المقرئزي المصدر السابق ، ٦٥ وجه .

وورد في الكتاب نفسه رواية أخرى فحواها أن رسول الله (ص) أعلم عمه العباس أن الخلافة تؤول الى ولده . ويقول هذا الحديث المنسوب للرسول انه عليه السلام قال لعمه العباس رضي الله عنه : انها ستكون في ولده . وأنه حين أتاه بابنه عبد الله أذن في أذنه ، وتفل في فيه ، وقال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ثم دفعه الى أبيه وقال له : خذ اليك ابا الاملاك (١١) .

ويرى ابن خلدون بأن الدولة العباسية من دول الشيعة ، وأن العباسيين من فرقة الكيسانية وهؤلاء — كما هو معروف — يقولون بإمامة محمد بن علي بن الحنفية بعد علي بن أبي طالب ، ثم من بعده الى ابنه أبي هاشم عبد الله ثم الى محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس (١٢) .

ويذكر ابن خلدون أيضا رأى الراوندية من أهل خراسان في خلافة العباسيين . ويرى ان هؤلاء يزعمون بأن العباس أحق الناس بالإمامة بعد النبي (ص) لانه وارثه وعاصبه لقوله تعالى في كتابه الكريم (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، وان الناس منعوه من ذلك وظلموه الى أن رده الى ولده . ويذهبون الى البراءة من الشيخين وعثمان ، ويجيزون بيعة علي لأن العباس قال له : يا ابن اخي هلم ابايعك فلا يختلف عليك اثنان (١٣) . ومهما اختلفت الروايات ، فيمكن القول بأن الدعوة العباسية كانت دعوة سياسية ، اخذت عن الشيعة دعوتهم الى حق آل البيت في الخلافة دون حصرها في آل علي وفيما عدا ذلك فإن العباسيين ظلوا من اهل السنة كالأمويين .

بدأ محمد بن علي بتنظيم امور الدعوة منذ سنة ١٠٠ — ١٠١ هـ / ٧١٩ — ٧٢٠ م مستفيدا من التسامح الذي طبع به عهد عمر بن عبد العزيز ، ومستفيدا من

(١١) — المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٢٠١ وجه وظهر . كما اورد روايات أخرى كثيرة موضوعة على النسق نفسه لتقوية مركز العباسيين وبيان احقيتهم بالخلافة ، الى جانب روايات أخرى تدل على مركز عبد الله بن عباس العلمي الكبير . انظر ورقة ٢٠٢ وجه وظهر .

(١٢) — ابن خلدون : العبر وديوان البتداء والخبر ، جزء ٣ ، ص ١٧٣ .

(١٣) — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٣ .

النسق العام الذي وضعه ابو هاشم قبله • وقد يكون هذا النسق العام للدعوة العباسية ، مبنيًا على ما جاء في الصحيفة الصفراء (١٤) • والتي تذكر ان ابا هاشم ورثها عن ابيه محمد بن الحنفية ، وبدوره ورثها عن ابيه علي بن ابي طالب • وتتضمن هذه الصحيفة أخبار رايات خراسان السود متى تكون ؟ وكيف تكون ؟ ومتى تقوم ؟ ومتى زمانها ؟ وعلاماتها وآياتها ، وأي أحياء العرب أنصارها ، وأسماء رجال يقومون بذلك وصفتهم • واذا صح ما جاء في هذه الصحيفة ، وصح اعتماد أصحاب الدعوة عليها • فان التنسيق يكون أسبق من أبي هاشم ، وأن محمد ابن علي حين أخذ الدعوة سار على هديه وأخذ الخمس والهدايا من أتباعه ، كما كان يفعل أبو هاشم •

— ركز محمد بن علي على نقاط كان لها دور كبير في نجاح الدعوة العباسية ، فعلى حين اتخذ الحميمة مركزا له ، فانه بث دعائه في العراق وخراسان ، حيث اتخذوا من الكوفة ومرو مركزين لنشاطهم كما عمل :

— على نشر الدعوة برفق وتستر ، وأخذ يحث رجاله على تطبيق ذلك ويقول لهم (فانطلقوا أيها النفر ، فادعوا الناس في رفق وتستر ، فاني أرجو الله أن يتم أمركم ويظهر دعوتكم ولا قوة الا بالله) •

— بث الثقة في نفوس أتباعه • وروج بينهم وعن طريقهم احاديث نسبت الى الرسل الكريم (ص) ، تؤكد نجاح الدعوة التي يدعون اليها (١٥) • وقد كان أبوه عبد الله بن علي فعل ذلك قبله • فقد تنبأ لابنائه بالنجاح بالشرق ، ولابناء عمومته بالمغرب (١٦) • كما أشعر انصاره بأنه قد آن أوان ظهور الحق • ومن أقواله في ذلك :

(١٤) — وهي صحيفة ترد في مخطوطة اخبار العباس وولده المؤلف مجهول انظر فاروق عمر : (طبيعة الدعوة العباسية) ص ١١٣ •

(١٥) — انظر فيما سبق •

(١٦) — المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٦٥ وجه •

(هذا أوان ما نأمل ونرجو من ذلك ، لا نقضاء مائة من التاريخ • فانه لم تنقض مائة سنة على أمة قط الا أظهر الله حق المحقين ، وأبطل بطل المبطلين لقول الله جل اسمه « أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها ، فأما الله مائة عام ثم بعثه ») •

— تخفى الدعاة بزي التجار ، محافظة على الدعوة وصاحبها ، وزيادة في سريتها ، فقد كان الدعاة يتعاطون مع أهالي البلاد التي يدخلونها على أساس أنهم تجار ، فيبيعون ويشتررون ، وكلما وثقوا بأحد دعوه الى دعوتهم • وليس معنى ذلك أنهم امتنعوا بذلك عن المخاطر ، فقد كانوا يقعون في أيدي أصحاب السلطة ، ولذكائهم وبراعتهم كانوا يتمكنون من الخروج بضمان أو سواه ، ويتنقلون في الاقطار بحرية بعد خروجهم • وربما كان ولاية العراق وخراسان يخرجونهم من السجن ، لأنهم لم يدركوا خطر الحركة التي يدعون اليها على أسيادهم خلفاء دمشق • ومن الامثلة على ذلك أنه سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م أرسل ميسرة النبال بعض رسله من العراق الى محمد بن علي ، فسعى بهؤلاء بعضهم الى والي العراق الذي قبض عليهم ، الا انهم احتجوا بأنهم من التجار ، وخرجوا من السجن بضمانة بعض رجال من ربيعة واليمن (١٧) •

— ولم تكن النجاة دائما نصيب هؤلاء الدعاة الذين يقعون في قبضة ولاية الامويين ، فقد تعرض بعضهم للجلد وأحيانا للموت • وخاصة بعد ان أدرك الامويون كنه هذه الدعوة الجديدة ، ففي سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٨ م أرسل محمد بن علي أبا محمد زياد مولى همدان الى خراسان ، فسعى به بعضهم الى والي المنطقة أسد بن عبد الله ، فاعتذر اليه بالتجارة ، وتمكن من النجاة في المرة الاولى ، الا انه بعد ان عاد الى امره ، احضره والي خراسان وقتله في عشرة من أهل الكوفة (١٨) •

(١٧) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٦١٦ - ٦١٧ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٠١

(١٨) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٩ - ٥٠ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٠١

وكذلك فإن أسد بن عبد الله تمكن في ولايته الثانية سنة ١١٧ هـ / ٧٣٥ م من القبض على سليمان بن كثير ، ومالك بن الهيثم ، وموسى بن كعب ، ولاهز بن قريظ فعاقبهم بالضرب ثم أطلقهم بعد أن شهد بعض رجال الازد ببراءتهم (١٩) .

— حاد محمد بن علي لأصحابه أسماء القبائل والمدن التي يمكن الاعتماد عليها . فقد نسب إليه أنه قال (أما الكوفة وسوادها فشيعة علي ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف (٢٠) ، وأما الجزيرة فحرورية وأعراب كأعلاج ، ومسلمون في أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني أمية عداوة راسخة وجهل متراكم . وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة . وبعد فاني أتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق) (٢١) . وقد عمل كثير من المؤرخين على تحليل هذا الكتاب ، فأجاد بعضهم تحليل سبب اختيار خراسان ، ومن هؤلاء ابن طباطبا (٢٢) فأوضح بأن أهالي الحجاز قليلون ، وأما أهل الكوفة والبصرة ، فقد سبق أن فشل أهل البيت حين اعتمدوا عليهم أيام علي بن أبي طالب والحسن والحسين . وأما أهل الشام ومصر فهواهم مع بني أمية ، ولذلك فإن محمد بن علي قد ركن الى أهل خراسان .

(١٩) — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٠١ .

(٢٠) — الكفية ، صفة لفئة من الناس كانوا يكتفون من الرزق بكف من الحنطة ، وأنهم لا يأخذون مالا ، ويقدمون مالهم يبتغون به الخير مقابل الجنة . ويفهم من ذلك أنهم جماعة لا تهتمهم أمور الدنيا ، انظر المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٨٠ وجه — وانظر شاكر مصطفى : في الدعوة العباسية ، ص ٨٤ .

(٢١) — الهمداني : مختصر تاريخ البلدان ص ٣١٥ — المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، جزء ٣ ، ص ٢٩٣ — وقد اورد المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٦٥ ظهر رواية مشابهة في معناها لهذه الرواية .

(٢٢) — المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

ولابد لنا ونحن في خضم بحث الدعوة العباسية ، من متابعة تحليل سبب اختيار محمد بن علي لخراسان كمركز للدعوة ، بعد أن استعرضنا تحليل ابن طباطبا لها . وسنعمد في عملنا هذا على كتاب محمد بن علي السالف الذكر ، وعلى ما عرفناه عن أوضاع وتاريخ تلك المنطقة في فترة بدء الدعوة العباسية ومن خلال ذلك يتضح لنا ما يلي :

* استعرض محمد بن علي مناطق الخلافة الاسلامية ، لاختيار مركز لدعوته فوجد أن الكوفة وسوادها شيعة علي بن أبي طالب ، وأهالي مكة والمدينة رأوا أن الخلافة شوري بين المسلمين ، وأهالي الجزيرة من الخوارج يرون أن الخلافة حق لكل مسلم ، وأهالي الشام غارقون في حب بني أمية وطاعتهم ، وأهالي البصرة لا يهمهم الخوض في المنازعات السياسية دون طائل . أما خراسان فأصلح المناطق لنشر الدعوة ، لميزاتها المتعددة التي يمكن تلخيصها بما يلي :

أ - ان أهالي خراسان كثر في أعدادهم ، أقوىاء في أجسادهم ، صابرون على المكاره (فهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب ، وكواهل ، وهامات ، ولحي ، وشوارب ، وأصوات هائلة ولغات فخمة) .

ب - نفوسهم وصدورهم سليمة ، لم تتوزعهم النحل ، ولم يقدح فيهم الفساد .

ج - وفوق هذا وذاك فهم ينكرون على الامويين كثيرا من الامور ، وبشكل خاص التفرقة بين فئات المجتمع .

د - تفاؤله بالمشرق حيث مطلع النور الذي يضيء الدنيا .

هـ - كان العباسيون يرون بل يعتقدون ان صح التعبير ، ان الرايات السود المؤازرة لاهل البيت تخرج من خراسان (٢٣) .

(٢٣) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٤٤

* ويمكن أن نضيف الى هذه الميزات مايلي :

آ - بعد خراسان عن مركز الخلافة الاموية •

ب - انتشار التشيع بين الفرس ، وتأييدهم لأهل البيت في الخلافة ، وانتشار فكرة المهدي المنقذ بينهم • وميل هؤلاء الى اعادة الحق الالهي الى أصحابه ، لاعتقادهم بهذه النظرية •

ج - شعور أهالي خراسان بالحيث الاجتماعي الواقع عليهم • ورغبتهم بالمطالبة بتحسين أوضاعهم ، وتحقيق مبدأ المساواة الذي دخلوا في الاسلام مطمئنين الى تحقيقه ، وبالتالي فانهم مستعدون لتأييد أي حركة تهدف الى القضاء على الحكم الاموي •

استغل دعاة العباسيين العصبية القبلية استغلالا مكنهم من النجاة من الاخطار والمآزق حين ينكشف أمرهم • ففي سنة ١١٧ هـ / ٧٣٥ م قبض أسد ابن عبد الله على جماعة من دعاة بني العباس بخراسان ، فقتل بعضهم ومثل بآخرين ، وسجن فريقا منهم • وكان من هؤلاء سليمان بن كثير ، ومالك بن الهيثم وآخرون ، فخطبهم أسد بقوله (يافسقة ألم يقل الله • عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم منه ، والله عزيز ذو انتقام) •

فقال سليمان نحن والله كما قال الشاعر :

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

تدرى ما قصتنا؟؟ صدت والله العقارب بيدك ايها الامير • انا أناس من ملك ، وان هؤلاء المضرية انما رفعوا اليك هذا لانا كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم ، وانما طالبوا بئارهم . وقد نجح هؤلاء اليمنية والربعية بهذه الحيلة (٢٤) •

التجوي : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه
ظهر •

— وفوق هذا وذاك فقد كان اخفاء اسم الامام المدعو اليه من أكبر عوامل نجاح الدعوة • فلم يكن يعرف اسم الامام الا المقربون جدا • ولم يكن يسمح لسواهم بذلك • ويدل على ذلك ما ورد على لسان محمد بن علي الى كبير دعاة فقال : (وليكن اسمي مستورا من كل أحد الا عن رجل عدلك في نفسك وتوثقت منه ، وأخذت بيعته) (٢٥) •

— نظم محمد بن علي الدعوة تنظيماً جيداً ، فاختار اثني عشر نقيباً من سبعين داعياً ، وجعل على رأسهم نقيب النقباء بالإضافة الى نظراء النقباء ودعاة الدعاة (٢٦) • وأما النقباء فهم : سليمان بن كثير ، ومالك بن الهيثم ، وزباد بن صالح ، وطلحة بن رزيق ، وعمر بن أعين من خزاعة ، وقحطبة واسمه زياد بن شبيب ابن خالد بن معدان من طيء ، وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ ، والقاسم بن مجاشع ، وأسلم بن سلام من تميم ، وأبو داود خالد بن ابراهيم من بكر بن وائل من بني عمر بن شيبان أخي سدوس وأبو علي الهروي (٢٧) • وكان هؤلاء النقباء يأخذون البيعة من الناس على كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه (ص) ، والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله (ص) •

جعل اجتماعه بالنقباء في موسم الحج ، حيث يأتون اليه بالمال ، ويأخذون منه الاوامر ويتشاورون معه بشؤون الدعوة ، وما استجد من أمور • ومن أمثلة اجتماعهم به الاجتماع الذي تم سنة ١٢٥هـ / ٧٣٤م ، اذ قدم سليمان بن كثير، ومالك ابن الهيثم ، ولاهز بن قريظ ، وقحطبة بن شبيب ، وهم أعيان الدعاة في خراسان الى مكة ، حيث اجتمعوا بمحمد بن علي ، وقد تحدثوا في هذا اللقاء عن أبي مسلم

(٢٥) — فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ١٥٥ نقلا عن مخطوطة اخبار العباس وولده •

(٢٦) — المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٦٥ وجه — فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ٢٣ عن اخبار العباس •

(٢٧) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٥٦٢ وجزء ٧ ، ص ٣٧٩ — ٣٨٠ — المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٦٤ ظهر بخلاف بسيط

الخراساني (٢٨) . وما رأوا من جرأته وحسن كلامه . فطلب منهم أن يجندوه للدعوة ، كما أعلمهم محمد بن علي ، بأن خلفه بعد وفاته ابنه ابراهيم لثقت به . وقد أحضر هؤلاء الدعوة معهم الى محمد بن علي مائتي ألف درهم وكسب ثلاثين ألف درهم . وهذه المبالغ قد اختلف المؤرخون في قيمتها ، ولا ضير في ذلك . فما يهمنا من الامر هو معرفة أن انصار العباسيين كانوا يؤدون اليهم مبالغ مالية سنوية (٢٩) ، تزيد بازدياد هؤلاء الانصار ومقدرتهم .

جعل محمد بن علي للدعوة شعارات مختلفة تتناسب مع المنطقة التي يدعي فيها ، وكانت شعارات الدعوة العامة الدعوة للرضا من آل محمد دون تعيين اسم الامام . (٣٠) والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، والقضاء على أهل الجور ، والثأر لأهل البيت . وعلى الرغم من ذلك فقد اتخذت الدعوة العباسية واجهة متطرفة أخفيت عن العرب بالذات ، بينما طرحت هذه الواجهة على العناصر الحديثة الاسلام من الاعاجم ، ملونة ببعض المعتقدات السائدة بينهم كالمزدكية . وهذا يفسر ما قام به عمار بن يزيد (خدش) رئيس الدعوة في خراسان سنة ١١٨ هـ / ٧٣٦ م من نشر مبادئ لا تمت الى الاسلام بصلة ، من دعوة الى الاشتراكية بالمال

(٢٨) - لا يعرف الكثير عن أصل أبي مسلم . وقد أرجعه كل مؤرخ الى مكان وعصر . فاعتبره بعضهم من أصل عربي مردود الى بني عجل أو الى بني العباس أنفسهم ، ويهجوهم أبو دلامة فيصفه بأنه كردي الأصل ومهما يكن الامر فإنه عرف بأنه كان مولى مرافقا للعجليين المؤيدين للدعوة ، وأنه تعرف وهو معهم على بعض الدعاة العباسيين الذين توسموا فيه النجاسة فحملوه الى محمد الامام ليستفيد منه . فأعطاه اسم عبد الرحمن بن مسلم وكناه بأبي مسلم . والكنى حكر على الصرب قبيل الدعوة العباسية واستخدمه وسيطاً بينه وبين كبار العاملين في الدعوة وبذلك تعرف على مناطق الدعوة وأعضائها وأجوائها قبل أن يكلف بالجهار بها وإعلان الثورة . انظر السعودي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٥٤ - وانظر المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ وجه وظهر - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٢٩) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣٢٩ - العيون والحدائق ، ١٢٨ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٠٢ .

(٣٠) - ندينوري في كتابه الامامة والسياسة ، طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ ، جزء ٢ ، صفحة ١٢٣ - فيذكر أن هؤلاء اجتمعوا بمحمد بن علي بمكة المشرفة ومعهم عشرون ألف دينار ومائتي ألف درهم وسك ومتاع المقرئ ، ورقة ٦٦ وجه .

(٣١) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٦٥ وجه .

والنساء (٣١) . وحين افتضح أمره قبض عليه والي خراسان الاموي وصلبه . ويرى المقرئ ان خدش تصرف هذا التصرف بنفسه ، فغير بذلك سنن الامام ، وبدل ما كان من سيرة قبله (٣٢) . مما اضطر الامام الى أن يتبرأ منه برسالة عامة وجهها الى الدعاة أكد فيها على ضرورة الالتزام بكتاب الله وسنة نبيه . وبدأ بالتالي الابتعاد عن مبادئ الغلو التي ورثتها الدعوة العباسية عن الكيسانية ، واقتصرها الى ما جاء في الكتاب والسنة (٣٣) .

وتوفي محمد بن علي الامام بعد ذلك بفترة بسيطة ، وصار الامر لولده ابراهيم الذي سمي باسم ابراهيم الامام (٣٤) . ووجه الاخير بكير بن ماهان الى خراسان ، وبعث معه بالوصية . فقدم مرو حيث جمع النقباء والدعاة ، فنعى اليهم محمد بن علي بن عبد الله ، ودعاهم الى ابراهيم ، فقبلوا ودفعوا اليه ما اجتمع عندهم من النفقات (٣٥) . واخذ الدعاة ورئيسهم يترددون الى الامام الجديد ، ويعلمونه كل ما يتعلق بشؤون الدعوة (٣٦) .

عمل ابراهيم الامام على دفع الدعوة قدما ، وساعده على ذلك عدد من رجاله من أمثال أبي سلمة الخلال (٣٧) الذي تسلم رئاسة الدعوة في الكوفة بعد وفاة بكير ابن ماهان . ثم ما لبث أن ارتفع شأن أبي مسلم الخراساني منذ سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٦ م . حتى أن ابراهيم الامام أمره في السنة المذكورة على خراسان ، وما غلب عليه ، وجعله ممثلا له في المنطقة حين طلب منه ارسال من ينوب عنه لاعلان الثورة .

(٣١) - انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ١٠٩ .

(٣٢) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقه ٦٦ وجه .

(٣٣) - انظر مخطوطة أخبار العباس ، ص ١٠٠ ب و ١٠١ أ تصدير فاروق عمر .

(٣٤) - السيوطي : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، طبعة مصر ١٣٠٥ ، جزء ١ ، ص ١٠٠ .

(٣٥) - السيوطي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٠ - العيون والحدائق : ص ١٨٣ - ١٨٤ - ابن

العبري : تاريخ مختصر الدول ، طبعة بيروت ١٨٩٠ ، جزء ١ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٣٦) - العيون والحدائق : ص ١٨٣ - ١٨٤ - ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٩١ .

(٣٧) - هو مولى بني الحارث بن كعب تعود سلته بالعباسيين الى كونه صبها لباكير بن ماهان ، فلما

ادركت باكير الوفاة أخذ موافقة الامام على أن يقوم أبو سلمة بأمر الدعوة . انظر العيون

والحدائق ، ص ١٨١ .

وكتب الى أصحابه أن يسمعوا منه ويقبلوا قوله • ويبدو أن الامام أعطى أبا مسلم رئاسة الدعوة بعد ان عرضها على سليمان بن كثير الخزاعي فرفضها • كما عرضها على ابراهيم بن سلمة فأبى ، وحين رفض هؤلاء تسلم رئاسة الدعوة في اخرج أوقاتهما ، كانوا يطمحون في أن يتسلمها أحد أهل البيت • الا أن الامام لم يفعل ذلك خشية انكشاف أمر صاحب الدعوة ، فأعطاها لابي مسلم • وحين آلت الى الاخير رفض العرب ذلك واضطربوا • ولم تهدأ ثائرتهم حتى اجتمعوا مع الامام وأبدوا له امتعاضهم ، فأمرهم بالسمع والطاعة له (٣٨) ، وأوصى ابا مسلم وصية جاءت في بعض بنودها مشابهة للوصايا التي نسبت الى أبيه محمد بن علي • فقد أمره بالاعتماد على العرب اليمنية ، والتفاهم مع ربيعة ، وحذره من الاعتماد على مضر ، وقتل كل من يشك في أمره ، كما أمره بمشورة واعتماد رأي سليمان بن كثير • فقال له : (يا عبد الرحمن ، انك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتي ، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم ، وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم ، وانظر هذا الحي من مضر ، فانهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت في أمره ومن كان في أمره شبهة ، ومن وقع في نفسك منه شيء ، وان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيا غلام بلغ خمسة اشبار تتهمه فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ - يعني سليمان ابن كثير - ولا تعصه واذا أشكل عليك أمر فاكتف به عني) (٣٩) •

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الوصية غير موثوق بها ، وبها بعض فقرات متناقضة ، فكيف يجمع بين سياسة التقرب من العرب وقتلهم ؟؟ ويمكن القول بأن عبارة قتل العرب التي وردت فيها من صيغ المبالغه التي لا يقصد بها حرفية مضمونها • أما ما ورد في بداية هذه الوصية من قول الامام انك رجل منا اهل البيت، فهو تشبه بما كان من الرسول حين خاطب سلمان الفارسي بقوله : سلمان

(٣٨) - انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣٤٤ . وانظر القرطبي : المصدر السابق ، ورقه ٦٦ وجه •

(٢٩) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، صفحة ٢٤٤ - ابن العميد : تاريخ المسلمين ، صفحة ٩٢ - القرطبي : المصدر السابق ، ٦٧ وجه

منا أهل البيت • ومهما بلغ الشك في هذه الوصية ، فانها تصور تصرفات أبي مسلم عند ذهابه الى خراسان وتصرفاته بعد دخوله مرو ، ثم انتصاره على نصر بن سيار ، ومن الجائز أنها وضعت كرد على موقف التملل الذي اتخذه العرب من الحركة العباسية بعد تكليف أبي مسلم بالأمر ، لتقوية موقفه ازائهم (٤٠) • ويمكن أن تكون قد وضعت لتلخص موقف أبي مسلم من العرب بعد انتصاره على الامويين • ويتلخص هذا الموقف بمحاربة العرب اليمنية ، والتفاهم مع ربيعة وكتاتهما ساخطة على سياسة مروان بن محمد ، وعلى واليه نصر بن سيار (٤١) ، الذي اعتمد على المضرة وحدهم •

وحقيقة الوضع أن الامور لم تكن على ما يرام بين أبي مسلم وسليمان بن كثير ، وأن عرب مضر كانوا على العموم مع والي خراسان نصر بن سيار • ووقف هؤلاء موقفا عدائيا من عرب اليمن ومن الازد منهم خاصة ، ودخلت ربيعة في هذا الصراع الى جانب الازد • ومهما يكن الامر ، فان أبا مسلم لذكائه وحذقه ، تمكن من أن يستغل ظروف الامويين بشكل عام وخراسان بشكل خاص (٤٢) ، فقد استغل اضطراب جبل الامن في خراسان ، فأخذ يتوسع في نشر الدعوة • كما انه استغل العداء بين القبائل العربية لمصلحته ، وتمكن في فترة من الفترات من أن يهدم التحالف الذي حدث بين القبائل للتخلص منه • اذ انه أخذ يرسل كتبا كثيرة الى الطرفين ، ويتعمد اطلاع الاطراف المتنازعة عما يكتبه في خصومها • حتى صار هوى الفريقين معه • وأخذ يكتب الى نصر بن سيار والي الكرماني يعلمهم بأن الامام أوصاه بهم ، وأنه لن يعدو رأيه فيهم (٤٣) •

(٤٠) - انظر فيما سبق

(٤١) - تولى نصر بن سيار بن ابي رافع خراسان من قبل الخليفة بن عبد الملك بعد وفاة اميرها اسد بن عبد الله اخو خالد بن عبد الله ، وهو من بني جندع بن ليث بن كنانة ، وكان نصر يكنى أبا الليث • انظر ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤٠٩ - الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، حققه ووضع فهرسه مصطفى السسقا وابراهيم الابيساري والشلبى ، مطبعة البابى القاهرة ، ١٣٥٧ هـ ، ص ٦٦ •

(٤٢) - عن هذه الظروف انظر فيما سبق •

(٤٣) - ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٢٥ - وانظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣٦٧ - ٣٦٩ •

ويبدو أن ابراهيم الامام شعر بأن الدعوة وصلت الى مرحلة متقدمة ، وانه بالامكان اعلانها . كما أن الاحوال في كل من مركز الخلافة الاموية ، وفي مناطق الخلافة الشرقية يساعد على ذلك . وان الناس قد اصابوا بما يشبه الذهول لتتابع الثورات . فأرسل في سنة ١٢٩ هـ / ٧٤٧ م كتابا الى ابي مسلم مع رايتين ، أحدهما سمي اللواء والآخر الطل أو الظل في روايات أخرى (٤٤) . وأمره أن يظهر الدعوة ، وان يوجه اليه قحطبة بن شبيب بمن معه في الموسم ، كما اتخذ العاملون في الدعوة اللون الاسود كشعار لهم (٤٥) . بناء على توجيهات الامام . وبدأ أبو مسلم بتنفيذ ماكلف به فبث دعائه في الناس وأمرهم ان يظهروا الدعوة ، وان يدافعوا عن انفسهم بقوة السلاح اذا تعرضوا للخطر . فقال : ان عارضكم معارض فقد حل لكم الان ان تدافعوا عن انفسكم ، وأن تظهروا السيوف وتجردوها من اغمارها وتجاهدوا اعداء الله (٤٦) . وتذكر الروايات بداية الدعوة فتذكر ان ابا

(٤٤) - الظل يرمز الى ان الدعوة العباسية تبقى بقاء الظل في الارض والسحاب يرمز الى عالياة الدعوة التي ستطبق على الارض كالسحاب : الطبري : المصدر السابق ٥ جزء ٧ ، ص ٣٥٦ وانظر العيون والحدائق ص ١٨٦ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠٦ - ماجد : التاريخ السياسي ، ص ٢٢٢ اما الظل فقد اوردها المقرئ في المصدر السابق ، ص ٦٨ ظهر ، ويعتقد ان الارض لا تخلو من خليفة عباسي الى آخر الدهر .

وقد وردت كلمة الظل في سورة البقرة آية / ٢٦٥ / بالمعنى نفسه . قال تعالى « ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من انفسهم كمثل حبة بربوة اصابها وابل فانبت اكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فظل والله بما تعملون بصير » . اما كلمة السحاب فقد وردت بالمعنى نفسه في سورة الاعراف آية / ٥٧ / وفاطر آية / ٩ / قال الله تعالى « وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » وقال ايضا (والله الذي ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فاحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور) .

(٤٥) - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٥٩ ويوضح سبب اتخاذهم للسواد بقوله بان سواد راياتهم كان حزنا على شهدائهم من بني هاشم ونعيا على بني امية في قتلهم . وهناك اراء اخرى في سبب اتخاذهم للسواد منها ما اورده شاعر مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ وهو بان ذلك كان تشبها براية الرسول عند فتح مكة . وانظر عن ذلك فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ، دار القلم للطباعة بيروت ، ص ٢٤٣ - ٢٤٧ .

(٤٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، من ص ٣٥٣ - ٣٦٣ - العيون والحدائق ، ص ١٨٧ .

مسلم خندق في ٢٥ رمضان سنة ١٢٩ هـ / ٧٤٧ م في سفيذنج ، و أعلن الجهر بالدعوة بإشعاله النار لأصحابه للتجمع والمناداة يا محمد يا منصور ، ولبس السواد ، ورفع الراية ، وحين تجمع إليه أصحابه ممن أجاب الدعوة ، تلا عليهم (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير) • وتجمع شيعته حوله حتى زاد تعدادهم عن عشرة الاف بين راجل وفارس ^(٤٧) ، وكذلك فانه كتب الى نصر بن سيار يوضح له ان الامر صائر الى من يدعو وأنه لن يجد لسنة الله تبديلا ^(٤٨) •

ولما أدرك نصر بأنه وأعوانه أقل من أن يقف في وجه أصحاب الدعوة ، أرسل الى الخليفة الاموي مروان بن محمد يعلمه بما يجري حوله وينذره بالخطر • ويوضح له حال أبي مسلم وكثرة من معه ، وأن أمره قد ظهر ، وأنه يدعو الى ابراهيم بن محمد ^(٤٩) وصور له الوضع في رسالة شعرية ناطقة جاء فيها :

أرى خلل الرماد وميض جمر	ويوشك أن يكون له ضرام
فان النار بالعودين تزكي	وان الحرب أولها كلام
فان يك قومنا أمسوا رقودا	فقل هبوا فقد حان القيام ^(٥٠)
أقول من التعجب : ليت شعري	أيقاظ أمية أم نيام ^(٥١)

- (٤٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣٥٥ وما بعدها - العيون والحدائق ، ص ١٨٧ •
- (٤٨) - أبو الفداء : تاريخه ، جزء ١ ، صفحة ٢٢ - ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ١٨٨ - العيون والحدائق ، ص ١٨٨ •
- (٤٩) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٧٩ - ابن قتيبة : عيون الاخبار ، ص ١٢٨ - أبو الفداء : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٢٢٠ - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣٦٩ - السعدي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٥٥
- (٥٠) - السعدي : مروج الذهب ، جزء ٣ ، ص ٢٥٥ - ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٢٥ - المقدسي : البدء والتاريخ ، جزء ٦ ، ص ٦٤-٦٤ - ابن العسكري : آثار الاولين ترتيب الدول ، وهو بهامش تاريخ السيوطي ، طبعة مصر ١٣٠٥ ، ص ١٠٠ - أما ابن العميد : فيذكر ص ٩٢ ان نصر بن سيار كتب هذه الابيات الى الوليد بن يزيد وقبل قدوم ابي مسلم الى مرو •

- (٥١) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣٦٩ - ٣٨٠ •

كانت الامور في غاية التعقيد في مركز الخلافة نفسها ، وكان موقف الخليفة حرجا . ولذلك فانه أرسل الى نصر بن سيار يطلب منه أن يستعين بقوات يزيد بن عمر بن هبيرة في العراق .

حاول نصر أن يجمع شمل العرب المنقسمين تحت قيادته لمقاومة هذه الحركة ، ووصف الدعوة الجديدة بأنها لقوم لا دين لهم ، وأن غاية الحركة قتل العرب ، الا أن خطة نصر هذه لم تنجح ، وفشل في جمع العرب تحت لوائه . وازداد مركز نصر ضعفا في حين كانت قوات ابي مسلم تتزايد ، وخاصة بعد أن انضم اليه علي الكرمانى . وتوجه ابو مسلم بمن تجمّع له الى نصر بن سيار ، فأخرجه من دار الامارة في مرو ، ودخلها في ٩ جمادى الثانية ١٣٠ هـ / ١٤ شباط فبراير ٧٤٨ م ، وفر نصر بن سيار منها (٥٢) .

علم مروان بن محمد ، بطريق أو بآخر ، بأن ابراهيم الامام هو صاحب الدعوة ، فأرسل الى عامله على البلقاء يطلب منه سرعة القبض عليه ، فأرسله الى حيث أودعه السجن (٥٣) . ولما علم ابراهيم بما سيؤول اليه مصيره نعى نفسه لاهل بيته ، وأوصى الى أخيه ابي العباس بالامامة ، وأمر أهله بالرحيل من الحميمة

(٥٢) - الطبري : المصدر السابق هـ جزء ٧ ، ص ٣٧٨ . على حين يورد القرظي : المصدر السابق ، ص ٦٩ ظهر ، انه تدخلها في ربيع الاول سنة الثلاثين ومائة .

(٥٣) - القرظي : المصدر السابق ، ورقة ٦٧ - وجه - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣٧٠ - ٣٧٧ وهناك رواية اخرى للطبري الذكر بان كتابا لابراهيم بن محمد موجهة الى ابي مسلم الخرساني وقع في يد مروان بن محمد ه الكتب مروان الى عامله بمشوق يامره بالكتابة الى صاحبه بالبقاء أن يسير الى الحميمة ، ويأخذ ابراهيم بن محمد ويوجه به اليه بينما سار بقية اهله وشيعته الى الكوفة ، انظر الطبري جزء ٧، ص ٢٢٢ اما المسعودي: المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٢٥٨ فيذكر وقوع الكتاب الصادر من ابي مسلم الى ابراهيم بيده .

الى الكوفة^(٥٤) . وأن يكونوا في طاعة أبي العباس^(٥٥) . وانتهت بعد ذلك حياة ابراهيم وهو في سجن بني أمية بحران سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م . واختلف في سبب موته^(٥٦) .

كان قتل مروان بن محمد لابراهيم الامام سببا في اسراع العباسيين بالقضاء على الخلافة الاموية ، وعلان العباسية . فقد أوصى ابراهيم الامام عندما قبض عليه في جملة ما أوصى ، بالاسراع باعلان تأسيس الدولة ، وبالجد والحركة . وبدأت حروب الدعوة التي يمكن تقسيمها الى أربع مراحل . المرحلة الاولى هي مرحلة فتح خراسان ، والثانية فتح العراق والثالثة معركة الزاب ، والرابعة فتح الشام وسقوط الخلافة الاموية .

(٥٤) - ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٣٩ - السعدي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٦٧ - أبو الفداء : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٢٢١ .
- المقدسي : البدء والتاريخ ، جزء ٦ ص ٦٥ - ٦٦ اما ابن الساعي البغدادي : في كتابه مختصر اخبار الخلفاء ، المطبعة الاميرية ببغداد سنة ١٣٠٩ ، ص ٤ فيذكر انه اخبرهم بالسير الى خراسان .

Gibbon : The History of the Decline and Fall of the Roman empire, vol II. P 17.

(٥٥) - المقرئ : المصدر السابق ، ص ٦٨ - وجه كرد علي : خطط الشام ، دمشق ١٩٢٥ جزء ١ ، ص ١٧١ - ١٧٢ .
Gibbon op . cit. , P 17.

(٥٦) - السعدي : مروج الذهب ، جزء ٣ ، ص ٢٦٧ - المقرئ : المصدر السابق ، ص ٦٧ - ظهر ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ١٨٨ - احمد فريد الرفاعي : عصر المأمون ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٦ ، مجلد ١ ، ص ٨٦ بينما يذكر ابن القبري : في كتابه مختصر الدول ، ص ٢٠٦ ان موته سنة ١٣١ هـ .

حروب الدعوة

مراحل حروب الدعوة :

آ - فتح خراسان :

بدأت الجولات العسكرية بين دعاة العباسيين وولاة الأمويين منذ ان بدأت الدعوة العانية ، فقد وضع جيش كبير تحت تصرف قحطبة بن شبيب الطائي • وكلف بضم بلاد خراسان كافة •

تمكن انصار العباسيين من دخول مدينة مرو مركز الامارة ، ففر نضر بن سيار منها والتجأ الى بيسابور ، فتابعته القوات العباسية اليها ، واستولت في طريقها على مدينة طوس وسودقان • وعلم نصر بما حل بقواته ، ومدى استعداد القوة الجديدة فارتحل فارا الى جرجان حيث وصلته امدادات العراق (٥٧) ، بقيادة نباتة بن حنظلة • وتوجه قحطبه الى جرجان حيث التقى بقوات الأمويين في معركة شديدة اضطرته الى دح الحماس في نفوس جنوده بتذكيرهم باعمال الأمويين التخريبية ضد الاسلام • فقال : (يا قوم استنصروا فانكم تقاتلون قوما حرقوا بيت الله) (٥٨) • كما حرض رجاله من خراسان بقوله : (يا أهل خراسان ان هذه البلاد كانت لابائكم الاولين ، وكانوا ينصرون على اعدائهم بعدلهم وحسن سيرتهم • فلما بدلوا وظلموا سخط الله عليهم فاتتزع سلطانهم • ثم غيروا وجاروا في الحكم واخافوا أهل الدين من عثرة الرسول فسلطكم عليهم) (٥٩) • وبذلك العبارات الحماسية ابتداء القتال فاتتصر جيش العباسيين وقتل نباتة بن حنظلة ، وفر نصر ، وما لبث

(٥٧) - انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣٨١ وما بعدها •

(٥٨) - حتى : لبنان في التاريخ ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ٣٢٤ •

(٥٩) - العيون والحدائق : ص ١٩٢ - ١٩٣ - المقدسي : البدء والتاريخ ، جزء ٦ ، ص ٦٣ - ٦٤ •

أن توفي (٦٠) . واخذت مدن خراسان تترى بالتساقط في ايدي العباسيين فسقطت قومن وهمذان واصبهان ونهاوند وشهرزور* وبمعركة جابلق قرب اصفهان التي جرت في رجب سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م سيطر العباسيون على كل الجناح الشرقي للخلافة الاسلامية ، وانساح الجيش العباسي الى العراق . واخذ قائد العباسيين العسكري قحطبة بن شبيب يتقدم بسرعة في اراضيها (٦١) .

ب - مرحلة فتح العراق :

كان والي الامويين على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة يستعد لقتال جيوش العباسيين ، وقد وصلتته امدادات الخلافة الاموية وتقدر بخمسة عشر الفا ، بينما تجمع الجيش العباسي بقيادة قحطبة بن شبيب ، وانضم اليه ابنه الحسن ، والتقى الجيشان قرب الفلوجة على الفرات ، فانهزم الجيش الاموي باتجاه واسط حيث عسكر فيها (٦٢) . ونحصر الى مابعد مقتل مروان بن محمد ، وبذلك سنحست الفرصة للعباسيين بدخول الكوفة في ١١ محرم سنة ١٣٢ هـ / ٣١ اغسطس اب ٧٤٩ م واحصيت الغنائم وكل ما وجد في معسكر ابن هبيرة حيث حفظت بالكوفة باشراف ابي سلمه الخلال ، بينما لحق قحطبة بابن هبيرة ، وعبر بجيوشه الفرات سحرا في ايام المد ففرق (٦٣) . فتولى ابنه الحسن قيادة الجيش الذي زحف الى واسط لحصار ابن هبيرة حيث استمر الحصار ستة اشهر . ولم تفتح ابوابها الا في شوال سنة ١٣٢ هـ / مايو مايس ٧٥٠ م . وكانت الخلافة العباسية قد اعلنت اثناء ذلك (٦٤) .

(٦٠) - انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٦١) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٠٤ وما بعدها .

(٦٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤١٢ - ٤١٣ ، ابن هبة : المصدر السابق ، ص

٣٧١ - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقة ٧١ ظهر .

(٦٣) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤١٤ .

(٦٤) - ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٩٣ . ابن هبة : المصدر السابق ، ص ٣٧٢

ولكنه يجعل مدة الحصار اسعة اشهر وبذلك يكون سقوط واسط بعد مقتل مروان بن محمد

- اما المقرئزي : المصدر السابق ، ورقة ٧٣ ظهر ، و ٨٤ ظهر ، فيجعل مدة الحصار احد

عشر شهرا .

وفي صفر ١٣٣ هـ / سبتمبر ايلول ٧٤٠ م ، قدم ابو العباس ومن معه من أهل بيته الى الكوفة فانزلهم ابو سلمه بقصر ابن مقاتل على مرحلتين منها . وكتب امرهم عن جميع القواد والشيعة نحووا من اربعين ليلة ، ولا نستطيع تحديد السبب الذي دعا ابا سلمه لهذا الفعل بدقة ، وقد ذكر ابو سلمه بانهم خاطروا بانفسهم بهذا المجيء المبكر ، وانه انما ابقاهم خارج الكوفة خشية على حياتهم ، ويرى اخرون بانه كتب امرهم لانه كان يود مبايعة ابناء علي بن ابي طالب (٦٥) . ومهما يكن من أمر فان ابا العباس بويع خليفة في ربيع الاول سنة ١٣٣ هـ / اكتوبر تشرين الاول ٧٤٩ م . ولا يعني ذلك سقوط الخلافة الاموية ، اذ ان مروان بن محمد كان لا يزال خليفة ويعمل على تجميع قواه في شمال العراق .

ج - المرحلة الثالثة معركة الزاب

تألم الخليفة الاموي مروان بن محمد من مسيرة الاحداث ، واعلان الخلافة العباسية ، فقرر أن يخوض بنفسه قتالا ضد العباسيين ، وان يصمد حتى النهاية ، فجهز جيشا كبيرا تحت قيادته سار به من حران متجها الى الشرق ، حيث نزل على نهر الزاب الاعلى ، والتقى بجيوش العباسيين المناوئة (٦٦) .

قام مروان بن محمد بتنظيم جيوشه . والقيام بالاستعدادات للقتال والمجابهة (٦٧) . وحضر خندقا ليحتمي به وجنوده (٦٨) . ثم ان الخليفة ابا العباس رأى ان يقوي مركز جيشه بان يجعل قيادته لأحد أفراد الاسرة العباسية باعتبار ان الجيوش الاموية يقودها مروان بن محمد بنفسه . فتطوع عبد الله بن علي عم الخليفة للقيام بهذا الامر ، وتحمل هذه المسؤولية الجسيمة . فنظم جيوشه ، واخذ

(٦٥) - اليعقوبي : تاريخه ، طبعة النجف ، جزء ٣ ، ص ٨٢ - ٨٣ - الجهشيارى : المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٨٦

(٦٦) - المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٣ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ - العيون والحدائق ، ص ١٩٨ . - فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، مطبعة دار الثقافة بيروت ١٩٥٩ م جزء ٢ ص ١٥٤

(٦٧) - المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزء ٣ ، ص ٢٦٠ .

(٦٨) - ابن الوردي : تاريخه ، المطبعة الوهبية ١٢٨٥ هـ ، ص ١٩٠ .

مواقع في مواجهة خصمه . وتذكر المصادر العربية أن جيش العباسيين كان يتألف من عشرين ألف مقاتل ، على حين أن تعداد الجيش الأموي كان يبلغ مائة وعشرين ألفاً (٦٩) . وقد يكون تعداد الجيش الأموي مبالغاً فيه ، لا يزال قيمة نصر العباسيين على الأمويين ، لأن كل المصادر التي تأخذ عنها مكتوبة في العصر العباسي أو بعده ، أو نقلت عن مصادر عباسية .

اشتد القتال بين الطرفين وانتهى بهزيمة ساحقة للأمويين بعد قتال دام تسعة أيام . كتب الله النصر للعباسيين في يوم السبت ١١ جمادى الثانية سنة ١٣٢ هـ / ٢٦ يناير كانون الثاني ٧٥٠ م (٧٠) . وكتب عبد الله بن علي إلى الخليفة أبي العباس يشره بالفتح والنصر .

كانت هزيمة الأمويين في الزاب قاسية حتى أن مروان بن محمد فكر - بعد أن رأى أدبار أمره - في أن يحمل أمواله ويرتحل إلى البيزنطيين مع مواليه وعياله . ليجمع شمله هناك ، ثم يعود لقتال العباسيين . وكاد ينفذ ذلك لولا نصيحة أحد أصحابه الذي وضح له سوء هذه الفكرة . فالتجأؤه إلى البيزنطيين يعني تحكيم أهل الشرك في بناته وحرمة . وفي هذا ما فيه من مخاطر عليهم في المستقبل عند البيزنطيين الذين لا وفاء لهم ، ونصحهم بأن يقطع الفرات ويسير حتى يصل إلى مصر . فيجمع الجيوش ويقا تل بها أعداءه (٧١) .

كانت لهزيمة الأمويين في هذه المعركة الحاسمة أسباب عميقة إلى جانب أخطاء حربية ، ومن الأخطاء التي تسببت بالهزيمة ، أن مروان بن محمد كان يلمس عدم الحماس للقتال من قبل جنوده ، فاراد أن يدفعهم إليه ويحمسهم ، فظن أن الذهب يكفي لتحقيق ذلك ، فوضع أكياساً منه أمامهم وأعلمهم أن كل هذا لهم

(٦٩) - الأزدى : تاريخ الوصل ، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٦٧ ، ص ١٢٣
(٧٠) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ٤٣٤ - ابن دحية الكلبي : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، مطبعة المعارف بغداد سنة ١٣٦٥ هـ ، ص ٢١

(٧١) - ابن قتيبة الدينوري : الإمامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٤٠ - المسعودي : المصدر السابق جزء ٣ ص ٢٦٤

مقابل استماتتهم في قتال عدوهم وتحقيق النصر ، ولكن جنوده ومحاربيه تركوا القتال ومالوا الى الاموال .

واتخذ مروان خطوة اخرى مرتبطة بسابقتها ، وكان يظن بانها ستساعده على دفع الجنود الى القتال . فأمر ابنه ان يتخذ مكانه خلف الجيش ، ومن وجد معه شيئاً من الذهب قنله . ولما توجه للتنفيذ وكان يحمل الراية ظن الجنود ان جيشهم في حالة تراجع فتنادوا بالهزيمة ، وعبر الجنود دجلة بشكل فوضوي فكان من غرق اكثر ممن قتل (٧٢) .

الى جانب ذلك فان بعض قادة مروان لم يكونوا ليثقوا به وبتصرفاته ولم يعودوا يحترمونه الاحترام الكافي الذي يدعو الى الطاعة وتنفيذ الاوامر ، وهي أمور ضرورية لحسن سير النظام ، وخاصة في المعارك العسكرية . فقد اصدر مروان أوامره الى رئيس شرطته بالنزول والاشتراك في القتال مع جنوده ، الا ان الاخير كان يخشى ان يعرض نفسه للتهلكة . ولما هدد مروان كان جوابه بأنه يتمنى ان يستطيع مروان تنفيذ تهديداته (٧٣) .

هذه هي اسباب هزيمة مروان في معركة الزاب ، وخلف هذه الاسباب تكمن أسباب اقوى ، لم يكن مروان صانعها بنفسه ، بل كانت جذورها تضرب الى عهد اسلافه من الخلفاء الامويين (٧٤) .

د - فتح بلاد الشام

كانت معركة الزاب حاسمة تشتت بها جيش الامويين وفر مروان باتجاه بلاد الشام

(٧٢) - ابن خلدون : العبر واديوان البتداء والخبر ، جزء ٣ ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٧٢) - من أجل تفاصيل معركة الزاب انظر الاندي : تاريخ الموصل ، من ص ١٢٥ - ١٣٠ .

- الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٣٢ - ٤٣٥ - ابن خلدون : المصدر السابق ،

جزء ٣ ، ص ١٣٠ .

(٧٤) - انظر فيما سبق اسباب سقوط الخلافة الاموية .

رغبة في تجهيز جيش جديد يستطيع بواسطته الوقوف امام اعدائه في جولة اخرى اذا سنحت له الظروف . بينما كانت معركة الزاب بالنسبة للعباسيين دعامة قوية في تثبيت خلافتهم وفتحنا مبينا ، فامر ابو العباس ان يعطى كل من شهد المعركة خمسمائة درهم . واصدر اوامره بمتابعة مروان بن محمد وفتح بلاد الشام .

سار مروان بن محمد الى الموصل حيث كانت بيوت امواله وخزائنه . ولكنه لم يستطع دخولها لان اهلها بقيادة واليهم لم يفتحوا له بابها ، بل انهم قطعوا الجسر ومنعوه من العبور ، فقد استبشروا بنجاح العباسيين ورجوا الخير في خلافتهم (٧٥) ، بعد ان سئموا كثرة الاضطرابات في البلاد وضعف الامويين عن السيطرة عليها . بالاضافة الى انقسام الامويين على انفسهم واقتتالهم من اجل الوصول الى العرش .

اضطر مروان الى عبور دجلة باتجاه حران . فاقام بها مايزيد عن عشرين يوما الا انه اضطر الى تركها تحت وطأة الجيوش العباسية الزاحفة وانهزم باهله وخيله الى حمص (٧٦) . وعلى الرغم من أنه كان يأمل في مساعدة أهل الشام ودعمهم له ، والتغاضي عن الاخطاء التي ارتكبها في حقهم الا انه وجد نفسه غريبا بينهم ، بعيدا عن قلوبهم . فلم يمر بمنطقة من مناطقها الا وتعرضت مؤخرته للنهب والقتل . فقد ناهضه العرب بفرعيتهم اليمني والقيسي . فاما العرب اليمنية لانه كان قد أساء اليهم ، وأبعدهم ، وقتل أشهر رجالهم (٧٧) . فانضم هؤلاء الى الدعوة العباسية وانتقموا منه حين سنحت لهم الفرصة بتراجعه امام العباسيين . واخذوا يعتدون على مؤخرته كلما مر من مناطقهم ، فقد أوقعت طيء وتنوخ في قنسرين بساقته ،

(٧٥) - الازدى : المصدر السابق ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٧٦) - المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٣ ، ص ٢٦١ - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٣٨ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، الطبعة المنيرية ، جزء ٤ ، ص ٣٣٠ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٣١ .

(٧٧) - ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٤٠ .

واقطعوا مؤخرة عسكره ونهبوه انتقاما لقتله جماعة منهم^(٧٨) . وكذلك وثب عليه يمينو حصص ، وفي الاردن وثب به المذحجيون جميعا . وفي فلسطين وثب عليه الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع^(٧٩) . واما العرب القيسية فان تأخرهم عن مساعدته كان بسبب كثرة الحروب التي خاضوها معه طوال فترة حكمه والتسي ذهب ضحيتها عدد كبير منهم . ومما يدعم ذلك ويؤكد ان مروان بن محمد اراد حين خرج من فلسطين وبرفقته ثعلبه بن سلامة العامري ان يستعين بقوم الاخير . فسأله عنهم فأجابه بما لا يدع مجالا للشك أن اكثر هؤلاء قتلوا في فرض طاعة مروان على مناهضيه^(٨٠) .

ومما هو جدير بالذكر ان المصادر العربية ذكرت انه لم يتبع مروان بن محمد من العرب اليمينية احد لانه كان قد اساء اليهم ، ولم يتبعه من العرب القيسية حين خرج من الجزيرة الابن حيدر السليمي ، وهو اخوه في الرضاعة ، والكوثر بن الاسود القنوي صاحب شرطته^(٨١) . ثم تذكر المصادر ان جيش مروان بن محمد كان يتألف في مجموعه من مائة وعشرين الفا من عشائر معروفة وفرسان العرب قاطبة^(٨٢) . وبضوء هذين القولين فانه يمكننا ان نقول انه لم يكن مع مروان من رؤساء العرب القيسية المعروفين الا اثنان ، وان جيشه كان يضم عشائر عربية متنوعة غير مشهورة . وقد ندم مروان بن محمد لما فعله من الاعتماد على القيسية لعدم وفائهم في وقت الشدة حين لا ينفع الندم^(٨٣) . كما انهم وثبوا عليه

(٧٨) - الازدي : المصدر السابق ، ص ١٢٦ - بيتشوف الجرمانى : تحف الانباء في تاريخ حلب الشهباء ، بيروت ١٨٨٠ ، ص ١٥ .

(٧٩) - السعودي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٦٥ .

(٨٠) - الازدي : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٨١) - الازدي : المصدر السابق ، ص ١٣٦ - السعودي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٦٤ ولكنه لم يورد الاسم كما ورد في المتن بل اورده ابن حمزه السلمي .

(٨٢) - الازدي : المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

(٨٣) - ينص ندم مروان لاعتماده على القيسية من قوله : (انفرجت عني قيس انفراج الرأس ، ما تشقى منهم احد وذلك انا وضعنا الامر في غير موضعه واخرجناه من قوم ايدنا الله بهم ، والله ما راينا لهم وفاء ولا شكرا) . انظر ابن قتيبة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩ .

في دمشق^(٨٤) ، فاضطر الى تركها بعد ان جعل الوليد بن معاوية على امارتها واوصاه
بقتال جيوش العباسيين كي تسنح له الفرصة لتجميع قوات من أهل الشام • ومضى
متجها نحو فلسطين حت نزل نهر ابي فطرس^(٨٥) •

وبدأ العباسيون يفتحون مدن الشام واحدة تلو الاخرى دون مقاومة تذكر •
ولم تنفرد بمدافعهم الا مدينة دمشق • وقد فتحت لهم الموصل ابوابها بمجرد
وصول طلائعهم اليها • واستقبلهم اهاليها بالرايات السوداء ، ودخلها عبد الله بن
علي فاستولى على خزائن مروان ، وفيها بيت من دنائير ، وبيت من دراهم وغير ذلك
من الاموال والامتعة والخزائن^(٨٦) •

وبعد ان نظم عبد الله بن علي اموره في الموصل توجه نحو حران • فاضطر
مروان بن محمد الى الفرار منها • ودخلها عبد الله بن علي بعد ان رفع اهاليها
الرايات السوداء ، وبايعوه فأمنهم ، كما انه اصدر الامان لكل من بحران والجزيرة
وهدم الدار التي حبس فيها أخوه ابراهيم الامام ، كما هدم قصر مروان بن محمد
بها^(٨٧) • واستولى على اغلب أموال الدولة الاموية تقريبا • ثم سار الى منبج
فبايعه اهله ورفعوا الاعلام السوداء • وارسل اهالي قنسرين اليه في منبج يعلنون
البيعة والطاعة^(٨٨) • وقد وصل اليه مدد من الخليفة ابي العباس بقيادة عمه عبد
الصمد بن علي في أربعة الاف رجل • وسار برفقته الى حلب ، وهناك بايعه ابو

(٨٤) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٨٣ •

(٨٥) - ابن قتيبة الدينوري : المعارف ، ص ١٦٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٣٠ -

ابو الفداء : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٢٢٣ •

(٨٦) - الازدي : المصدر السابق ، ص ١٣٣ •

(٨٧) - المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٣ ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ،

ص ٤٣٨ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٠ - ابن خلدون : المصدر

السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٣١ •

(٨٨) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٠ •

الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي ، وهو من اصحاب مروان ،
ثم سار عبد الله الى حمص واقام بها حتى بايعه اهلها (٨٩) .

بعد ان اتم عبد الله بن علي فتح شمال بلاد الشام دون عقبة تذكر . توجه
نحو اواسطها . فسار نحو بعلبك ، ثم نزل مزة دمشق حيث جاءه مدد اخر
من الخليفة ابي العباس بقيادة صالح بن علي ، فنزل مرج عذراء في ثمانية الاف (٩٠) .

عمل عبد الله بن علي جادا لاجل فتح عاصمة الامويين . فوزع اصحابه على
ابوابها . وفي أثناء الحصار حدث خلاف داخل مدينة دمشق بين العرب القيسية
واليمنية ، واقتتل الفريقان (٩١) فاستغل عبد الله بن علي الفرصة ، وقرب اليه عرب
اليمن . فضعف المحاصرون وقرروا طلب الامان ، وأرسلوا مندوبهم يحيى بن بحر .
وفي أثناء المفاوضات وقبل كتابة شروط الامان دخلت الجيوش العباسية فرفض عبد
الله منح الامان ، الا انه قدر موقف يحيى بن بحر ومودته لاهل البيت ، فاعلن ان
من دخل دار يحيى فهو آمن (٩٢) .

كان دخول العباسيين مدينة دمشق يوم الاربعاء ٥ رمضان سنة ١٣٢ هـ / ١٨
ابريل نيسان ٧٥٠ م (٩٣) . وما ان دخلها عبد الله حتى اباحها لجنوده ثلاث ساعات .
وقيل انه بها ثلاثة ايام (٩٤) . وتبع ذلك اعلان اهالي الاردن الطاعة للعباسيين .
فتفرغ عبد الله لمواجهة مروان بن محمد على نهر ابي فطرس . الا انه لم يصطدم

(٨٩) - العيون والحدائق ، ص ٢٠٣ - بيتشوف : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٥

(٩٠) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٠ .

(٩١) - كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٧٤ .

(٩٢) - اليعقوبي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٩٢ - ٩٣ - كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٧٤ تشبها
بالرسول الكريم حين فتح مكة ، حيث اعلن ان من دخل دار ابي سفيان فهو آمن .

(٩٣) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ - ابن الوردي (تاريخه) ، جزء ١ ، ص ١٩١ .

(٩٤) - كرد علي : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٣ .

معه في معركة حقيقية • اذ فر مروان باتجاه مصر ، فبقي عبد الله في فلسطين ووجه اخاه صالحا في طلبه (٩٥) •

على هذا الشكل كان مروان يفر من وجه الجيوش العباسية الزاحفة في اثره • وينتقل من بلد الى آخر ، وكان كلما وصل الى مكان لقيه اهله شر لقاء • وهكذا تتبعه العباسيون وهو يفر امامهم من بلد الى آخر حتى وصل الى مصر (٩٦) • فتبعه الحجاج اليها حتى الجاه الى قرية بوصير من كورة اشمون من الصعيد • فقتل فيها في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ / ٧ اب ٧٥٠ م (٩٧) •

ارسل صالح بن علي الى ابي العباس مبشرا اياه بالنصر • كما ارسل له شارات الخلافة وهي قضيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومخضفته • وكان مروان قد دفنها في الرمل لئلا تصل الى ايدي العباسيين فدلهم على موضعها احد غلمان مروان بعد أن أمنوه على حياته (٩٨) •

وقبل ان نختم حديثنا عن نجاح الدعوة العباسية لابد لنا ان نناقش دور العناصر التي قامت في الدعوة وتفسيرات المؤرخين لكنه هذه الدعوة •

لقد رأى كثير من المؤرخين المسلمين ، بأن الحركة العباسية لم تكن سوى حركة قامت لتطيح بأسرة حاكمة وتقيم أسرة حاكمة اخرى من اهل بيت الرسول اصحاب الحق في الخلافة • بينما رأى بعضهم من امثال المسعودي والجاحظ وغيرهم ، بأن الحركة العباسية حركة قومية ، قام بها الفرس ضد السيادة العربية في الدولة الاسلامية • فقد قال الجاحظ في المقارنة بين الدولة الاموية والعباسية دولة

(٩٥) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣١ - العيون والحدائق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ •
- بيتشوف : المرجع السابق ، ص ١٥ •

(٩٦) - الكندي : الولاة والقضاة ، مطبعة الالباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ ، ص ٩٥ •

(٩٧) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٨٣ - العيون والحدائق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ •

(٩٨) - المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٣ ، ص ١٦٣ - ١٦٤ - الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٩٧ •

- المقدسي : البدء والتاريخ ، جزء ٦ ، ص ٧٣ - حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، جزء ٢ ، ص ١٥٤ •

بني مروان عربية أعراية ، ودولة بني العباس اعجمية فارسية • وقد تبنى هذا التفسير القومي عدد كبير من المستشرقين في القرن التاسع عشر • من أمثال فان فلوتن وفلهاوزن ، وغيرهم من المؤرخين العرب المعاصرين الذين نسجوا على منوالهم •

الا اننا لن نتوقف لترجيح رأي على آخر دون دلائل تاريخية ثابتة ، ولكننا سنورد نصوصا تتوصل عن طريقها الى اثبات دور العرب في الدعوة العباسية • ولن ننكر دور الفرس في مساعدتهم للحصول على حقوقهم في الاسلام ، لا لاسقاط دولة العرب ، واقامة دولة أعجمية مكانها •

نادت الحركة العباسية بالدعوة للرضا من آل محمد ، ولم تناد بتخليك الفرس ، كما لعب العرب فيها دورا بارزا • وقد اكد ابراهيم الامام على دور العرب اليمنية في الدعوة العباسية ، حين اوصى ابا مسلم الخراساني بالاعتماد عليهم قائلا له (انظر هذا الحي من اليمن فاكرمهم ، واسكن بين اظهرهم فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم) (٩٩) •

وبدا اعتماد العباسيين واضحا على العرب اليمنية خاصة حيث فتح عبد الله ابن علي مدينة دمشق ، فقد خاطبهم بقوله (انتم منا ولكم قوام امرنا فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر) •

وكان لهذه السياسة ثمارها • فقد ترك العرب اليمنية الذين كانوا في دمشق قتاله ، مما اضطر فرع العرب الاخر الى الرحيل عنها ، وفتحت دمشق ابوابها للعباسيين • وقد اعترف الخليفة المنصور بالدور الكبير الذي لعبه العرب اليمنية في نجاح الدعوة العباسية ، فقد صرح بان الدعوة قامت على اكتافهم • وان النقباء

(٩٩) - انظر فيما سبق ، وانظر القريري : النزاع وانتخاض فيما بين بني امية وبني هاشم المطبوعة الابراهيمية ١٩٣٧ ، ص ٦٦ - ٦٧ - محمد جواد مغنية : الشيعة ولحاكمون ، منشورات المكتبة الاهلية بيروت ، ص ١٣١ •

كلهم منهم • واضاف قائلاً بان على العباسيين (ان يعترفوا لهؤلاء بحق نصرهم وقيامهم بالدعوة ، ونهوضهم بالدولة) (١٠٠) •

كما ان الخليفة المنصور خاطب العرب اليمنية اثناء حصار واسط قائلاً لهم :
(السلطان سلطانكم والدولة دولتكم) • كما يتضح دور العرب والجيش العباسي اثناء قتال الامويين حين نطلع على ماكتبه صاحب كتاب الامامة والسياسة عن هذا الموضوع • حين يفرق بين اهل خراسان من العرب وبين الفرس منهم • فيذكر ان تعداد الجيش كان اثني عشر الفا من اهل خراسان سوى الاعاجم (١٠١) •

وقد ترك لنا الجاحظ نصا اوضح فيه دور العرب البارز في الدعوة العباسية بشكل لا يدع مجالا للشك فقال (وهل أكثر النقباء الا من صميم العرب ومن صلية هذا النسب ، كأبي عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائي ، وأبي معد سليمان ابن كثير الخزاعي ، وأبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، وأبي داود خالد بن ابراهيم الذهلي وكأبي عمرو لاهز بن قريظ المزني ، ومن كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهم مالك بن الطواف المزني • وبعد فمن هذا الذي باشر قتل مروان ، ومن هزم ابن هبيرة ومن قتل ابن ضباره ومن قبل نباته بن حنظله ، الا عرب الدعوة والصميم من أهل الدولة) (١٠٢) •

واخيرا يمكن القول بأن الثورة العباسية كانت ثورة مركبة في بنيتها البشرية والفكرية والسياسية قامت بها عناصر ناقمة على الحكم الأموي من عرب وموالي بقيادة آل محمد الذين تبناوا السير بالمجتمع في الطريق القويم • وتأسيس دولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى •

(١٠٠) - فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ٢٥٠ •

(١٠١) - فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ١٩٥ وص ١٢٤ •

(١٠٢) - الجاحظ : فضائل الاتراك وما اختصوا به من الشجاعة وعلو الهمة وحسن البلاء في خدمة الاسلام ، المطبعة العمومية بمصر ١٨٩٨ ، ص ١٥ - ١٦ •

٣ - اعلان الخلافة العباسية ومميزاتها :

على اثر وصول الاسرة العباسية برئاسة ابي العباس الى الكوفة ، وعلى الرغم من كتم ابي سلمة لامر وصولهم اليها عن جميع القواد والشيعية فان هذا الامر قد عرف . وقام القواد والشيعية بمعرفة المكان الذي كان فيه أبو العباس وبايعوه بالخلافة ، فبايع ابو سلمه له .

خرج ابو العباس في يوم الجمعة ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٢ هـ / اكتوبر تشرين الاول ٧٤٩ م وصعد المنبر وهو يرتدي دراعة سوداء وكساء اسود . وخطب الناس خطبة اظهر فيها مكانة آل الرسول وما خصهم به القرآن من آيات ، ثم ذكر جور بني أمية وظلمهم ، ووعد الناس خيرا وزادهم في اعطياتهم مائة درهم ، وخصص أهل الكوفة بالجزء الاخير من خطبته قائلا لهم : (يا اهل الكوفة انتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، انتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل اهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، واتاكم الله بدولتنا ، فاتم اسعد الناس بنا ، واکرمهم علينا . وقد زدتكُم في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا ، فانا السفاح المبيح والثائر المبير) (١٠٣) . وعلى هذا فان ابا العباس اشاد في خطبته باهل الكوفة ، وبأن حالهم ستكون حسنة في خلافة العباسيين . ثم طلب منهم ان يستعدوا للعمل معه ، وذكر زيادة اعطياتهم ثم قال لهم استعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المبير . وتذكر المصادر التاريخية (١٠٤) ان ابا العباس سمي بالسفاح منذئذ ، واختلف في شرح هذه العبارة فرأى بعضهم ان هذا اللقب اطلق عليه لكرمه ، وطول باعه ، وتسرى اخرى بانه اتخذ له كثرة سفكه للدماء . وتجعل بعض المصادر هذا اللقب لعبد الله

(١٠٣) - انظر الطبري : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٢٦ - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ٧٢ وجه وظهر

(١٠٤) - الطبري : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦ - ابن الساعي البغدادي : مختصر اخبار الخلفاء ، ص ٦ - وانظر فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ، ص ٢٠١ فقد جمع اقوال المؤرخين حول هذا اللقب .

اما ابن اقيويه : في كتابه الامامة والسياسة ، جزء ٢ ص ١٣٢ وبعض المؤرخين الذين اخلوا عنه فيذكرون أن السفاح هو عبد الله بن علي لكثرة ما قتل من الامويين .

ابن علي : ومهما تعددت التفسيرات فان مابدا ظاهرا للعيان بعد ذلك ان الاسرة العباسية التي تسلمت الحكم ، قد وطدت العزم على استخدام القوة لتثبيت مركزها مهما كلفها ذلك .

وبهذا الشكل فقد حكم الخلافة الاسلامية بعد ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٢ هـ وحتى مقتل مروان بن محمد في نهاية السنة ، خليفتان في آن واحد عباسي واموي . وكان لابد لاحدهما من ان ينتصر على الآخر نصرا حاسما ، ويقضي عليه ، لتصفو له امور الخلافة . وهذا ماجرى اثر معركة الزاب وفتح الشام . وملاحقة مروان ابن محمد في مصر وقتله في بوصير (١٠٥) وبهذا سقطت الخلافة الاموية وحلت مكانها العباسية .

حكم خلفاء العباسيين في العراق زهاء خمسة قرون من سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م حتى ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وهي السنة التي سقطت فيها عاصمة العباسيين بيد التتار ، هذا وقد اتسمت الخلافة العباسية بسمات ميزتها عن سابقتها الاموية ومن ابرز هذه السمات :

— تركزها على التخوم الشرقية بالنسبة للاراضي الاسلامية التي حكمتها .
فالدعوة العباسية تركزت في شرقي الخلافة ، وحين اعلنت الخلافة العباسية انتقلت العاصمة من دمشق الى المشرق . فكانت الهاشمية . في بغداد فسامراء في بغداد . وفوق كل ذلك نجد ان نشاط واهتمام العباسيين قد وجه الى القسم الشرقي من العالم الاسلامي ، مما ادى الى اتسام الخلافة بسمات لازمتها . تحتاج منا الى وقفة قصيرة لشرحها وتوضيحها ، يمكن اجمالها بما يلي :

١ — ضعف قبضة العباسيين على المغرب العربي ، مما ادى الى انفصال هذا الجزء تدريجيا عنهم . فقد تمكن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك من

(١٠٥) — اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٨٣ — العيون والحدائق ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

Le Strange : Bagdad during the Abbasside caliphate; P4

دخول الاندلس والاستقلال بشؤونها واعلان الامارة الاموية ثم الخلافة الأموية .
حدث هذا بعد فترة وجيزة من قيام الخلافة العباسية ، وفي سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م .
ولم يكن هذا فحسب بل ان اجزاء كثيرة من الشمال الافريقي انفصل تدريجيا
عنها . وتأسست دويلات مختلفة منها الدولة الرستمية ، والمدراية الخارجيتان ودولة
الادارسة الشيعية ودولة الاغالبة ، وتلا ذلك نشوء الخلافة الفاطمية ودويلات
اخرى مختلفة .

٢ - تأثير الخلافة العباسية بالحضارات الشرقية السابقة ، وقد بدا ذلك في
النظم السياسية والادارية التي اقتبسها العباسيون عن الفرس بشكل خاص . فقد
احتجب الخليفة عن رعيته . واتخذ الوزير والسياف . وعاش عيشة الاكاسرة ،
تحوطه الابهة والعظمة . كما احاط شخصه بالقداسة ، فأخذ الداخل اليه ينحني
امامه ويقبل الارض بين يديه واذا قرب منه قبل رداءه ، وقبل الارض بين يديه .
ولم يكن ينال شرف الدخول والاقتراب من الخلفاء وتقيل اريدتهم الا رجال الدولة
البارزين (١٠٦) . وقد امتد التأثير بالفرس الى الحياة الاجتماعية . ففي باب
الملابس ، انتشر لبس القلانس الطويلة (١٠٧) في ارجاء الخلافة وهي من لباس
الفرس . وذلك منذ ان امر ابو جعفر المنصور في سنة ١٥٣ هـ / ٧٧٠ م
بلبسها (١٠٨) . وقد اتخذ الخلفاء انفسهم قلانس ، وكذلك كبار رجال الدولة .

(١٠٦) - انظر ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٤١ - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ج ٢ ،
ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(١٠٧) - جاء قرار المنصور بلبس القلانس الطوال التي تدعم بعيدان من داخلها . ولم يكن هارون الرشيد
راضيا عن هذه القلانس الطويلة . الا ان المعتصم اعاد لبسها تشبها بملوك الاناجم فلبسها
الناس اقتداء به وسميت بالمعتصميات . انظر آدم ميتز : المرجع السابق ، ج ٢ ، حاشية رقم
١ ، ص ٢٢٠ .

- حورية عبده سلام : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الفسطاط منذ الفتح العربي حتى
قيام الدولة الفاطمية ، رسالة ماجستير ، ص ١٨٩ .

(١٠٨) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٢٠ - حورية عبده سلام : المرجع السابق ، ص
١٨٩ . ويبدو ان لبس القلنسوة التي عمت في العصر العباسي كانت معروفة ويلبسها الناس هي
والثياب الفارسية منذ العصر الاموي : انظر شاكر مصطفى في التاريخ العباسي ، ص ٧٤ .

وكان الخلفاء يتخذون على قلانسهم العمام • وإذا كانت مكشوفة فانهم يزيدون في طولها وحدة رؤوسها حتى تكون فوق قلانس جميع الامة (١٠٩) •

٣ - ابتعاد مركز الخلافة عن خط الحدود مع البيزنطيين ، مما ادى الى ضرورة تنظيم منطقة الثغور تنظيما جديدا ، واقامة مناطق دفاعية قوية لتعويض هذا الابتعاد (١١٠) • فجعلت منطقة العواصم والثغور منطقة ادارية قائمة بذاتها • ونهض العباسيون بقتال البيزنطيين في الدور الاول بشكل خاص بالشدة والقوة نفسها التي وقفها الامويون (١١١) • الا ان حملات العباسيين ضد البيزنطيين كانت برية وتناقضت الحملات البحرية نتيجة تناقص اهتمام العباسيين بشؤون الاسطول في المتوسط عامة (١١٢) • ولقد عوض هذا النقص في القوة البحرية ، الدول الاسلامية التي انفصلت عن الخلافة العباسية كالدولة الاموية في الاندلس ، والفاطمية في شمال افريقيا ، ثم في مصر وجنوب الشام ، ودولة الاغالبة • وقد نتج عن كون الخلافة العباسية خلافة برية اهتمام العباسيين بطرق التجارة البرية مع شرقي اسيا • فنشط طريق الحرير والتوابل البري القديم •

— لم يعد العالم الاسلامي — كما كان في عصر الراشدين والامويين — موحدا تحت سلطة خلافة اسلامية واحدة • بل تعدد منصب الخلافة وظهرت الى الوجود خلافة فاطمية في شمالي افريقية منذ نهاية القرن الثالث الهجري ، ثم في مصر وجنوبي الشام • وخلافة ثالثة في القرن الرابع الهجري ، تلك هي الخلافة الاموية في الاندلس •

— ساست الخلافة العباسية العالم الاسلامي سياسة ممزوجة بالدين والملك •

(١٠٩) - اتخذ اصحاب المراكز الكبيرة العمام الا انها كانت تختلف من شخص لآخر بحسب مركزه الاجتماعي • انظر الجاحظ : البيان والتبيين : جزء ١ ، ص ٦٠ - ٦١ •

(١١٠) - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٦٣ - ونسيمان : الحضارة البيزنطية ، المقدمة م •

(١١١) - حول تنظيم الثغور : انظر بيطار : الحياة السياسية في بلاد الشام منذ قيام الخلافة العباسية حتى الفتح الفاطمي ، ص ٣٢٨ وما بعدها •

(١١٢) - ارشيبالد : المرجع السابق ، ص ١٦٨ •

وقد عبر ابن طباطبا (١١٣) عن ذلك تعبيراً جيداً فقال : اعلم - علمت الخير - ان هذه دولة من كبار الدول • ساسست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك • فقد كان اخيار الناس وصلحاءهم يطيعونها تديناً ، والباقون يطيعونها رهبة او رغبة • فقد اعتبر العباسيون انفسهم وارثي بيت الرسول • وان سلطتهم مستمدة من الله لامن الشعب • فالخليفة هو خليفة الله في الارض لا خليفة رسول الله فحسب • ومثالنا على ذلك مقاله الخليفة المنصور في خطبته (انما انا سلطان الله في أرضه) (١١٤) • واستمرت سلطة خلفاء العباسيين الدينية طوال فترة حكمهم ، بل يمكن القول انها كانت تزداد قوة كلما ضعف شأن العباسيين الديني • وبهذا نرى ان الخليفة العباسي خالف الخلفاء الراشدين الذين كانوا يرون انهم يستمدون سلطتهم من الشعب • ويؤكد ذلك مقاله الخليفة ابو بكر بعد توليته الخلافة فان احسنت فاعينوني ، وان أسأت فقوموني • كما خالفوا بذلك خلفاء الامويين الذين كانوا اشبه برؤساء قبائل يستمد الخليفة سلطته الفعلية من زعماء القبائل المتحالفين معه ، ويستشيرهم في الامور الخطيرة • ويتضح هذا الامر بشكل جلي من قول عمر بن عبد العزيز مخاطباً شعبه : لست بخير من احدكم ولكني اثقلكم حملاً (١١٥) •

وقد برزت سلطة العباسيين الدينية بالمظاهر التي احاطوا انفسهم بها • فقد اتخذوا القاباً ذات طابع ديني مثل المنصور ، المهدي ، الهادي ، الرشيد ، الامين ، المأمون (١١٦) ، المتوكل على الله ، المستعصم بالله ، الواثق بالله ، الناصر لدين الله ، ومما لا شك فيه ان الالقاب الرسمية الخاصة باوائل خلفاء العباسيين اختارها العباسيون عن قصد وهدف • ذلك ان القابهم كانت تمس اكثر الامور حساسية في مشاعر الجماهير ، وخاصة اولئك الذين كانوا يأملون في وضع افضل • وكان المهدي او المنقذ المنتظر امل الجماهير الذي سينقذهم من الظلم والشقاء ، الى العدالة

(١١٣) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٠٤ •

(١١٤) - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ١٠٨ وجه

- الطبري : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٨٩ حيث تجد نص الخطبة كاملة •

(١١٥) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٥٣ •

(١١٦) - انظر فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ، بحث القاب الخلفاء العباسيين ودلالاتها الدينية والسياسية ، ص ١٩٨ وما بعدها •

والرفاهية (١١٧) . كما تلقب الخليفة العباسي بلقب امام توكيدا للمعنى الديني في الخلافة . وفي الاصل اطلق هذا اللقب على من يؤم الناس في الصلاة ، ويعني اتخاذ هذا اللقب ان خلفاء العباسيين اصبحوا ائمة للناس . وقد استعمل الشيعة هذا اللقب واطلقوه على افراد البيت العلوي ، الذين كانوا يعتقدون انهم احق الناس بالخلافة (١١٨) . وقد حرصوا كل الحرص على هذا المظهر فقربوا اليهم العلماء ورجال الدين (١١٩) . كما عملوا على ان لا يخرجوا في المناسبات الرسمية الا وهم يحملون شارات الخلافة المتوارثة من النبي .

وكانت مظاهر الخلفاء العباسيين الخاصة التي تدل على سيادتهم الروحية تتجلى في مواكبهم التي تميزت بروعتها . فيتقدم موكبهم ايام الجمع والاعياد رجال الحرس على اختلاف طبقاتهم يحملون الاعلام ، يليهم امراء البيت العباسي ، راكبين الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطيا جوادا ناصع البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة . وكان الخليفة في تلك المواكب يلبس القباء الاسود ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر . ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة مديية مزينة بجوهره ، ويتقلد سيف رسول الله (ص) وفي يده اليمنى الخاتم (١٢٠) .

كما عمل خلفاء العباسيين على الوقوف بحزم في وجه الحركات اللادينية كافة التي برزت في عصرهم كالراونديه والمقنعية والزندقة (١٢١) . وقد اشيع بين العامة الكثير عن قدسية الخليفة وعن مايجري في الكون اذا قتل من احتجاب الشمس وامتناع المطر . وقد صور ابن طباطبا (١٢٢) الوضع اصدق تصوير حيث قال : (ولم تقو دولة على ازالة ملكهم ومحو اثرهم ، بل كان من هؤلاء المذكورين) ويقصد

(١١٧) - فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(١١٨) - حول هذا اللقب انظر فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(١١٩) - حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ٥٠ - ٥١ .

(١٢٠) - محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ، ص ١٩٢ .

(١٢١) - انظر فيما بعد ، وانظر فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ١٦٨ وما بعدها .

(١٢٢) - المصدر السابق ، ص ١٤١ وما بعدها .

الدول المنفصلة عن الخلافة) من يجمع ويحشد ويجر العساكر حتى يصل الى بغداد فاذا وصل التمس الحضور بين يدي الخليفة . فاذا حضر قبل الارض بين يديه ، وكان قصارى مايتسناه ان يوليه الخليفة ويعقد له لواء ويخلع عليه . فاذا فعل الخليفة ذلك ، قبل الملك الارض بين يديه ، ومشى في ركابه راجلا ، والغاشية تحت ابطه وكانت لهم في نفوس الناس منزلة لاتدانيها منزلة أحد آخر من العالم حتى ان السلطان هولاء لما فتح بغداد واراد قتل الخليفة ابي احمد عبد الله المستعصم ، القوا الى سمعه أنه متى قتل الخليفة اختل نظام العالم ، واحتجبت الشمس وامتنع المطر والنبات) . وكان لهذه السلطة الدينية التي كانت لخلفاء العباسيين اهمية كبيرة في العصور العباسية المتأخرة حين فقد الخليفة العباسي سلطته الزمنية ولم يبق له سوى هذه السلطة الدينية ، فقد حرص جميع من تولوا امرة الدويلات الاسلامية التي انفصلت عن الخلافة العباسية ، على الحصول على موافقة الخليفة العباسي على امارتهم ، لان سلطة الامير لا تصبح شرعية الا بحصوله على هذه الموافقة .

وليس معنى هذه السلطة الدينية التي تمتع بها خلفاء العباسيين انهم كانوا أكثر تدينا من الامويين ، بل يمكن القول انه كان فيهم الصالح والطالح . والمتمسك بأهداب الدين ، والغارق في لذاته . ومن الامثلة على ذلك الخليفة المهدي الذي حكم في الدور العباسي الاول وعاش حياته الخاصة كما يحب ويشتهي ، وسلم امور الدولة لوزرائه ، وقد عبر الشاعر بشار بن برد عن ذلك افضل تعبير فقال :

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

واذا كانت الخلافة العباسية حوت الصالح والطالح من الخلفاء فلم تعد الخلافة الاموية وجود خلفاء صالحين امثال الوليد بن عبد الملك . وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك وغيرهم . وقد ذكر ابن خلدون (١٢٣) في جملة مذكره

عن خلفاء العباسيين انهم كانوا - من العدالة بمكان ، وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه فاستطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح ثم أفضى الامر الى بنينهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا ، فتأذن الله بحربهم • ويبدو أن ابن خلدون بالغ في جعل كل خلفاء الرشيد مسن الطالحين • لانه ظهر منهم خلفاء صالحون • ويمكن القول اخيرا بأن خلفاء العباسيين تفاوتوا في تمسكهم بالدين والتقشف ، أو انصرافهم الى متع الدنيا • ولكنهم عملوا جاهدين حتى في احلك الظروف على التمسك بسلطتهم الدينية • وبقاء هذه السلطة واضحة في عين الجماهير لتبقى الجماهير مرتبطة بالخلافة الاسلامية العباسية •

- اعطت الخلافة العباسية للعناصر الاسلامية المختلفة دورا جيدا ، وتمتعت هذه العناصر بميزات واضحة في العصر العباسي ، استغلته للسيطرة على الخلافة فيما بعده. وبالتالي فان العناصر الاسلامية غير العربية وصلت الى مناصب قيادية كمنصب الوزارة وقيادة الجيوش وحكم الولايات، بينما لم تحصل العناصر الاسلامية على مثل ذلك في العصر الاموي ، مما جعل المؤرخين يرون في قيام الخلافة العباسية نهاية للحكم العربي ، وبداية لحكم الاعاجم • وهذا قول مبالغ فيه لان سلطان العرب بقي واضحا • فالخلافة مازالت في ايديهم واللغة العربية لغة الدولة الرسمية ، وفرق الجيش العربية عملت مع الفرق الاخرى ، وكان خلفاء العباسيين في الفترة الاولى على درجة من القوة استطاعوا أن يكبحوا جماح هذه العناصر اذا اشتتت في استخدام سلطانها • واكبر دليل على ذلك نكبة البرامكة ، تلك الاسرة التي تمتعت بنفوذ كبير منذ عهد المنصور وبلغ ذروته في عهد الرشيد •

- نشوء ارستقراطية جديدة مؤلفة من العناصر المتنفذة من الشعوب الاسلامية المختلفة من عرب وفرس وترك • حلت محل الارستقراطية العربية التي كانت صاحبة النفوذ في العصر الأموي • ويضاف الى هؤلاء الاقطاعية العسكرية التي كانت تضم قادة الجيوش من الفرس والأتراك •

— نضوج الحضارة العربية في هذا العصر وتألقها في المجالات كافة ، ونشوء مراكز حضارية متعددة في بغداد وحلب والقطائع والقاهرة وفاس والقيروان وقرطبة وبخارى وغيرها (١٢٤) .

— كان الحكم العباسي حكما ملكيا وراثيا • فولاية العهد استمرت من الناحية العملية لحصر الخلافة في البيت العباسي • كما سار العباسيون على نظام تولية العهد لأكثر من واحد • وكان الخليفة يحاول عزل ولي عهده وتولية ابنه مكانه ، وكثيرا ما حدثت خلافات بين افراد الاسرة الحاكمة من أجل ذلك ، وتطورت في أحيان كثيرة الى امتشاق السيف (١٢٥) •

— كانت الدولة العباسية دولة ذات خدع ودهاء وغدر • وكان قسم التحيل والمخادعة فيها اوفر من قسم القوة والشدة ، خصوصا في أواخرها • فان المتأخرين منهم بطلوا قوة الشدة والنجدة وركنوا الى الحيل والخدع • وفي مثل ذلك يقول الشاعر كشاجم مشيرا الى مواءعة اصحاب السيوف وعداوة اصحاب الاقلام ، ومقاتلة بعضهم مع بعض •

هنيئا لاصحاب السيوف بطالة	تقضي بها اوقاتهم في التنعم
فكم فيهم من وادع العيش لم يهج	لحرب ولم ينهد لقرن مصمم
يروح ويغدو في نجاهه	حساما سليم الحد لم يتلثم
ولكن ذوو الاقلام في كل ساعة	سيوفهم ليست تجف من الدم (١٢٦)

وحقيقة الامر ان خلفاء العباسيين ، وعملا على توطيد اركان دولتهم ، كانوا في بعض الاحيان ، يلجؤون الى عدم الوفاء بأمانهم • كما يلجؤون الى سفك

(١٢٤) — احمد امين : فصحى الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٧٣ وما بعدها .

(١٢٥) — انظر فيما بعد الخلاف بين افراد الاسرة العباسية .

(١٢٦) — ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٤٩ . ان هذا يصح القول به عن الدولة العباسية في

دورها الثاني . ولا يمكن أن يكون صفة عامة في الدور العباسي الاول .

الدماء • فقد اعطوا يزيد بن عمر بن هبيرة الامان ولكنهم تخلصوا منه في الوقت المناسب • وكذلك الامر مع عبد الله بن علي ، ويحيى بن عبد الله وغيرهم • ولكن ذلك لا يجعل صفة الغدر عندهم صفة عامة ودائمة • وكذلك فان خلفاء العباسيين لم يتورعوا عن استخدام العنف لاستئصال البيت الاموي كما كانوا متشددين مع أبناء عموماتهم ، ومع الخارجين عليهم مهما كانت هويتهم •

وقد ادى ذلك الى شعور الكثيرين بخيبة أمل • فقد كانوا يأملون ان تكون الخلافة العباسية اكثر عدلا من الاموية وأقل منها سفكا للدماء • فانشد شعراؤهم معبرين تعبيرا واضحا عن هذا الشعور المرير ، فقال ابو العطاء السندي :

يا ليت جور بني مروان عاد لنا وليت عدل بني العباس في النار (١٢٧)

كما عبر شريك الثائر على أبي العباس في خراسان بقوله : ما على هذا اتبعنا آل محمد ، على ان نسفك الدماء ، ونعمل بغير الحق •

واخيرا! يمكننا ان نجمل القول مع ابن طباطبا (١٢٨) ، ان الخلافة العباسية كانت دولة كثيرة المحاسن ، جمة المكارم • اسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة ، والخيرات فيها دارة ، والدينا عامرة ، والحرمان مرعية ، والثغور محصنة • وما زالت على ذلك حتى كانت اواخرها فانتشر الجبر ، واضطرب الامر •

وبناء على ما جاء في القول السابق يمكننا تقسيم الفترة الزمنية التي حكمت فيها الخلافة العباسية الى دورين كبيرين مضافا اليهما فترة استعادة الخلفاء العباسيين لسلطتهم •

١ - الدور العباسي الاول : وهو العصر الذهبي للخلافة العباسية والعالم

(١٢٧) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٧٩ وجه

(١٢٨) - المصدر السابق ، ص ١٥٠

الاسلامي . فقد كان دور قوة سياسية وتمازج ثقافي واجتماعي . تناوب على الحكم فيه تسع خلفاء ويمتد من سنة ١٣٢ هـ - ٢٣٢ هـ / ٧٥٠ - ٨٤٧ م .

٢ - الدور العباسي الثاني : وهو الدور الذي سيطرت فيه العناصر الاسلامية على الحكم ويمتد من سنة ٢٣٢ هـ - ٥٩٠ هـ / ٨٤٧ - ١١٩٥ م ويشتمل على عصور ثلاثة :

أ - عصر النفوذ التركي من سنة ٣٣٢ هـ - ٣٣٤ هـ / ٨٤٧ - ٩٤٦ م . وهو عصر سيطر فيه القادة الاتراك على شؤون الخلافة .

ب - عصر النفوذ البويهى من سنة ٣٣٤ هـ - ٤٤٧ هـ / ٩٤٦ - ١٠٥٥ م وهو عصر سيطر فيه ملوك بني بويه على الحكم .

ج - عصر النفوذ السلجوقي من سنة ٤٤٧ هـ - ٥٩٠ هـ / ١٠٥٥ - ١١٩٥ م وهو عصر سيطر فيه سلاطين السلاجقة على الحكم .

ويمكن ان ندمج العصر الثاني والثالث في الدور العباسي الثاني ونجعله عصر سيطرة الملوك والسلاطين من المسلمين على الخلافة العباسية ، ولا بد لنا في هذه الحالة ايضا من ان نوزع هذا الدور الى قسمين بحسب جنسية العنصر الذي سيطر على الخلافة العباسية ، وبالتالي فاننا نعود الى التقسيم الاول .

٣ - فترة استعادة خلفاء العباسيين لسلطتهم وتمتد من سنة ٥٩٠ هـ - ٦٥٦ هـ / ١١٩٥ - ١٢٨٠ م ، وهي فترة غفل عنها كثير من المؤرخين ودمجوها مع فترة سيطرة السلاجقة . علما بأن السلاجقة سقطت دولتهم منذ سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٥ م .

وعلى هذا الشكل يتضح بأن التقسيم الذي اتبعناه وهو التقسيم التقليدي قد اتفقنا عليه على العنصر الاسلامي الذي سيطر على الخلافة العباسية . وهناك مؤرخون نبينوا تقسيمات اخرى مبنية بشكل رئيسي على المد الاسلامي في التاريخ المعاصرة .

الباب الثاني

الدور العباسي الاول

١٣٢ - ٢٣٢ هـ / ٧٥٠ - ٨٤٧ م

تربع أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس على عرش الخلافة العباسية ، فخطب على المنبر قائما ، وكان بنو أمية يخطبون قعودا . فاستحسن الناس منه ذلك ، اذ رأوا فيه احياء للسنة (١) ، وتكلم في هذه الخطبة عن حماية أسرته للاسلام ، والذب عنه ومناصرته . كما تحدث عن مكائبتهم وقرابتهم من الرسول ، وما أوجب الله على الناس من حقهم ومودتهم . كما أثبت حقهم في الخلافة . وأبرز مكانة أهل الكوفة الخاصة ، فزادهم في اعطياتهم مائة درهم (٢) . ولما كان ابو العباس مريضا ، فانه نزل عن المنبر وصعد عمه داود بن علي ، فأوضح في جملة ما أوضح أنه لم يصعد منبرهم خليفة بعد علي بن أبي طالب الا أمير المؤمنين أبا العباس (٣) .

كانت مهمة أبي العباس شاقة وعسيرة . فكان عليه ان يثبت أقدام العباسيين في الخلافة ، ويوطد أركان دولتهم . وقد نجح في ذلك وقضى على منافسه مروان ابن محمد ، ولاحق فلول الامويين وقضى عليهم . ولم يتمكن من النجاة منهم الا

(١) المصدر السعدي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٢) المصدر السابق فيما سبق خصائص الخلافة العباسية .

(٣) المصدر السعدي ، جزء ٣ ، ص ٢٧٠ - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ص ٤٢٦

عبد الرحمن الداخل . ثم بدأ بالقضاء على منافسيه السياسيين ممن كانوا ساعده
الايمن في الدعوة العباسية ، فقتل أبا سلمة الخلال ، وكاد يفتك بأبي مسلم لولا أن
عاجلته المنية . وبذلك اجتازت الدولة الناشئة هذه المرحلة الدقيقة من تاريخها ،
لتصبح اشد مناعة وقوة في عهد أخيه أبي جعفر المنصور (٤) وقد وصف ابن طباطبا
أبا العباس وصفا دقيقا فقال فيه : كان كريما حليما وقورا عاقلا كاملا كثير الحياء ،
حسن الاخلاق (٥) .

كان أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد (٦) المؤسس الحقيقي للخلافة العباسية
وباني مجدها وعاصمتها بغداد . تولى الخلافة سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م ، واستمر
في الحكم حتى سنة ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م . تربى بين كبار الرجال من جلة بني هاشم
وصحب أباه وجده ، فنشأ أدبيا فصيحاً ، ملماً بسير الملوك والامراء . كان ساعداً
أخيه أبي العباس الايمن . عمل جاهداً على ان يستتب له الامن ، فاعتبر بحقوق
مؤسس الخلافة العباسية . فقد تخرج موقف الخلافة في عهده وتأزمت الاوضاع ،
ولكنه تمكن من الخروج من هذه المواقف وسار بالخلافة قدماً الى الامام . بدا ذلك
بشكل واضح حين ثار عليه عمه عبد الله بن علي ، وطالب بأحقية بالخلافة ، فقابله
بحزم وجد ، واستطاع ان يقضي على ثورته . ولما رأى ازدياد نفوذ أبي مسلم ،
وخشي منه على الخلافة قتله وتخلص منه . كذلك فانه كبح جماح العلويين بقضائه
على محمد النفس الزكية في الحجاز ، وعلى أخيه ابراهيم في العراق (٧) .

اشتهر المنصور في بلاطه بتمسكه بالدين وبجديته (٨) فلم يعرف عنه ميل الى
اللهو والعبث ، بل كان ميالا الى النظام والتنسيق في أعماله . كان ينظر في صدر
النهار في أمور الدولة وما يعود على الرعية من خير ، فاذا صلى العصر جلس مع

(٤) - عن خلافة أبي العباس أنظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٢١ - ٤٣١ .

(٥) - المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٦) - عن المنصور وصفاته أنظر المقرئ : المصدر السابق ، من ورقه ٩٦ ظهر حتى ١١٠ ظهر .

(٧) - أنظر فيما بعد .

(٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٥ - ٩١ .

أهل بيته ، فاذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثغور ، وشاور
سماره في ذلك ، فاذا مضى ثلث الليل قام الى فراشه وانصرف سماره . فاذا مضى
الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه ، وصف في محرابه حتى يطلع الفجر ، ثم
يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس في ايوانه^(٩) .

اهتم المنصور بأمور دولته^(١٠) وراقب عماله مراقبة شديدة ، واهتم باختيار
رجال البريد وكان ولاية البريد في الآفاق كلها يكتبون الى المنصور ايام خلافته في
كل يوم بسعر القمح والحبوب والادم وبسعر كل مأكول ، وبكل ما يقضي به
القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالي ، وبما يرد بيت المال من المال^(١١) . ومن
جملة ما يذكر عن اهتمامه بأمور الولاية ، ما حدث بينه وبين والي حضرموت ، حين
أعلمه صاحب البريد أنه يكثر الخروج في طلب الصيد بيزاة وكلاب قد أعدها ،
فعزله وكتب اليه : (ثكلتك أمك ، وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التي اعددتها
للكاية في الوحش انا اما استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحش .
سلم ما كنت تلي من عملنا الى فلان بن فلان ، والحق بأهلك ملوما مدحورا)^(١٢) .

ومن الحق والواجب علينا كمؤرخين أن ننصف هذا الخليفة الذي كان من
عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم مما وصم به من البخل ، كان المنصور يعطي
بسخاء اذا وجد أن ذلك حق ، ويمنع اليسير اذا وجد أن في ذلك تضييعا وتبذيرا
للمال . وهذا بحق عين الصواب . بل انه بإمكاننا أن نلمس عكس ذلك لو عدنا
الى مصادر التاريخ الاسلامي . وربما وجدنا أمثلة كثيرة تدل على كرمه^(١٣) ، واخرى

(٩) - الطبري : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٧٠

(١٠) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٧ حين يذكر حاجته الى اربعة نفر لا يكون على بابه
أعف منهم .

(١١) - الطبري : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٧٠

(١٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٨

(١٣) - انظر ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٦٠ ، فيقول أنه كان كريما ، وأنه لما حج الفضل على
أهل الحجاز فكانوا يسمون عامه عام الخصب . وانظر القريري : المصدر السابق ، ورقة ١٠٦ اوجه

تدل على وضعه الاموال في موضعها لا على الشح والبخل * ولعمري فان هذا من صفات الرجل الذي يثق بنفسه ومقدرته وقوته ورجاله ، ولا يحتاج الى تبذير الاموال لشراء نفوس بعض ضعفاء النفوس (١٤) *

ويمكن هنا أن نلخص أخلاق وصفات المنصور ، بما نقله عن ابن طباطبا (١٥) * فقد ذكر أن المنصور كان من ذوي الآراء الصائبة ، والتدبيرات الشديدة ، وقورا شديدا الوقار ، حسن الخلق في الخلوة ، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح ، فاذا لبس ثيابه وخرج الى المجلس العام ، تغير لونه واحمرت عيناه ، وانقلبت جميع أوصافه * كما قال عنه أيضا بأنه هو الذي أصل الدولة وضبط المملكة ، ورتب القواعد وأقام الناموس ، واخترع أشياء (١٦) * ومما يحدد له أن مدحه جاء ممن كانوا أعداء له في يوم من الايام * فقد قال يزيد بن عمر بن هبيرة عنه : ما رأيت رجلا في حرب أو سلم أمكر ولا أنكر ولا أشد تيقظا من المنصور * لقد حاصرني تسعة شهور ومعني فرسان العرب ، فجهدنا كل الجهد حتى نال من عسكره شيئا فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره ، وكثرة تيقظه * ولقد حاصرني وما في رأسي شعرة بيضاء ، ثم انقضى ذلك وما في رأسي شعرة سوداء (١٧) *

تسلم الحكم بعد المنصور عدد من الخلفاء كانوا في معظمهم على قدر كبير من الذكاء وسداد الرأي والشجاعة في تحمل المسؤولية ، ومواجهة المشاكل الخطيرة في الداخل والخارج * فهذا المهدي ابن المنصور وخليفته أبو عبد الله محمد ، حكم من سنة ١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٦ م ، كان شهما فطنا كريما شديدا على أهل الالحاد والزندقة * افتتح نهده بالنظر الى المظالم ، والكف عن القتل ، واعطاء الامن للخائف * وكان اذا جلس للمظالم قال : ادخلوا علي القضية ، فلو لم يكن ردي

(١٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ .

(١٥) - المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(١٦) - المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(١٧) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

للمظالم الا حياء منهم لكفى^(١٨) وبسط يده في العطاء ، ورد الاموال التي صادرها
 أبوه الى أهلها ، وأحسن الى العلويين ، ثم بويغ الهادي سنة ١٦٩ - ١٧٠ هـ /
 ٧٨٦ - ٧٨٧ م . وكان متيقظا غيورا كريما شهما ، جريء القلب ذا اقدام وعزم
 وحزم^(١٩) . كما كان شديد الغيرة ، ولا يرغب في التدخل في شؤونه حتى من أقرب
 أقربائه^(٢٠) . وقد تكون شدته في مثل هذه الامور من أكبر الاسباب التي أدت
 الى وفاته في فترة مبكرة^(٢١) .

برز بعد الهادي اسم أخيه هارون الرشيد ، حكم من سنة ١٧٠ - ١٩٣ هـ /
 ٧٨٧ - ٨٠٩ م . واحتل اسمه في الكتب التاريخية شهرة اسطورية ، لما نسج حولها
 من قصص وأساطير في الشرق والغرب على السواء . فقد ذكر عنه أنه كثير الصلاة
 كثير الحج دائم الجهاد . وهو مع كل هذا يعيش دنياه ، يحضر مجالس اللهو ، تلك
 التي خلدها عنه ألف ليلة وليلة . ويقال بأنه اجتمع له مالم يجتمع لاحد من جد
 وهزل^(٢٢) . قال فيه ابن طباطبا انه كان من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم
 وكرمائهم . كان يحج سنة ويغزو سنة وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة . وكان
 يحب الشعر ونشعراء ويميل الى أهل الادب والقصة^(٢٣) .

وتبخص كتب التاريخ الامين حقه (١٩٣ - ١٩٨ هـ / ٨٠٩ - ٨١٤ م) ، وتصفه
 بالخليفة الخليع المستهتر . والحق يقال انه لم يكن كذلك ، وان ما كتب عنه كان
 بسبب النهاية التي انتهى بها حكمه ، بل كان من رجال الدولة وعييه انه وثق
 بوزيره ثقة عمياء ، وكان هذا الوزير يخشى المأمون ، فحرضه عليه وكان ماكان^(٢٤)

-
- (١٨) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٧٩ .
 (١٩) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٨٩ .
 (٢٠) - حول قصة الهادي مع أمه انظر ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٩١ .
 (٢١) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٨٧ حتى ٢٠٤ - وانظر أيضا ابن طباطبا : المصدر
 السابق ص ١٩١ .
 (٢٢) - الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جزء ١٤ ، ص ١١ .
 (٢٣) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٩٣ .
 (٢٤) - انظر فيما بعد ، وانظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، من ص ٥٠٨ - ٥٢٦ .

أما المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٤ - ٨٣٤ م) فكان من أفاضل الخلفاء والعلماء والحكماء والجللاء ، ومن عقلاء الرجال ، فطنا شديدا كريما (٢٥) ، وكان له الفضل في وضع أسس تطوير النهضة الفكرية . فقد حمى العلماء ورعى الأدباء والفنانين ، ورأى رأي المعتزلة (٢٦) ، وقد ورد في كتاب المقرئ (٢٧) على لسان يحيى بن اكثم وصفا معبرا له ، فقال له (يا أمير المؤمنين ان خضنا في الطب كنت جالينوس فسي معرفته ، أو في النجوم كنت هرمس في حسابه ، أو في الفقه كنت علي بن ابي طالب في علمه ، أو صدق الحديث ، فانت ابو ذر في لهجته ، أو الكرم فانت كعب بن امامة في فعالة . .) .

حكم المعتصم من سنة (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٤ - ٨٤٢ م) ، فكان سديد الرأي موصوفا بالشجاعة والقوة (٢٨) . قضى على عدد من الثورات الداخلية . ودفع باسم الدولة الاسلامية قدما بانتصاره في عمورية . وبقي اسمه خالدا يذكر كلما ذكر الاعتماد على الترك في الجيش (٢٩) . وكلما تحدث المؤرخون عن اسقاط اسم العرب من ديوان العطاء (٣٠) . وكان الخليفة الواثق آخر خلفاء هذه الفترة ، حكم من سنة ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧ م . اعتمد على الاتراك كأبيه ، فرسخت اقدامهم وتطاولوا على الخلفاء ، توفي في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٨ م ، وبموته ينتهي العصر الذهبي للدولة العباسية .

ومما لا شك فيه أن خلفاء هذه الفترة توفرت لهم المقدرة على حفظ التوازن

(٢٥) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

(٢٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٥١ - ٦٦٦ - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ٢١٦

(٢٧) - المقل ، ورقة ١٢٨ وجه - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ٢٢٩

(٢٨) - انظر فيما بعد .

(٢٩) - محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٣٠) - انظر عن خلفاء الدور الاول اضافة لما ذكر في الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، من ص ٤٢١

فما بعد .

السياسي وجعل الخلافة السلطة العليا ، والمنصب الاول في الدولة (٣١) . وكما امتازت الخلافة العباسية بميزات عامة ، فان الدور العباسي الاول امتاز بميزات انفرد بها ، ويمكن تلخيصها بما يلي :

١ - كافح خلفاء هذا الدور لاجل توطيد وتثبيت حكم بني العباس ، لئلا ينافسهم منازع ، أو ينافسهم منافس . وقد أسفرت عمليات التثبيت عن صدام العباسيين بقوى داخلية متعددة . وكانت اسباب هذا الصدام سياسية بحتة في بعض الاحيان ، وقومية دينية في أحيان أخرى . ويمكن اجمال ما جرى من صراع بمايلي :

— صراع بين بني العباس والامويين وأنصارهم .

— صراع بين بني العباس أنفسهم .

— صراع بين بني العباس والعلويين .

— صراع بين بني العباس والخوارج .

— صراع بين العرب الحاكمين والموالي أو بين العرب وسكان البلاد المفتوحة

٢ — عمل خلفاء الدور العباسي الاول على المحافظة على حدود الدولة العربية الاسلامية تجاه القوى المعادية كافة . وبشكل خاص أمام البيزنطيين (٣٢) وقد أثبتوا في ذلك مقدرة فائقة ، وأصبحت أسماء غالبية خلفاء هذا الدور رمزا للبطولة والمقدرة . فهارون الرشيد ووصوله للبوسفور ، والمأمون وغزواته المتعددة المشهورة والمعتصم وعمورية . ومع هذا النشاط على الحدود الشمالية، فان العباسيين فشلوا في المحافظة

(٣١) — الازدى : تاريخ التوصل ، ص ١٦١ - ١٦٤ — العيون والحدائق ، ص ٢١٥ - ٢٦٩ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ٢٥ فما بعد — حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، جزء ٢ ،

ص ٢٥٣ - ٢٥٧ .

(٣٢) — انظر فيما بعد .

على وحدة الخلافة الاسلامية وبدأت حركات اتصالية جزئية في هذا الدور حيث
تزايدت وتسارعت في الدور الثاني •

٣ - تفاعل عناصر المجتمع العربي مع بعضها ضمن اطار الخلافة الاسلامية ،
ولقاء بين الحضارة العربية الاسلامية والحضارات السابقة القائمة على الارض
المفتوحة • وقد اثر هذا اللقاء عن حركة ترجمة واسعة لتراث الحضارات الى اللغة
العربية ، كانت ثمرته حضارة عربية اسلامية مزدهرة ، واذا أضفنا الى ذلك الصراع
العقائدي بين العقيدة الاسلامية والديانات الاخرى كالمسيحية واليهودية ، والديانات
الفارسية ، وانتشار الفلسفة اليونانية والهندية ، وما أسفر عن ذلك من نشوء مذاهب
وفرق دينية لادرکنا أهمية ذلك انتفاعل الحضاري •

الفصل الأول

توطيد وتثبيت أركان الحكم العباسي

اصطدم العباسيون في سبيل توطيد حكمهم بعقبات صلبة ، وكان لابد لهم من اجتيازها اذا أرادوا لدولتهم البقاء ، وعلى رأس تلك العقبات :

١ - الموقف العدائي المتبادل بين العباسيين وبني أمية وانصارهم

لم يشعر العباسيون بالارتياح للامويين ، وأشباعهم ، وقد بادلهم الفريق الآخر المشاعر نفسها . فقد شعر الامويون ، وأهالي الشام بقيمة ما ضاع منهم . ورأى الاخيريون أن انتقال مركز الخلافة من أرضهم سيضر بهم سياسيا واقتصاديا . وقد أدرك العباسيون المصالح المشتركة بين الطرفين ، وما ولده من حب أهالي الشام للامويين ، واخلاصهم لهم . ومن أجل ذلك رسم محمد بن علي الطريق لانصاره بعدم الاعتماد على أهالي الشام ، معبرا عن ذلك بعبارة صريحة اذ قال : اما أهل الشام فليس يعرفون الا آل ابي سفيان وطاعة بني مروان عداوة لنا راسخة وجهلا متراكما (١) .

وتتضح نظرة العباسيين الى أهل الشام منذ اليوم الاول لاعلان الخلافة

(١) - ابن قتيبة الدينوري : عيون الاخبار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ، جزء ١ ، ص ٢٠٤ .
- الربيعي : فضائل الشام ودمشق ، تحقيق المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٠ ، ص ١١ .

العباسية ، كما اتفحت قبل الاعلان . فقد خصص الخليفة ابو العباس فقرة خاصة من خطابه ذكر بها أهل الشام ومواقفهم من العباسيين ، وانهم ينظرون الى الاخيرين نظرة خاطئة حين يرون أن غيرهم أحق بالرياسة والخلافة منهم ، بينما حقيقة الامر أن العباسيين أحق بها ، حيث ان الله بهم هدى الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأتقدهم بعد هلكتهم^(٢) . وبناء على ذلك اعتبر أهالي الشام حلفاء مخلصين للامويين . واتخذ القرار بتحطيم انتمهم ، وضرب القبائل القيسية حليفة مروان بن محمد ، والاستناد الى مساعدة القبائل اليمنية . حسب الظروف والاحوال^(٣) .

سياسة العباسيين تجاه الامويين :

وخوفا من الامويين وأخذاً بالتأثر ، استخدم عبد الله بن علي أعنف الوسائل ، فقد انتقم لكل من قتل على يد الامويين . فأخذ الثأر من احيائهم بالقتل ، ومن أمواتهم بنش القبور وصلب الجثث واحراقها ، وتعقب آثارهم ، بل قتل حتى الذين استأمنوا اليه . ووقع القصاص من أهل الشام باعتبارهم أنصار بني أمية^(٤) . وقد حدث هذا على الرغم من أن أبا العباس حين حضر الى الشام بعد مقتل مروان بن محمد خطب في أهلها مطمئنا لهم موضحا بأنه عفا عنهم ، واغفر لهم زلتهم^(٥) .

وعندما قدم عبد الله بن علي الى فلسطين . بعث الى بني أمية وأظهر لهم أن أمير المؤمنين أوصاه بهم خيرا . وأمره أن يلحقهم في ديوانه وأن يرد عليهم أموالهم . فقدم عليه من أكابر بني أمية وخيارهم ثلاثة وثمانون رجلا ، وأخذوا يسلمون عليه

(٢) - ابن الساعي البغدادي : مختصر اخبار الخلفاء ، الطبعة الاولى ، المطبعة الاميرية ببغداد ١٣٠٩ ، ص ٦ .

(٣) - الازدي : المصدر السابق ، ص ١٣٥ - صلاح الدين المنجد : مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين ، طبعة دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٦٧ ، الطبعة الاولى ، ص ١٩ .

(٤) - المقرئ : النزاع والتخاصم ، ص ٧٠ - كرد علي : الادارة الاسلامية في عز العرب ، مطبعة مصر ١٩٣٤ ، ص ١٢٢ .

(٥) - انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ، مطبعة الوقائع المصرية ، طبعة سنة ١٢٩٣ هـ ، الجزء ٢ ، ص ١٧٦ اذ يذكر خطبة ابي العباس كاملة .

معتدلين^(٦) ولم يتخلف منهم الا عبد الرحمن بن معاوية^(٧) . وأعد لهم عبد الله مجلسا فيه اضعافهم من الرجال ومعهم السيوف والعمد . ولما أخذوا مجالسهم ، نهض عبد الله فذكر لهم فضل الحسين عليه السلام وأهل بيته ، ثم أمر جنوده بضرب الامويين بالعمد والسيوف حتى أتوا عليهم^(٨) . وقد أراد عبد الله ان يكون عمله هذا عبرة للجميع ، حيث أوضح بخطبة القاها بعد تنكيله ببني أمية ، أن القتل هو العلاج الوحيد للمعصية^(٩) .

وبعد أن قضى عبد الله بن علي على أغلب الامويين ، ومن يشك في أمره من أهل الشام رأى أن يستولي على أموالهم ، مهما كانت الوسيلة التي يستخدمها لتحقيق ذلك . حتى أصبحت معظم أموال الامويين وممتلكاتهم تحت أمرته . فقد احتسوى عبد الله على معسكر مروان بما فيه من سلاح كثير وأموال . وكذلك استولت جيوش العباسيين على الاموال التي وضعها مروان في معركة الزاب ليحمس بها جنوده على القتال^(١٠) واستغنى عبد الله ، عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك من المجزرة التي قام بها في الشام . لانه كان يطمح فيما عنده من أموال^(١١) وحين طلبها منه أباه علبه . واختفى منه ، ولكنه تمكن من معرفة مكانه بعد ان لجأ الى تهديد عدد من أقاربه . ولما قبض عليه أمر بقتله . ثم استغنى ماله ، وحين بلغ الخبر للخليفة أبي العباس وكان يعرف عبد الواحد قبل ذلك ، ويرى أنه أفضل قرشي في زمانه عبادة وفضلا ، غضب وكتب الى عمه ألا يقتل أحدا من بني أمية حتى يعلم به . وكان ذلك بداية نقمة ابي العباس على عمه^(١٢) .

-
- (٦) - ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٤٦ - المقرئ : النزاع والتخاصم ، ص ٧٠ .
 (٧) - ابن قتيبة : المعارف ، ص ١٦٣ .
 (٨) - الأزد : المصدر السابق ، ص ١٣٩ - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٣ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٣٢ .
 (٩) - انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .
 (١٠) - محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ ، دار المعارف بمصر ، ص ٤٠٢ .
 (١١) - ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٣٣ .
 (١٢) - ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، جزء ٢ ، ص ١٣٣ .

ومن أهم غنائم الحرب التي استولى عليها العباسيون ضياع آل مروان . فمن ذلك استيلاؤهم على بالس وقراها التي كانت لورثة مسلمة بن عبد الملك ، واقطعت الى سليمان بن علي^(١٣) . وكذلك استولوا على رصافة هشام ، الى جانب ضياع اخرى واسعة ، وسميت هذه الضياع ضياع الخلافة^(١٤) . واستولى العباسيون فيما استولوا عليه على دار الصباغين في الرملة وسلمت الى صالح بن علي ، والى ورثته من بعده^(١٥) .

وقد حاول عبد الله ان يتزوج من عبدة بنت عبيد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان زوجة هشام بن عبد الملك . ليضم أموالها الى أمواله^(١٦) ولكنها أبت ذلك فكانت نهايتها القتل .

ولم يقف العباسيون عند القضاء على الامويين ومن حالفهم ، ومن عمل معهم بل بلغ بهم الامر الى محو اسماء الامويين المنقوشة على المباني ، ومن أمثلة ذلك ما حصل في المسجد الاقصى . فقد أصاب البناء شيء من الخراب في عهد الخليفة العباسي المأمون . ولما زار الخليفة بيت المقدس سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م^(١٧) أمر بترميمه . ولما انتهى العمال من الترميم استبدلوا اسم الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان باسم المأمون . ولكنهم غفلوا عن تغيير السنة التي حدثت فيها العمارة . اذ يوجد فوق الاعمدة التي يقوم عليها سقف المسجد حول الصخرة من الناحية

(١٣) - البلاذري : فتوح البلدان ، طبعة بريل ، ص ١٥١ .

(١٤) - محمد ضياء الدين الريس : المرجع السابق ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(١٥) - المجلة التاريخية للجمعية العراقية للتاريخ والآثار ، العدد ٣ ، ١٩٧٤ ، مقال عن تراث العرب العمراني في فلسطين في ظل الحكم الاسلامي للدكتور عواد مجيد الاعظمي ، ص ٢٢٨ .

(١٦) - كان عندها الكثير من الجواهر النادرة مثل الدرة اليتيمة وقرطان ثمينان ، وبدنة لم ير في الاسلام مثلهما ومثل الحب الذي كان فيها : انظر مجلة المجمع العربي بدمشق الجزء ١/٢ ، ص ٥٥٦ مقال صلاح الدين المنجد عن جواهر الخلفاء العباسيين ، وكذلك بين الخلفاء والخلفاء للمنجد ، طبعة دار الحياة سنة ١٩٥٧ ، ص ٥٢ - القريري : النزاع والتخاصم ، ص ٧٠ .

(١٧) - تذكر المصادر العربية قيام المأمون بعدة زيارات الى بلاد الشام منها الطبري : المصنوع السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٢٤ .

الجنوبية خط ضيق مصنوع من البلاط الأزرق • نقشت عليه بالاحرف الكوفية
المذهبة الكلمات الآتية :

(بنى هذه القبة عبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنين وسبعين ،
تقبل الله منه ورضى عنه آمين) (١٨) • ويظهر من التاريخ المذكور أن الذي قام ببناء
القبة هو عبد الملك بن مروان ، ولم يفتن الصانع الذي غير الاسم الى تغيير التاريخ ،
ثم انه وجد المكان ضيقا بحيث لا يتسع لاسم الخليفة المأمون وألقابه ، فاضطر الى
كتابة ذلك بطريقة تخالف تلك التي كتبت بها الكلمات الأخرى • أي أن الحروف
التي كتب بها اسم المأمون جاءت مزدحمة متراسة يختلف شكلها عن الحروف التي
سبققتها . ثم ان لون الفسيفساء الذي جرى به التحريف أشد سمرة من لون
الفسيفساء القديمة (١٩) • ويقال انه سبق أن حدثت زلازل عديدة قبل ذلك اثرت
في بناء المسجد الأقصى ، وخاصة أيام الخليفة أبي جعفر المنصور ، فأمر بقلع الصفائح
الذهبية والفضية التي كانت على أبواب المسجد الأقصى ، وضربت دنانير ودراهم
أنفقت في بنائه (٢٠) •

سياسة العباسيين تجاه القبائل العربية والمدن الشامية :

نقم أهل الشام على العباسيين بسبب حرمانهم من المكاسب التي كانت لهم في
عهد الخلافة الأموية ، ولنا في ما قاله ابن جعونة (٢١) للخليفة المنصور دليل على ذلك

(١٨) - عارف العارف : الحرم القدسي ، مطبعة دار الايتام الإسلامية الصناعية بالقدس ١٩٤٧ ، ص ١٦

زكي محمد حسن : فنون الاسلام الطبعة الاولى ١٩٤٨ ، ص ٣٩

(١٩) - عارف العارف : المرجع السابق ، ص ١٦

زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٣٩

(٢٠) - عارف العارف : المرجع السابق ، ص ٤٣ - ٤٤

(٢١) - هو منصور بن جعونة بن الحارث العامري القيسي . كان تولى بناء الحصن الذي سمي باسمه .

وكان مقيما به أيام مروان بن محمد ليرد العدو ، ومعه جند كثيف من أهل الشام والجزيرة

وارمينيه . وحين امتنع أهالي الرها على العباسيين في بداية خلافتهم كان ابن جعونة على رأسهم

لحصرهم أبو جعفر المنصور وهو عامل لأخيه السفاح على الجزيرة وارمينيه ، فلما فتحها هرب

ابن جعونة ، ولكن المنصور تمكن من القبض عليه ، وقتل بالراقة سنة ١٤١ هـ .

انظر اليعقوبي : تاريخه ، ج ٣ ص ١٠٦ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، طبعة لايبزغ ١٨٦٧ ،

ج ٣ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

اذ خاطبه قائلاً له : (ان الله أعدل من ان يجمعك علينا والطاعون في وقت واحد) (٢) .

وقد استمر أهالي الشام في كرههم للعباسيين والعلويين ، وحبهم للامويين مدة طويلة ، وعبروا عن مشاعرهم وتقديرهم للامويين بأساليب كثيرة (٢٣) . وقد اضطر العباسيون نتيجة لذلك الى معاملة أهالي الشام بقسوة ، فأدى ذلك الى نشوب ثورات عمت مناطق الشام في دمشق وحمص وقنسرين وفلسطين ، وهناك أسباب قوية متعددة لوقوف أهالي الشام هذا الموقف الصلب من العباسيين . ومنها :

— ابتعاد مركز الخلافة عن دمشق ، وبالتالي فقد أهالي الشام المكاسب التي جنوها في أثناء حكم الامويين حين كانت دمشق عاصمة الخلافة .

— خوف العباسيين من أهالي الشام لادراكهم أنهم أنصار الأمويين . وما نتج عن ذلك من مراقبتهم والتضييق عليهم .

— كثرة تبديل الولاة وما نتج عنه من اضطراب سياسي وتأخر حضاري .

— اثارة العباسيين للعصية القبلية عن طريق تقريهم لليمنية دون القيسية في بداية الامر ، وتبع ذلك فيما بعد اهمال لشأن العرب تدريجياً . فمنذ عهد المأمون بدأ اعتماد العباسيين على الفرس واهمال العرب وجاء عصر المعتصم فاسقط العرب من ديوان العطاء .

لم تكن سياسة الانحياز الى فرع قبلي واحد في صالح العباسيين ، خاصة وأنهم رأوا نتائج ذلك في الخلافة التي سبقتهم . ولكن ما بدا ظاهراً للجميع ان ولاة العباسيين على بلاد الشام لم يقـسـدروا هذا الامر حتى قدره . بل انهم في كثير من الاحيان عملوا على اشغال

(٢٢) — عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، طبعة دمشق ١٣٣١ ، مجلد ٣ ، ص ٣٩٢ .
(٢٣) — انظر كمثال على ذلك ما ذكره كل من أحمد أمين : ظهر الاسلام ، طبعة مصر ١٩٤٥ ، ج ١ ، ص ٧٧ — آدم ميتز : الحصار الاسلامي في القرن الرابع الهجري ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ ، جزء ١ ، ص ١٠٢ .

نار العصبية القبلية بسوء سياستهم • واخذ ولاية الشام في عصر خلفاء العباسيين الاول يناصرون القبائل اليمنية في الشام ، كلما نشب نزاع بين الفرعين القبليين ، دون تمحيص في الامر او اهتمام باحقاق الحق ، وانصاف المظلوم ، وتهدة النزاع • اللهم باستثناء الوالي ابراهيم بن محمد المهدي (٢٤) المعروف بابن شكلة الهاشمي أخي الرشيد • فقد عمل جاهدا على مساعدة الطرفين واحضارهما اليه ومعاملتها حسب قانون ارضاهم • فقد امر ابراهيم بن المهدي حاجبه باحضار رؤساء الفرعين القبليين وامر بتسمية اشرافهم • وان يقدم من كل حي الافضل فالافضل ، فامر ان يكون أول الناس من الجانب الايمن مضريا وعن شماله يمينا ومن دون اليمني مضري ومن دون المضري يميني • ووضح لهم بانه لكي يتم العدل بين الطرفين، ينبغي ان يتناوب الطرفان امكنتهم يوميا . فيكون مجلس رئيس المضرية في اليوم التالي في الجانب الايسر ورئيس اليمنية في الجانب الايمن (٢٥) • وهكذا استطاع ارضاء الفرعين القبليين • ولم يستطع أغلبية ولاية الشام العباسيين من اتباع سياسة المساواة والتوفيق بين القبائل على الرغم من أن بعضهم حاول أن يعمل على الحد من الخلافات • فقد أوضح أحد ولاة العباسيين لرؤساء الفرعين القبليين على أنه لن يقدم فريقا على آخر الا على الطاعة لله عز وجل وللخلفاء ، وفيما عدا ذلك فالكل اخوه (٢٦) • ولم تكن هذه التصرفات الشخصية من قبل بعض الولاة لتحول دون وقوع منازعات بين القبائل كانت متكررة •

كانت الثورات القبلية بالفترة الاولى من حكم العباسيين في أغلبها قيسية • ويبدو أنه منذ مطلع القرن الثالث الهجري بدأت ثورات القيسية في الانحسار وبدأت تظهر للعيان ثورات كان يقوم بها العرب اليمنية من أهالي حمص على عمالهم • وقد يكون لكل ثورة من هذه الثورات اسباب قريبة أدت اليها ، الا انه لا بد من وجود

(٢٤) - تولى الشام سنة ١٨٧ هـ انظر الصفدي ، امراء دمشق في الاسلام تحقيق المنجد طبعة دمشق ١٩٨٠ ، ملحق ٢ ، ص ٢٠٣ •

(٢٥) - تاريخ علي : الادارة الاسلامية ص ١٣٩ ، وخطط الشام ، جزء ٢ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ وقد وردت القصة عن معاوية بن أبي سفيان •

(٢٦) - تاريخ علي : الادارة الاسلامية ، ص ١٤٠ •

سبب عام شامل قد جمعها كلها . وهو انحياز ولاية العباسيين على ما يبدو الى القيسية وسوء معاملة القبائل اليمينية على عكس ما كان الحال أوائل قيام الخلافة العباسية . وهكذا فان خلفاء بني العباس على الرغم من أنهم كانوا يدركون بأن النزاعات القبلية كان لها دور كبير في نهاية الخلافة الاموية فانهم لم يأخذوا عبرة من ذلك . ويبدو ان ذلك كان خطة أراد العباسيون تطبيقها ، لضرب القبائل الشامية و إضعافها . فيضعف بذلك أهل الشام الذين كانوا اعداء تقليديين للعباسيين .

كانت هذه سياسة العباسيين مع القبائل الشامية بشكل عام . يضاف اليها سياسة كانت اكثر قوة ، وأعمق تأثيرا وهي العمل على اهمال شأن العرب بصورة عامة من قيسيين ويمنيين تدريجيا ، وإخراجهم من الدواوين . وقد كان يبدو للعيان استياء العرب بصورة عامة من هذه السياسة . فأخذوا يتساءلون أمام الخلفاء عن سبب هذا الاهمال كلما سنحت لهم الفرصة . وقد سأل أحد رجال الشام الخليفة المأمون عن سبب ذلك فأجابه قائلا : أكثرت علي يا أخا أهل الشام . والله ما أنزلت قيسا من ظهور الخيل الا وانا أرى انه لم يبق في بيت مالي درهم واحد . وأما اليمن فوالله ما أحببتها وما أحببتي قط . وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيناني وخروجه فتكون من أشياعه وأما ربيعة فساخطه على الله منذ أن بعث نبيه من مضر ولم يخرج اثنان الا وخرج احدهما شاريا . اغرب فعل الله بك (٢٧) .

وقد توج غضب العرب على سياسة العباسيين هذه بثورة نصر بن شبث العقيلي (٢٨) الذي صرح موضحا سبب ثورته بأنه ليس له هوى في غير العباسيين ، وانه انما قاتلهم محاماة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم (٢٩) .

(٢٧) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ - كرد علي : خطط الشام ج ١ ، ص ١٨٩ - أمينة بيطار : موقف القبائل العربية في الشام من الدولة الفاطمية ، ص ١١٨ - ١١٩ .
(٢٨) - انظر بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوطة مصورة بجامعة القاهرة رقم ٥٤٠٢٦ ، ٥٤٠٢٧ ، ج ٦ ، ورقة ٢٧٣ .

- العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ ، تاريخ و ٥٥٩ معارف عامة ، ج ١٩ ، مجلد ٣ ، ورقة ٤٦٥ .

(٢٩) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٧٦ - محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ ، ص ١٩ - خاشع المعاصيدي : دولة بني عقيل في الموصل من سنة ٣٨٠ - ٤٨٩ هـ مطبعة شفيق بغداد سنة ١٩٦٨ ، ص ٤١ .

ثورة نصر بن شيبث العقيلي :

نشبت ثورة نصر بن شيبث العقيلي في سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م^(٣٠) . وقد عبر نصر تعبيرا صادقا عن أسباب ثورته التي أعلنها لنفر من الشيعة حينما سأله ان يدعم مركزه بالبيعة لخليفة فاجابهم بقوله انه لا يكره بني العباس ولم يكن قتاله لهم الا لانحرافهم عن العرب ولاعتمادهم على الاعاجم^(٣١) .

وتنتج عن شعور نصر باهمال العباسيين للعرب وتفضيلهم للموالي . حبه للخليفة الأمين^(٣٢) وكرهه للمأمون ، لان أم الأمين عريية فتطوع في الجيش الشامي الذي شكله عبد الملك بن صالح لنجدة الأمين . واشتد غضب نصر لمقتل الأمين فاخذ بمناهضة المأمون ، فاستولى على الجزيرة^(٣٣) وعلى ماجاوره من البلاد .

استغل نصر الظروف التي تمر بها بلاد الشام انز القتال بين الأمين والمأمون . فقد تمزقت وحدة بلاد الشام في تلك الفترة ، وسيطر كل رجل في نفسه القدرة على منطقة من المناطق ، أو مدينة من المدن ، فقد سيطر احمد بن عمر بن الخطاب الربيعي على نصيبين وما والاها . وموسى بن المبارك الشكري على ميفارقين . وعبد الملك بن الجحاف السلمي ومحمد بن عتاب على ارمينية ، وحبيب بن الجهم على رأس عين وكفر توثة^(٣٤) ، وعثمان بن تمامه العبيسي على قورس^(٣٥) وما والاها من كور قنسرين . وكان كل من منيع التنوخي ويعقوب بن صالح الهاشمي يقتتلان للسيطرة

(٣٠) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٧١ - كرد علي : خطط الشام ج ١ ، ص ١٨٦-١٨٧

(٣١) - خاشع العاصيبي : المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٣٢) - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقة ١٢٢ وجه

(٣٣) - العيون والحدائق ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣

(٣٤) - انظر ابن خرد اذبه : المسالك والممالك ، طبعة ليدن ١٨٨٩ ، ص ٩٥ .

- الاصطخري : صور الاقاليم ، طبعة ليدن ١٩٦٧ ، ص ٧٤ .

(٣٥) - انظر ابن رسته : الاعلاق النفسية ، ليدن ، مجلد ٧ ، ص ١٠٧ - ابن حوقل : صورة الارض ،

ليدن ، ص ١٨٧ .

على حاضر حلب • وكان الحواري التنوخي بمعرة النعمان وتل منس^(٣٦) ومالاها ، وحران البهراني بحماه وما والاها وبنو بسطام بشيزر وما والاها ، وبنو السمط بمدينة حمص ، وثابت بن نصر الخزاعي بالمصيصة واذنه وما والاها من الثغور الشامية واقام بدمشق والاردن وفلسطين جماعة من سائر القبائل • وكان أصعب هؤلاء شوكة واشدهم امتناعا نصر بن شيبث ، وكان يسيطر على كيسوم^(٣٧) وما والاها من ديار مضر^(٣٨) •

انضم الى نصر في ثورته عدد كبير من القبائل في مناطق الشام الشمالية ، كما انضم اليه قائد من قواد الجند يقال له عمر^(٣٩) • وقد تمكن من اثاره الذعر على ضفتي الفرات لمدة ثلاثة عشر عاما • وقد اقضت هذه الثورة مضاجع الخليفة المأمون ، فعين في سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م طاهر بن الحسين على بلاد الشام وكلفه بقتال نصر • حاصر طاهر نصرا بكيسوم ، ففشل في إجباره على الرضوخ • ثم قاتله نصر بجرأة نادرة ، وأئخن في أصحابه ، كما هزمه في الرقة ، وبقي القتال بينهما حتى ورد المأمون الى بغداد واستدعى طاهرا اليه^(٤٠) •

(٣٦) - تل منس حصن قرب معرة النعمان بالشام • وهو من اعمال جند حمص انظر البغدادي : مرصد الاطلاع ، ص ٢٧٣ - اليعقوبي : البلدان ، مع كتاب العلاقات النفسية لابن رسته طبعة ليدن ١٨٨١ ، ص ٣٢٣ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مجلد ١ ، ص ٨٧١ •

(٣٧) - كيسوم : حصن على الطريق من الرقة الى الثغور الجزرية ، انظر ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ٩٧ •

(٣٨) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ • وانظر كذلك المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١٢٢ وجه

- فازيليف : العرب والروم ، ترجمة شعيره ، طبعة دار الفكر العربي ص ٨٧ لم استطع التعرف على الاسم الكامل لعمر هذا اذ لم تذكره المصادر العربية التي راجعتها • وقد تكون سميت هذه التي تحصن بها هي سميساط •

(٤٠) - ابن قتيبة الدينوري : العارف ، ص ١٦٩ - ١٧١ •

- الطبري : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٥٨١ •

ابن طيفور : تاريخ بغداد ، جزء ٦ ، ص ٣٤ - ٣٥ - ابن الساعي البغدادي : المصدر السابق ، ص ٣٨

تولى ولاية المنطقة قتال نصر ففشلوا ، وانهزموا أمام قوته وجرأته فنهض المأمون لاختيار قائد كفاء ، فوقع اختياره على عبد الله بن طاهر . فاعطاه ولاية المنطقة الممتدة من الرقة الى مصر منذ سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م ، وكلفه بقتال نصر بن شيبث . وقد اوصى طاهر بن الحسين ابنه عبد الله بهذه المناسبة وصية مشهورة أوضح فيها الطريق الذي يجب عليه أن يسير فيه . وحسن معاملة الناس وقدم له خبرته في الحروب ، وباختصار فإن هذه الوصية جمعت محاسن الاداب والسياسة ومكارم الاخلاق . اذ لم يترك طاهر شيئاً من أمر الدين والدنيا ، والتدبير والرأي والسياسة واصلاح الملك والرعية ، وحفظ البيعة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد احكمه وأوصى به (٤١) .

اقام عبد الله على محاربة نصر خمس سنوات جرت خلالها معارك كثيرة ، ولم يستطع خلالها ان يحقق نصراً حاسماً على العقيلي ، وقد جرى في هذه المدة مفاوضات لطلب الصلح فشلت بسبب كبر في رأس نصر لم يقبل به الخليفة . فقد اشترط نصر ان لا يطاء بساط المأمون ، فرفض المأمون ذلك وكانت حجته انه اذا كان نصر خجلاً مما كان منه ، فانه لم يكن أكبر جرماً ممن سبقه في عدااء المأمون من أمثال الفضل بن الربيع وعيسى بن أبي خالد ، ومع ذلك فانهم وطأوا بساطه (٤٧) .

قضى تشدد كل من الطرفين في مطالبه على كل فرصة للصلح . ويعود تشدد نصر في موقفه الى أنه كان يرى نفسه أقوى من المأمون لان ثورته ثورة عربية . وأن دعم العرب له يجعله في موقف قوة ، ويحتقر جيوش المأمون لانها لم تستطع ان تقضي على ثورة الزط ، يتضح ذلك مما صرح به بلهجة عامية بعد رفضه لشروط

(٤١) - هذه الوصية موجودة بنصها الكامل في الطبري : المصدر السابق ، ج ٨ ، من ص ٥٨٢ - ٥٩١ ابن طيفور : المصدر السابق ، جزء ٦ من ص ٣٦ - ٥٣ - الرفاعي : المرجع السابق ، مجلد ١ ، من ص ١٧ - ٢٥

(٤٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٥٩٨ - ٥٩٩ - ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٠٧ - ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ - ابن طيفور : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

المأمون قائلاً « ويلي عليه » - يقصد المأمون - وهو لم يبق على اربعمائة ضفدع تحت جناحه • يقوى علي بجلبة العرب • ثم صاح بالخيـل معلنا العودة السي القتال (٤٣) •

ضيق عبد الله بن طاهر على نصر • وحاصره في كيسوم حتى اضطره السي طلب الامان • وتبع نصر في ذلك سائر المتغلبين على النواحي من أهالي الجزيرة والشام • فجنحوا للسلم وطلبوا كتب الامان (٤٤) • وخرج نصر بن شبت السي عبد الله بن طاهر في الرقة حيث سيره الى بغداد ، فوصلها في صفر سنة ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م ، ووكل به المأمون من يحفظه (٤٥) • وقام عبد الله بتخريب حصن كيسوم ، وهدم سور معرة النعمان ، كما هدم معظم الحصون الصغار مثل حصن الكفر وحصن حناك (٤٦) • وتمكن عبد الله بن طاهر من اعادة بلاد الشام الى حوزة الخلافة العباسية • وعلى هذا الشكل انتهت هذه الثورة العربية التي نهض بها عرب الشام للوقوف في وجه الخلافة العباسية بسبب ابعاد العنصر العربي عن مسرح السياسة والقيادة العسكرية •

يتضح من كل ماسبق دراسته أن العباسيين عملوا منذ عهد المأمون على اهمال شأن العرب تدريجيا ، وعلى الرغم من هذا الاهمال فانه في تعاملهم مع العرب في الشام اخذوا في الفترة الاولى ينحازون الى قبائل اليمن حتى كان عهد المأمون الذي اعلن انه لم يحب العرب اليمنية ولم يحبه هؤلاء (٤٧) •

(٤٣) - ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٠٧ - ابن طيفور : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٤٢

(٤٤) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ - نسخه كتاب الامان موجودة في ابن طيفور : تاريخ بغداد ، ج ٦ ، ص ١٣٩ - ١٤٠

(٤٥) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٥٩٩ - ابن طيفور : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٤٢ - حسن محمود واحمد ابراهيم الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي ، الطبعة ١ ، دار الفكر العربي ١٩٦٦ ، ص ٢٣٢ •

(٤٦) - ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٦ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤٩ - بيتشوف الجرمانى : المرجع السابق ، ص ١٩ •

(٤٧) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ •

وبدا واضحا منذ بداية القرن الثالث انحياس ولالة العباسيين الى العرب القيسية ، وقام هؤلاء الولاة في الشام بدور كبير في تحريض فرعي العرب بعضهم ضد البعض . مما نتج عنه اذكاء نار العصية القبلية . وقد حاول خلفاء العباسيين تعديل هذه الاوضاع في بلاد الشام ، فقاموا بزيارتها مستغلين فرصة قيامهم بأداء فريضة الحج او بحملات ضد البيزنطيين . كما عمل المأمون على دراسة الاوضاع الاقتصادية ، فوضع كشفا لاراضيها على أمل زيادة الدخل الوارد منها (٤٨) .

وقد عمل بعض أهالي الشام على التقرب من العباسيين ، واعلان طاعتهم وولائهم لهم تخلصا من الفتنة ، ورغبة في العيش بطمأنينة . فقد وفد منهم الى الخليفة المنصور جماعة ، فخاطبه رئيسهم قائلا: يا أمير المؤمنين : لسنا وفد مباهاة ولكن وفد توبة . ابتلينا بفتنة استفزت شريفنا ، واستخفت حليمنا ، فنحن بما قدمنا معترفون ، ومما فرط منا معتذرون ، فان تعاقبنا فبجرمنا ، وان تعف عنا فبفضلك علينا . فاصفح يا أمير المؤمنين اذ ملكت ، وامنن اذ قدرت ، وأحسن فظالما أحسنت . فقال المنصور : أنت خطيبهم ، وأمر برد قطائعه بالغوطة (٤٩) .

ب - ثورات اجناد الشام وموقف العباسيين منها :

ظن العباسيون ان الجو سيصفو لهم باتباع سياسة الشدة مع الامويين وأنصارهم ، ولكن ذلك قد أدى الى ردة فعل عكسية ، فقد نشبت الثورات في كل مكان من بلاد الشام في حوران والبثنية وفي قنسرين ودمشق وحمص وفلسطين ولبنان .

ثورة حوران والبثنية ، ثورة حبيب بن مرة المري :

كانت الثورة التي التهمت في حوران والبثنية ردا على سياسة الانحياس التي قام بها العباسيون عقب فتح الشام مباشرة ، فقد نهضت القبائل القيسية في المنطقة

(٤٨) - حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، جزء ٢ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٤٩) - القريري : المصدر السابق ، ورقه ٩١ وجه

و ثارت بزعامة حبيب بن مره المري الذي كان قائدا من قواد الخليفة الاموي مروان ابن محمد ، فخلعوا طاعة العباسيين ، وبايعوا رجلا من بني امية (٥٠) .

ولما بلغ عبد الله بن علي ذلك سار لقتالهم . وجرت بينهما معارك كثيرة لم تسفر عن نتائج حاسمة . واضطر عبد الله بن علي الى عقد صلح معهم لنشوب ثورة كبيرة في قنسرين . فدعا حبيب بن مرة وأمنه ، ومن معه ، وخرج متوجها الى قنسرين (٥١) .

ويبدو ان عبد الله بن علي لم يكن مرتاحا للصلح الذي عقده مع أهالي حوران والبثنية لانه عقده مضطرا . وخشي ان يعود هؤلاء للثورة بعد التجاء القبائل القيسية في دمشق اليهم ، اذ تذكر بعض المصادر أن عبد الله بن علي بعد أن نجح في مهمته الجديدة سار ثانية الى حوران والبثنية ، وقاتل حبيب بن مرة حتى هزمه (٥٢) .

ثورة قنسرين وحلب أبو الورد الكلابي (٥٣) والسفياني (٥٤)

كان أبو الورد ومن معه من جنود بني امية قد بايعوا العباسيين بعد ان تمكن

-
- (٥٠) - اليعقوبي : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٩٣ .
(٥١) - الطبري : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٦ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٤ .
- كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ بينما يذكر اليعقوبي : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٩٣ من ان عبد الله بن علي زحف اليه وقتله وفرق جمعه .
(٥٢) - الازدى : المصدر السابق ، ص ١٤٤ .
(٥٣) - هو أبو الورد مجزاة بن زفر بن الحارث الكلابي . وهو من قواد مروان واصحابه . انظر القريري : المصدر السابق ، ورقه ٨٠ ظهر .
- ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٥٤ - ٥٥ ابن الاثير : المصدر السابق ج ٤ ، ص ٣٣٤ .
- الطباخ : اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء ، طبعة حلب ١٩٢٥ ، الطبعة الاولى ، جزء ١ ، ص ١٣٣ .
(٥٤) - هو أبو محمد زياد بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .
انظر القدسي : البدء والتاريخ ، ج ٦ ، ص ٧٣ - ابن العديم : بغية الطلب ، ج ٧ ، ورقة ٤٢ ،
اما بيتشوف : المرجع السابق ، ص ١٥ فيذكر اسمه أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية
ابن أبي سفيان .

عبد الله بن علي من دحر مروان بن محمد ، ودخول قنسرين • ثم مالبث ان أعلن الثورة ونكس بيعة العباسيين ودعا اهالي قنسرين وحلب الى اتباعه^(٥٥) • ويعزى ذلك الى ان اولاد مسلمة بن عبد الملك الذي كانوا مجاورين له في بالس والناعورة قد اضطروا الى ترك اراضيهم بضغط من العباسيين • وان احد قواد عبد الله بن علي يرافقه مائة وخمسون فارسا تقدموا الى الناعورة واستولوا على املاكهم • وقد التجأ هؤلاء الى ابي الورد وشكوا له حالهم فقرّر انصافهم ، واحقاق الحق • يضاف الى ذلك أن ابا الورد لم يكن راضيا عن الاساليب الوحشية التي كان العباسيون يستخدمونها للحصول على الاموال والاراضي من اصحابها • فقرّر ان ينتقم منهم^(٥٦) • لم يكن أمام ابي الورد الا ان يزيد في عدد انصاره • وان يضفي على ثورته صفة الشرعية بالبيعة الى رجل يرضى عنه معظم اهالي الشام • ولذلك فانه بايع لرجل أموي تلقب بالسفياني^(٥٧) • كان له معسكر في سلمية يضم اربعين الف رجل •

دعا أبو الورد اهالي حمص وتدمر الى الثورة ، فقدم اليه الوف جعل على قيادتهم السفياني • وقام ابو الورد بتنظيم جيشه • فجعل السفياني على المقدمة وترك لنفسه تدير الجيش • كان عبد الله بن علي في تلك الفترة مشغولا بقتال حبيب بن مرة المري • ولذلك وجه اخاه عبد الصمد في زهاء عشرة الاف فارس

(٥٥) - الطبري : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٤٣ - ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٤ -

٥٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٣٤ •

(٥٦) - الطبري : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٤٣ - ابن العديم : بغية الطلب ، ج ٧ ، ورقة ٤٣ •

(٥٧) - وضع الامويون بعد سقوط دولتهم ملحمة زعموا انهم يعرفون ما يحدث في المستقبل من ظهور امرهم ورجوع دولتهم ، وظهور السفياني في الوادي اليابس من ارض الشام في غسان وقضاءهم ولخم وخدام • ودخلت على هذه النغمة السفيانية افكار اخرى كمسير الامويين من بلاد الاندلس الى الشام وانهم اصحاب الخيل الشهب والرايات الصفر • وغرضهم من ذلك ان لا ينقطع الامل من رجوع دولتهم ، وكان ذلك سببا في فتك العباسيين بكل من توهّموا فيه الرائحة السفيانية • ولم تنقطع هذه النغمة في الشام الا في نهاية القرن الثالث •

- انظر كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٧٧ •

فانهزموا في اللقاء الاول مع أبي الورد . عند ذلك لم يجد عبد الله بدا من السير
بنفسه ، فصالح حبيب بن مرة وخرج متوجها الى قنسرين^(٥٨) .

كان على عبد الله بن علي ان يقضي على هذه الثورة التي قامت في وجهه قبل ان
تشتد ، كما كان عليه قبل اندلاع نورات اخرى في بلاد الشام كافة على غرار هذه
الثورة - ان يثبت حكمه وان يقوي حامياته في المناطق التي يسير فيها في طريقه لقتال
أبي الورد .

عسكر السفيناني في جماعته بمرج الاخرم . حيث لاقوا قوات عبد الله بن علي ،
وما لبث السفيناني أن انهزم . وفر بمن كان معه متوجهين الى تدمر . بينما ثبت ابو
الورد في نحو خمسمائة من أهل بيته حتى قتلوا جميعا وجرح ابو الورد ، حيث مات
متأثرا بجراحه^(٥٩) .

وبهذه الهزيمة تراجع اهالي حمص عن بيعة السفيناني ، واقاموا في منطقتهم^(٦٠)
واكتفى عبد الله بن علي بذلك ، وانصرف عائدا الى دمشق ليؤدب الثائرين فيها بعد
ان منح الامان لاهالي المناطق الثائرة في شمال الشام^(٦١) . ومالبث السفيناني ان عاد
الى الثورة في حلب ، فارسل العباسيون جيشين لقتاله ، أحدهما ارسله أبو جعفر
المنصور الذي كان يومئذ بالجزيرة وارمينية وأذربيجان^(٦٢) بقيادة القائد مقاتل
ابن حكيم العكي ، والآخر بقيادة عبد الله بن علي .

(٥٨) - الطبري : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٤٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٣٤ -
ابو الفداء : تاريخه ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(٥٩) - الطبري : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٤٤ - ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٣٥ -
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ٥٥ .

(٦٠) - الطبري : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٤٥ .

(٦١) - الطبري : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٤٤ - ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٥ -
بيتشوف : المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٦٢) - انظر اليعقوبي : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٩٥ - ابو الفداء : تاريخه ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

سار الجيش الاول من الرقة ونزل منبج • واصطدم مع السفيناني في معركة كبيرة تمكن على اثرها من هزيمته ، فاستباح عسكره ، وافتتح حلب عنوة ، ثم جمع الغنائم وسار بها الى ابي جعفر في حران • وحين وصل عبد الله بن علي وجد ان الامور قد استقرت ، فارتحل الى دابق حيث قضى الشتاء ، ثم نزل سميساط لحصار اسحق بن مسلم العقيلي (٦٣) •

ثورة الجزيرة ، اسحق بن مسلم العقيلي :

استغل اهالي الجزيرة فرصة خروج ابي الورد • وانتقاض اهالي قنسرين على العباسيين ، فاعلنوا عصيانهم وخلعوا الخليفة ابي العباس ، وسار الثائرون برئاسة اسحق بن مسلم الى حران لحصار موسى بن كعب والي العباسيين • وقد دام هذا الحصار نحو شهرين •

ارسل الخليفة ابو العباس جيشا بقيادة اخيه ابي جعفر لقتال هذا الثائر • وانضم الى هذا الجيش عناصر ممن كانوا يحاصرون ابن هبيرة في واسط • ولكن هذا الجيش اضطر ان يقاتل بالرها مرات عديدة قبل ان يسير الى حران (٦٤) ، وكتب ابو العباس ايضا الى عبد الله بن علي بالسير بجنوده للغرض نفسه •

ولما علم اسحق بن مسلم بمسير الجيوش اليه • ارتد انى سميساط فالقى الحصار عليها سبعة اشهر ، ولم يكن اسحق بن مسلم ليوافق على انتهاء الثورة والاستسلام وطلب الامان الا اذا تيقن من أن مروان بن محمد قد قتل • لانه كان

(٦٣) - بيتشوف : المرجع السابق ، ص ١٥ - ١٦ بينما يذكر المقدسي : المصدر السابق ، ج ٦ ص

٧٣ - ٧٤ - ان جيش عبد الله بن علي حاربه مع جيش المنصور وهزمه ، وفرقا جموعه كل

ممنزق وقتل منهم ما لا يحصى •

(٦٤) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٠٦ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٣ ، ص

٢٧٨ - ٢٧٩ •

يرى أن في عنقه بيعة لالاخير (٦٥) ، ولما تحقق من الامر طلب الامان من أبي جعفر ،
فاجيب الى ذلك (٦٦) .

ومالبث الثورة ان عادت الى الاشتعال ثانية في المنطقة نفسها بقيادة ابان بن
معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي شكل جيشا مؤلفا من نخبة من كانوا مع اسحق
ابن مسلم . فسير اليه عبد الله بن علي جيشا بقيادة حميد بن قحطبه فهزمه والجاه
الى سميساط . ثم تبعه عبد الله بن علي ونازل المدينة حتى فتحها عنوة ودخلها . الا
ان الخليفة ابا العباس مالبث ان دعاه الى ترك القتال ، ورفع السيف عن الناس وذلك
في ١٠ رمضان سنة ١٣٣ هـ / ١٧ نيسان ٧٥١ م (٦٧) .

ثورات دمشق :

عاد عبد الله سرعا الى دمشق ليؤدب الثائرين فيها . اذ كانوا قد استغلوا
مشاغله في القضاء على ثورات حبيب بن مرة ، وابي الورد . واسحق بن مسلم
وثاروا في وجه واليه ابي غانم عبد الحميد بن ربيعي الطائي ، ونكسوا بالبيعة
للعباسيين (٦٨) .

هاجم ثوار دمشق في سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م (٦٩) الوالي العباسي ابا غانم ، ومن
معه فهزموه وقتلوا من اصحابه مقنلة عظيمة ، وعادوا ليأخذوا الاموال والمتاع التي
كان عبد الله بن علي قد استولى عليها ، دون ان يتعرضوا لاهله باذى .

(٦٥) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٩١ - الطبري : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٤٤٦ - ٤٤٧
المقريزي : المصدر السابق ، ورقه ٧٧١ وجه - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣٣٥ .
(٦٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٤٧ - ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ،
ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٦٧) - ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٥٦ - ٥٧ - بيتشوف : المرجع السابق ، ص ٦ .
(٦٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٤٤ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص
٣٣٤ - ٣٣٥ .

اقترب عبد الله بن علي من دمشق فخرج اهلها لقتاله في جيش يتألف من ثمانين الفا ، واراد عبد الله ان يغير من سياسة الشدة التي استعملها مع اهالي الشام منذ فبامه بفتحها . وأن يعمل بنصيحة الخليفة بعد ان اثبتت سياسة الشدة فشلها ، وارتأى ان يستفيد من العصبية القبلية لتفريق الجنود الذين خرجوا لقتاله . فخطب رؤساء القبائل اليمينية وذكرهم بالدور الفعال الذي قاموا به في نشر الدعوة العباسية وبالمساعدات التي قدموها اليه اثناء دخوله مدينة دمشق . والتي كانت سببا في سهولة فتح المدينة ، وأدت هذه السياسة ثمارها . فقد ترك العرب اليمينية القتال ، كما لحقت بهم ربيعة ، وما أن رأى عرب مضر ذلك حتى خافوا على انفسهم ، فتركوا القتال ورحلوا عن دمشق بذرايرهم واموالهم ، وانضموا الى حبيب بن مرة ، وانفسح بذلك المجال امام عبد الله فدخل دمشق ، واقام بها خمسة عشر يوما ، ثم توجه للفضاء على حبيب بن مرة ومن انضم اليه (٧٠) .

ويمكن ان نعزي أسباب الثورات التي نشبت في دمشق الى سوء الاحوال الاقتصادية والعمرانية الى جانب سياسة القسوة والشدة التي كان يستعملها الولاة مع الاهالي ، فمن المعروف ان مدينة دمشق لم تحظ باية رعاية أو اهتمام من جانب العباسيين ، وكانت تسير عمرانيا واقتصاديا الى الاسوأ ، حتى ان دمشق اصبحت جرداء مقفرة ، ويبدو ذلك واضحا حين نعلم ان الخليفة هارون الرشيد عزل واليه الحسين بن عمار عنها حين تنبه الى ذلك وخاطبه مؤدبا له موضحا اسباب عزله فقال:

« وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدر تتكفأ امواجها على رياض كالدراري (٧١) ، فما برح بك التعدي لارفاقهم ان جعلتها اجرد من الصخر واوحش من القفر ، قال والله يا أمير المؤمنين ما قصدت غير التوفيق من جهته . ولكني رأيت

(٦٩) - الازدي : المصدر السابق ، ص ١٣٥ و ص ١٤٤ .

(٧٠) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٤٥ .

(٧١) - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٩٦٧ ص ١٠٤ - ويذكر كرد علي : في كتابه الادارة الاسلامية ، ص ١٤٤ ذلك ولكن مع بعض التغيير ومنها قوله (. . . تتكفأ امواجها على رياض كالزرايبي واردة منها كفايا المؤمن الى بيوت اموالي . .) .

أقواما. تقل الحق على اعناقهم ، فتفرقوا في ميادين التعدي ورأوا المراغمة بترك
العمارة اوقع باضرار السلطان ، وارادوا بذلك المشقة على الولاة ، وان سخط أمير
المؤمنين قد اخذ بالحظ الاوفر من مساءتي » (٧٢) .

ويبدو ان الضعف الذي عم مدينة دمشق قد جعل سكانها يركنون الى الهدوء
فترة من الزمن ، الا ما كان من اشتراك بعضهم في الثورات التي كانت تنشب بين
القبائل ، حتى كانت سنة ١٩٥ هـ / ٨١٠ م حيث نشبت ثورة سفيانية كبيرة وهي
الثورة التي سميت بثورة ابي العميطر (٧٣) . وكانت هذه الثورة اوسع انتشارا
من كل الثورات السفيانية التي سبقتها . فعلى الرغم من انها قد اندلعت في دمشق
الا أن آثارها امتدت الى مناطق القيسية في حوران . ومناطق بني نمير في شمال
الشام . وادت الى انتشار الفوضى في طول البلاد وعرضها . حتى فكر العباسيون
في نقل الأموال من مصر الى بغداد عن طريق الحجاز ، بعد ان كانت تنقل عن
طريق الشام (٧٤) .

دعا هذا التأثير بالخلافة لنفسه وبايعه عدد كبير من الناس . وتغلب على
سليمان بن منصور عامل العباسيين وتمكن احد انصاره من الاستيلاء على صيدا
وضمها له . وبذلك اصبحت المنطقة التي تحت امرته تشمل اواسط بلاد الشام (٧٥)

لقد نجحت ثورة السفياني في الفترة الاولى من عهدها بضم عدد كبير اليها

(٧٢) - ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٧٣) - يسمي علي بن عبدالله بن يزيد ابن معاوية وكانت امه انتسب الى علي بن ابي طالب
وتسمى نفيسة بنت عبيد الله بن العباس بن علي بن ابي طالب . وكان يستغل انتسابه عن
طريق ابيه الى معاوية بن ابي سفيان وعن طريق امه الى علي بن ابي طالب فيقول أنا اباسن
شيخني صفين . انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٣٤ - ابن خلدون : المصدر
السابق ج ٣ ، ص ٢٣٤ .

(٧٤) - الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٧٥) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٤٧ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ،
ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

لان السفيناني كان يعرف بين الناس بانه من العلماء المشهورين ، وبحسن السيرة ومالبت الناس ان انقضوا من حوله حين رأوا فيه عكس ذلك (٧٦) .

اراد السفيناني ان يدعم جيشه بانضمام القبائل القيسية اليه ، الى جانب اليمينية التي كان يتألف منها معظم جيشه ، فلم يستطع . عند ذلك لم يكن امام السفيناني الا ان يسفر عن عدائه للقيسية فهاجمهم في المناطق التابعة له ، فاستنجدت القيسية بزعيمها ابن بيهس الذي لم يجد بدا من نصرة قومه .

رأى السفيناني ان يرسل الى ابن بيهس قواتا تهاجمه قبل ان يصل الى دمشق . فارسل اليه اثني عشر الفا بقيادة يزيد بن هشام حسب رأي بعض المصادر الموثوقة — وقد يكون هذا الرقم مبالغاً به — وعلى الرغم من ان هذه القوات كانت تفوق الاعداد التي كانت مع ابن بيهس ، الا ان هذا تمكن من هزيمتهم . وقتل منهم اعدادا كبيرة تزيد على الف رجل ، واسر منهم ثلاثة الاف . وتحقيرا لهم فانه حلق لهم رؤوسهم ولحاهم ثم اطلقهم فاضطر من بقي مع السفيناني الى الارتداد نحو دمشق (٧٧) .

وتقدم ابن بيهس لمحاصرة دمشق . فشكل السفيناني جيشا جديدا جعل على رئاسته ابنه القاسم ، الا ان هذا الجيش انهزم منذ اللقاء الاول وقتل القاسم . فارسل ابن بيهس رأسه الى الخليفة الامين تقريبا (٧٨) .

ادت انتصارات ابن بيهس الى ضعف امر السفيناني ، فاستغل ابن بيهس الفرصة وحرّض رؤساء بني نمير على مبايعة احد احفاد مسلمة بن عبد الملك بالخلافة، وكان

(٧٦) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٤٧ .

(٧٧) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٤٧ — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٧٨) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٤٧ — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٣٥ .

يقصد بذلك ضرب الثورتين ببعضهما • ثم عاد هو الى حوران^(٧٩) • وتمكن حفيد مسلمة بن عبد الملك من القبض على السفيناني ، واخذ البيعة لنفسه معتمدا على نصرة العرب القيسية^(٨٠) • وسنحت الفرصة لابن يهس واصحابه بالتغلب على دمشق • وبقي الوضع كذلك الى ان قدم عبد الله بن طاهر الى دمشق حيث اخذ ابن يهس معه الى العراق فمات بها^(٨١) • وبذلك تمكن العباسيون من القضاء على هذه الثورات التي دامت فترة طويلة •

ولم تكن مدينة دمشق لتهدأ نهائيا للعباسيين • فقد اشتعلت فيها نيران ثورات متعددة • كان اشهرها الثورة التي اشتعلت في سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ - ٨٥٥ م في عهد الخليفة المتوكل على الله • وكان سبب اشتعال هذه الثورة قسوة وظلم والي دمشق سالم بن حامد • فقد عسف باهالي دمشق وقتل جماعة من اشرافهم ، قثاروا في وجهه وتمكنوا من قتله على باب قصر الخضراء ، كما قتلوا عددا من رجاله • وقاموا بنهب ما وصل الى ايديهم من الأموال^(٨٢) • غضب الخليفة لمقتل عامله بيد اهالي دمشق واراد ان يثار له منهم بتسوة ، وان يضربهم برجل قوي ، فجمع قواده وقال لهم : (من لدمشق وليكن في صولة الحجاج) فاشير عليه بافريدون التركي فامرهم على جيش قوامه عشرة الاف جندي منهم سبعة الاف فارس وثلاثة الاف رجل من المشاة • واحل له القتل والنهب مدة ثلاثة ايام ، فنزل بيت لها ليبيت ليلته • ثم يستقبل الصباح بالتوجه الى دمشق ، بعد ان هدد اهاليها بالقتل والتخريب • ولكن شاءت الاقدار ان تنجو مدينة دمشق منه قبل ان يطرق ابوابها^(٨٣) • ويبدو

(٧٩) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٤٧ •

(٨٠) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٤٧ - جورج يني : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ •

(٨١) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٤٧ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٣٥ •

(٨٢) - كان سالم سيء السيرة وكان ينل بعض اهالي دمشق لانه كان بينه وبينهم طائلة ودعاء انظر كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٩٣ •

(٨٣) - كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٩٣ •

انه على الرغم من موت القائد فان جنوده دخلوا دمشق واتهبوها واعملوا السيف في سكانها (٨٤) .

ثورات لبنان وحمص (اهل النمة) :

بدأت الثورات في لبنان منذ الفترة الاولى لدخول العباسيين الى بلاد الشام وفي عهد الخليفة أبي العباس نفسه ، ففي سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م قام الجراحمة (٨٥) بثورة قادها رجل اسمه الياس . فنهب البقاع وقراه وسكانه فارسل اليه عبد الله بن علي رسلا للتفاهم وعقد الصلح ولكن هذه الوساطة لم تسفر عن شيء ، مما اضطر الوالي الى مهاجمته في قرية المرج حيث تمكن من قتله (٨٦) .

وعلى الرغم من قتل قائد الثوار نفسه ، فان الثورة لم تهدأ بل استمرت وعين قائد جديد على الجيش يسمى سمعان ، وهو ابن اخت الياس . فسارت اليه جيوش الشام ، ودارت بين الفريقين حرب في قرية الشوير ، تمكن سمعان خلالها من هزيمة جند الشام (٨٧) . وكان جراحمة لبنان يحصلون على مساعدات من البيزنطيين عن طريق البحر . فقوي امرهم واخذوا يمنعون الناس من المرور في المناطق المجاورة لمناطقهم . وهددوا المناطق المحيطة بهم بالغزو حتى حمص وحماة . ولم يتمكن المسلمون من السيطرة عليهم لتحصنهم في الجبال المرتفعة (٨٨) .

هذا وقد نشبت ثورة في لبنان سنة ١٤٢ - ١٤٣ هـ / ٧٥٩ - ٧٦٠ م في المنيطرة

(٨٤) - كرد علي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

(٨٥) - عن الجراحمة واصلهم انظر حتي : لبنان في التاريخ منذ اقدم العصور وحتى ايامنا ، ترجمة انيس فريجه ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بنيويورك - بيروت . ١٩٥٩ ، ص ٢٩٨ - ٣٠٠ .

.. وانظر ايضا العدوى : الامويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، طبعة ٢ ، ١٩٦٢ ، ص ١١٦ ، وما بعدها .

(٨٦) - كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٧٩ .

(٨٧) - كرد علي : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٠ .

(٨٨) - صلاح نويهض : ابو جعفر المنصور ، مطابع دار الصحافة بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦٢ ، ص ٤٠ .

القرية من افقا ، بسبب تعسف عامل العباسيين وجوره في فرض الضرائب على الاهالي . وخشي هؤلاء ان تنزل عليهم مصادرات جديدة فحملوا السلاح منتهزين فرصة وجود اسطول بيزنطي في مياه طرابلس . وانقضوا من قاعدتهم في المنيطرة - في اعالي لبنان - وانهبوا عددا من قرى البقاع (٨٩) .

وقد قاد هذه الثورة شاب جبلي شديد لقب نفسه بالملك ، ولبس التاج ، واجتمع حوله عدد كبير حتى استفحل امره (٩٠) . وسبى هؤلاء بعض قرى البقاع وقتلوا المسلمين فيها وتقدموا نحو بعلبك التي كانت مقرا لعامل العباسيين (٩١) ، ونصبوا كمينا لجيش العباسيين ، وقتلوا عددا كبيرا من افراده (٩٢) .

كانت ردة الفعل عنيفة عند العباسيين . فقد عمل صالح بن علي على الانتقام منهم شر انتقام . فقد هاجم القرى النائرة في منطقة المنيطرة ، وامر باخراج من بقي في الجبال وتفرقهم في بلاد الشام وكورها . ولكنه لم يتعرض لدياتهم بسوء . وقد كان لهذا العمل وهذا التدبير الإداري اثر سييء في نفس الامام الاوزاعي (٩٣) الذي رفع احتجاجا الى الوالي جاء فيه (... وقد كان من اجلاء اهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن مماثلا لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم وحكم الله تعالى (ان لا تزر وازرة وزر اخرى) . وهو أحق ما وقف عنده واقتدي به . وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله (ص) . فانه قال من ظلم معاهدا ، أو كلفه فوق طاقته فانا حجيجه) (٩٤) .

(٨٩) - حتى : تاريخ سورية ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .

(٩٠) - كرد علي : الادارة الاسلامية ، ص ١٢٦ - خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٩١) - كانت بعلبك تابعة لولاية دمشق حتى استولى عليها احمد بن طولون ، انظر ميخائيل موسى الوفا البعلبكي ، تاريخ بعلبك ، بيروت ١٩٢٦ ، ص ٧٦ .

(٩٢) - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٦٢ - حتى : لبنان في التاريخ ، ص ٣٢٧ - كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٨٠ .

(٩٣) - عن الاوزاعي انظر حسن محمود و احمد ابراهيم الشريف : العالم الاسلامي ، ص ٢٥٢ .

(٩٤) - البلاذري فتوح البلدان ، ص ١٦٢ - حتى : تاريخ سورية ، جزء ٢ ، ص ١٦٧ - كرد علي : الادارة الاسلامية ، ص ١٢٦ .

وقام الخليفة أبو جعفر المنصور في الفترة نفسها بزيارة الى الشام وأرتأى ان يتخذ خطوات ايجابية للحد من قوة الجراجمة في لبنان . فاخذ يعمل على نقل قبائل عربية بحالها الى هذه المنطقة لتستقر بها ، وتمكن من ادخال عناصر عربية مسلمة واوكل الى هؤلاء مهمة الدفاع عن المنطقة أمام هجمات الجراجمة والبيزنطيين . ولذلك فانه اصدر اوامره الى قبيلة لخم بالسكن في هذه المناطق . فلبوه مخلصين وانعم عليهم باقطاعات اخرى في لبنان (٩٥) .

وهدأت الثورات في لبنان نسبيا بعد الاجراء الذي اتخذه المنصور بنقل التنوخيين اليها . حتى كان عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله . حيث اشتدت نقمة النصاري بسبب التدابير الصارمة التي فرضت عليهم . وكان الخليفة هارون الرشيد قبله قد اتخذ بعض الاجراءات ضد النصاري واليهود . ولكنه لم يضعها حيز التنفيذ ، اذ امر في سنة ١٩١ هـ / ٨٠٦ - ٨٠٧ م بهدم الكنائس الموجودة في الثغور ، كما اوجب على جميع الذميين ان يرتدوا زيا معيناً (٩٦) .

اما الخليفة المتوكل فانه اتخذ في سنة ٢٣٦ و ٢٤٠ هـ / ٨٥٠ و ٨٥٤ م تدابير جديدة ، واذا كان ذلك صحيحا فانها تكون اشد ما فرض في حق الاقليات على الاطلاق . فقد اجبر النصاري واليهود ان يجعلوا على بيوتهم تماثيل خشبية للشياطين . وان لا يرفعوا سطوح قبورهم عن مستوى سطح الارض . وان يرتدوا معظما عسلي اللون له رقعتان على كل كم . وان لا يركبوا الا البغال والحمير وذلك على سرج من خشب له على قربوسيه كرتان خشبيتان كأنهما رماقتان ، فصار الذمي يسمى بسبب هذه الملابس الخاصة بالارقط (٩٧) .

(٩٥) - عجاج نويهض : المرجع السابق ، ص ٤٠ نقلا عن كتاب تاريخ الاعيان ، لطنوس الشدياق .

(٩٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٠٦ - حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ،

جزء ٢ ، ص ١٦٨ اذ يذكر ذلك في سنة ١٩٠ هـ ولم يحدد الهدم في الثغور بل ذكر عن هدم جميع

الكنائس التي بنيت منذ الفتح الاسلامي . وهذا يختلف طبعا عما جاء في الطبري .

(٩٧) - حسن حبشي : اهل الذمة في الاسلام ، مترجم عن ترتون ، نشر دار الفكر العربي ١٩٤٩ ، ص

١٢٥ - ١٢٦ - حتى : المرجع السابق ، الجزء ٢ ، ص ١٦٨ .

أدت هذه الاجراءات الى نشوب فتنة عنيفة في حمص سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م
اشترك فيها النصاري والمسلمون . ولكنها اخفقت بعد مقاومة شديدة . فضربت
اعناق زعمائها ، ثم هدمت جميع الكنائس الا تلك التي ضمت الى المسجد الكبير .
وابعد جميع النصاري من المدينة الثائرة (٩٨) فهدأت بذلك الثورات .

ثورة فلسطين والاردن (المبرقع اليماني) :

كانت فلسطين مسرحا لفتنة كبيرة سنة ٢٢٦ هـ / ٨٤٠ م (٩٩) ، عمد رجل من
عرب اليمن مجهول النسب من اهالي غور فلسطين والاردن الى اعلان العصيان
وخلع طاعة العباسيين ، ورفع العلم الابيض . ولبس برقعاً على وجهه
فسمي بالمبرقع ، واحد يدعو لنفسه فتبعه خلق كثير من الزراع وغيرهم . وقد
اعتقد اتباعه بانه السفياني المنتظر ، وانه يملك الشام . وقد استفحلت هذه الثورة
وخاصة بعد ان بلغ تعداد اصحاب المبرقع مائة الف رجل (١٠٠) . وكان اتباع المبرقع
هؤلاء على الاغلب من ابناء المناطق الريفية ومن طبقة المزارعين (١٠١) ، مما يشير ان
سبب الثورة اقتصادي .

وهناك سبب اخر يعود الى سوء معاملة جنود العباسيين وخاصة الاتراك منهم
للاهلالي وعدم احترامهم لحرمة المنازل . ويضاف الى هذين السببين سبب مباشر
ادى الى نشوب الثورة ، وهو ان احد الجنود الاتراك اعتدى على حرمة منزل
المبرقع . واراد دخوله في غياب صاحبه . وقد منعت السيدة الموجودة في المنزل (١٠٢)
فضربها بسوط كان معه . فاتقته بذراعها فاصابها وأثر فيها . وما ان عاد المبرقع
الى منزله حتى اشتكت له عما حدث ، فثارت عنده النخوة العربية ، وقرر ان يثار

(٩٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١٩٩ - حتى : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٦٩ .

(٩٩) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١٨ - بينما يذكر ابن خلدون : المصدر السابق ،

جزء ٣ ، ص ٢٧٠ ان الثورة كانت سنة ٢٢٧ هـ .

(١٠٠) - كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٩٢ .

(١٠١) - فيليب حتي : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٦٦ .

(١٠٢) - يذكر انها اخته او زوجته انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١٦ - العميون

والحدائق ، ص ٤٠٨ .

ويثور على الخلافة العباسية (١٠٣) فقتل الجندي ثم وضع على وجهه برقعاً كي لا يعرف ، وصار الى جبل من جبال الاردن (١٠٤) .

أخذ المبرقع يظهر من مخبئه في النهار ، ويجلس على الجبل الذي آوى اليه ببرقه يراد الرائي فيأتيه فيحرضه على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويذكر الخليفة فيعدد عيوبه . واستمر على ذلك حتى استجاب له عدد كبير من فلاحسي تلك المنطقة واهل القرى المجاورة (١٠٥) . ولما كثر اتباعه من هذه الطبقة ، دعا اهل البيوتات من تلك الناحية ، فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء القبائل اليمنية حتى بلغ ما معه زهاء مائة الف (١٠٦) .

وقد اراد المبرقع ان يكسب ثورته صفة الشرعية فادعى انه أموي ، وانه السفيناني المنتظر . فبلغ امره الى الخليفة العباسي المعتصم قبل وفاته ، فارسل اليه قائده رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء الف من الجند .

وصل القائد العباسي رجاء الى المبرقع ولما تأكد من كثرة اتباع خصمه ، كره منازلته ، وعسكر قريبا منه متريثا حتى تسنح له الفرصة ، ولما دنا وقت حرائه الارض انصرف معظم انصار المبرقع للقيام باعمالهم الزراعية السنوية ، وبقي هو في عدد قليل من رجاله . عند ذلك وجد رجاء الفرصة سانحة لقتال المبرقع ، فهاجمه وتمكن من اسره وحمله الى سامراء عاصمة العباسيين وقتذاك .

وهكذا فانه يبدو ان العباسيين استعملوا الشدة مع اهالي الشام بقصد

(١٠٣) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٧٠ .

(١٠٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١٦ - العيون والحقائق ، ص ٤٠٨ .

(١٠٥) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١٦ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٧٠ .

(١٠٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١٧ - ٨١١ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٧٠ .

اخضاع هذه البلاد لسلطتهم • ولكن اهالي الشام قابلوا ذلك بثورات متعددة ، بدأت منذ الفترة الاولى لحكم العباسيين ، وكانت هذه الثورات متلاحقة ، حتى اعجزت ولاية العباسيين ، كما انها اعجزت الخلفاء انفسهم فقاموا بتغيير مستمر للولاية كلما رأوا في ولاتهم عجزا عن اخضاع البلاد ، كما قام الخلفاء بزيارة الشام بانفسهم للاطلاع على مايجري فيها •

ولم يكن كل هذا كافيا لتهدة الثورات لان أسبابها كانت كامنة في البلاد • ولم يعمل العباسيون على استئصالها ، بل كثيرا ما تسبب ولاتهم في ايقاد نارها بتحيزهم لفرع قبلي دون اخر • ونشبت ثورات المدن والمناطق الشامية كرد على تأخر احوالها ، وخاصة الاحوال الاقتصادية والعمرائية ولكن هذه الثورات كانت تزيد في هذا التأخر •

٢ - الصراع بين افراد الاسرة العباسية

لم يضع العباسيون - كسابقهم من بني امية - نظاما محددا لوراثة العرش فقبل وفاة محمد بن علي الامام الاول للدعوة العباسية جعل ابنه ابراهيم على الامامة ، وحين شغل ابراهيم بملاحقة الامويين له سلم الامامة الى اخيه أبي العباس عبد الله ابن محمد • وبالتالي يمكن انقول ان الامامة اولا ثم الخلافة بعد ذلك لم تكن تنحصر في الابن الاكبر • وبإمكان الامام او الخليفة أن يختار لها من يجده مناسبا من أفراد أسرته • مفضلا أبناءه في الغالب ، وان كانوا اقل من المرشحين كفاءة ومقدرة •

وفوق هذا وذاك • فان الخليفة كان - في كثير من الاحيان - يعين اكثر من ولي للعهد بعده وحين يعتلي اول المرشحين عرش الخلافة يعمل على ابعاد ولاية العهد بعده ويحصر الخلافة في ابنائه • وقد تسبب ذلك في حدوث كثير من الخلافات بين افراد الاسرة العباسية ، وصلت في كثير من الاحيان الى امتشاق السيف • وتفرق أبناء الامة بينهم ، مما أدى الى استنفاد الكثير من الطاقات دون جدوى •

ولابد من القول قبل ان اتطرق الى تفاصيل هذه الخلافات ، من انه كان للتكتلات السياسية ومؤامرات رجال البلاط دور في اذكاء الصراع ، بتحريض الخلفاء على خلع ولادة عهودهم لمصالح لهم في مرشح دون اخر . وقد كان هذا الصراع خفيا احيانا وعلنيا في احيان اخرى . وقد تجلى هذا الصراع في الاسرة بين:

— عبد الله بن علي والخليفة المنصور :

بذكر بعض المؤرخين ان الخليفة أبا العباس — علي اثر قيادة مروان بن محمد الخليفة الاموي للجيش الذي عسكر به قرب نهر الزاب الاعلى — رأى ان يقوي مركز جيشه باعطاء القيادة لاحد افراد الاسرة العباسية (١٠٧) . وحين اجتمع بهم أعلن لهم أن من يقود المعركة ضد مروان ستكون له الخلافة ، تطوع عبد الله بن علي عم الخليفة بهذا الامر ، وتحمل هذه المسؤولية (١٠٨) الجسيمة . ولكن أبا العباس لم ينف بهذا الوعد بل عهد لاختيه ابي جعفر بها ، ومن بعده لابن اختيه عيسى بن موسى (١٠٩) .

حين توفي ابو العباس كان عبد الله بن علي يقود طائفة من أهل خراسان والشام والجزيرة والموصل (١١٠) . فعلم بخبر وفاة ابي العباس ، وبيعة عبد الله بن محمد المنصور وهو في دلوكة ، فاعلن الثورة معتمدا على الجيش الكثير العدد الذي يرافقه ، والذي أعد في الاصل لقتال البيزنطيين (١١١) . ودعا الناس لبيعته واعتبر بيعته المنصور باطلا (١١٢) .

ارتحل عبد الله من دلوكة فاستولى على حران ، وتحصن بها ، وأيده عدد

(١٠٧) — المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٢٣٩ وجه

(١٠٨) — انظر فيما سبق معركة الزاب — وانظر المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٢٣٩ ظهر .

(١٠٩) — انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٧٢

(١١٠) — الازدي : المصدر السابق ، ص ١٥٩ — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٧٢ — ٤٧٤

— الطباخ : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٣٦ — ١٣٧ — المقرئ : المصدر السابق ،

— ورقة ٢٣٩ ظهر

(١١١) — حتي : تاريخ سورية ، جزء ٢ ، ص ١٦٠ .

(١١٢) — المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٢٤٠ وجه و ٢٤٠ ظهر

كبير من رجال الجيش الذي كان يقوده (١١٣) ، مما اضعف موقف الخليفة الجديد . وكان عليه ان يحزم الامر ويقضي على ثورة عمه . وبما ان معظم قوات عبد الله من الخراسانيين . فان المنصور رأى ان يختار ابا مسلم الخراساني لقتاله . وكان غرضه من ذلك ان يضعف قواته بانضمام الخراسانيين في جيش عبد الله الى ابي مسلم بمجرد ان يبدأ القتال الاول (١١٤) . كما انعم على الجند الذين ارسلهم معه بالعطاء الكبير الذي بلغ اثني عشر ألف درهم برأى بعض المؤرخين وثمانية عشر ألف الف برأى آخرين ، ورفع ارزاقهم من ستين الى ثمانين (١١٥) .

وأدرك عبد الله بن علي ذلك ، وخشي خيانة جنوده الخراسانيين ، فرأى أن يتخلص منهم ومن القائد العربي حميد بن قحطبة ، الا ان حميدا اكتشف المؤامرة وفر مع انصاره (١١٦) .

وعلى هذا الشكل فانه يمكن القول بأن عناصر الجيش الذي بقي برفقة عبد الله بن علي اصبحت بمعظمها من أهالي الشام .

ونزل عبد الله بن علي مع رجائه ، فحفر خندقاً من جبل نصيبين الى نهرها خندق خلفه وجعل فيه كل ما يحتاج اليه من العدة والاله . ونصب المجانيق والعرادات وبث الحسك ، وسد الطريق على من يقصده من العراق وجعل بذلك كل القرى والمناطق المزروعة خلفه وامداداً له (١١٧) .

واقبل ابو مسلم متجها نحو الشام . فرأى عبد الله بن علي يعسكر في منطقة حصينة . وقدر صعوبة القضاء عليه في هذه المنطقة . فقرر ان يستعمل الحنكة

(١١٣) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٧٤ - ٤٧٥ - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٠١

(١١٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٧٥ - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٠١

(١١٥) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقه ٢٤١ ظهر .

(١١٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٧٥ - ٤٧٦ - بتشوف : المرجع السابق ، ص ١٦

(١١٧) - المقدسي : البدء والتاريخ ، جزء ٦ ، ص ٧٧ .

والدهاء ليفرق بين عبد الله واصحابه من أهل الشام • فكتب اليه بأنه لم يؤمر بقتاله • ولم يوجه لذلك بل ان الخليفة ولاء الشام وانه ذاهب اليها (١١٨) •

وقد تحقق لابي مسلم ما أراد • لان اهل الشام ما أن رأوا ابا مسلم يتوجه الى بلادهم حتى اخذوا يطالبون عبد الله بالعودة اليها ، للدفاع عن حرمهم واموالهم • وجهد عبد الله ليوضح لمن معه من أهالي الشام بأن ذلك حيلة من ابي مسلم وانه لا يريد الشام ، بل يريد اخراجهم من مناطقهم الحصينة ولكن نفوسهم لم تطب ، وأبوا الا المسير الى الشام (١١٩) •

عند ذلك لم يكن امام عبد الله الا ان يرتحل ملبيا رغبة جنوده ، فاستغل ابو مسلم الفرصة وخندق مكان خصمه ، واستولى على جميع ما في الخندق (١٢٠) • ثم افسد المياه التي حوله ، وكان من الممكن ان يستفيد منها عبد الله وجنوده من اهل الشام فيما لو عادوا للقتال (١٢١) •

وبلغ عبد الله خبر نزول ابي مسلم بمعسكره ، فعاتب اهل الشام على ما كان منهم وحاول العودة الى معسكره فلم يستطع (١٢٢) • فعسكر قريبا منه (١٢٣) ، وبدأ القتال بين الطرفين فكان سجالا ، وامتد ما يقارب ستة اشهر ، انتهى اخيرا لصالح ابي مسلم ، وهزم عبد الله هزيمة ساحقة ونبعه ابو مسلم حتى الرقة ، حيث استولى على الخزائن والاموال ، وما كان عبد الله قد استولى عليه من اموال بني أمية وكنوز

(١١٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٧٦ - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ٢٤١ ظهر - العيون والحدائق ، ص ٢١٨ •

(١١٩) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٧٦ - ٤٧٧ - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه (٢٤١) ظهر - العيون والحدائق ، ص ٢١٨ •

(١٢٠) - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ٢٤١ ظهر - المقدسي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٧٨ • (١٢١) - الطباخ : اعلام النبلاء ، جزء ١ ، ص ١٤٠ •

(١٢٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٤٧

(١٢٣) - المقدسي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٧٨ - العيون والحدائق ، ص ٢١٨ •

الشام • ثم تبع عبد الله الى رصافة هشام ففر ملتجئاً الى البصرة (١٢٤) • الا انه قبض عليه وسجن ثم قتل سنة ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م •

وكتب ابو مسلم الى الخليفة المنصور يبشره بالفتح بعد أن اطلق من أسره ، ووهب لكل أسير أربعة دراهم (١٢٥) - • فسر الخليفة من ذلك ، وكتب الى ابي مسلم بأز يحتفظ بما في يديه من الاموال ، لانه كان على علم بأن جميع ذخائر بني أمية من الاموال والجواهر ، كانت مع عمه عبد الله (١٢٦) واصبحت الآن في يد ابي مسلم ، وأدى ذلك الى حدوث خلاف بين الخليفة وابي مسلم كانت تتيجه قتل ابي مسلم ، وهكذا فان ثغرة فتحت في وحدة الصف العباسي في فترة مبكرة • بسبب عدم وجود نظام ثابت لولاية العهد ، تسربت عبرها رياح الازمات الخطرة •

لم يقتصر الصراع بين افراد الاسرة العباسية في عهد الخليفة المنصور على ما جرى من صراع مسلح بينه وبين عمه عبد الله بن علي • بل جرى صراع غير مسلح بين الخليفة وولي عهده عيسى بن موسى بن محمد بن علي العباسي ، الذي كان ابو العباس قد عهد اليه بولاية العهد بعد ابي جعفر (١٢٧) وكتب له عهداً بذلك (١٢٨) • وتمكن المنصور بما استخدمه من وسائل واساليب طفحت بذكرها كتب التاريخ أن يجبر ابن أخيه على الموافقة شلى أن تكون الخلافة للمهدي اولاً ثم لعيسى بن موسى بعده (١٢٩) ، على الرغم مما عرف عن عيسى بن موسى من مقدرة عسكرية • وقد ذهبت المصادر التاريخية الى أبعد من هذا ، فذكرت ان المنصور لم يستطع

(١٢٤) - السعدي : مروج الذهب ، جزء ٣ ، ص ٣٠٢ - ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٨ •

- ابن العميد : المصدر السابق ، ص ١٠٠ - بيتشوف : المرجع السابق ، ص ١٦

(١٢٥) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٢٤٢ وجه

(١٢٦) - الازدي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٢٤٢ وجه

(١٢٧) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٧ •

(١٢٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٧٠ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٤٦١

(١٢٩) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١٠٤ ظهر و ١٠٥ وجه

اجبار عيسى بن موسى على خلع نفسه لتمسكه بحقه ، فبايع ابنه مع رجال حاشيته الذين شهدوا زورا وبهتانا ان عيسى خلع نفسه (١٣٠) .

وتربع المهدي على عرش الخلافة . فطمع في ان يجعلها في ابنائه الهادي والرشيد من بعده واستخدم مع ولي عهده الاساليب نفسها التي استخدمها والده من قبل ، وضيق عليه ليضطره للتنازل . فحرك الهاشمين وشيعتهم من اهل خراسان وحرضهم على خلع عيسى . ورضخ عيسى في نهاية الامر لضغوط المهدي ، فخلع نفسه مكرها من ولاية المهدي (١٣١) وقد يكون هذا الصراع عام لامن العوامل التي أدت الى نهاية الهادي السريعة (١٣٢) .

ـ الصراع بين الاخوين الهادي والرشيد :

ازدادت مشكلة الصراع لاجل ولاية العهد تعقيدا في عهد الخليفة الهادي ، الذي عزم على ان يجعل الخلافة من بعده لابنه جعفر . وان يعمل لتحقيق ذلك على خلع اخيه هارون الرشيد . وقد شجعه على ذلك بعض رجال بلاطه . بيد ان يحيى ابن خالد بن برمك نصح له بأن يعدل عن هذا الامر لصغر سن ابنه جعفر . واحتراما للعهد الذي اخذه على نفسه حين ولاه ابوه عهده ، ودرءا لما عسى ان يقوم به اهل بيته من انتزاع الخلافة من ابنه اذا آلت اليه قبل بلوغه سن الرشد . وأشار اليه بان يترث في هذا الامر ، حتى يكبر ابنه ويطلب من اخيه هارون النزول له عن الولاية . ويبدو انه كان لهذا الكلام وقع في نفس الهادي فعدل عن رأيه مدة ، ثم ما لبث أن غلب عليه حبه لابنه ، واثّر فيه تحريض المغرضين ، فعاد الى ما كان من مطالبة الرشيد بالتنازل عن ولاية العهد ، وفي سبيل ذلك احضر يحيى بن خالد البرمكي ، وفأوضه ثانية في خلع اخيه (٢٣٣) ، فقدم يحيى النصيحة ثانية .

(١٣٠) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٧٧ - ٥٧٨ - ٥٨٠ .

(١٣١) - العيون والحدائق ، ص ٢٦١ .

(١٣٢) - شاكر مصطفى : في التاريخ العباسي ، ص ١٨٢ .

(١٣٣) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٩٩ وص ١٠٦ .

ـ محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية ، ص ٢١١ .

ولم يحفل الهادي بهذا النصيح ، وزج يحيى في السجن ، وهم ان يقتله لانحيازهم
 لاختيه الرشيد . وتأزم الموقف بين الاخوين ، واختلفت المصادر في ذكر ماجرى بينهما
 فذكرت بعضها بان الصراع كاد يتحول الى حرب اهلية ، بينما ترى اخرى بان
 الرشيد مال الى اجابة اخيه ، بعد ان ضيق عليه واضطهده ، وحرص رجال بلاطه
 على الحط من شأنه . وان يحيى البرمكي شجعه على الابتعاد عن اخيه باستئذانه
 للسفر طلبا للصيد ، وانه ذهب ونال غيابه في الصيد حتى اتاه نعي اخيه والبيعة له .
 وقد رأى بعض المؤرخين ان الهادي ذهب ضحية محاولته خلع اخيه من ولاية العهد .
 اذ ان ذلك دفع بأمه الخيزران الى السعي في موته ، وترى اخرى بانها فعلت ما
 فعلت لانه اراد الحد من سلطتها وتدخلها في شؤون الحكم (١٣٤) .

— الصراع بين الاخوين الامين والمأمون ، ونتائج هذا الصراع —

اتخذت ولاية العهد بعد وفاة هارون الرشيد ابعادا سياسية ، اسفرت عن
 صراع دموي دام من (١٩٤ — ١٩٨ هـ / ٨٠٩ — ٨١٣ م) فعلى الرغم مما عرف عن
 الرشيد من ذكاء وبعد في النظر فقد وقع فيما وقع فيه أسلافه ، اذ جعل ولاية العهد
 من بعده لابنائهم الثلاثة . فجعل ابنه محمد الامين في سنة ١٧٥ هـ / ٧٨١ م (٢٣٥) وليا
 لعهد له و جعل له ولاية العراق والشام حتى أقصى المغرب . ثم مالبث ان بايع لابنه
 عبدالله المأمون في سنة ١٨٢ هـ / ٧٨٨ م بعد اخيه الامين . على أن تكون له ولاية خراسان
 وما يتصل بها من الولايات الشرقية (٢٣٦) . ثم استأنف وبايع في سنة ١٨٦ هـ / ٧٩٢ م
 لابنه القاسم بعد اخيه المأمون ودعاه المؤتمن . وجعل له ولاية الجزيرة والثغور .

(١٣٤) — انظر الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ١٧٤ — ١٧٥ وانظر السعدي : مروج الذهب ،
 جزء ٣ ، ص ٣٤٤

(١٣٥) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ . وابن الاثير : المصدر السابق ،
 جزء ٦ ، ص ١٢٢ وقد بايع للامين بن زبيدة لمكانتها ، وأسرتها ، وعرييتها . ولم يبايع للمأمون
 الذي كان أكبر سنا وأكثر كفاءة .

(١٣٦) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٦١ — المقرئى : المصدر السابق ، ورقه
 ١١١ وجه

وكتب الرشيد بذلك صحيفة اشهد فيها القضاة والفقهاء واكابر بني هاشم وعلقت في الكعبة . كما انه (١٣٧) تأكيداً لتنفيذ وصيته في ولاية العهد ، دعا الامين لكتابة كتاب يشهد فيه على نفسه بالوفاء للمأمون . كما دعا المأمون الى كتابة آخر بالوفاء للامين ووضع هذين ائكتابين الى جاب الثالث واشهد الجميع على ذلك .

وضع الرشيد بتصرفه هذا وباختياره لثلاثة من ابنائه لولاية العهد بذرة التفكك السياسي (١٣٨) ، وواقع الدولة في خضم حرب اهلية كبيرة كانت لها نتائجها الخطرة على مستقبل الخلافة ، ولعب فيها الوزيران الفضل بن الربيع والفضل بن سهل الدور الاكبر واليد الطولى في اندلاع نار العداوة والحرب بين الاخوين ، فقد بدأ الفضل ابن الربيع - الذي كان يدرك انه لن يكون له يد مع المأمون - الى الانحياز الى جانب الامين بعد وفاة الرشيد - وعاد اليه بالجيش والمال والمتاع والرقيق والخيل التي أوصى الرشيد ان تعطى للمأمون اذا ادركته الوفاة (١٣٩) ، وكان الامين قد ارسل اليه حين علم بمرض ابيه بأمره بالعودة بالعسكر اليه (١٤٠) . وحين فعل ادركه الخوف على حياته من وصول المأمون الى الخلافة فينتقم منه . فبدأ بتحريض الامين على خلعه وساعده على ذلك تكنل العرب الى جانب الامين (١٤١) .

(١٣٧) - انظر تفاصيل ذلك في المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ١١١ ظهر و ١١٢ وجه ، حيث يذكر نسخة الشرط كاملة وانظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢٧٥ - ٢٨٦ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٢٢ .

(١٣٨) - انظر من ذلك : مقال الدكتور هادي عمر في مجلة المؤرخ العربي ، المجلد ١٥ ، ص ١٠٠ وما بعدها .

(١٣٩) - وقد كان الرشيد في سنة ١٨٩ هـ حين شخص الى الري قد اشهد من عنده من القضاة والفقهاء ان جميع ما في عسكره من الاموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون - انظر المقرئزي : ورقه ١١٤ ظهر .

- ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٢٨ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٠٣ .

(١٤٠) - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ١١٥ وجه .

(١٤١) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٢٨ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٣٢

وبدأ الامين بالدعاء لابنه موسى على المنابر بعد الخليفة (١٤٢) في سنة ١٩٤ هـ ، وقدمه على اخيه المأمون والمؤتسن ، وعزل الاخير عن الجزيرة وقام باستدعاء اخيه المأمون للحضور الى بغداد ليقر بتقديم موسى على نفسه (١٤٣) . ولكن المأمون اعتذر عن الحضور ورد على اخيه بقطع بريد خراسان عنه وقطع الخطبة لـ اخيه وتسمى بالامامة (١٤٤) ، وقد شجعه على ذلك وزيره الفضل بن سهل ، وادراكه لصلابة موقفه من الفرس الذين يؤيدونه (١٤٥) .

بدأ الصراع بين الاخوين بتجهيز الامين للجيش الذي ارسله الى خراسان بقيادة علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٩٥ هـ / ٨٠١ م . وكان نصيب هذا الجيش الهزيمة امام جيش المأمون الذي قاده طاهر بن الحسين ، وقتل قائد الامين بظاهر الري (١٤٦) . وتتابع جيوش الامين الى قتال المأمون ، وفشلت في تحقيق نصر في خراسان (١٤٧) . وزحفت جيوش المأمون باتجاه العراق ، حتى وصل الى عاصمتها بغداد ، فالتقى طاهر بن الحسين الحصار عليها سنة ١٩٧ هـ / ٨٠٣ م ، واستخدم كل أدوات الحصار المعروفة في عصره من مجانيق وعرادات (١٤٨) ، ليجعل الحصار شديداً ، وليجبر المحاصرين على الاستسلام .

وقوق هذا ، قان طاهر بن الحسين عمل على ان يحارب انصار الامين حرباً

-
- (١٤٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢٨٩
(١٤٣) - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ١١٦ وجه
(١٤٤) - الطبري : المصدر السابق جزء ٨ ، ص ٣٩٠
(١٤٥) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٣٢ .
(١٤٦) - عن تفاصيل هذه المعركة التي جرت في خراسان انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٩٠ وابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٣٤ - وابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .
(١٤٧) - انظر عن تفاصيل ارسال الجيوش والمعارك التي جرت بين الطرفين المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ١١٩ و ١٢٠ وجه - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٣٤ .
(١٤٨) - انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٤٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٧١

اقتصادية ، قعمل على الاستيلاء على ضياع من لم يسلم اليه من بني هاشم وقواد
الامين وغيرهم . كما استولى على كل ما استطاع الاستيلاء عليه من الاموال ، حتى
ضاق الناس بهذا الحصار ، فأخذوا ينهبون بعضهم . ولما اشتد الامر عليهم استسلم
عدد من بني هاشم ومن القواد الى طاهر ومن هؤلاء صاحب شرطة الامين (١٤٩) .

فقد الامين بهذا قدرته على الاستمرار ، واصبح
جيشه وأنصاره أضعف من أن يققوا موقف الند للند ، فاضطر
الى بيع كل مايملك لينفق على الباقين من الجند ليحسمهم على
البقاء الى جانبه . الا ان الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية كانت قد وصلت الى
الحضيض ، فاستشرى الفساد ، وسادت الفوضى . وبرز على السطح فئة من العامة
عملت في هذه الاونة على الدفاع عن بغداد (١٥٠) ، وغايتها جمع المال (١٥١) عرفت
هذه الفئة باسم العيارين ، وباسم العراة .

وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة ، فان جند طاهر بن الحسين تمكنوا من
تخريب المنازل والمتاجر في بغداد فدب الرعب والخوف في قلوب العامة ، وخشوا
آلات الحصار ، فأنشد شعراؤهم الشعر معبرين عن ذلك فقال أحدهم :

لا تقرب المنجنيق والحجرا فقد رأيت القتل اذ قبرا (١٥٢)

كما بكى بعضهم بغداد وخرابها ، وصور صعوبة العيش في المدينة في تلك
الفترة ، فقال :

بكيتم دما على بغداد لما فقدت غضارة العيش الانيق
تبدلنا هموما من سرور ومن سعة تبدلنا بضيق

(١٤٩) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ - المقرئ : المصدر السابق ،
ورقه ١٢١ وجه

(١٥٠) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - المقرئ : المصدر السابق ،
ورقه ١٢١ ظهر

(١٥١) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٧٧ .

(١٥٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٤٥ .

أصابته من الحساد عين فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أهرقوا بالنار قسرا ونائحة تنوح على غريق (١٥٣)

أدركه الامين أن لا فائدة من الاستمرار في القتال ، وخاصة حين تخذ الطعام من بغداد ، فقرر الاستسلام وأرسل يطلب الامان لنفسه . الا ان قراره هذا تقبله بعض قادة المأمون بصدر رحب ، ورفضه آخرون (١٥٤) وبالتالي كان نصيب الامين القتل ، وحمل رأسه الى المأمون (١٥٥) .

كانت النهاية التي آلت اليها حياة الامين على يد قواد اخيه المأمون سبباً في سلبه كل مييزات شخصيته ، وان ينسب اليه كل صفات السوء من لهو وتبذير ومشاركة النساء والاماء له في الرأي (١٥٦) ، في حين ينسب للمأمون عكس ذلك فهو ذو عقل راجح ، وذكاء وقاد ، وحزم لا نظير له (١٥٧) ، وان اختلاف صفات الاخوين قد ادى الى نصر المأمون على الامين ، في الوقت نفسه الذي يرى فيه بعض المؤرخين ان سبب نصر المأمون يعود الى القوة العسكرية التي أحسن المأمون اختيار قيادتها وتوجيهها ، والى الدعاية المنظمة التي بثها المأمون عن اخلاق اخيه الامين ، وكذلك الى قوة انصاره من الفرس الذين بذلوا غاية وسعهم لتحقيق

(١٥٣) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٥٧ .

(١٥٤) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(١٥٥) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٨٧ - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ١٢١ ظهر و ١٢٢ وجه

(١٥٦) - وقد سجل لنا بعض شعراء العصر تشاغله عن أمور الدولة ، وهذا نموذج منها .

اضاع الخلافة غش الوزير	وفسق الامام وجهل المشير .
ففضل وزير وبكر مشير	يريدان ما فيه حتف الامير .
لسواط الخليفة اعجوبة	واعجب منه خلاق الوزير .

- انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢٩٦ .

(١٥٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٥٠ وما بعدها - وانظر الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢٩٢ .

النصر الذي سيكون فيه سيادتهم . وأخيرا يمكن القول ان سوء سياسة الامين وتمسكه باخلاق القتال العربية التي تبرز من خلال وصيته لقائده علي بن عيسى بن ماهان كان له الدور الاكبر في هزيمة الامين (١٥٨) .

ومما لاشك فيه ان استهانة الامين وقادته بقوة المأمون وقادته، كان له اكبر الاثر في الهزيمة ايضا . فقد كان علي بن عيسى يستهين بطاهر بن الحسين . ويرى انه لا يعدو شوكة من اعضائه . او شرارة من ناره (١٥٩) . وقال عنه (ومما مثل طاهر يتولى على الجيوش ، ويلقى الحروب) . وقال ايضا لاصحابه : (والله ما بينكم وبين ان ينقصف الشجر من الريح العاصف ، الا أن يبلغه عبورنا عقبة همدان ، فان السخال لا تقوى على النطاح ، والثعالب لا صبر لها على لقاء الاسد) (١٦٠) . وفوق ذلك فان ابن ماهان كان مكروها من أهل خراسان ، لانه اساء السيرة في أهلها ، وظلمهم حين وليها للرشيدي (١٦١) .

ومهما يكن من أمر تفسير هذه الحركة وهزيمة الامين ، فان هذا الصراع بين الاخوين انتهى بانتصار القوة الفارسية بزعامة المأمون . وأصبح لها منذ ذلك الوقت دور بارز في المجتمع وكان بروز هذه القوة على حساب ضعف القوة العربية . فاختل التوازن بين القوتين وتحرك العرب للمطالبة بحقوقهم ، فأسقطهم المعتصم من العطاء واعتمد على عنصر جديد هو عنصر الاتراك (١٦٢) .

وقد برز في هذه الحركة دور فئة من فئات المجتمع الادنى الى السطح ، تلك

(١٥٨) - فقد أوصى قائده بقوله : امنع جنك من العبث بالرعية والغارة على أهل القرى ، وقطع الشجر ، وانتهاك النساء ... انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٠٦ . وانظر عن ثقة الامين وامه زبيدة بالنصر ، وصية زبيدة لابن ماهان قبل رحيله ، بالاحسان الى المأمون حين يقبض عليه . المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١١٨ وجه .

(١٥٩) - المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٠٧ - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١١٨ وجه .

(١٦٠) - المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٠٧ - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١١٨ ظهر

(١٦١) - المصدر السابق ، ورقة ١١٧ ظهر

(١٦٢) - المصدر السابق ، ورقة ١١٧ ظهر

الفئة هي الفتوة اللاهية الباغية التي تدين بالشطارة والعيارة (١٦٣) . وقد لعبت هذه الفئة دورا بارزا وهاما في الفتنة ، ودافعت عن مدينة بغداد ، حين بدأت القوة المنظمة بتركها ، والانضمام الى القوات المحاصرة . وقد اوضح شعراء ذلك العصر بروز هذه الفئة اثر هذه الحرب فقال أحدهم :

خرجت هذه الحروب رجالا لا لقحطائهما ولا لنزار
واحدا منهم يشد على ال سفين عريان ماله من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطم نة خذها من الفتى العيار (١٦٤)

لم ينته وجود هذه الفرقة اثر دخول جيوش المأمون الى بغداد ، بل استمرت في وجودها وازدادت قوتها بمرور الايام . وقد ظهر عمل هذه الفئة واضحا اثناء اضطراب بغداد على الحسن بن سهل والي المأمون فيها ، وقبل عودة المأمون الى بغداد . فأظهروا الفسق ، وقطعوا الطرق ، وأخذوا ما شاؤوا من الاموال والابناء والنساء وهاجسوا القرى فأخذوا المتاع والمال . وبرز المطوعة لحربهم ودعوا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٦٥) .

وعلى الرغم من النهب والسلب الذي كان يقوم به هؤلاء ، فانهم اتصفوا بصفات ايجابية وعلى رأسها البطولة . ويصور لنا الطبري والمقريزي مقدار بطولة هؤلاء فيما كتبه عن احداث سنة ١٩٧ هـ / ٨٠٣ م حين يذكر ، ان قائدا من قواد اهل خراسان ممن كان مع طاهر ، خرج يوما الى القتال . فنظر الى قوم عراة ،

(١٦٣) - من التأثيرين على المجتمع والدولة ومن الرعاع والنهاية (انظر ابن المكارم : كتاب الفتوة ، المقدمة . عرفوا باستمراء متعددة ، العيارون والسطار ، العراة ، ثم الفتيان . وقد جاء في كتاب تاريخ العرب والشعوب الاسلامية لكلود كاهن ص ٢٠٧ ان اسم الفتيان اطلق في الجاهلية وفجر الاسلام على الشباب الذين يتحلون ببعض السمات المميزة ، او الذين ينبغي لهم ان يتحلوا بهذه المزايا حسب العقلية السائدة وهي الشجاعة والكرم بوصفهما صفات خاصة ، دون اي اعتبار للتنظيم الاجتماعي او للمفاهيم الدينية .

(١٦٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٥٨ .

(١٦٥) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٥٥١ .

لا سلاح معهم • ورأى انهم الفئة التي تقف في طريقهم وتمنعهم من دخول بغداد ، فاستهان بامرهم • وغير اصحابه وهم في السلاح الظاهر ، والعدة والقوة والشجاعة والنجدة ، يوقتهم هؤلاء عن تحقيق اهدافهم • واراد ان يريهم مايفعله فيهم فأوتر قوسه وتقدم • وابصره بعضهم (من العيارين) فقصد نحوه وفي يده باريه قصيرة ، وتحت ابنته مخللة فيها حجارة ، فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر منه العيار فوق في باريته ، او قريبا منه • فيأخذه فيجعله في موضع من باريته قد هيأه لذلك ، وجعله شبيها بالجعبة ، وجعل كلما وقع سهم أخذه • • ولم يزل تلك حال الخراساني وحال العيار حتى ائخذ الخراساني سهامه • ثم حمل على العيار ليضربه بسيفه ، فاخرج العيار من مخللاته حجرا فجعله في مقلاع ورماه فما أخطأ به عينه ثم ثناه بآخر فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحاميه • • (١٦٦) •

وقد ازدادت هذه الفئة عددا مع مر السنين • ولعبت دورا هاما في الفتن كلها التي عصفت ببغداد • فقد اصبح هؤلاء فئة مرتزة تقا تل مع من يدفع لها مالا اكثر • وكان هم هذه الفئة الحصول على الغنائم الكثيرة عن طريق استخدام السيف • وقد شبه بعضهم هذه الفئة بطبقة الصعاليك في الجاهلية (١٦٧) •

وقد اتخذ اللصوص وقطاع الطرق العيارة سبيلا للتلصص والسلب والنهب • وقد ذكر بعض المؤرخين أن ابا نصر الفارابي الفيلسوف الشهير من اهل القرن الرابع للهجرة ، قتل ومن كان معه على يد بعض اللصوص الفتيان (١٦٨) وقد ذكر كل من التنوخي في نشوار المحاضرة ، وابن الجوزي في كتابه الفرع بعد الشدة ، وكتاب الاذكياء قصصا عجيبة عن هؤلاء (١٦٩) ، وقد وصل هؤلاء الفتيان في بعض حركاتهم في سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م الى اقتسام السلطة في بغداد (١٧٠) •

(١٦٦) - انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٥٧ - ٤٥٨ - القرظي : المصدر السابق ، ورقة ١٢١ ظهر

(١٦٧) - ابن المكارم : كتاب الفتوة ، ص ٢٧

(١٦٨) - ابن المكارم : المصدر السابق ، ص ٢٩ •

(١٦٩) - ابن المكارم : المصدر السابق ، ص ٢٩ •

(١٧٠) - ابن المكارم : المصدر السابق ، ص ٣١

وقد مال العيارون في اواسط القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي الى الحاق عيارتهم وشنارتهم بالفتوة المسندة الى اصل ديني، فأخذ الفتيان يتحزبون ويتعصبون ويغتصبون وينتكون وينهبون باسم طريقة من الطرائق المعزوة الى الدين . فأصبحت الفتوة بذلك خطرا على الدولة العباسية وعلى سلاطين البويهيين . وكان على الفريقين الكفاح ضد هذه الفرقة ودعواها الدينية (١٧١) .

ويمكن القول ان الفتيان عاشوا عيشة يسر ، في جو من التعاون والتضحية المتبادلة والالفة بعيدا عن كل رابطة عائلية أو مهنية أو قبلية ، وتتجاوز رابطتهم حدود المدينة الواحدة (١٧٢) . وكان هؤلاء يخرجون بفترات ضعف السلطة ، ليسشروا ما يشبه الذعر في الاحياء المترفة ، وليقوموا بأعمال السلب والنهب لصالح الجماعة (١٧٣) . وفي غالب الاحيان كانت حركة الفتيان قوية في المدن التي لا ترابط فيها قوة عسكرية . وكان هؤلاء الفتيان يمارسون ما يشبه الضغط المستمر عن طريق مؤسسات الامن . وسعوا الى الانخراط في سلك الشرطة كسبا للعيش، ولكي يضمنوا الشرطة الى جانبهم (١٧٤) .

هذا وقبل ان اختتم الحديث عن الفتوة ، اود ان اذكر ان فئة الاحداث التي برزت في الشام منذ القرن الرابع الهجري كانت أشبه بالفتوة في العراق وخراسان . وقد تحمل هؤلاء أمر الدفاع عن دمشق امام الفاطميين (١٧٥) وقد اشتهر أيضا احداث مدينة حلب . وتدخلوا في السياسة طلبا للرئاسة . وزاولوا الحروب والفتن فنصروا أميرا ، وخذلوا آخر (١٧٦) .

(١٧١) - ابن المكارم : المصدر السابق ، ص ٣١ ، وص ٣٤ - ٣٥ .

(١٧٢) - كلود كاهين : العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٢٠٧ .

(١٧٣) - كلود كاهين : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(١٧٤) - كلود كاهين : المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(١٧٥) - المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، طبعة المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، ص ١٢٤ .

(١٧٦) - ابن المكارم : الفتوة ، ص ٣٧ .

ـ الصراع بين المأمون و ابراهيم المهدي :

حين نسلم المأمون الخلافة رأى ان يجعل الكفاءة والمقدرة المعيار في اختيار ولاية العهد فاختار لولاية عهده رجلاً رأى فيه المقدرة على تحمل أعباء ومسؤوليات الحكم هو علي الرضا وهو من أئمة الشيعة الاثني عشرية . وأمر بطرح السواد ولبس الخضرة ، لكن بغداد ثارت على هذا العمل وانتفض العباسيون على المأمون، وبايعوا ل ابراهيم بن المهدي سنة ٢٠٢ هـ (١٧٧) ولقبوه بالمبارك . ولم تطل خلافة المبارك تلك اذ ما لبث المأمون ان ادرك الوضع العام في بغداد ، وحلل اسبابه ، فقرر أن يعود الى بغداد . وقضى بسهولة على هذه الحركة العباسية التي قامت ضده ، وانتهى الامر بمبايعة المأمون ل اخيه أبي اسحق المعتصم بالخلافة من دون ابنه العباس (١٧٨) .

ـ الصراع بين المعتصم وابن أخيه العباس :

حين أخذ المعتصم بتقريب الاتراك والاعتماد عليهم ، غضب العرب والفرس لذلك ونهض بعض القادة بتخريض العباس بن المأمون واطمأعنه بالوصول الى العرش ، والعمل معاً على التخلص من المعتصم وقائديه التركيين . ولم يتح لهذه المؤامرة النجاح . وقضى المعتصم على العباس وعجيف بن عنبسة فازداد نفوذ الاتراك اثر ذلك (١٧٩) .

ويبدو من هذا السرد لاحداث الصراع بين أفراد الاسرة العباسية للوصول الى العرش ان سوء تنظيم ولاية العهد ، وطمع أفراد الاسرة في الوصول الى عرش الخلافة ، ادى الى اثارة البغضاء والعداوة بين أفراد البيت المالكة ، فانه لم

(١٧٧) ـ الطبري : المصدر السابق ، ورقه ١٢٢ ظهر ـ الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٥٥٧

(١٧٨) ـ انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٦٧ .

(١٧٩) ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٤٨٩ - ٤٩٣ - ابن خلدون : المصدر السابق ،

جزء ٣ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

يكّد الأمر يتم لأحد المتنافسين حتى يعمل على التنكيل بمن ساعد خصمه على
اقتصائه من ولاية العهد • وقد شكل ذلك خطراً على كيان الدولة العباسية •

حركات الخوارج :

حصل الخوارج منذ أن اشفقوا عن علي بن أبي طالب لواء مناهضة السلطات
الحاكمة وحملوا السيف في وجوههم ، واعتبروهم مغتصبين لأمر الخلافة التي هي حق لكل
مسلم • ولم تهدأ ثورات الخوارج طوال العهد الأموي ، وحين نجح العباسيون
بالقضاء على الخلافة الأموية ، رفع الخوارج السيف في وجوههم • فهم بنظرهم
مغتصبون للحكم كالأمويين • وكان الخوارج في مطلع العصر العباسي منتشرين
في أماكن متعددة من العالم الإسلامي ، كالجزيرة و أرمينيا وخراسان و عمان وشمالي
أفريقيا • وقد تمكن الخوارج في الدور العباسي الأول من الاستفادة من ضعف
سيطرة العباسيين على الجناح الغربي للخلافة العباسية ، فأسسوا دولا لهم في شمال
أفريقيا كالدولة الرستمية والدولة المدرارية • وبالتالي فإن هذا يدل على أن الخوارج
غيروا طريقتهم ، ولم تعد غايتهم قتال من خالفهم وإنما أصبحت لهم أهداف إيجابية
تجلت في إنشاء دول خارجية ، وفوق هذا فإن ثورات الخوارج في هذه الفترة ، كانت
إلى حد ما أقل عنفا منها في العصر الأموي • كما كانت أقل منها تواترا • وإلى جانب
ذلك يمكن القول أن حركات الخوارج في المشرق الإسلامي توقفت تقريبا
في الدور العباسي الثاني • وسيوضح ذلك حين نستعرض حركات الخوارج التي
نشبت في الدور العباسي الأول •

— كانت أولى الثورات الخارجية في العهد العباسي هي ثورة شيان بن عبد العزيز
اليشكري ، زعيم الخوارج الصفرية منذ مقتل الخيري ، وقد بدأت هذه الثورة
في أواخر العصر الأموي ، في عهد الخليفة مروان بن محمد في منطقة الجزيرة والموصل
ونشبت بينه وبين جنود الأمويين معارك كثيرة •

ونتيجة لقتالهم تركوا المناطق التي بدأ قتالهم فيها ، وتوجهوا إلى المناطق

الشرقية للخلافة الاسلامية ، ولجديّة الامويين في متابعتهم والتضييق عليهم • فروا الى جزيرة ابن كاوان (١٨٠) ، واعتصموا بها (١٨١) .

أثار الخوارج الصفريّة الشغب والخلاف بجزيرة ابن كاوان في مطلع حكم الخليفة العباسي الاول ، فقرر قتالهم حتى القضاء على حركتهم • وعين على رئاسة الجيش الذي ارسله اليهم قائده المشهور خازم بن خزيمة ، فلم يجد هؤلاء بدا من ترك الجزيرة والالتجاء الى سواحل عمان •

كان الخوارج الاباضية قد استقروا في منطقة عمان منذ ان انشقوا عن الازارقة وكان على رأس هذه الفئة في عهد الخليفة ابي العباس رجل منهم اسمه الجلندي • وحين قدم الخوارج الصفريّة الى عمان برئاسة شيان اثر تضييق العباسيين عليهم ، نشب خلاف بين هاتين الفرقتين الخارجيتين ، ثم تحول الخلاف الى صدام مسلح ، اسفر عن مقتل شيان وعدد كبير ممن معه (١٨٢) • فقوي الجلندي وثار ضد العباسيين • فسار اليه خازم بن خزيمة عن طريق البحر ، ونزل في ساحل عمان • وهناك نشبت معارك متعددة بين الطرفين ، كان بعضها للعباسيين وبعضها للخوارج • ولما رأى خازم كثرة القتلى اراد ان ينهي القتال بأن يشعل النيران في بيوت هذه الفئة الخارجة ، مما يجعل هؤلاء مضطرين الى ترك القتال وانقاذ بيوتهم • وقام رجال خازم فوضعوا المشاة (١٨٣) على اطراف استهم ورووها بالنفط • وأشعلوا فيها انيران واضرموا بهايوت اصحاب الجلندي • فانشغل جنود الجلندي بمن في البيوت من الاولاد والاهالي ، وبذلك تمكن جنود خازم من هزيمة الجلندي وقتله ، واعادوا الهدوء الى المنطقة • ويقال بان عدد قتلى الخوارج بلغ عشرة الاف ارسلت

(١٨٠) - جزيرة في الخليج العربي •

(١٨١) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ •

(١٨٢) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٤٥١

(١٨٣) - وهي من الكتان او القطن او الشعر الخالص ، تجعل على رؤوس الاسنة ، تروى بالنفط ثم

تشعل فيها النيران وتلقى على الاعداء • انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٤ •

- حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧٧ •

رؤوسهم الى البصرة • ومما لاشك فيه ان هذا الرقم مبالغ فيه كثيرا (١٨٤) • ولكنه ذكر على هذا الشكل لبيان اهمية النصر •

ولم يهدأ أصحاب الجلندي بل عادوا للثورة في عهد الرشيد سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م ، واصلوا تعيين محمد بن عفان اماما لهم ، وأصبح الخوارج مستقلين عن الخلافة العباسية ، وناوب ائمتهم الحكم مايزيد على قرن من الزمن ، حتى كان عهد المعتضد الذي ارسل جيشا لقتالهم في سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م اعاد عمان الى طاعة العباسيين •

لم يكد العباسيون ينعمون بهدوء نسبي حتى عاد الخوارج الصفرية الى الثورة ثانية في منطقة الجزيرة مستغلين وضع المنطقة بشريا (١٨٥) •

وقد قاد ثورتهم في سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م ملبد بن حرملة الشيباني (١٨٦) • تمكن هذا من هزيمة ستة جيوش قادها المرابطون في الجزيرة وقتل رؤساء تلك الجيوش • وكان آخر تلك الجيوش ذلك الجيش الذي قاده حميد بن قحطبه ، والذي انهي القتال مقابل مائة ألف درهم دفعها لملبد ، وهذا شيء جديد لم يكن يقوم به الخوارج ، ولم يعهدهم يتركون القتال الا بعد النصر أو الموت • ولم يكونوا يقبلون بانتهاء القتال مقابل مبلغ من المال كما حدث في هذه المعركة (١٨٧) •

ولم يضع خوارج الجزيرة السيف نهائيا ، ففي سنة ١٦٢ هـ / ٧٨٤ م خرج عبد السلام اليشكري في قنسرين في عهد الخليفة المهدي • وقد اهتم الخليفة بامرہ وعمل على القضاء على هذه الثورة في مهدها • وعلى الرغم من النجاح الجزئي

(١٨٤) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ •

(١٨٥) - كانت المنطقة تحوي خليطا من السكان فيها اكراد وارمن وعرب ، وبعض الفرس •

(١٨٦) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١٠٤ ظهر

(١٨٧) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٤٨٢ •

الذي حصل عليه عبد السلام اليشكري ، بانتصاره على عدد من قواد الخليفة المهدي ، الا أن نهايته كانت القتل على ايدي جنود العباسيين (١٨٨) .

وتلا ذلك ثورة خارجية اخرى في سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م كان مسرحها أرض الموصل . وتمكن فائد الحركة من التغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة ، فارسل اليه المهدي خيرة قواده ، حيث تمكنوا من الوقوف في وجهه ، وقتل مع اكثر من كان معه (١٨٩) . كما نشبت ثورة خارجية اخرى في منطقة الجزيرة سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م قادها حمزة بن مالك الخزاعي . وتمكن هذا من ان يستولي على خراج المنطقة . فاشتد ساعده وقوي امره . وهزم الجيوش المحلية التي سارت لقتاله ، ولكنه ما لبث ان قتل غيلة (١٩٠) .

ولم تنته هذه الثورات الخارجية بل كانت متتابعة ، ففي سنة ١٧١ هـ / ٧٨٧ م قاد الخوارج في ثورة ضد الخليفة هارون الرشيد رجل خارجي اسمه صحصح ، تغلب على ديار ربيعة . وعلى الرغم من تمكن جيوش الخليفة هارون الرشيد من قتل قائد الخوارج في هذه الثورة والانتصار على هؤلاء الثوار ، ودحرهم ، فانه تألم لتواتر الثورات في هذه المنطقة ، وشعر بعجز والي المنطقة عن تصريف امورها وضبطها فعزله عنها (١٩١) .

وكانت اهم تلك الثورات الخارجية التي نشبت في هذه المنطقة الحركة التي قادها الوليد بن طريف الشاري الشيباني ، الذي خرج على هارون الرشيد ورماه بالجبور والظلم ، وتمكن من الانتصار في اكثر من جولة على جيوش الخليفة ، كما انه تمكن من قتل احد رجال العباسيين وابن خيرة قواد الرشيد وهو ابراهيم بن خازم

(١٨٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٤٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٥٧

(١٨٩) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٧٨ .

(١٩٠) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٩٥ .

(١٩١) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٢ .

ابن خزيمة • وقد قويت شوكته بذلك فمضى الى ارمينيا واخذ من اهالي خلاط مبلدا كبيرا من المال ، افتدوا به انفسهم كما انه سيطر على اذربيجان ومناطق اخرى ، وجبى المال من مدنها ، وقد دفع الجميع ما فرض عليهم فداء لانفسهم • ادرك الرشيد خطورة هذه الحركة فاختر لقيادتها خيرة قواده يزيد بن يزيد الشيباني ابن اخي معن ابن زائده • وعلى الرغم من البطولة النادرة التي اظهرها يزيد في القتال ، الا انه لم يستطع ان يحرز نصرا سريعا على الوليد • حتى ان الخليفة هارون الرشيد شك في مقدرة قائده • فكاتبه مهددا بعزله ان لم يناجز الوليد بسرعة وينتصر عليه ، ورماء بالتعصب لبني قومه — وكان كل من الوليد بن طريف ، ويزيد بن يزيد من وائل — ثم ما لبثت الهزيمة ان حلت بجند الوليد وقتل • فقامت اخته ليلى بقيادة الجيش مكانه فاسرها يزيد ثم أطلقها (١٩٢) • ويمكن القول ان الثورات الخارجية في الجزيرة لم تهدأ طوال القرن الثاني الهجري • ولم يتمكن الخوارج خلال نشاطهم الثوري في هذه المنطقة من ان يؤسسوا امارة مستقلة ، وقد يعود ذلك الى اهتمام خلفاء العباسيين بهذه المنطقة الثغرية ، وقوة سيطرتهم عليها لقربها •

لقد نشبت ثورات خارجية في خراسان ، كما هو الحال في مناطق اخرى ، ففي سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م • استعرت ثورة خارجية في خراسان بقيادة رجل يسمى الحصين وهو من موالي قيس بن ثعلبه • وتمكن من هزيمة جيش للخليفة • وقد استمرت ثورته سنتين ، الا ان نهايتها كانت كنهاية غيرها من الثورات الخارجية التي سبقتها (١٩٣) •

واندلعت حركة خارجية في خراسان سنة ١٨٠ هـ / ٨٩٦ م قادها حمزة بن أترك • وتمكن هذا من هزيمة صاحب هراة وقتله • وقاتلته جيوش محلية عديدة بقيادة ابناء والي خراسان علي بن عيسى بن ماهان ادت الى هزيمة هذا الخارجي ،

(١٩٢) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢٦١ وما بعدها — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٤١ — ١٤٣ •

(١٩٣) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٤ •

فاختفى • إلا انه حين ادرك ان اصحابه في خطر ، لم شعته وخرج ثانية لمواجهة جيوش العباسيين • وكان في اثناء ذلك يقتل ويسبي وينهب • فقاتله طاهر بن الحسين بالطريقة نفسها التي اتبعها ، ولذلك فانه ركن الى الهدوء وكف عن القتال (١٩٤) •

وهكذا فان ثورات خارجية متعددة نشبت في وجه العباسيين في السدور العباسي الاول ، في المناطق الشرقية للخلافة العباسية ، ولكنها في غالبيتها ثورات قليلة الأهمية ، لم تستطع الصمود امام جيوش العباسيين • وهي بذلك لم تبلغ مبلغ الثورات الخارجية التي نشبت في الفترة الاموية وخاصة تلك التي قامت في عهد مروان بن محمد ، وقد يكون للجهود الضخمة التي بذلها مروان بن محمد شأن كبير في ذلك •

ولم تقتصر الثورات الخارجية في الدور العباسي الاول على مشرق الخلافة العباسية ، بل امتدت الى مغربه ، واستطاع الخوارج هناك من تأسيس دول لهم • مستغلين ضعف قوة قبضة العباسيين في هذه المناطق وعقلية سكان المنطقة التي تناسبها الافكار الديمقراطية اكثر من الافكار الاخرى • فقد ثارت قبيلة ورجومه التي دانت بمبادئ الخوارج الصفرية في سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٨ م على العباسيين • وسيطر هؤلاء على مدينة القيروان (١٩٥) • الا انهم وقعوا في عداء مع الخوارج الاباضية بجبال نفوسة في طرابلس الغرب بقيادة أبي الخطاب • وتمكن الاخير من الانتصار على الخوارج الصفرية ، الذين سيطروا على القيروان (١٩٦) • وامتد نفوذه بذلك من طرابلس الغرب الى اقصى تونس ، فجعل على المنطقة الجديدة التي تبعت له عبد الرحمن بن رستم (١٩٧) •

(١٩٤) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٥٠ - ١٥١ •

(١٩٥) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٢ ويذكر انهم سيطروا على القيروان وسائر افريقيا •

(١٩٦) - من اصل فارسي نبيل ومما يذكر عنه انه ابن القائد الفارسي رستم الذي قاد جيوش الفرس في وجه المسلمين اثناء فتح العراق ، وقتل في معركة القادسية • انظر ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٢ •

(١٩٧) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٢ •

وعلى الرغم من محاولة العباسيين إعادة شمال افريقيا لسيطرتهم والقضاء على حركة ابي الخطاب الخارجية في سنة ١٤٣ هـ / ٧٦١ م ، والنجاح الجزئي الذي احرزه قائدهم محمد بن الاشعث ، فان الخوارج توزعوا في شمالي افريقيا ، واستطاعوا تأسيس دول صغيرة منها الدولة الرستمية . فقد فر عبد الرحمن بن رستم من وجه الجيش العباسي المنتصر باتجاه الغرب الى المغرب الاوسط ، وتمكن هناك بمساعدة أصحابه من بناء مدينة تاهرت سنة ١٤٤ هـ / ٧٦٢ م ، حيث اتخذها مركزا له وأسس مملكة خارجية اباضية عاشت قرنا ونصف القرن ، وقد استطاعت هذه الدولة ان تجمع حولها عددا من قبائل شمال افريقيا مثل لواته ورجالة ونفزاوه (١٩٨) . واستمرت هذه الدولة مسيطرة على المغرب الاوسط حتى قضى عليها الفاطميون .

وكذلك فان بني يفرن من زناتة برئاسة زعيمهم أبي قره ، اسسوا لانفسهم دولة في تلمسان وبايعوا ابا قره بالخلافة سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٦ م . وبعد تشديد العباسيين ضرباتهم ضد هذه الدول الخارجية ، اتفقوا مع الرستميين وغيرهم من القبائل التي انضمت اليهم (١٩٩) وحاصروا والي العباسيين عمر بن حفص في تونس . وعلى الرغم من النجاح الجزئي الذي احرزه عمر على الرستميين فانه لم يستطع ابعاد بقية الخوارج عن تونس . وراح عمر ضحية هذه الحركة اذ قتل سنة ١٥٤ هـ / ٧٧٢ م ، وحركة الخوارج في الاوج (٢٠٠) . ولم تهدأ غاراتهم التي بلغت ٣٥٠ غارة الا بعد وصول يزيد بن حاتم قائد المنصور سنة ١٥٦ هـ / ٧٧٤ م (٢٠١) .

اما في اقصى المغرب فقد انتشرت المبادئ الخارجية الصفرية . وتمكن هؤلاء

(١٩٨) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٢ .

(١٩٩) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٢٠٠) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٢٠١) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٣ .

من تأسيس الدولة المدراية (١٤٠ - ٣٤٧ هـ / ٧٥٧ - ٩٥٨ م) وكان من فضائل هذه الدولة الخارجية بناء مدينة سجلماسة في منطقة التافيلت (٢٠٢) .

وهكذا يتضح لنا انه في حين فشلت ثورات الخوارج شرقي الخلافة الاسلامية بتأسيس دويلات لها ماعدا عمان ، فان خوارج شمالي افريقيا حققوا اهدافهم ، وقد يكون ذلك تعبيرا من اهالي البلاد عن رفض حكم العباسيين وشعورهم بالحاجة الى حكم انفسهم عن طريق هذه الدول المنفصلة .

٤ - « حركات الشيعة في الدور العباسي الاول » :

على الرغم من كل الخطوب الجلية التي مني بها الشيعة خلال تاريخهم منذ مقتل علي بن ابي طالب فانهم لم ينسوا حقهم في المطالبة بالخلافة ، وعلى الرغم من الهدوء الظاهري الذي نعم به العباسيون في عهد ابي العباس ومطلع عهد المنصور ، فقد كان الشيعة كالنار تحت الرماد بحاجة الى من يحركهم .

وقد كان لدى الشيعة من الاسباب ما يدفعهم لاثبات حقهم ، والوقوف بقوة وحزم في وجه العباسيين ، والمهم في الامر ان الصراع بين الفريقين لم يعد منحصرًا بالخلافة ، وانما اصبح خلافا وصراعا بين العقائد التي يحملها كل فريق ويدافع عنها . وقد تجلت اسباب الصراع بين الفريقين في الدور العباسي الاول بالامور التالية :

— انهم كانوا يرون انفسهم احق من ابناء العباس بهذا الامر وان العباسيين مغتصبون للخلافة ، ولا يختلف شأنهم في ذلك عن الامويين .

— استغل العباسيون الدعوة للرضا من آل محمد ، وغرروا بانصار الشيعة من العامة ، فالحقوهم بدعوتهم ظنا من الاخيرين ان الخلافة ستؤول الى اولاد علي ابن ابي طالب .

(٢٠٢) — للحصول على مزيد من التفاصيل عن هذه الدولة ، راجع ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٦ ، من ص ١٢٩ حتى ص ١٣٣ .

— استفاد العباسيون من الحركات العلوية التي قامت في وجه الامويين ،
ومن تجنح حركات العلويين ، وكذلك فانهم استفادوا من الموقف الثوري للعلويين ،
وحملهم لراية الكفاح منذ موقعة كربلاء • ومراقبة الامويين لهم ، والقضاء عليهم •
فاخذوا جناح الهاشمية من الدعوة الشيعية ، وجعلوه لانفسهم ، وفي هذا مافيه من
التلاعب على حقوق الشيعة وخذعتهم •

— مخالفة العباسيين لما كان قد قرره الهاشميون من علويين وعباسيين في
اجتماع الارباء في سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٥ م حين قرر المجتمعون اختيار محمد بن
عبد الله الملقب بالنفس الزكية ليكون خليفة بعد نجاح الثورة •

ومن المعتقد ان هذا الخبر تعوزه الدقة ، لان العباسيين لم يكونوا ليتنازلوا
بسهولة عن حقهم ، وخاصة وأن الامام في ذلك الوقت كان من العباسيين وهو
ابراهيم بن محمد • وان الدعوة للرضا من آل محمد (العباسية) كانت على ابواب
النجاح • واذا صح ذلك فان أئمة العباسيين فعلوا ذلك لئلا يصيبهم الاذى ، فيما
لو انكشف الامر • وكان ذلك من باب التكتم الذي مهر به العباسيون وبنوادعوتهم
على اساسه • وانهم ارادوا ان تكون الجبهة الهاشمية متماسكة في هذه الفترة
الحرجة من فترات الدعوة (٢٠٢) • وبالتالي فقد كانت ثورة محمد بن عبد الله النفس
الزكية على رأس قائمة ثورات العلويين في الدور العباسي الاول •

ثورة محمد بن عبد الله النفس الزكية ، واخيه ابراهيم (١٤٥ هـ / ٧٦٢ م) :

امتازت علاقات الخليفة العباسي ابي العباس مع العلويين بالمهادنة (٢٠٤) ،
حتى اذا جاء عهد المنصور — الذي كان يعمل على توطيد اركان دولته بالوسائل
الممكنة كافة ، بالاضافة الى شدة الحذر الذي تميز به — بدأ التوتر يسود العلاقات
بين الطرفين • فقد اهتم المنصور منذ ولي الخلافة بأمر محمد وابراهيم ابني عبد الله

(٢٠٣) — انظر ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية ، ص ١٤٧ — ١٤٨ — ويذكر الطبري :

المصدر السابق جزء ٧ ، ص ١٧٧ البيعة لمحمد دون ذكر المكان والسنة •

(٢٠٤) — انظر عن ذلك المقرئزي : المصدر السابق ، ص ٧٩ وجه و ٧٩ ظهر •

ابن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب • وخاصة وانه لمس منهما عدم الموافقة على تحويل الخلافة للعباسيين منذ ان حج في خلافة اخيه سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م (٢٠٥) • وان محمدا (٢٠٦) واخاه رفضا البيعة لابي العباس ومن بعده للمنصور • ويقال بان المنصور في حجة ذاك سأل عنهما فلم يفلح بالاجتماع بهما • ولذلك فانه كلف والي الحجاز زياد بن عبيد الله الحارثي بارسالهما اليه (٢٠٧) • وحين تولى امر الخلافة ، كان يرى القبض عليهما مهما كلفه ذلك • فاتصل ببني هاشم وسألهم عنهما ، فلم يحظ باجابة مريحة ، واعلمه هي لاء بأن محمدا يخافك على نفسه ، لانه يعلم أنك تعرف أنه يطلب هذا الامر لنفسه ، ولذلك فانه اختفى عن الاقطار (٢٠٨) •

كان الخوف متبادلا بين الطرفين ، فكما خاف محمد على نفسه غدر المنصور ، كان الاخير يخشى على عرشه من طمع محمد • ولذلك كان لا بد لاحدهما من القضاء على الآخر • وبدأ المنصور بالتخطيط للظفر به بطرق متنوعة فمن التجسس الى تبديل الولاة المتكرر ليظفر بوال كفاء يعمل بجد على الفوز به • ففي باب التجسس قام بشراء الارقاء من العرب ومنحهم الابل وفرقهم بطلبه في ظاهر المدينة متظاهرين بانهم ضلوا ، عسى أن يصلوا عن هذا الطريق الى معرفة مكان محمد (٢٠٩) • وفي الباب الاخر ، قام بعزل واليه زياد بن عبيد الله الحارثي ، وصادر امواله ، وكبله بالحديد وسجنه وعين مكانه محمد بن خالد القسري (٢١٠) لانه ادرك اهماله في الجدد في طلب محمد وابراهيم ، وخاصة حين علم بان محمدا استطاع ان يخرج

(٢٠٥) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٥١٧ - ٥١٨ •

(٢٠٦) - هو صاحب البيعة في الابواء وهو الامام الموصى له من قبل الامام يحيى بن زيد علي زين العابدين بالامامة قبل مقتله •

(٢٠٧) - الطبري : المصدر السابق جزء ٧ ، ص ٥١٨ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥١٣ - ٥١٤ •

(٢٠٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٥١٨ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥١٤ •

(٢٠٩) - عن تفاصيل ذلك انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٥١٩ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥١٤ •

(٢١٠) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥١٩ •

من المدينة. ويتنقل في الكوفة والسند وعدن (٢١١) . وان يقوم بالدعوة لنفسه
هناك . كما ان دعائه وصلوا مصر ودعوا له فيها (٢١٢) .

وما لبث المنصور ان عزل محمد بن خالد واتهمه بالتباطؤ والتهاون في تنفيذ
مهمته وعين ثالثا عرف بالشدة والقسوة ، وقد اتضح ذلك من خطبته التي بدأ بها
الناس والتي لا تختلف في معناها ومبناها عن خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي في
مسجد الكوفة ، الا ان اهالي المدينة الذين كانوا يتدفقون حماسة لآل علي ،
جابهوا الوالي بكلمات كان لها من قوة التأثير ما يفوق خطبة الوالي . وعلى الرغم
من تهديد المنصور لاهالي المدينة بسبب موقفهم من الوالي فاتهم حصوه . فالتجأ
الى المتصورة محتما بها . وباذن من المنصور بدأ بالتنكيل بالعلويين ، فزج اغلبهم
بالسجن بعد ان قيدهم بالسلاسل (٢١٣) .

كانت خطة المنصور ان يسرع محمد و ابراهيم بالخروج بعد التنكيل باسرتهمما ،
وقد نجح في ذلك . ففي جمادي الاخرى في سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م خرج محمد على
المنصور مع عدد من انصاره ، وقصد السجن فكسر بابه واخرج من فيه ، وانضم
اليه اغلب من في المدينة . وبعد ازدياد قوته تجرأ على الدخول الى دار الامارة واسر
الوالي وأخاه ، ثم خطب الناس خطبة اوضح فيها اسباب ثورته ، وبين حقه الصريح
في الخلافة واغتصاب المنصور لهذا الحق (٢١٤) . ويبدو انه مما شجع محمد على
الخروج كثرة الرسائل التي وصلت من الامصار ، والتي توضح تشجيعها له ، فقال
في خطبته : (والله ماجئت هذه ، وفي الارض مصر يعبد الله فيه ، الا وقد اخذ لي
فيه البيعة) (٢١٥) . ولم يكن يعلم بان اكثر هذه الرسائل كان يزورها قادة المنصور
لمحمد بأمر من الخليفة لخداعه . ومما زاد في حماس محمد وقوة انصاره في البداية ،

(٢١١) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥١٧ .

(٢١٢) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٢٤ .

(٢١٣) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٢٤ - ٥٢٧ .

(٢١٤) - ابن الاثير : المصدر السابق جزء ٥ ، ص ٥٣١ .

(٢١٥) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٣١ .

اتخاذ الامام مالك صاحب المذهب المالكي ، وامام اهل السنة دون منازع جانبه ،
فأفتى بنقض بيعه المنصور ، اذ صرح للناس بانهم بايعوه مكرهين وليس على مكره
يمين (٢١٦) .

لقد كانت صفات محمد بن عبد الله تؤهله لتولي منصب الخلافة ، فهو من
سادات بني هاشم ، ومن مقدميهم في الفضل والشرف والعلم . متحليا بالصفات
الحميدة والخصال الكريمة . وكان زاهدا وناسكا ، ولذلك سمي بالنفس الزكية
وبالمهدي . وفوق كل هذا فانه لم يكن ميالا لسفك الدماء وظلم الناس ، بل اشتهر
بالعفو والعفوة . وقد أهلت هذه الصفات ان يحتل مركزا عظيما بين الناس (٢١٧) .

وقد اراد محمد بن عبد الله . ان يوسع دائرة الثورة لادراكه بان اهل
المدينة لم يكونوا في ذلك الوقت اهل حرب . فارسل اخاه ابراهيم الى البصرة لينشر
الدعوة فيها (٢١٨) . وقد تمكن ابراهيم من دخولها بالحيلة والدهاء مرافقا لقافلة
البريد . فاستولى على دار الامارة في البصرة ، وهزم قوات الخليفة المنصور ، كما
استطاع ان يجعل فقهاء البصرة ، وكبار رجالها الى جانبه . وفوق ذلك فانه استطاع
ان يدخل اهالي واسط والاهواز وفارس في دعوته (٢١٩) . وفي هذه الظروف
الحرجة التي واجهها المنصور لم يدع بابا الا طريقه . فقد كتب الى محمد بن عبد الله
يطلب منه فيه العودة الى الطاعة ، وله ولمن معه الامان على دماءهم واموالهم . فرفض
محمد ذلك واصر على موقفه معلنا بان ذلك حقا من حقوقه . وقد جرت مراسلات
بين الطرفين تعتبر من اهم الوثائق العباسية وأشهرها . فهي تصور الجدل الفكري
الذي قام بين العباسيين والشيعة ، والتي يذكر كل طرف فيها الحجج التي تفضله
من غيره ، وتجعل له الحق في الخلافة . ويؤكد أبو جعفر المنصور في رسائله ان

(٢١٦) محمد بن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٢٩ .

(٢١٧) ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

(٢١٨) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٣٦ .

(٢١٩) محمد بن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٣٠ .

ميراث النبي للعباس لا لفاطمه ، وانه لا شرف ولا فضل في جاهلية ولا اسلام في دنيا
ولا آخرة الا والعباس وارثه ومورثه (٢٢٠) .

رفض محمد بن عبد الله الموادعه وأخذ يستعد لمواجهة الموقف بحفر خندق
حول المدينة ، في حين ارسل المنصور جيشا كثيفا جعل على قيادته ابن اخيه وولي
عهده عيسى بن موسى ، وارفده بجيش آخر . ولذلك دارت بين الطرفين معركة
غير متكافئة ، هزم على اثرها محمد بن عبد الله وانصاره . ولقي مصرعه بعد ان
ضرب مثلا في الشجاعة وهو ابن خمس واربعين سنة (٢٢١) .

كان على المنصور بعد ان تم له القضاء على محمد ان ينهي خطر هذه الثورة
بالقضاء على اخيه ابراهيم ، بعد ان اشتد خطره بتغلبه على مناطق متعددة (٢٢٢) .
وتفاقم عدد جنده حتى بلغ على رأي البعض مائة ألف مقاتل ، وكان ابراهيم قد
توقف عن القتال بانتظار اخبار المدينة . وحين قتل أخوه في ٢٧ رمضان سنة ١٤٥ هـ
/ ٧٦٢ م اخذ البيعة لنفسه بالامارة ، وقاتل جيوش العباسيين التي هاجمته ،
فاتصروا عليه في معركة باخري بين الكوفة وواسط . وقتل ابراهيم بعد فترة
بسيطة من مقتل اخيه . وادى ذلك الى ضعف مركز بقية افراد الاسرة . فقتل
بعضهم وفر آخرون شرقا وغربا . وقد انتهت هذه الهزيمة بالحزن العميق من قبل
أشياعهم ، فرثاهم الشعراء اجمل رثاء .

ومما لا شك فيه ان هزيمة محمد بن عبد الله ونصر المنصور في هذه الثورة
كانت لها اسباب متعددة قد ادت اليها منها :

(٢٢٠) - انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، من ص ٥٦٧ حتى ٥٧١ وابن الاثير : المصدر
السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٣٦ - ٥٤٢ .

(٢٢١) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٥٠ .

- حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٣١ - زكار : المرجع السابق ،
ص ٢٦٤ .

(٢٢٢) - انظر فيما سبق .

— سخر المنصور كل قوته وهمته للقضاء على الحركة ، فتذكر بعض المصادر والمراجع ان المنصور استمر في النوم على مصلاه خمسين يوما ينام فيه وعليه جبة ملونة قد اتسخ جيبها لا يغيرها ، ولم يهجر المصلى . الا انه اذا ظهر للناس لبس السواد ، فاذا فارقهم رجع الى هيئته . واهدت اليه امرأتان من المدينة فلم ينظر اليهما ، وكان جوابه أنه ليست هذه أيام نساء ولا سبيل اليهما حتى انظر رأس ابراهيم لي أو رأسي له (٢٢٣) . كما انه طلب ان تقطع الميره من مصر عن أهل الحرمين (٢٢٤) .

— استشارة المنصور خيرة رجاله ، واهل الرأي والتجربة في أنجع السبل للقضاء على تلك الحركة . فكل اشار عليه برأي ، ومن تلك الآراء رأي اسحاق بن مسلم العقيلي الذي قال له : (اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال) . فقال له المنصور : انصرف حتى أرسل اليك ، فلما صار ابراهيم الى البصرة ارسل اليه ، فقال : وكيف خفت البصرة ؟ قال : لان محمدا ظهر بالمدينة وليسوا اهل حرب ، بحسبهم ان يقيموا شأن انفسهم وأهل الكوفة تحت قدمك ، وأهل الشام أعداء آل ابي طالب ، فلم يبق الا البصرة (٢٢٥) . وآراء اخرى يبذل الاموال للجند ، وتجنيد اهائي النجدة والقوة من أهل الشام .

— استخدام المنصور الحيلة والدهاء في القتال فأفشل الحركة ، على الرغم من أن أكبر فقهاء ذلك العصر وعلى رأسهم الامامان مالك وأبو حنيفة عطا على هذه الدعوة . فقد حاول اغراء المناصرين للعلويين بالمال لتثيبتهم ، كما أشعر الناس بهزيمة النفس الزكية . فقد كلف امرأة بالمناداة من رأس المأذنة بهزيمة محمد النفس الزكية قبل ان تحدث فيلا ، مما ادى الى تصدع جيشه وهرب المواليين له خشية على انفسهم . كما أنه أرسل الى اهالي خراسان الذين كانوا متعاطفين مع هذه

(٢٢٣) — المقرئ : المصدر السابق ، ورقه ٩١ و ٩٢ وجه .

— ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٦٦ .

(٢٢٤) — المقرئ : المصدر السابق ، ورقه ١٠٨ ظهر .

(٢٢٥) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٣٦ . — Muir: The Caliphate., P.458.

الدعوة ، رأس قريب النفس الزكية الذي قتل ، واوهمهم بأنه رأس محمد بن عبد الله فحال بذلك دون قيام الفتن والاضطرابات في خراسان . كما امر قواده الذين في الجيش ان يكتبوا الى محمد ، فيعلموه أنهم اذا صاروا الى المدينة فواقعوه ، انقلبوا اليه ، فأقام محمد طمعا في ذلك ، فلما لقوه كانت اياها (٢٢٦) .

— ضعف قوات محمد وأخيه اذا قيست بقوة الخلافة العباسية، فعلى الرغم من كثرة الرسائل التي وردته فإن عدد انصاره لم يكونوا كذلك . كما انهم لم يكونوا مدربين تدريباً كافياً على القتال . فلم ينظم جنده ويرتبهم ترتيباً يناسب زمنه . ويمكنهم الوقوف في وجه جند الخليفة الذي اختار له نخبة من مشهوري قادته . ونظم جنده وامده بالسلاح والمبؤن . ثم انه كان يرسل كردوسا من جنوده ليقاتل فاذا انهزم اردف كردوسا اخر . وكان يفعل ذلك خشية ان ينهزم الصف بكامله فيتداعى سائره (٢٢٧) .

— عدم التوافق الزمني بين ثورتي محمد وإبراهيم مكن أبو جعفر من القضاء عليهما بالتتابع . ولو استغل إبراهيم فترة فراغ الكوفة من الجيوش التي ذهبت لقتال أخيه لتغير وجه هذه الحركة ، ولحصلت على جزء من النجاح او على نصر كامل . لانه بعمله هذا كان سيجعل العباسيين مضطرين لسحب جزء من قواتهم لقتاله ، فيخف الضغط على أخيه محمد ، ولكنه انتظر فجاءته الجيوش التي قاتلت أخاه منتصرة مظفورة ، وجابهته بعد ان تحطم قلبه وضعف أمله .

— اخطأ محمد في اختيار مركزه الحربي ، لان المدينة كما وصفها الرحالة المسعودي (٢٢٨) ، ليس فيها زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة . وبقاؤه في بلد ليس فيه اكتفاء ذاتي يؤدي الى قطع الميرة عنه ، وهذا ما فعله المنصور الذي قطع ميرة الشام ومصر الواردة الى المدينة (٢٢٩) .

(٢٢٦) — المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٩٨ ظهر .

(٢٢٧) — ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٦٨ .

(٢٢٨) — مروج الذهب : جزء ٣ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢٢٩) — انظر ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٥١ .

— هذا وقيل أن انهي حديثي عن هذه الحركة اود ان اوضح ان محمد ابن عبد الله كان زعيم الشيعة الزيدية في زمنه (٢٣٠) . تلك الفرقة التي تعتبر بمعتقداتها اقرب الفرق الشيعية الى السنة . وهي التي تنسب الى زيد بن علي ، صاحب الثورة على الخليفة هشام بن عبد الملك في الكوفة سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م .

— ثورة الحسين بن علي بن الحسن :

مما لاشك فيه ان هذه الضربة القاسية التي أصابت العلويين بمقتل محمد و اخيه ابراهيم ، ووضع كبار رجال العلويين تحت المراقبة ببغداد ، جعلتهم يستكينون لمدة عشرين عاما تقريبا . فمضى بقية عهد المنصور والمهدي دون حدوث حركة علوية . ولكن هذا السكون مالبث ان شق لاسباب متعددة منها :

— عدم نسيان العلويين حقوقهم في الخلافة .

— قسوة ولاية العباسيين في معاملتهم للعلويين وقيام عامل المدينة بالتكيل ببعضهم وبشكل خاص سوء معاملته للحسن بن محمد بن عبد الله ، واتهامه بشرب النبيذ ، وقبضه عليه وعلى صحبه ، والتشهير بهم بين أهل المدينة (٢٣١) .

دعا الحسين لنفسه في المدينة في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٦ م بعد ان اعترض على التشهير باهل بيته والخط من كرامتهم ، فاجتمع اليه عدد كبير من الناس ، ثم لجأ الى السجن فاخرج من فيه وباع الجميع للحسين بن علي بالخلافة (٢٣٢) .

أقام الحسين بعد خروجه من المدينة احد عشر يوما ، ثم قصد مكة حيث

(٢٣٠) — انظر فيما بعد .

(٢٣١) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٩٢ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٩٠ .

(٢٣٢) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٩١ .

استقطب اهلها حوله وعمل على منح الحرية للعبيد (٢٣٣) . وعلم الخليفة الهادي بما حدث فجهز جيشا جعل على قيادته محمد بن سليمان بن علي . والتقى الحسين بهذا الجيش في مكان يقال له فخ (٢٣٤) وجري بين الطرفين قتال عنيف ، اسفر عن قتل الحسين بن علي بعد ان ابلى بلاء حسنا . وقتل معه ايضا بعض اهل بيته (٢٣٥) . وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل لم تكن مصيبة بعد كربلاء اشد وافجع من فخ . وكثر رثاء الشيعة لقتلهم فيها (٢٣٦) . ومنها ما انشده عيسى بن عبد الله حيث قال :

لابتكين على الحسن
وعلى ابن عاتكة الذي
بين بعولسة وعلى الحسن
واروه ليس بذى كفن
وانشد موسى بن داود فيهم :

يا عين بكى بدمع منك منهمر
صرعى بفخ تجر الريح فوقهم
فقد رأيت الذي لاقى بنو حسن
أذيالها وغواد دلح المزن (٢٣٧)

لم تكن اهمية هذه الثورة تكمن في احداثها فقط . بل كانت نتائجها اكثر اهمية منها ، فقد كانت سببا في ميلاد حركات شيعية اخرى ستكون لها نتائج هامة ، وسيكون تأثيرها واضحا في ظهور دويلات منفصلة عن الخلافة العباسية .

— ثورة ادريس بن عبد الله واخيه يحيى :

بعد هزيمة فخ تمكن ادريس بن عبد الله ، واخوه يحيى من الاقلام من

- (٢٣٣) — انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٩٢ .
(٢٣٤) — هو راد في طريق مكة على بعد ثلاثة او ستة اميال منها . انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٢٧ — وانظر ابن خلدون : المصدر السابق جزء ٦ ، ص ١٤٧ — حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٣٩ .
(٢٣٥) — ابن الاثير : المرجع السابق ، جزء ٦ ، ص ٩٣ .
(٢٣٦) — انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .
(٢٣٧) — ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٣٨ .

قبضة العباسيين ، فاتى ادريس مصر مستغلا تشيع صاحب البريد فيها ، الذي حمّله الى اراضي المغرب حيث نزل بأراضي طنجة بمدينة ويليلا (٢٣٨) فاخذ يدعو من حوله من البربر . فاستجاب له عدد كبير منهم (٢٣٩) . ولما رأى الرشيد ان القضاء على حركته يكلفه كثيرا ، لبعد المكان الذي اختاره وشدة مراس البربر وصعوبة قتالهم . اراد ان يعمل على القضاء عليه بالمكيدة والخداع . فارسل اليه رجلا عرف بدهائه . فتظاهر امامه بانه خارج على العباسيين . وتمكن من ان يظهر بمظهر الصادق امام ادريس . فوثق به ادريس كل الثقة ، وقربه منه . فساعد ذلك على دس السم لادريس ، في سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م . فبايع انصاره ابنه ادريس بعبد ولادته ، واليه تنتسب دولة الادارسة في بلاد المغرب (٢٤٠) . وكان من نتيجة ذلك أن:

— غير الرشيد سياسته تجاه العلويين فاخذ يعمل على استئصالهم بعد ان بدأ عهده باستمالتهم واعطائهم حرية التحرك .

— اقطع ابراهيم بن الاغلب ولاية افريقية تونس الحالية ، ليقف في وجه الادارسة .

أما يحيى فقد نجح في الذهاب شرقا حيث استقر به المقام في بلاد الديلم ، جنوب بحر الخزر . واخذ هناك في الدعاء لنفسه ، فقوي أمره وبايعته جموع كثيرة من المناطق المجاورة لاعتقادهم بأحقية بالامامة ، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية (٢٤١) .

قلق الرشيد لهذه الحركة واراد القضاء عليها بكل الوسائل . فندب الرشيد

(٢٣٨) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٩٣ ووليلا مدينة بالمغرب قرب طنجة ، انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٨٤ ، وردت هكذا في ياقوت اما ابن الاثير : جزء ٩ ، ص ٩٣ فقد رسمها وليله .

(٢٣٩) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٩٣ .

(٢٤٠) — حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٢ ، ص ١٤٢ .

(٢٤١) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢٤٢ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٥ .

— ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢١٨ .

وزير الفضل بن يحيى لقتاله في ١٧٦ هـ / ٧٩٢ م وجعل تحت امرته خمسين ألف مقاتل • ولتقوية مركزه جعل له ولاية جرجان وطبرستان وغيرها (٢٤٢) •

بدأ الفضل عمله بالمفاوضات السلمية • على أمل ان يحقق بها هدفه فكاتب يحيى بن عبد الله محذرا اياه ، موضحا عاقبة الخروج على الخلفاء ، كما أغرى حاكم الديلم بسليون درهم ، ان هو اخرج يحيى من بلاده (٢٤٣) • ويبدو ان يحيى كان قد اخذ عبرة من نتائج الثورات العلوية التي سبقته ، فأثر المسألة وركن الى الهدوء • وقبل بالصلح والتسليم مشروطا ان يكتب له الرشيد امانا بخطه يشهد فيه القضاة والفقهاء وجملة بني هاشم ومشايخهم • فاجابه الرشيد الى ذلك ، وسير كتاب الامان مع الهدايا والتحف • فقدم يحيى مع الفضل الى بغداد فلقية الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير • واسفر ذلك عن ارتفاع مكانة الفضل عند الخليفة (٢٤٤) •

ويبدو ان امورا قد حدثت فيما بعد الجأت الرشيد الى سجن يحيى وقد يكون الرشيد توهم عدم اخلاص يحيى وخشي منه اما لمركزه عند الناس او لان يحيى قام فعلا بما يخشاه الرشيد وتآمر ضد الخليفة (٢٤٥) • والمهم في الامر ان يحيى اودع السجن ، وتختلف الروايات في نهاية يحيى هذا بعد سجنه ، وتسرى بعضها بأنه قتل في السجن ، ومن المعروف ان نهاية يحيى هذه كانت من عوامل نكبة البرامكة فيما بعد (٢٤٦) •

— نهاية موسى الكاظم بن جعفر الصادق :

دب الخلاف في صفوف العلويين في عهد الرشيد ، واخذ بعضهم يوشى بالبعض • وقد علم هارون الرشيد من بعض حساد موسى الكاظم من اقاربه ، بأن

(٢٤٢) — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢١٨ •

(٢٤٣) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٥ •

(٢٤٤) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٥ •

(٢٤٥) — انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٤٥ وما بعدها •

(٢٤٦) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٥ — ١٢٦ •

لموسى الكاظم دعوة وان الناس يحملون اليه خمس أموالهم ، ويعتقدون إمامته .
وانه يتهاى للخروج على الخليفة ، واكثروا في القول ضده ، مما اقلق بال الرشيد ،
ودفعه الى العمل على التخلص منه . فلما قدم الخليفة الى المدينة المنورة في سنة
١٧٩ هـ / ٧٩٥ م قبض عليه وحمله الى بغداد ، حيث حبسه عند السندي بن شاهك ،
ثم دس اليه من قتله خفية سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م ، وادخل شهودا شهدوا انه مات
حقتف انقه (٢٤٧) .

ولم يحدث في عهد الامين ثورات علوية ، ويبدو انه لم يحدث في عهده
ما يثيرهم ، ولم يعملوا على استغلال فترة الخلاف بين الامين والمأمون . وقد
وصف الاصفهاني موقف الامين من العلويين بقوله « كانت سيرة محمد الامين في
آل أبي طالب خلاف من تقدم ، لتشاغله بما كان فيه من اللهو والادمان ، ثم الحرب
التي كانت بينه وبين المأمون حتى قتل . فلم يحدث على أحد منهم في أيامه حدث
بوجه ولا بسبب » (٢٤٨) .

— العلويون في عهد المأمون :

لم يهدأ الصدام بين آل علي والعباس في عهد المأمون ، على الرغم مما يذكر
عن المأمون من حسن معاملة العلويين . فقد بثوا دعائهم في البلاد ، وخرج على
المأمون منذ مطلع خلافته ، محمد بن ابراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا بالكوفة
في جمادي الثانية سنة ١٩٩ هـ / ٨١٤ م ، وصار يدعو الى الرضا من آل
محمد (٢٤٩) ، والعمل بالكتاب والسنة ، وعاونه في نشر دعوته قائد جنده أبو
السرايا السري بن منصور الشيباني الذي استولى على الكوفة من يد واليهسا
العباسي (٢٥٠) . ولما توفي ابن طباطبا قام قائده أبو السرايا بتولية محمد بن محمد

(٢٤٧) — انظر محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ، ص ٢٠٤ .
(٢٤٨) — محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ، ص ٢٠٤ نقلا عن
الاصفهاني .

(٢٤٩) — المقرئزي : المصدر السابق ، ورقة ١٢٢ وجه

(٢٥٠) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

المقرئزي : المصدر السابق ، ورقة ١٢٢ وجه .

ابن زيد العلوي واستبد بالامر دونه (٢٥١) وضرب الدراهم بالكوفة ، كما ارسل ولاية من العلويين الى مكة والمدينة والبصرة وغيرها من الامصار الاسلامية (٢٥٢) . وقد تمكن أبو السرايا من تحقيق هذا النجاح لبعث المأمون عن بغداد واقامته في مرو . ولكن الحسن بن سهل (والي المأمون على العراق) عمل على القضاء على هذه الثورة . وتعاون مع هرثة بن أعين لاختمادها . وتمكنا من اخراجه من الكوفة ، فاخذ يتنقل من بلد الى آخر ، حتى قبض عليه في جلولاء (٢٥٣) .

ويبدو ان المأمون على الرغم من قضائه على هذه الثورة ، فانه لم يكن يكره العلويين . والدليل على ذلك انه حين فكر فيمن سيخلفه ، لم ير أصليح من علي ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، فبعث في طلبه من المدينة المنورة ، ثم بايعه بولاية العهد ، ونقش اسمه على الدنانير والدراهم ، وكتب بذلك كتابا بخطه ولقبه الرضا من آل محمد ، فعرف بعلي الرضا . ثم انه امر بخلع السواد شعاع العباسيين (٢٥٤) ، وامر بلبس الخضرة ، وكان ذلك في خراسان سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م . ولم يكتف المأمون بذلك بل زوجه ابنته ، وزوج محمد الجواد بن علي الرضا ابنته الاخرى . ووصل خبر مافعله الى العباسيين في بغداد فانكسروا ذلك ، وخلعوا المأمون وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي بلقب المبارك في محرم سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٨ م (٢٥٥) .

واختلف المؤرخون في تفسير هذا المنعطف السياسي في سياسة الخليفة العباسي المأمون ، فرأى بعضهم أن سبب هذه البيعة يعود الى نزعة المأمون الفارسية ، فقد نشأ منذ نعومة اظفاره في بيئة فارسية ، فأمه مراجل فارسية الاصل .

(٢٥١) - المقرئزي : المصدر السابق ، ص ١٢٢ ظهر

(٢٥٢) - سرور : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

(٢٥٣) - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ١٢٢ ظهر .

- ابن الاثير . المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٣٠٩ .

(٢٥٤) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٢٥٥) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٥٥٤ - ٥٥٥ .

واشرف جعفر البرمكي الفارسي على تربيته • كما يرى الآخرون ان هذا الامر كان بتأثير وزيره الفضل بن سهل الفارسي الاصل الشيعي المذهب ، والذي كان يميل الى ان يكون خليفة المسلمين علويا • ويعزو بعضهم ذلك الى ان المأمون كان يؤمن بحق آل علي في الخلافة (٢٥٦) ، ويعطف عليهم • ويتضح ذلك من الوصية التي اوصى بها أخاه المعتصم قبل وفاته •

(وهؤلاء بنو عمك من ولد امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه فاحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم واقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها ، فان حقوقهم تجب من وجوه شتى) (٢٥٧) • ثم ان المأمون استعرض الفتن التي قامت في الدولة الاسلامية منذ خلافة علي بن ابي طالب السى عهده ، فلمس فيها فرقة لكلمة المسلمين وقطعا لا وصال الدولة الاسلامية وشغلا للخلفاء عن القيام باصلاح حال المسلمين ، فرأى انه من الخير له ان يفتح الطريق امام الاسرتين معا لاختيار افضلهم ، وليتعاون الجميع لمصلحة المسلمين •

ويرى بعض المؤرخين ان المأمون قام بخطوته تلك حتى يخرج الائمة الشيعة الذين يدعون لقضيتهم سرا من مكانهم • فالعامة تسمع عنهم كل حسن ولا تراهم فظنوا بهم مايظن بالانبياء • واذا ماخرجوا وتعرف عليهم العامة وجدوهم كغيرهم فيتضاءل تقديسها لهم (٢٥٨) •

واخيرا يمكن ان نصل الى نتيجة قد تحوي الحقيقة او جزءا منها • وهي ان فكر المأمون الواسع والناضج الذي حمل خلاصة علوم وفلسفات شتى ، وانسانيته التي كونها هذا الفكر ، ادت الى حصول قناعة عنده بان العلويين قد ظلموا وحقن وقت انصافهم •

(٢٥٦) - انظر عن ذلك المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١٣٩ ظهر و ١٤٠ وجه •
(٢٥٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٤٩ - ٦٥٠ - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١٢٦ وجه •

(٢٥٨) - القفطي : اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ •

ـ نهاية محمد بن القاسم :

سار المعتصم في سياسته مع العلويين على نسق من سبقه من اسلافه . كما تابع العلويون ثوراتهم في عهده . فقد نهض محمد بن القاسم العلوي بثورة ضد المعتصم في سنة ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م بدأها في مدينة الكوفة ، ثم الطالقان ، واخذ يدعو الى الرضا من آل محمد ، فاجتمع اليه عدد كبير من اهلها فازداد نفوذه بذلك .

كلف المعتصم عبد الله بن طاهر لقتاله وجرت بين الفريقين وقائع متعددة ، فر على اثرها محمد بن القاسم ، فاتبعه عبد الله حتى قبض عليه ، وارسله الى المعتصم فحبس في مدينة سامراء سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٦ م . وقد اختلف الناس في نهايته ، فمن قائل أنه قتل بالسهم ، ومنهم من يقول ان بعض اتباعه اخرجوه من مكانه وذهبوا به الى موضع مجهول ، ولم يعرف له خبر (٢٥٩) . ويقال ان عددا كبيرا من الزيدية انقاد اليه ، ويزعم فريق منهم بنواحي الكوفة وجبال طبرستان والديلم وخراسان انه لم يمت وانه حي يرزق ، وانه سيخرج فيملا الارض عدلا كما ملئت جورا ، وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٤ م .

وبعد استعراضنا لموقف العلويين من ابناء عموماتهم العباسيين في الدور العباسي الاول يمكننا استنتاج مايلي :

ـ تمثل النزاع المسلح في هذا الدور بين العباسيين والعلويين بثورات الفرقة الزيدية من الحزب الشيعي بالاضافة الى ماحدث بين الفريقين من جدل كلامي ، كالجدل الذي حدث بين النفس الزكية والمنصور والمساجلات الشعرية التي قامت بين شعراء الفريقين (٢٦٠) . ولا بد من ان نذكر ان معتقدات الفرقة الزيدية

(٢٥٩) ـ عن نهاية محمد بن القاسم ، راجع الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٧ - ٨ .

(٢٦٠) ـ عن المساجلات الشعرية : انظر حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٤٥ حتى ١٥٢ .

هذه تطورات مع الزمن ، مما أدى الى نشوء فرق متعددة لكل منها تعاليمها التي تختلف عن المذهب الزيدي الرئيسي (٢٦١) .

— ان الشدة التي واجه بها العباسيون ثورات الشيعة الزيدية ، أدت الى تخفي أئمة بعض فرق الشيعة ، وأخذ زعماءها يعملون بضمت وكتمان على انضاج معتقدات فرقهم .

— حدوث صراع بين أئمة الشيعة زاد من انقسامهم الى فرق اخرى . وبدأ التمايز واضحا بين هذه الفرق ، فظهرت الاسماعيلية ، والامامية الاثنى عشرية ، ولكن الصراع بين هذه الفرق الجديدة ، والخلافة العباسية لم يظهر الا في الدور العباسي الثاني .

هذا ولا بد من القول أخيرا انه اذا فشل الشيعة في تحقيق حلمهم كاملا في هذا الدور ، فانهم استطاعوا ان يحققوا جزءا منه حين تمكنوا من تأسيس دولة الادارسة في المغرب . كما نجحوا في تأسيس دولة زيدية في طبرستان ، ثم استطاعوا فيما بعد ان يقيموا خلافة فاطمية في شمال افريقية .

٥ - الصراع بين العرب والموالي :

لم ينل الموالي في العصر الاموي ، حقوقهم كاملة ، وكان العنصر العربي مميزا عليهم لانه مادة الاسلام ، وحامل رايته ، ورافعها عاليا . ولذلك فقد عمل الموالي جاهدين على اثبات وجودهم ومركزهم بالانخراط في سلك المتفقهين في الدين الاسلامي . وشعر هؤلاء الذين تفقهوا في الدين بعدالة الاسلام وبحقوقهم التي لم يحصلوا عليها في ظل الحكم الاموي ، ولكنهم لم يجرأوا على المطالبة العلنية بذلك ، بل قاءوا الامويين ، بانخراطهم في الثورات المختلفة التي ناهضتهم . وللعادلة يجب أن نذكر أن هذه النظرة الى الموالي لم تكن عامة لدى العرب كافة ، بل هي النظرة السائدة بين العامة من العرب والحكام ، وبالمقابل فقد سادت الاوساط العلمية

(٢٦١) — انظر فيما بعد .

والدينية نظرة المساواة ، وكان تعصبها للدين والعلم • وبالتالي فإن هذا ما يفسر لنا ما يروى في كتب التاريخ والسير من قصص مختلفة تدل على احتقار الموالي حيناً ، واحترامهم حيناً آخر (٢٦٢) •

وحين قامت الخلافة العباسية ، وشعروا بدورهم في نجاحها • بالاضافة الى ما نالوه من حقوق في ظل الخلافة الجديدة — اذ أصبحوا وزراء ، وحاشية للخلفاء ، وقادة للجيوش في بعض الحملات — • وما بقي في اذهانهم عن ماضيهم بما فيه من حضارة وما في نفوسهم من بقايا دياتهم السابقة • مع بقاء لغتهم حية على سنتهم ، قاموا بالتعبير عما كان يجيش في صدورهم ، وبالعامل على تحقيق سيادتهم فنهضوا لتشويه سمعة العرب ، وابراز مكائهم السابقة ، ودورهم في الحضارة العالمية ، كما قام فريق منهم بتشويه تعاليم الاسلام • وادخالهم شيئاً من دياناتهم السابقة ضمن تعاليمه ، ومن ثم عملوا على تحقيق استقلالهم والوقوف في وجه الخلافة الاسلامية • فقد كان يسؤوهم ان الخلفاء العباسيين على الرغم من اعتمادهم عليهم ومناداتهم بالمساواة في ظل الاسلام ، فانهم كانوا لا يزالون يحتضنون في اعماقهم المضمون العربي القديم لقيمة الموالي • وقد اسفر ذلك عن حركات متعددة لها غايات دينية وقومية ، امتشق الموالي في بعضها الحسام لتحقيق اهدافهم ، وناضلوا نضالاً سلمياً في بعضها الآخر •

فمن الحركات السلمية التي قام بها الموالي في ذلك الدور لا يبرز قيمتهم ومكائهم •

— محاولة من تولى منصبا كبيرا وشعر بقيمته في نجاح الدعوة العباسية ، الى تحقيق السيادة الفارسية ، والاستقلال في المناطق الشرقية • ومن الامثلة على ذلك موقف ابي مسلم الخراساني في عهد المنصور •

(٢٦٢) — انظر احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ٢٧ - ٢٨ •

— محاولة من توصل منهم الى منصب الوزارة منافسة الخلفاء في الحكم ،
فاسفر ذلك عن صراع بين الخلفاء والوزراء •

— محاولة بعضهم سلب العرب كل ما كان لهم من صفات متميزة في الجاهلية ،
وبالتالي سلبهم مكائدهم الاولى في الاسلام مع ابراز ميزات الفرس قبل الاسلام ،
وفضلهم على الخلافة الاسلامية فنشأت الشعوبية •

— عمل آخرون على تشويه الاسلام ، وادخال تعاليم ديانا فارسية ضمنه
فنشأت الزندقة ، أما ما قام به هؤلاء من كفاح مسلح فتجلى بحركات متعددة :

أ — الثورة الراوندية •

ب — ثورة المقنعية •

ج — الحركة الخرمية •

د — حركات متنوعة اخرى •

— الصراع السلمي بين العباسيين والموالي :

أ — الصراع بين أبي مسلم الخراساني وأبي جعفر المنصور :

امتلات الفترة القصيرة التي اعتلى فيها أبو العباس عرش الخلافة العباسية
بالحركات المناهضة ولكنه تمكن بفضل مساعديه من القضاء عليها • وعلى الرغم من
ان ابا مسلم لم يقم بأعمال عدوانية ضد الخلافة العباسية ، وكان من دعائها
النشيطين وخدامها الماهرين ، الا ان المنصور كان يخشى من قوته وشدة وكثرة
انصاره • ويبدو ان بوادر الحذر منه قد بدأت من قبل المنصور قبل اعتقاله عرش
الخلافة • ومنذ ان ذهب اليه لاختد البيعة لاختيه من أهالي خراسان ، أبدى أبو مسلم
استخفافا بالمنصور ، فلما عاد الى اخيه اخبره بما كان ، وحذره من أبي مسلم (٢٦٣)

(٢٦٣) — المقرئ : المصدر السابق ، ورقه ٨٧ وجه وظهر •

قائلا : يا أمير المؤمنين (أطعني واقتل ابا مسلم فوالله ان في رأسه لغدرة ،) فقال أبو العباس مجيبا إياه : (يا أخي قد عرفت بلاءه وما كان منه •) فقال أبو جعفر : (يا أمير المؤمنين انما كان بدولتنا والله لو بعثت سنورا لقام مقامه ، وبلغ ما بلغ في هذه الدولة) (٢٦٤) • وبدأ أبو العباس بعد ذلك سلسلة من الاعمال تشير الى انه قد قرر عدم تمكين أبي مسلم من زيادة سيطرته • كان أبو مسلم يسير في حاشية كبيرة من أعوانه ، وحين استأذن ابا العباس في القدوم اليه ، حذره الخليفة من أن يقدم بأعداد كبيرة كعادته ، وطلب منه ان يجعل الحد الأقصى خمسمائة من الجند ، ولما اعترض أبو مسلم على ذلك واوضح بانه قد وتر الناس ولا يأمن على نفسه ، رضي أبو العباس منه الحضور بألف من أصحابه ، وطمأنه الى انه في سلطان أهله ودونته (٢٦٥) • كما انه عمل على عدم اعطائه امارة الحاج في سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٥ م بعد ان طلبها من ابي العباس ، واعلمه بأن ابا جعفر سيحج في هذا العام وسيكون اميرا للقافلة ، فأجابه أبو مسلم : أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا العام ؟ وسار أبو مسلم في تلك القافلة كفرد في طاعة أبي جعفر • الا ان تصرفاته أشعرت أبا جعفر بازدياد نفوذه ووجوب القضاء عليه ، وكان أبو مسلم بعد أن خرجا الى مكة يصلح العقاب (٢٦٦) ويكسو الاعراب في كل منزل (٢٦٧) ، ويصل من سسأله ، ويحفر الآبار ، ويسهل الطرق ، وكأنه رئيس الحاج • ثم انه لما صدر الناس عن الموسم ، نفر أبو مسلم قبل ابي جعفر • وظهر طمعه في جمع الناس حوله من الحديث الذي دار بينه وبين مرافقه حين نظر الى اهل اليمامة في الحج فقال : يا نيرك أي جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان سريع الدمعة (٢٦٨) •

(٢٦٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٦٨ •

(٢٦٥) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقه ٨٧ وجه وقد عزا المقرئ له قولا في هذا المجال يشير الى تحمه في التغلب على الامر ، فقد اورد انه قال (اني الارجو ان يموت أبو العباس واكون مع اقوى من ياتي بعده ثم اقلب على الامر ، ويكون لي شأن من الشأن ، فلا تبقى بلد الا وطنته برجلي هاتين •

(٢٦٦) - مسيل الماء الى الخوض ، انظر لسان العرب لابن منظور ، جزء ٢ ، ص ١٠٣ •

(٢٦٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٨٠ - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٨٧ ظ

(٢٦٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٨٠ •

ولما اتاه الكتاب بموت أبي العباس واستخلاف أبي جعفر كتب الى أبي جعفر يعزیه بأمر المؤمنين ولم يجهته بالخلافة ، فحقد عليه أبو جعفر (٢٦٩) ولكنه لم يشأ أن يعاقبه في تلك الاونة ، بناء على نصيحة أحد رجاله المخلصين الذي أوضح له بأن الناس جنده وهم أطوع له وأهيب .

كانت أخبار استهتار أبي مسلم بالمنصور تصله بالاضافة الى ما رآه رأي العين . فقد علم المنصور بأن أبا مسلم كان حين يأتيه كتاب من أمير المؤمنين المنصور يقرؤه ثم يلوي شدقه ويرمي بالكتاب الى صاحبه فيقرؤه ويضحك استهزاء (٢٧٠) .

الى جانب هذه المآخذ التي اخذت على أبي مسلم اضاف اليها أخرى . كالبدء بنفسه في الكتابة اضافة الى خطبته عمه المنصور لنفسه . وادعائه انه من السلالة الحاكمة وانه ينتسب الى سليط بن عبد الله بن عباس . واهم من كل ذلك تصرفه في ولايته تصرف الحاكم المستقل عن الخليفة وتعاطف نفوذه في خراسان ، مما يشعر بنواياه السيئة في الاستقلال ، ومما زاد مخاوف الخليفة منه قيامه بقتل بعض رؤساء الدعوة من العرب دون علم الخليفة كقتله سليمان بن كثير الخزاعي .

بدأ المنصور يخطط للتخلص من أبي مسلم دون حدوث نتائج يخشى عواقبها تؤدي الى اتقصام وحدة الصف . فبدأ بإبعاده عن مركز قوته خراسان ، وجعله على قيادة الجيش الذاهب لقتال عبد الله بن علي ، واراد ان يضربهما ببعضهما . ثم اراد أن يكرس هذا الابعاد فارسل له كتابا بولايته على مصر والشام ليكون قريبا منه . فما كان من أبي مسلم الا ان اسفر عن نواياه بتصريحه قائلاً : هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي (٢٧١) . أدرك أبو جعفر بأن أبا مسلم أجمع على الخسلاف

(٢٦٩) ... انظر كتاب أبي مسلم الى المنصور ورد المنصور عليه في المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ٨٧ ظهر و ٨٨ وجه

(٢٧٠) ... الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٨٢ .

(٢٧١) ... انظر كتاب أبي مسلم الى المنصور ورد المنصور عليه في المقرئ : المصدر السابق ، ورقة

فخرج من خاصمته الهاشمية الى المدائن . وكتب الى ابي مسلم في المسير اليه (٢٧٢) .
وجرت المراسلات بين الطرفين، لمس الخليفة فيها تخوف ابي مسلم من لقائه . وخاصة
حين ذكر ما يروى عن ملوك آل ساسان بأن أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء .
فطمأنه ابو جعفر وافهمه بأنه ليس من هذه الفئة التي تتمنى اضطراب جبل الامن
في الدولة لكثرة جرائمهم . ! لا أن أبا مسلم كان قد صمم على الخروج عن الطاعة
رعدم المثل بين يدي الخليفة ثم شعر بأنه لا بد من هذا اللقاء حين جاءه كتاب من
خليفته على خراسان قائلاً له (انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى
الله عليه وسلم ، فلا تخالفن امامك ولا ترجعن الا باذنه) .

لم يكن هناك بد من أن يلتقى أبو مسلم أبا جعفر وفي نفسه مافيها . ويبعدو
أن المنصور عاتب أبا مسلم في هذا اللقاء . وسأله عما فعله وسبب كل ما فعله ، فكان
أبو مسلم يرد عليه رداً ضعيفاً . فما كان من المنصور الا أن أمر بقتله . وقد رويت
روايات متعددة عن مقتل ابي مسلم (٢٧٣) .

وقد بدأ المنصور في منتهى الجرأة في تنفيذ مخططه الذي رسمه لقتل أبي
مسلم ، وفي استمالته لرجاله عن طريق توزيع المناصب والاموال .

وكنيجة لمقتل ابي مسلم الخراساني شبت ثورتان فارسيتان ادعتا المطالبة
بثأره ، الا ان لهاتين الثورتين اهدافاً أبعد من ذلك ، وهي إعادة مجد الدولة
الفارسية . كانت ارلى هاتين الثورتين :

الثورة التي قادها سنباذ (٢٧٤) وهو مجوسي من أهالي قرية من قرى نيسابور ،

(٢٧٢) - انظر نص الرسالة التي أرسلها له مع أبي حميد الروروذي في المقرئزي : المصدر السابق ،
ورقه ٩٣ ظهر

(٢٧٣) - عن هذه الروايات راجع الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٨٨ - ٤٩٢ - المقرئزي :
المصدر السابق ، ورقه ٩٤ وجه وظهر حيث يذكر كل ما حققه المنصور على أبي مسلم
الخراساني .

(٢٧٤) انظر تفاصيل هذه الحركة في المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ١٠٤ وجه وهو يورد اسمه
سنباذ .

انضمت اليه في ثورته اعداد كبيرة من أهالي المنطقة، وتبع هذه الثورة ثورة اخرى هي:

ثورة جهور بن مرار الانصاري الذي استولى على الاموال في خزائن ابي مسلم ، بعد أن هزم سنباذ ، ولم يوجهها للمنصور ، ثم ضم اليه عددا كبيرا من نخبة فرسان العجم . ونادى بخلع المنصور في سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م ، فوجه المنصور اليه محمد بن الأشعث الخزاعي في جيش كبير ، فدارت الدائرة على جهور وقتل من أصحابه عدد كبير . فهرب ولحق باذريجان ، ومالبث أن قتل هناك (٢٧٥) .

ب - الصراع بين الخلفاء والوزراء (٢٧٦)

استهدف خلفاء العباسيين الاوائن الى احلال التفاهم، وخلق جو من التعاون بين العرب والموالي وبخاصة الفرس بدافع ايمانهم بأن الاستقرار لا يمكن ان يحصل الا بتعاون العناصر المختلفة التي تتألف منها الامة الاسلامية (٢٧٧) . ولذلك فانهم اشركوا الفرس معهم في الحكم ، واتخذوا منهم الوزراء . واذا نظرنا الى قائمة وزراء خلفاء الدور العباسي الاول ، لوجدنا انهم في غالبيتهم من الفرس . وعلة الرغم من الدور الكبير الذي كان للوزير ، فان الخليفة العباسي يعتبر المرجع الاول والاخير في أمور الدولة وكانت الصلاحيات التي يمنحها الخليفة للوزير تمنح بارادته . وما أن يرى وزيره اشتغل في استخدام هذه الصلاحيات حتى يوقفه عند حده ، وقد ينتهي ذلك بالقتل . وقد نفذت هذه العقوبة في عدد من وزراء هذا الدور . وعلى الرغم مما كان يتبع ذلك من ثورات جانبية ، فانها لم تكن لتؤثر على سير أمور الخلافة . وتمكن خلفاء هذا الدور من القضاء عليها .

(٢٧٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٩٧ - القرظي : المصدر السابق ، ورقة ١٠٤ ظهر

(٢٧٧) - كلمة وزادة مأخوذة اما من كلمة المؤازرة والمعاونة ، او من الوزر وهو الثقل ، لما يكلف به

الوزير من مهام . انظر : ابن خلدون ، مقدمة ص ٢١١ .

عسك قوام السامرائي : المؤسسات الادارية في الدولة العباسية ، ص ٨ .

لم يكن منصب الوزارة معروفا عند الراشدين والامويين . وان أطلق هذا الاسم على ابي بكر من قبل بعض العرب الذين عرفوا نظم الحكم عند الفرس والبيزنطيين . وذلك لان الرسول كان يشاور اصحابه في أمور المسلمين العامة والخاصة ، ويخص أبا بكر بخصوصيات أخرى . ويستشيرهم في معضلات الامور (٢٧٨) ، وقد كان لكل خليفة قبل قيام الخلافة العباسية اتباع وحاشية يستشيرهم في مهام الامور ، دون ان يتخذوا اللقب الرسمي . وقد ظهرت الوزارة للمرة الاولى في العصر العباسي ، وكانت مرتبة الوزير تأتي بعد مرتبة الخليفة مباشرة . وأول من دعي له بهذا الاسم أبو سلمة الخلال (٢٧٩) . ولكن سلطات الوزير لم تتحدد بصورة واضحة في عهده وقد اتخذت شكلها النهائي في أواخر العصر العباسي الاول .

كان الوزير ساعد الخليفة الايمن ، ينوب عنه في حكم البلاد ، وينصب العمال ، ويشرف على الضرائب ، ويجمع في يده السلطتين المدنية والعسكرية ، الى جانب واجباته العادية ، التي كانت تتمثل في مساعدة الخليفة في أعماله (٢٨٠) ، وبالتالي فان منصب الوزير في ذلك الوقت يعادل منصب رئيس الوزراء حاليا .

ويطيل ابن خلدون في مهمات الوزير وقوة مركزه ايام الخلافة العباسية ، فيرى انه (صارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد . . . وعنت له الوجوه وخضعت له الرقاب ، وجعل له النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند ، فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه . . . ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة ، لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور . وجعل الخاتم اسجلات السلطان ، ولحفظ الذبائح والشياع ، ودفع اليه ، فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة ،

(٢٧٨) - ابن خلدون - المقدمة ، ص ٢١١ .

(٢٧٩) - انظر التعريف عنه فيما سبق

(٢٨٠) - ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٢١١ .

حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد ، اشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة (٢٨١) .

ولم ينل الوزراء كافة تفويضا في الحكم ، كما ذكر ابن خلدون . بل ان سلطة بعضهم اقتضت على بعض الاعمال (٢٨٢) . وبالتالي فان الوزارة انقسمت الى قسمين « وزارة تفويض ، ووزارة تنفيذ . وقد حدد الماوردي فروقا عديدة بين الوزارتين تلخصها بما يلي » :

١ - يجوز لوزير التفويض ان يولي المعزول ، ويعزل من ولاءه ، ولا يعزل من ولاء الخليفة ، ولا يجوز ذلك لوزير التنفيذ .

٢ - يجوز لوزير التفويض ان يوقع عن نفسه الى عماله وعمال الخليفة ، ويلزمهم قبول توقيعاته ، ولا يجوز ذلك لوزير التنفيذ .

٣ - يجوز لوزير التفويض ان يستخلف نائبا عنه ولا يجوز ذلك لوزير التنفيذ (٢٨٣) .

٤ - يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدير الحروب وليس ذلك لوزير التنفيذ .

٥ - يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في اموال بيت المال بقبض ما يستحق له ، ودفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ (٢٨٤) .

ابتدأت الوزارة في العصر العباسي باتخاذ ابي العباس لابي سلمه وزيرا له

(٢٨١) ابن خلدون : المصدر السابق ، ٢١٢ - ٢١٣ وانظر ماكتبه السعدي : التنبيه والاشراف من الوزارة وتطورها قبل الاسلام وبعده ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢٨٢) - انظر الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ٢٨ .

(٢٨٣) - الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢٨٤) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٦٠ .

فعرف بوزير آل محمد ، وهو فارسي الاصل وقد انتهت حياة ابي سلمة بالقتل .
 وأسباب تخير أبي العباس عليه معروفة ومشهورة . وقد نفذ أبو مسلم عملية القتل
 هذه بأمر أبي العباس ، واتهم الخوارج بدمه (٢٨٥) . وقد لحقت العقوبة عمال أبي
 سلمة بفارس (٢٨٦) .

اتخذ أبو العباس خالد بن برمك وزيرا له بعد تخلصه من أبي سلمة (٢٨٧) . وقد
 استمر في هذا المنصب طوال خلافة أبي العباس ، ومطلع خلافة المنصور (٢٨٨) . الا ان
 ثقة المنصور به كانت ضعيفة . فقد اتهمه باختلاس اموال الدولة (٢٨٩) وألزمه ببرد
 ثلاثة ملايين درهم ، وأعطاه مهلة ثلاثة ايام والا قتله . وقام خالد بجمع المال من
 أصحابه ، ودفعه للمنصور فداء لنفسه من القتل . وان دل هذا على شيء فانما
 يدل على أن شكوك المنصور لم تكن في محلها . ويبدو ان خالدا كان على درجة عالية من
 المقدرة السياسية والعسكرية والادارية جعلت المنصور على الرغم من انه لم يسند
 اليه منصب الوزارة - يستخدمه في تهدئة الاوضاع في الموصل والجزيرة بعد
 انتفاضها ، وأوكل اليه ولايتها . كما عقد لابنه يحيى على اذربيجان . وقد أثبت
 خالد مقدرة فائقة في ضبط الموصل . حتى ذكر أن أهاليها كانوا يقولون : (ما هبنا
 أميرا قط هيتنا خالدا من غير ان يشئت علينا ، ولكن هية كانت له في
 صدورنا) (٢٩٠) .

اتخذ المنصور أبا أيوب المورياني وزيرا له (٢٩١) وكان المنصور قد اشتراه
 صبيا قبل أن يلي الخلافة فثققه وعلمه . فنبغ وأصبح من الفصحاء الى جانب ما
 اتصف به من سمو الاخلاق . وأعجب به أبو العباس حين رآه ، فأعتقه ، وجعله

-
- (٢٨٥) - الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ٩١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص
 ٤٣٦ - المقرئ : المصدر السابق ، ورقه ٧٦ وجه و ٧٦ ظهر .
 (٢٨٦) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٤٤٣ .
 (٢٨٧) - المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٢٩٤ .
 (٢٨٨) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٥٧ .
 (٢٨٩) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٥ .
 (٢٩٠) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٥٤ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ،
 ص ١٥ - ١٦ .
 (٢٩١) - هو فارسي من موريان قرية من نواحي خوزستان . انظر معجم البلدان ، جزء ٥ ، ص ٢٢١ .

من المقربين اليه ، وأدر عليه صلاته ، وظل على ذلك حتى ولي المنصور الخلافة ، فقلده الوزارة • وكان نصيبه نصيب من سبقه من الوزراء (٢٩٢) • وتعددت الروايات التي تتحدث عن أسباب قتل المورياني ، فتذكر أحداها أن القتل كان بسبب سعاية من الكاتب إبان بن صدقة ، وتذكر ثانية أن قتله كان انتقاما لما قام به المورياني من قتل ابن للمنصور ، كان الخليفة (أبوه) يعتمد عليه في الكتابة • وكما يبدو لي أن أسباب القتل أعمق بكثير مما ذكر ، وقد تعود إلى ازدياد نفوذ المورياني وتصرفه المستقل • لأن المنصور لم يكتف بالقضاء عليه ، بل تتبع أقاربه فانتقم منهم شر انتقام (٢٩٣) • وقد استوزر بعده المنصور وزيرا من أصل عربي هو الربيع بن يونس وكان نبلا وحازما خبيرا بالأمور الحسائية ، ملما بشؤون الدولة ، عارفا بأداب الملوك • ولم يزل الربيع حائزا على ثقة المنصور حتى توفي •

اتضح اعتماد الخلفاء على الوزراء بشكل كبير في عهد المهدي • وكان ذلك من جهة لصفات المهدي وانشغاله جزئيا بأموره الخاصة ، ثم من جهة ثانية لشعوره بكفاية ودراية وزرائه الذين اعتمد عليهم من جهة أخرى • وكان أول الوزراء أبو عبيد الله معاوية بن يسار الأسعري ، وهو عربي من أهالي فلسطين (٢٩٤) • تقلد الكتابة للمهدي قبل أن يلي الخلافة ، وقد وثق به المنصور ، وابقاه لابنه • وحين ولي المهدي الخلافة فوض إليه الأمور وسلمه الدواوين ، واستوزره • وعلى الرغم مما اتصف به من صفات حسنة أهلته لاحتلال هذا المركز ، فإنه كان متكبرا مما اغضب بعض المتنفذين من أمثال الربيع بن يونس وزير المنصور السابق • ولم يجد هذا في معاوية بن يسار مفعلا شخصيا يستطيع أن يوغر به صدر المهدي ، إلا في أخلاق ابنه الذي رمي بالزندقة في فترة كان المهدي بها يحارب الزندقة والزندقة • وقد كانت نهاية الابن القتل • ونال معاوية جزاءه خشيعة من أن ينتقم لابنه •

(٢٩٢) - حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ١١٧ - وتاريخ الإسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٥٧

(٢٩٣) - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١٢ •

(٢٩٤) - العيون والحدائق ، ص ٢٨١ •

فحجب أولا عن الوزارة ، وأزيل سلطانه واعتزل بداره حتى مات (٢٩٥) .
ثم اتخذ المهدي يعقوب بن داوود وزيرا له ، وهو من الموالي ، وفوض اليه
أمور الدولة كلها ، وقدمه على جميع الناس ، وسماه اخا في الله ووزيرا (٢٩٦) وقال
الشاعر سلم الخاسر في ذلك :

قل للإمام الذي جاءت خلافته تهدي اليه بحق غير مردود
نعم المعين على التقوى أعنت به أخوك في الله يعقوب بن داود (٢٩٧)
علا شأن يعقوب في الدولة ، وأظهر انحيازه الى الزيدية من الشيعة ، فقربهم
اليه وولاهم بعض أمور الخلافة في المشرق والمغرب (٢٩٨) ، والخليفة منشغل
عن الامور العامة بحياته الخاصة . وقد عبر بشار بن برد عن وضع الخلافة بشعره
فأنشد قائلا :

بني أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا خليفة الله بين الزق والعود (٢٩٩)

وكان من أثر ازدياد نفوذ يعقوب بن داود ، واستثثاره بشؤون الدولة ، ان
كثر حساده ، وسعوا به لدى الخليفة وقالوا له : ان المشرق والمغرب أصبح في يد
يعقوب واصحابه وأنه يستطيع ان يكتب الى الزيدية فيثيرون في يوم واحد . فامتلا
قلب الخليفة حقدا عليه وخاصة حين علم أنه اطلق سراح احد العلويين على غير رأي
الخليفة (٣٠٠) . فأمر بسجنه في المطبق ببغداد وقد بقي في السجن طوال عهد المهدي

(٢٩٥) - الجهشاري : الوزراء والكتاب ، ص ١٥٤ - ١٥٦ .
- السعدي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٢٨٤ - ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية ،
ص ١٣٤ - ١٣٥ .
- العيون والحدائق ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ - حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء
٢ ، ص ٢٥٨ .

(٢٩٦) - الجهشاري : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .
(٢٩٧) - الجهشاري : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .
(٢٩٨) - الجهشاري : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
(٢٩٩) - الجهشاري : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .
(٣٠٠) - الجهشاري : المصدر السابق ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

والهادي ، وردحا من ايام هارون الرشيد الذي اخرجته فاقد البصر • ولما سألته حاجته اجابه بأنه يريد المقام في مكة ، فأرسله اليها وهو أعمى ، فأقام بها مدة يسيرة ومات بها (٣٠١) •

واستوزر المهدي بعده الفيض بن صالح (٣٠٢) ، وكان من نصارى نيسابور • أسلم بعد قيام الخلافة العباسية ، اشتهر بالسخاء والجود ، كما اخذ من الادب وعلو الهمة والبراعة بأوفى نصيب • وشهد له يحيى بن خالد بن برمك بالجود فكان يقول لمن يعجب لجوده « لو رأيتم الفيض لصغر عندكم أمري » (٣٠٣) الا انه كان ثياها متكبرا • تولى الوزارة طوال الفترة الباقية من حياة المهدي •

ولما تولى الهادي منصب الخلافة ، اتخذ من الربيع بن يونس ، وزير جده المنصور ، وزيرا له الا انه مالبت أن عدل عنه (٣٠٤) واستوزر ابراهيم بن ذكوان الحراني ، فلم يزل في الوزارة حتى توفي الهادي (٣٠٥) •

وبدأ الصراع واضحا بين الخلافة والوزارة في عصر هارون الرشيد ، حين اسند أمور دولته الى البرامكة • ويتنسب هؤلاء الى برمك الذي كان يقوم بشؤون معبد المجوس يعرف باسم معبد النوبهار في بلدة بلخ بخراسان • وقد عاصر برمك الخليفة هشام بن عبد الملك ، ويروى أنه اعتنق الاسلام في أواخر أيامه • نشأ خالد ابن برمك مسلما ، وأسهم في نشر الدعوة العباسية حتى أصبح من أكبر دعايتها في خراسان (٣٠٦) • وكان لخالد ابن اسمه يحيى ، اختاره المنصور لولاية اذربيجان

(٣٠١) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ - العيون والحداثق ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧
- ابن طاطبا : المصدر السابق ، ص ١٦٠ - ١٦٣ - محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية ، ص ٢٠٩ •

(٣٠٢) - حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٢ ، ص ٢٥٩ •

(٣٠٣) - الجهشيارى : المصدر السابق ، ص ١٦٤ •

(٣٠٤) - الجهشيارى : المصدر السابق ، ص ١٦٧ •

(٣٠٥) - الجهشيارى : المصدر السابق ، ص ١٦٧ •

(٣٠٦) - انظر فيما سبق : الدعوة العباسية •

ثم وقع اختيار المهدي عليه ليكون مرياً لابنه هارون سنة ١٦٢ هـ / ٧٧٨ م • وهكذا
أُتيح يحيى أن يلحق هارون الآداب الفارسية القديمة ، فنشأ متأثراً بها •

أسد المهدي الى يحيى بن خالد الاشراف على ادارة دواوين الاقاليم الغربية
من الانبار الى افريقية وهي الاقاليم التي كانت لهارون في حياة أبيه منذ سنة
١٦٣ هـ / ٧٧٩ م • وظل هذا المنصب للرشييد وينوب عنه فيه يحيى البرمكي ،
حتى قيامه بشؤون الخلافة •

عمل يحيى في هذه الفترة على المحافظة على أمر ولاية العهد للرشييد بعد
الهادي • ووقف في وجه الخليفة الهادي حين فكر بخلع الرشييد من ولاية العهد ،
وتولية ابنه جعفر مكانه وحذره من عاقبة هذا العمل وقال له : (يا أمير المؤمنين ان
فعلت ، حملت الناس على نكث الايمان ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ،
ثم بايعت لجعفر بعده ، كان ذلك أوكد في بيعته) • فاقنع الهادي وترك الأمر •
الا أن اصحاب المصالح ، حرصوه ثانية على أخذ البيعة لابنه وعزل الرشييد •
فاستدعى يحيى وفأوضه في ذلك ، فقال له يحيى : (يا أمير المؤمنين لوحدث بك
حادث الموت وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ ،
افتري كانت خلافته تصح ؟ وكان مشايخ بني هاشم يرضون ذلك ويسلمون
الخلافة اليه ؟ قال لا ، قال يحيى : (فدع هذا الأمر حتى يأتيه عفوا ، ولو لم يكن
المهدي بايع لهارون لوجب ان تعقد له ليكون في بني أبيك • فشكر له هذا القول
وأطلقه (٣٠٧) • وعاد الهادي ثالثة الى القضية نفسها ، فبعث في طلب يحيى وتحدث
معه في مسألة نقل ولاية العهد الى ابنه جعفر ، فأخذ يحيى يهدىء من ثائرة غضبه ،
ويحاول جهده أن يثنيه عن عزمه • على أن انحياز يحيى الى هارون جعل الهادي

(٣٠٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ص
٩٦ - ٩٧ •

- الجعفي : المصدر السابق ، ص ١٧٠ - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٧٤ - محمد
جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٢١١ •

يحقد عليه ، واتهمه بافساد أخيه عليه ، وأمر بحبسه • ولكن الهادي مالبث أن توفي ، وخرج يحيى من السجن (٣٠٨) •

عظم مركز يحيى بعد أن اعتلى هارون عرش الخلافة • وذلك بسبب الجهود التي بذلها • وكان لها أثر في تثبيت خلافة هارون ، فدعاه على اثر تقلده الخلافة وقال له « يا أبت انت أجلسني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك • وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقي اليك ، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، واعرض من رأيت ، واسقط من رأيت ، فاني غير ناظر معك في شيء) • (٣٠٩) فكان يحيى بذلك ، ويعاونه ولداه الفضل وجعفر مفوضين من قبل الرشيد ، بإدارة الدولة ودواوينها ، ينظرون في أمور الناس وحوادثهم (٣١٠) •

كان هارون على الرغم من حبه ليحيى وأبنائه يفضل جعفرا على أخيه الفضل • وكثيرا ما كان يقول لاييهم « انت للفضل وأنا لجعفر » • وفي سنة ١٧٦ هـ / ٧٩٢ م قلده الرشيد جعفرا اقاليم غربي الدولة العباسية : وأسند الى الفضل المشرق كله من النهروان الى اقصى بلاد الترك • وهكذا أصبحت ادارة الدولة العباسية من السنوات الاولى في عهد هارون في يد البرامكة • وقد اشتهروا جميعا بحسن ادارتهم • وكان الفضل ليحيى في ذلك • اذ كان يوصي أولاده بحسن الادارة ، وحسن اختيار الاعوان • ومن اقواله في ذلك « لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان ، فاستعينوا بالاشراف واياكم وسفلة الناس ، فان النعمة على الاشراف ابقى • وهي بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر ، والشكر منهم أكثر » (٣١١) •

(٣٠٨) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ٩٩ و ص ١٠٦ - محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية ، ص ٢١١ •

(٣٠٩) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ص ٢٣٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ •

- محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٢١٢ •

(٣١٠) - الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ١٧٧ •

(٣١١) - الجهشيارى : المصدر السابق ، ١٧٩ •

نهض يحيى بأعباء الدولة أتم نهوض ، ونظم إدارة الدواوين ، وصارت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج توقع باسمه ، بعد أن كان لا يوقعها الا الخليفة .
وفضلا عن ذلك فان يحيى أجزل العطاء والصلات على رجال الدين والادب . كما أجرى الارزاق السنية على وجوه أهل الامصار . وعمل على امداد أهل الحرمين بالقمح اللازم لهم من مصر (٣١٢) .

استطاع الفضل بن يحيى بماله من نفوذ في الشرق أن يقضي على فتنة يحيى ابن عبد الله العلوي في بلاد الديلم . ويستميله الى الصلح ، ويحصل له على أمان بخط الخليفة (٣١٣) ، كما تمكن من اصلاح شؤون خراسان ، وعمل على النهوض بها ، ومهما بلغت شهرة يحيى وابنه الفضل فانها لم تعدل شهرة ابنه الآخر جعفر الذي تقلد المغرب كله للرشيد (٣١٤) ، وكانت صفاته تستهوي الخليفة ، لما تميز به من حيوية الشباب ، والذكاء الحاد ، والاقبال على المرح . فأصبح له كلمة نافذة في الدولة . وقد حفلت المصادر التاريخية بالكثير من الروايات التي تشير الى سلطان البرامكة أيام جعفر (٣١٥) .

وثق الرشيد بالبرامكة ، وفوض اليهم أمور دولته . فوثق بهم الناس وثوق خليفتهم ، ونظم الشعراء القصائد الرائعة في مدحهم والتبني بكرمهم . وقد أشاد صاحب الفخري بذكرهم فقال :

كان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والغيوث ماطرة ، أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية ، والدنيا في أيامهم عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللهف ، ومعتصم الطريد . وبهم يقول أبو نواس :

(٣١٢) - محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٣١٣) - انظر فيما سبق وانظر الجهشياري : المصدر السابق ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٣١٤) - الجهشياري : المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(٣١٥) - زكار : تاريخ العرب والاسلام ، ص ٢٥٩ .

سلام على الدنيا اذا ما فقدتهم بني برمك من رائجين وغاد (٣١٦) .

على أن الرشيد وعلى الرغم من تفويضه الامور الى الاسرة البرمكية . فانه كان يعمل على أن يحتفظ بمكاته الخاصة بين رعاياه . فقد كان اتصاله بجمهور المسلمين عن طريق حجه المستمر . فكان يحج سنة ويغزو سنة مدة خلافته الا سنين قليلة . واذا ما خرج للحج ، صحبه كبار العلماء ورجال الدولة ، فيسير الخليفة في موكب عظيم مجتازا المسافة بين بغداد ومكة . وكان الرشيد يوزع الهدايا على أهالي المناطق التي يمر بها . واذا ما وصل الى مكة والمدينة ، وزع الهبات والاموال على فقرائها . وكان يتصدق كل يوم بألف درهم على فقراء بغداد . كما اكتسب محبة المسلمين بغزواته التي شنّها على البيزنطيين ، وكان النصر فيها حليفه في أغلب الاحيان . ولم يكن الرشيد الذي أراد ان يثبت مقدرته ، وقوة ايمانه بالحج والغزو ، ليقبل بسلب البرامكة لجماهير الناس من حوله . فتغير عليهم وبدأ ينفذ عقوبته بهم بعد عودته من الحج سنة ١٨٦ هـ / ٧٩٢ م ، بدأ بذلك في مدينة الانبار حيث أمر بقتل جعفر بن يحيى ، ونصب جثته على سور بغداد ، كما سجن اخوته في الرقة ، كما حصر يحيى في بيته ، ووكل به من يحول دون هربه ، وظل هؤلاء في سجنهم الى ان ماتوا . وأصدر اوامره الى الاقاليم بمصادرة اموال البرامكة واملاكهم (٣١٧) .

لقد كانت قضية البرامكة ومصيرهم من اهم القضايا التي عالجها المؤرخون القدامى والمعاصرون . وقد حللها وفسرها كل منهم تفسيراً خاصاً حسب وجهة نظره . ونحن هنا لا بد لنا من ان نجمع آراء المؤرخين ونبدي رأينا في ذلك . لان السؤال عن أسباب نكبة البرامكة يساور كل ذهن . وخاصة وأن هذه النكبة حدثت بعد أن أصبح هؤلاء على قدر كبير من القوة والسلطان . وكان للرشيد السهم الاكبر في ابرازهم واحتلالهم لهذه المكانة . فمن هذه الاسباب التي تحدثت عنها كتب التاريخ :

(٣١٦) - الحشيارى : المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٣١٧) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ - سرور : المرجع السابق ص ١٢٥

— تشجيع البرامكة وتعاطفهم مع العلويين ، ومحاولة نقل الخلافة اليهم • وقد ثبت ذلك عند الرشيد حين أطلق جعفر سراح يحيى بن عبد الله العلوي ، وهذا التفسير ايضا يحتمل الشك ، لانه ليس هناك ما يؤكد هذا التعاطف • بل ان هناك دلائل تشير الى العكس ، حتى ان جعفرا المتهم باطلاق سراح يحيى بن عبد الله ، هو نفسه المتهم بتدبير المؤامرة لقتل ادريس أخي يحيى في المغرب الاقصى (٣١٨) •

— ذكرت كتب التاريخ ان سبب هذه النكبة مسألة العباسية اخت الرشيد ، حيث قيل انه قامت علاقة انجاب بين العباسية وجعفر البرمكي دون علم الرشيد • ولكن هذه القصة نفسها يعوزها التأكيد لان اكثر من مؤرخ طعن بها ، وعلى رأسهم ابن خلدون (٣١٩) •

— دس الفضل بن الربيع ومؤامراته ضد هذه الاسرة • كان الفضل أحد رجالات العرب الطامحين الى تبوء ، منصب الوزارة الذي كان يشغله البرامكة • وقد أدى هذا الدس لابرار قوة وسيطرة البرامكة واضعافهم لمركز الرشيد الى حقه عليهم ، ومن ثم الى تصفيتهم • وهذا الاحتمال لا يمكن ان يكون سببا كافيا لقتلهم • فبامكان الرشيد عزلهم ومراقبتهم ، وتقليد الوزارة للفضل بن الربيع ، دون القيام بالفتك في أفراد الاسرة البرمكية •

— ومن اهم اسباب نكبة البرامكة استفحال سلطانهم ، فقد كان هؤلاء في الواقع يتصرفون في شؤون الدولة ويعملون جاهدين على تحبيب جماهير الناس بهم بما أظهروا من الجود والكرم ، وتشجيع العلوم والآداب (٣٢٠) ولم يكن الرشيد بالخليفة انذي يتساهل في حقوقه ، بل كان رجلا كما عرفته كتب التاريخ على قدر كبير من الذكاء والدهاء • أظهر في بداية خلافته عدم اكتراثه باستئثار البرامكة في

(٣١٨) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٧٦ •

(٣١٩) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٧٥ وممن طعن بها ابن خلدون : في المقدمة ، ص ١٣٠ •

(٣٢٠) — عن استفحال سلطان البرامكة وجودهم ، انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٠٠ •

٢٥٧ حتى ٢٦٠ •

النفوذ • وعول في الوقت نفسه على انتهاز الفرص لاستعادة ماسلبوه من السلطة • ثم جاهر باستيائه من استبدادهم بالامور دونه • ومما يروى في هذا المجال أن أحد أطباء الرشيد دخل عليه يوما وهو جالس في قصر الخلد ، حيث يقيم البرامكة في الجهة المقابلة ، وبينهما عرض دجلة ، فرأى الرشيد اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد البرمكي ، فقال « جزى الله يحيى خيرا ، تصدى للأمور وأراحني من الكد • ووفر أوقاتي على اللذة • ثم دخل عليه الطبيب ذات يوم بعد أن ظهرت امارات انحرافه عنهم • فشاهد حركة الخيول على أبواب البرامكة ، كما كانت الحال في المرات السابقة ، فقال له الرشيد : (استبد يحيى بالامور دوني ، فالخلافة على الحقيقة له ، وليس لي منها الا اسمها) (٣٢١) •

— وقد استطاع ابن خلدون ان يعطي الابعاد الحقيقية لنكبة البرامكة • ويوضح اكثر الجوانب أهمية لهذه النكبة حين قال (انما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجازهم اموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه • فغلبوه على امره وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه) (٣٢٢) •

لقد كان الصراع على السلطة والنفوذ هو الدافع الاول الذي حدا بالرشيد الى التخلص من البرامكة • وهو بدون شك نتيجة حتمية للتضارب بين السيادة المتمثلة بالخلافة وبين الوزراء • ومما لاشك فيه ان فقد الاسرة البرمكية ، كان خسارة فادحة للدولة العباسية ، اذ بعد نكبتهم اضطر الخليفة الرشيد أن يلي شؤون الدولة بنفسه ، وان يحارب الثائرين عليه • حتى أنه توفي وهو ذاهب لاختاد فتنة رافع بن الليث بن نصر بن سيار •

(٣٢١) — الجهشياري : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٣٢٢) — المقدمة ، ص ١٧ .

الوزارة في عهد الامين والمأمون :

حين اعتلى الامين عرش الخلافة ، جعل الفضل بن الربيع وزير ابيه وزيرا له . وكان الفضل بن الربيع يرافق الرشيد في حملته الاخيرة على خراسان ، حيث أوصاه قبل وفاته بتسليم جميع ما في معسكره من جند ومال ومتاع ورقيق وخيل الى المأمون . ولكن الامين طلب منه مناقضا لاوامر ابيه ، بأن يعود بكل ما معه اليه في حال وفاة الخليفة (٣٢٣) .

أجاب الفضل بن الربيع الدعوة التي وجهها اليه الامين . فجد في السير الى بغداد على رأس الجيش فرحب به الامين . واتخذ وزيراً له . وكان المأمون قد اتخذ من الفضل بن سهل وزيراً (٣٢٤) . وقام بتدبير أمور المنطقة التي تتبع للمأمون . كان الفضل بن سهل ذا اطماع كبيرة لا تقل عن مطامع البرامكة ، وكذلك كان الفضل بن الربيع . وقد كان لكل من هذين الوزيرين اليد الطولى في اندلاع نار العداوة بين الامين والمأمون . فقد عمل الفضل بن الربيع الذي أدرك عاقبة النكث بالعهد الذي أخذه عليه الرشيد لابنه المأمون ، فيما لو آلت الخلافة اليه على اغراء الامين بخلع اخيه المأمون عن ولاية العهد . وجعلها لابنه موسى من بعده . فأبى واستمر ابن الربيع في تصغير الامر على الامين واثارة مخاوفه من أخيه المأمون ، حتى استجاب لندائه ، وأرسل الى الولاة يأمرهم بالدعاء لابنه موسى بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم (٣٢٥) . ثم عزل القاسم عن أعماله .

ولما علم المأمون ان الامين يدبر خلعه ، منع ارسال البريد من خراسان ، وحذف اسم الامين من التلوز (٣٢٦) فكان هذا العمل ايذاً باتساع شقة الخلاف بين

(٣٢٣) - القريري : المصدر السابق ، ورقه ١١٥ وجه وظهر .

(٣٢٤) - هو من اولاد ملوك الفرس الذين كانوا يدينون بالمجوسية ، أسلم على يد يحيى البرمكي ، اشتهر بسعة الخيلة وشدة الدهاء .

(٣٢٥) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ - أما الجهشياري : المصدر السابق ، ص ٢٩٠ فيذكر الدعاء لموسى بعد الخليفة وحذف اسم المأمون وخلعه .

(٣٢٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٧٥

الاخوين • ثم أراد الفضل بن سهل أن يبقى على علم بتطورات الاحداث في بغداد
اثر ذلك ، فجعل في بغداد قوما يثق بهم يكتبونه باخبار الامين (٣٢٧) على حين أن
الفضل بن الربيع ، ضرب حصارا شديدا على الطرق لمنع تسرب الاخبار •

وبعد توتر الاوضاع نتيجة وشاية الوزيرين خلع الامين اخاه المأمون ، وباع
لابنه موسى في اوائل سنة ١٩٥ هـ / ٨١١ م (٣٢٨) ، وأرسل الى مكة من أتاها بالكتابين
الذين وضعهما الرشيد في الكعبة ومزقهما (٣٢٩) •

وهكذا تسبب هذان الوزيران بحدوث قتال بين الاخوين • كانت نهايته وبالا
على الامين وعلى بغداد نفسها (٣٣٠) • بينما بويح المأمون بالخلافة بيعة عامة في
بغداد سنة ١٩٨ هـ / ٨١٤ م بعد مقتل اخيه • وأبقى الفضل بن سهل وزيرا له • ولقبه
ذا الرياستين لجمعه بين السيف والقلم (٣٣١) • وأسند الى أخيه الحسن بن سهل
أمر العراق • بينما بقي المأمون في مرو ، حيث اتخذها عاصمة له • وأصبح دور بني
سهل مع المأمون مماثلا لدور البرامكة مع الرشيد • ولما أخفى الفضل بن سهل
أخبار ثورة العراق على الخليفة ، وما كان من عزله وتعيين عمه ابراهيم المهدي (٣٣٢) ،
غضب عليه • وترك مرو عائدا الى بغداد وبرفقته الفضل بن سهل ، ولكنه توفي
في الطريق ، ولما اقترب المأمون من بغداد ، فر الفضل بن الربيع وزير أخيه وأبيه
خشية على حياته •

لم يسند المأمون منصب الوزارة لرجال العرب • بل كان وزراؤه جميعا
من أصل فارسي ، فبعد الفضل بن سهل ، اتخذ احمد بن أبي خالد • ولكن المأمون
بعد وزارة الفضل بن سهل لم يترك لوزرائه السلطة المطلقة بل قيدهم وراقبهم •

(٣٢٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٧٦ •

(٣٢٨) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٢٩ •

(٣٢٩) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٧٧ - الجهشيارى : المصدر السابق ، ص ٢٩٢ •

(٣٣٠) - انظر فيما سبق : الصراع بين الامين والمأمون •

(٣٣١) - انظر الجهشيارى : المصدر السابق ، ص ٣٠٦ •

(٣٣٢) - الجهشيارى : المصدر السابق ، ص ٣١٢ •

كان تخلص المأمون من وزيره الفضل بن سهل بداية تطلع البيروقراطية
الفارسية الى الجماهير الفارسية ، والعمل ضد الخلافة العباسية والشروع معا بإنشاء
الامارات الفارسية ، كالطاهرية والصفارية والسامانية وغيرها .

واستوزر المعتصم عددا من الوزراء منهم الفضل بن مروان - كان من البردان -
ثم استعفاه ، واستوزر احمد بن عمار بن شاذي من المذار . وكان ومن سبقه
جاهلين بآداب الوزارة ، وبسبب صفاته تلك صرفه المعتصم ، واستوزر محمد بن
عبد الملك الزيات الذي استمر في الوزارة بقية خلافة المعتصم وخلافة الواثق (٣٣٢) .

وفي الحقيقة فان النزاع بين الخلفاء والوزراء ظل قائما طوال الدور الاول
من العصر العباسي ، وكما انضح من العرض فان غالبية الوزراء كانوا من الفرس .
وان هذا النزاع قد اكتسب مظهرا عنصريا سياسيا في بادىء الامر ، وهو في حقيقته
نزاع على مدى صلاحيات كل من الخليفة والوزير . ويبدو من خلال العرض . أنه
على الرغم من المكانة الرفيعة والتأثير القوي التي بلغها بعض الوزراء ، فان هذا
المنصب كان في منتهى الخطورة ، ومرتبطا الى حد كبير بقوة شخصية الخليفة
ومقدرته على تسيير الامور .

ج - الشعوبية :

ان لفظ الشعوبية مأخوذ من الشعب ، وهو جيل الناس ، أو من قول الله
تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) .
وعلى العموم فانه يمكن تعريف الشعوبية بأنها تيار فكري اجتماعي وسياسي يمثل
مواقف الشعوب التي ضمتها الدولة العربية الاسلامية من بعضها الى البعض .
فقد ابدت الشعوب المختلفة، التي ضمها العالم الاسلامي تحت جناحه ، وبشكل
خاص الفرس ، مألهم من مميزات . وقابلهم العرب بما لهم من صفات في الماضي

(٣٣٣) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ٢٣٢ - ٣٣٥ .

والحاضر (٣٣٤) • بينما يذهب آخرون الى أن الناس من طينة واحدة • ولكل فرد •
ومثالبه • وبالتالي فقد نشأت ثلاث نزعات شعوبية :

— الاولى منها ترى أن العرب خير الامم على الاطلاق ، وذلك لانهم عاشوا
الجاهلية حياة مستقلة ، لم تجرؤ أي من الدول الكبيرة أن تطأ ديارهم ، فاستمر
واقدامهم وصبرهم • كما أنهم يمتازون بصفات خلقية يندر أن يوجد بعضها في
غيرهم (٣٣٥) وفوق كل هذا وذاك فإن الاسلام نشأ فيهم ، ورسول الله منهم ، وهم
ناشرو الدين والمدافعون عنه (٣٣٦) •

— الثانية : تجعل كل الامم متساوية ، وليس لامة فضل على الاخرى ، لان
الناس من طينة واحدة والتفاضل بين الافراد بحسب أفعالهم • المؤمنون متكافئون
دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم ، وهم يد على من سواهم ، ومما لاشك فيه أن هذه
هي نظرة المتدينين من الشعوب الاسلامية الذين تفقهوا في الدين وعرفوه حق معرفته
والذين آمنوا بما انزل اليهم : قال الله تعالى : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر
وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم : ان الله
عليهم خبير) •

— الثالثة : تجعل كل الشعوب أفضل من العرب • وقد تبنى هذا الموقف قسم
كبير من الاعاجم كالفرس والترك وغيرهم ممن ظلوا على دينهم القديم ، أو أسلموا
ولما يدخل الايمان في قلوبهم • او غلبت عليهم النزعة القومية ، وقد رأى هؤلاء أن
العرب ليس لهم ما يفخرون به ، فقد كانوا في جاهليتهم يقتلون اولادهم من الفقر •
ويقتتلون من أجل السلب والنهب ، وهم أضعف الأمم في الصناعة ، كما أنهم اذا
خطبوا أكثروا من الاشارة بأيديهم ، لصرف العقول عما يقولون • وكذلك فانهم

(٣٣٦) — هذه الصفات تتمثل في الكرم ، والوفاء والفصاحة ، وحسن البديهة ، والشجاعة والمحافظة
على الانساب وغيرها .

• — احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ٥١ - ٥٣ وانظر عن فضل العرب ، ابن عبد ربه :
الفقد الفريد : جزء ٣ ، دار الكتاب العربي بيروت ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

• — انظر سورة الحجرات الآية ١٣ .

عابوا آلات العرب الحريسة ، وسخروا من رماحهم وقنصواتهم ،
وبالتالي فانهم سلبوا العرب كل ما يفخرون به . وأضافوا
بأن العرب اذا فخروا بالاسلام ، فالاسلام ليس دين العرب وحدهم بل هو دين الناس
كافة . وقد كان بعض هذا النقد الذي وجهه الشعوبيون للعرب فيه مفخرة لهم .
فاذا استطاع العرب بسلاحهم البسيط القضاء على اكبر الدول المعروفة في هذه
الفترة ، فهذا يرفع من شأنهم . ويجعل الانسان يتصور ماذا يستطيع هؤلاء أن
أن يفعلوا لو كانوا يملكون من السلاح أفضله (٣٣٧) .

ويمكن القول ان الشعوبية ظهرت حين شعرت الشعوب بمكائنها اثر قيام
الحركة العباسية ، ثم مشاركة الفرس للخلفاء بالحكم . وبشكل خاص حين رأوا
أن تعصب خلفاء العباسيين للاسلام لا للعربية . وتبدت بشكل واضح في عهد
الرشد والمأمون والمعتصم ، وبلغت هذه الحركة أوجها في القرن الثالث الهجري (٣٣٨) .

لقد أظهر العجم الذين تعلموا اللغة العربية شعوبيتهم بشتى الطرق ، ففخروا
بانسابهم واعتزوا بقومهم . فترجموا العديد من كتبهم الى العربية ، واختاروا منها
ما يسهل فهمه على العامة كالاساطير والحكايات والحكم ، كما لونوا ما رووا من
تاريخ الفرس لونا زاهيا جميلا ، ونسبوا الى ملوكهم الحكم الرائعة والسياسة
الحكيمة . كما اكثروا في التأليف في مناقب العجم ، ومثالب العرب . وبرز من شعراء
الشعوبيين بشار بن برد ، وديك الجن والشاعر الحزيمي الذي يكثر في شعره من
الاعتزاز بالنسب الفارسي وتحقير شأن العرب . وفعل فعله الشاعر المتوكلي نديم
المأمون ، ومن الادباء سعيد بن حميد البختكان الذي كان شديد العصبية على العرب
وألف كتاب انتصاف العجم من العرب ، ومنهم الهيثم بن عدي ، وسهل بن هارون ،
وعلان النارسي الشعوبي صاحب كتاب الميدان في المثالب . وكذلك أبو عبيدة معمر
ابن المثني وهو من اشهر العلماء في النحو والاخبار ومع ذلك فقد كان شعوبيا .

(٣٣٧) - انظر الجاحظ : البيان والتبيين ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، جزء ٣ ، من ص
١٤ - ٢ .

(٣٣٨) - احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ٦٣ .

وقد وضع هؤلاء الشعوييون في الادب قصصا كثيرة تؤيد جانبهم ، اختلقوها
اختلافا . وكانت هذه أخطر على العرب من ايضاح المثالب لصعوبة نقضها . وقد
برع هؤلاء بوضع الاحاديث في فضل الفرس ، وأسندوها الى الثقات من الصحابة
والتابعين (٣٣٩) .

وقد شعر العرب بخطورة هذه النزعة الشعوية ، وكثيرا ما أبدى الشعراء
الحسرة والالام من هذا الموقف الذي اتخذته الشعوب من العرب . كما انهم
قابلوا هذه الحركة الشعوية بما يماثلها قولاً وفعلاً . وظهرت طبقة من الكتاب
والادباء ردت على هؤلاء الشعويين بعد ان تسلحت بثقافة واسعة ، كما عمل
المسلمون الذين اعتبروا هذه الحركة نزعة ضد الاسلام على التخلص من كتب
الشعوية وبالتالي فان ما وصل الينا هو نتف من أقوالهم وآرائهم (٣٤٠) .

وقد أثرت هذه الحركة الشعوية ودخلت في كل علم حتى في الفقه . ومن
المؤسف له أن الشعوية قد ازدهرت في عصر تدوين العلوم ، الامر الذي جعل
اكتشاف الآثار الشعوية صعبا غامضا ، مما اضطر العلماء الى اجهاد انفسهم لتعرف
أسرار الشعوية وخفاياها وآثارها في العلم (٣٤١) . ولا بد لنا من القول بأن
الشعوية على الرغم من كل عيوبها كانت اخصابا للفكر العربي الاسلامي ،
دعت العرب الى الخوض في الثقافات الاجنبية ليتسلحوا بالعلم ، ويردوا على
أعدائهم .

د - حركة الزندقة :

ان كلمة زندق في الاصل تعني بالفارسية الذي يتبع زند ، ثم أطلق على

(٣٣٩) - احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ٦٨ - ٧٥ .

(٣٤٠) - احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ٧٦ .

(٣٤١) - احمد امين : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

المانوية^(٣٤٢) ، لانهم كانوا يأخذون زند وغيره من الكتب المقدسة ، ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل^(٣٤٣) . وقد وضعت الكلمة لطائفة خاصة من المانوية . ثم استعملت في المانوية جميعا وفي الالحاد بصورة عامة .

يرجع تاريخ الزندقة الى أواخر العصر الاموي . ولكن الزندقة كانت في العصر الاموي قليلة ونادرة فقد اتهم بها عبد الصمد بن عبد الاعلى مؤدب الوليد بن يزيد ابن عبد الملك كما اتهم بها الوليد بن يزيد^(٣٤٤) . كما كان الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد زنديقا . وقد اشتدت الزندقة بعد قيام الخلافة العباسية حيث انتشرت في الكوفة وبغداد وغيرها . وتكلم الجاحظ الذي عاش في عصر المأمون عن كتب الزنادقة ، ووصفها بدقة . ثم ان أبا الفرج الاصفهاني تكلم عن الزنادقة وذكر انهم يعرفون بالثنوية وانهم يتبعون تعاليم ماني^(٣٤٥) ويعزى السبب في انتشار الزندقة في هذه الفترة الى مايلي :

— ان الزندقة التي هي الشك والالحاد تقترن بالبحث العلمي ، وان البحث العلمي كان يسير قدما في هذه الفترة حتى وصل الالوج .

— ان بعض الفرس كانوا يطمحون الى الوصول الى اكثر مما وصلوا اليه في ظل الخلافة العباسية من مساواة ومن كون الوزارة في غالبيتها لهم ، وبالتالي فالحكم المعالي بيدهم في بعض الاحيان ، لذلك طمحوا الى ان تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها ، ورأوا أن ذلك لا يتحقق والاسلام في سلطانه ، فأخذوا يعملون

(٣٤٢) — من اشهر المذاهب الدينية التي نشأت في القرن الثالث الميلادي وعاشت حتى القرن الثالث عشر . وكان له اتباع في اسيا وفي أوروبا . وكان له اثر كبير في الآراء الدينية وكانت تعاليمه مزيجا من الديانة النصرانية والزرادشتية ، وخلاصة المذهب ان العالم نشأ عن أصليين هما النور والظلمة وعن النور ، نشأ كل خير ، وعن الظلمة نشأ كل شر . انظر عن تفاصيل المذهب . احمد امين : فجر الاسلام ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣٤٣) — احمد امين : فجر الاسلام ، ص ١٠٨ .

(٣٤٤) — الاصفهاني : الاغانى ، جزء ٦ ، ص ١٣٢ .

(٣٤٥) — حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١١٥ نقلا عن الاصفهاني .

على نشر المانوية والزرادشتية والمزدكية خفية، فكان من ذلك انتشار الزندقة (٣٤٦) .
ومما ساعد على انتشارها انها كانت وسطا بين النصرانية والزرادشتية ، كما أن
شعائرها قريبة الشبه من شعائر الاسلام (٣٤٧) . ويفهم من هذا ان هؤلاء حاولوا نشر
كل المظاهر الخداعة من الديانات الفارسية القديمة بين الناس ، والتي تشبه في
مظهرها الديانة الاسلامية ، للوصول عن هذا الطريق الى تشويه الاسلام ، وبالتالي
سيادة الفرس .

وقبل أن ننطلق في البحث عن الزندقة لابد لنا من القول بأن كلمة زندقة
اختلفت باختلاف العصور فقد كان العرب يطلقون لفظ زنديق على من ينفي وجود
الله سبحانه وتعالى أو يرى أن له شريكا ، كما أطلق على كل من يتخذ من عقائد
المانوية شعارا له ، ويتمسك بعقيدة ماني . كما أطلق على من يبطن الكفر ، ويظهر
الايمان ، وأطلق على كل من يتأثر بالفرس في عاداتهم ويسرف في العبث والمجون ،
ثم أصبح يطلق على من يتظاهر بالظرف . ففي عهد ابي جعفر أرفقت كلمة الزنادقة
والمجان معا وكأنهما مترادفتان (٣٤٩) . ولم يعرف عن المنصور امعان في اضطهادهم،
وكانت سياسته على ما يظهر قمع الفتن الظاهرة فقط . أو أن هؤلاء لم يكن لهم شأن
يذكر في خلافته .

فلما جاء المهدي كـان من أظهر أعماله ملاحقة الزنادقة ، لأن
الزندقة كانت قد انتشرت انتشارا واسعا حتى أنها دخلت
بيوت الوزراء والشعراء . فقد اتهم ابن الوزير معاوية بن يسار بالزندقة ، فأحضره
المهدي اليه وسأله عن شيء من القرآن الكريم فلم يعرف . فقال لاييه وكان حاضرا
ألم نخبرني أن ابنك يحفظ القرآن قال (بلى يا أمير المؤمنين ولكنه فارقني منذ

(٣٤٦) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١١٥ .

(٣٤٧) - احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٣٤٨) - العيون والحداثق ، ص ٢٧٣ .

(٣٤٩) - انظر احمد امين : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

سنيين ، وفي هذه المدة التي نأى فيها عني نسي القرآن (فأمره المهدي أن يتقرب الى الله بدمه ، الا انه حين قام عشرو وقع وارعد ، فارتأى بعض من كان يحضر مجلسه أن يعفي المهدي الوالد من قتل ولده ويتولى ذلك غيره (٣٥٠) .

تعقب المهدي الزنادقة بسدة وفي سبيل ذلك قام .

١ — باشاء ديوان للزندقة للبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم .

٢ — بانشاء هيئة علمية لمناظرتهم ، وتأليف الكتب للرد عليهم (٣٥١) وبالتالي فانه جعل لديوان الزنادقة مشرفا أطلق عليه اسم صاحب الزنادقة ، كان عليه ان يبحث عن الزنادقة وينكل بهم . ومن اصحاب الزنادقة عمر الكلواذي ، ذكر اسمه الطبري في حوادث ١٦٧ هـ / ١٨٣ م قائلا (وفيها جد المهدي في طلب الزنادقة ، والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم وولى أمرهم عمر الكلواذي (٣٥٢) . وخلفه محمد ابن عيسى بن حمدويه ، فقتل من الزنادقة أيضا عددا كبيرا (٣٥٣) .

أمر المهدي في قتل هؤلاء الزنادقة ، لظهورهم في أيامه ، واعلانهم لمعتقداتهم ، وتتبعهم في كل مكان ذهب اليه ، فحين وصل الى حلب أمر بقتل الزنادقة ، وتتبعهم ومزق اجسادهم شر ممزق . ويبدو اهتمام المهدي بهذه الفئة من الوصية التي أوصى بها ابنه الهادي في اتخاذ الشدة والقسوة مع هذه الفئة اثاره اذا قلد الحكم فقال : (يا بني ان صار لك هذا الامر فتجرد لهذه العصابة ، فانها فرقة تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا ، والعمل للاخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور . وترك قتل الهوام تخرجوا وتحوبا ، ثم تخرجها من هذا الى عبادة

(٣٥٠) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٣٩ — ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٦٣ — ١٦٤ .

— العيون والحدائق ، ص ١٧٥ .

(٣٥١) — احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٤١ .

(٣٥٢) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٦٥ .

(٣٥٣) — العيون والحدائق ، ص ٢٧٣ .

اثنين أحدهما النور ، والاخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات ،
والاغتسال بالبول ، وسرقة الاموال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية
النور ، فارفع فيها الخشب،وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له،
فاني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وامرني بقتل اصحاب الاثنين (٣٥٤) .

وقد سار الهادي على خطا ابيه . وتمثل وصيته في القضاء على هذه الفئة
وملاحقتها في كل مكان حتى قتل منها عددا كبيرا ، وكان ممن قتلهم يزدان بن باذان
كاتب يقطين ، وابنه علي بن يقطين (٣٥٥) . وقد أثر عنه أنه قال : لئن عشت لاقتلن
هذه الفرقة كلها حتى لا اترك منها عينا تطرف ، الا ان المنية عاجلته قبل ان يحقق
أمنيته .

ولما تولى هارون الرشيد الخلافة ، سار على سياسة ابيه واخيه قبله . واستمر
ديوان الزندقة في عهده ، كما انه عين رجلا عرف بصاحب الزنادقة كسلفيه ، وتعقب
الزنادقة ، وعاقب من ثبتت عليه التهمة بشدة . ففي سنة ١٧١ هـ عاقب منهم يونس
ابن فروه ، ويزيد بن الفيض . وانتشرت الزندقة في عهده انتشارا واسعا بين العرب .
فقد اعتنقها صالح بن عبد القدوس ، والشاعر مطيع بن اياس ، الذي لقن ابنته
تعاليم الزنادقة ، واعترفت بذلك أمام الخليفة . كما اعترفت بانها قرأت كتب المانوية .
ولابد من القول ، ونحن نتحدث عن الزندقة في عصر الرشيد ، من القول بأن من
اسباب قتل البرامكة مانسب اليهم من زندقة (٣٥٦) .

وعنى الرغم من تشديد المهدي والهادي والرشيد على الزنادقة ، فان الزندقة
استمرت في عهد خلفائهم . فمما يروى عن المأمون أنه بلغه ان عشرة رجال من أهالي
البصرة، يرون رأي ماني، ويقولون بالنور والظلمة . فأمر بحملهم اليه، فكان يدعوهم فردا

(٣٥٤) - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٤١ .

(٣٥٥) - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٤٢ .

(٣٥٦) - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٤٢ .

فردا • وبسألهم عن دينهم ويمتحنهم، وكانت نهاية جميعهم القتل، لأنه ثبت له اعتناقهم الزندقة (٣٥٧) •

وتسربت الزندقة الى بلاط المتصم • ودان قائده الافشين بها • وقد ثبت اعتناق الافشين للزندقة ، بمحاكمة اجريت له ، وكان ينوي من وراء ذلك قلب المملكة الاسلامية ومحو الخلافة والدين الاسلامي واعادة دولة الفرس بلغتها ودينها (٣٥٨) •

وللحقيقة يجب القول بان الاتهام بالزندقة في هذا العصر ، اصبح عادة معروفة ، فاذا كان بين شخص وآخر عداوة يرميه بالزندقة ، فالخصومة الادبية والعلمية يمكن أن تكون سببا في الرمي بالزندقة ، كذلك فان الخصومة الدينية والسياسية تعرض صاحبها للاتهام بالزندقة ، وبالتالي فان بعض من لم يعتنق الزندقة ذهب ضحية الحملة ضد الزنادقة •

وللزنادقة ابحاث في 'نعم والادب والسياسة' تأثر بها الادباء والمفكرون ، ونهص البعض ممن لم يكونوا على الزندقة ، فبذلوا الجهد في مكافحة الزندقة والرد على اصحابها • ولما كان ردهم للحجة بالحجة ، فكان عليهم التسلح بالعلم والادب ، وكل ما يحتاجون اليه في هذا الباب ، وكان واصل بن عطاء أول من تصدى للرد عليهم ، وانكر على بشار بن برد الزندقة والالحاد • وكان لابي الهذيل العلاف مناظرات طويلة مع الزنادقة • وقد تمكن بمناظراته من تحويل عدد كبير من المجوس الثنوية الى الاسلام • وتصدى غيره من المتكلمين للرد على الزنادقة ، ولكن كثيرا منهم ظل على الرغم من افحامه متمسكا بعقائد الزندقة (٣٥٩) •

(٣٥٧) - المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٤ ، ص ٩ - ١٠ •

(٣٥٨) - انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٥١٠ - ٥١٦ - وهو يورد محاكمة الافشين والاتهامات التي وجهت اليه - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٦٨ - ٢٧٠ •

(٣٥٩) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١١٩ - ١٢٠ •

— الصراع المسلح بين العباسيين والواليين :

ايقظت الثورة العباسية كأي ثورة جذرية في نفوس العامة الكثير من الآمال نحو مستقبل أفضل ، كما انفسح المجال امام المبادئ الايرانية القديمة في الانطلاق كمبادئ الزرادشتية والمزدكية والمناوية ، وحين تباطأ العباسيون في تحقيق الوعود التي قطعوها على انفسهم برزت على السطح حركات متنوعة لها غايات دينية وقومية منها :

آ - ثورة الراوندية :

بطلق اسم الراوندية على حركة فارسية ، سياسية دينية ، تجلت بوضوح في عهد الخليفة ابي جعفر المنصور . وقد عرفت بهذا الاسم نسبة الى مدينة راوند قرب نيسابور (٣٦٠) .

وتعود الراوندية في ظهورها الى الفترة التي سبقت قيام الخلافة العباسية . ويمكن ان نقول انها سائرت ركب الدعوة العباسية . وعلى حين كانت الراوندية فرقة واحدة قبل اعلان الخلافة العباسية ، فانه يمكن القول بانها تمزقت شيئا بعد قيام الخلافة العباسية بسبب اختلافهم حول وراثة العباسيين للخلافة وهاك آراء بعضهم :

— قال بعضهم ان الامامة العباسية ورثت شرعيتها من ابي هاشم .

— ورأى آخرون بأن الامام بعد النبي هو العباس بن عبد المطلب ، وانه أورث الامامة ابنه عبد الله ، وهكذا حتى محمد بن علي . وعرفت جماعة من هؤلاء بالخداسية نسبة الى داعية عرف بخداس كان محمد بن علي قد وجهه الى خراسان ، ثم بلغه عنه العلوي ، ففصله عن الدعوة العباسية ولعنه . وقد اعتقل خداس هذا من قبل والي خراسان أسد بن عبد الله القسري ، فسلم عينيه ، وقطع لسانه ويديه

(٣٦٠) — ان ماجاء في كتاب الاخبار الطوال لابي حنيفة الدينوري ، ص ٣٨٤ من نسبة الراوندية الى

احمد بن اسحق الراوندي المتوفي سنة ٣٠٣ هـ خطأ .

وضرب عنقه وصلبه على باب مدينة كابل • وعلى اثر ذلك عادت جماعة من اتباع خدّاش الى الطريق الصحيح للدعوة العباسية وبقيت فئة ترى رأي خدّاش ، وأظهروا البراءة من محمد بن علي (٣٦١) لتبرئه من خدّاش •

— ازداد انقسام هذه الفرقة اثر مقتل ابي مسلم الخراساني • فرأى بعضهم بأن الامامة انتقلت من محمد بن علي الى ابراهيم الامام ، ومنه الى ابي مسلم فظهرت الابي مسلميه (الرزامية) ، وقد رأى بعض اصحاب هذه الفرقة بأن أبا مسلم لم يمت وانه حي ، ونسبوا اليه عددا من الخوارق وقصدوه الى درجة العبادة ، على حين اعترفت جماعة اخرى بموته ، وقالت بأن الامامة انتقلت بعد موته الى ابنته فاطمة (٣٦٢) •

— ورأى بعضهم بحسب ما جاء في الطبري وهم من الذين يعتقدون بتناسخ الارواح ، أن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك • وان ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور ، وانه لو شاء ان يسير الجبال لسارت ، ولو أمرهم ان يستدبروا القبلة لفعلوا (٣٦٣) • فأظهروا بذلك انهم يقدسون الخليفة على طريقة الفرس في تقديس ملوكهم ، وجعلهم في مصاف الاله • وقد يكونوا قد ادعوا هذا الادعاء لاثارة العرب والمسلمين ضد الخليفة المنصور ، انتقاما منه لقتله أبا مسلم ، فتكون هذه الحركة دينية وسياسية في آن واحد •

— ورأى آخرون وعلى رأسهم الابلق (لبرص فيه) أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم ، صارت في علي بن أبي طالب ثم في الائمة واحدا بعد واحد حتى ابراهيم الامام (٣٦٤) •

(٣٦١) — زكار : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ •

(٣٦٢) — زكار : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ •

(٣٦٣) — المقرئ : المصدر السابق ، ورقه ١٠٢ ظهر و ١٠٣ وجه •

(٣٦٤) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٥٠٥ — حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٠٤ •

اما عقيدة الراوندية فتتجسد في الاعتقاد بتناسخ الارواح ، وتقديس الملوك وجعلهم في مصاف الالهة مع اباحة المحرمات كالزناقة (٣٦٥) .

وقد خرجت فئة من الراوندية في خلافة أبي العباس في خراسان . فتكفل أبو مسلم بالقضاء على حركتهم . كما قامت بعض فرق الراوندية اثر مقتل ابي مسلم ، وفي سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م (٣٦٦) ، بالعمل على تشويه الاسلام وادخال بعض التعليمات الجديدة عليه ، والتي لا تمت اليه بصلة ، فادعوا بأن المنصور هو ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم (٣٦٧) ، وأتوا قصره وكان ما يزال يسكن في الهاشمية ، فأحاطوا به ، واخذوا ينادون هذا قصر ربنا (٣٦٨) ، فلما خرج اليهم اقبلوا يصيحون به انت أنت يريدون بذلك انت الله (٣٦٩) .

نظر المنصور الى هؤلاء كأعداء سياسيين ، لانهم من اتباع ابي مسلم الخراساني اولاً ، وانهم يريدون تحويل الخلافة الى ملك كسروي ، كما أنه نظر اليهم على انهم زنادقة يحاولون اعادة المجوسية او ادخال أي شكل من أشكالها في الدين الاسلامي . ولذلك فان المنصور لم يجد بدا من أن يضرب على ايدي هؤلاء لخروجهم على الدين ، فسجن مائتي رجل من رؤسائهم ، مما اغضبهم وجعلهم يتساءلون عن سبب السجن ، ولما منعوا من التجمع اعدوا نعشا فارغا حملوه ، ثم

(٣٦٥) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٠٤ .

(٣٦٦) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٠٥ - على حين يرى المقرئزي ورقه ١٠٣ وجه أن ذلك كان سنة ١٣٩ او أول سنة ١٤٠ هـ .

(٣٦٧) - قد يكون هؤلاء قصدوا من اظهار تأليه المنصور اثارة المسلمين عليه .

(٣٦٨) - المقرئزي : المصدر السابق ، ورقه ١٠٣ وجه .

وانظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٥٠٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٠٢ .

- ابن خلدون ، جزء ٣ ، ص ١٨٥ .

(٣٦٩) - حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٢ ، ص ١٠٥ وهذا يخالف ما جاء في الاخبار الطوال لابي حنيفة الدينوري ص ٢٨٤ الذي يرى بان حركة الرواندية كانت في البصرة ولكنه أكد ان هؤلاء خرجوا ثارا لابي مسلم .

مروا في المدينة حتى بلغوا السجن فدخلوه واخرجوا اصحابهم ، واتجهوا الى المنصور باعداد تزيد عن ستمائة رجل (٣٧٠) .

خشي سكان العاصمة من هذه الفئة المارقة ، فتنادوا وأغلقوا عليهم ابواب منازلهم للنجاة من خطرهم ، كما أغلقت ابواب المدينة خشية ان يتدفق عليها عدد من الراوندية ، وأحذق الخطر بالخليفة المنصور ، فلم يجد بدا من الخروج اليهم بنفسه . فخرج معن بن زائدة الشيباني ، وهو أحد قواد الامويين الذين حاربوا العباسيين تحت امرة ابن هبيرة ووالي العراق . وكان متخفيا منذ قيام الخلافة العباسية لاهدار الخليفة دمه ، فأكفاه مؤونة القتال ، وقاتل دون الخليفة العباسي وابلى بلاء حسنا . فرد هذه الترقية عن الخليفة ، فعفا المنصور عنه (٣٧١) ، وكافأه بولاية الين (٣٧٧) .

ب - المقنع الخراساني :

تعتبر هذه الحركة حلقة في سلسلة الحركات القومية التي قامت في المناطق الشرقية لاعادة مجد الفرس القديم . كان المقنع رجلا من أهالي رستاق مرو ، واسمه هاشم بن حكيم . حصل علوما من كل نوع ، كما تعلم الشعبة والطلسمات ، وحذق بها . وبرع في السحر ، قرأ كتبا كثيرة من علوم الاولين ، وتنقل في طلب العلم بين مرو وبلخ (٣٧٣) .

(٣٧٠) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٥٠٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٠٢ .

- المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١٠٣ وجه .

- ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٨٥ .

(٣٧١) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١٠٣ .

- انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٠٣ .

(٣٧٢) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٠٣ على حين يرى المقرئ : ورقة ١٠٣ ظهر ،

ان المنصور : لاه مصر ثم اليمن ثم سجستان وبها هلك .

(٣٧٣) - النرشخي : تاريخ بخاري ، ص ٩٤ .

عمل المقنع اعمالا ادارية وعسكرية عديدة ، كان احد قواد خراسان في ولاية ابي مسلم ، ثم صار وزيرا لامير خراسان عبد الجبار الازدي (٣٧٤) . ادعى النبوة في عهد الخليفة ابي جعفر ، فسيق الى بغداد حيث سجن سنوات عديدة ثم اطلق سراحه . وحين عاد الى مرو ادعى الربوبية ، وجمع حوله الناس مخاطبا لهم (انا الهكم واله العالم اجمع) ، ثم يستنرد فيقول : انا الذي اظهرت نفسي للخلق بصورة آدم ثم بصورة نوح ، ثم بصورة محمد (ص) ، ثم بصورة ابي مسلم ، ثم بهذه الصورة (٣٧٥) .

ان هذا القول من المقنع يدل على أن حركته لا تختلف كثيرا عن الحركة الراوندية ، وأنها كسابقتها تؤمن بتناسخ الارواح ، وتتصل اتصالا وثيقا بالرزامية من الراوندية التي توصل الاوهية الى ابي مسلم (٣٧٦) .

قام المقنع بالدعوة لنفسه . فأرسل كتبه الى الناس ، واعد اصحابه بالجنة واعداءه بالنار ، وقد دخلت أغلب قرى السعد في دين المقنع ، وأخذ اتباعه يقطعون الطريق على القوافل ، وينهبون القرى . حاول الامراء المحليون القضاء على هذه الحركة قبل أن تستفحل ، فنهض امير خراسان حميد بن قحطبة للقبض عليه وتأديبه ففر مختفيا ، واستمر في اختفائه حتى تأكد من كثرة عدد انصاره . فعبر جيحون الى ولاية كش واستولى عليها . وتحصن ببعض الحصون الموجودة في المنطقة (٣٧٧) فتزايد عدد انصاره هناك ، وتحالفت معه المبيضة في بلاد ماوراء النهر (٣٧٨) حيث دعا اصحابه وعلن لهم اباحة دماء واموال المسلمين منذ سنة ١٥٩ هـ / ٧٧٥ م (٣٧٩) .

وقام بتشويه معالم الاسلام ، فاسقط الصلاة والصوم والحج عن اصحابه ،

(٣٧٤) - انظر النرشخي : المصدر السابق ، ص ٩٥ وحاشيته رقم ١ لنفس الصفحة .

(٣٧٥) - النرشخي : المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٣٧٦) - انظر فيما سبق .

(٣٧٧) - كان في جبل سنام في ولاية كش حصن في غاية الاستحكام وبه ماء جار واشجار وزروع وحصن

اخر اقوى منه انظر النرشخي : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(٣٧٨) - المبيضة من فرق الخرمية التي تنادى بترك الفرائض الدينية وتوالي ابا مسلم الخراساني ،

واتخذت اللون الابيض كتعبير لعداء العباسيين .

(٣٧٩) - النرشخي : المصدر السابق ، ص ٩٧ .

وأباح للناس الاموال والنساء • كما اباح تعالىهم مزدك • فعبده الناس وسجدوا له (٣٨٠) •

كان المقنع رجلا قبيح الخلفة ، اعور قصيرا ، ورأسه اصلع ، عمل لنفسه قناعا (٣٨١) وصعه على وجهه ليخفي به قبحه • وادعى انه فعل ذلك لاسباب دينية ولاخفاء النورانية القدسية • اذ جاء في المصادر التاريخية قوله (ان عبادي لا يطيقون رؤيني في صورتي التي أنا عليها ، ومن رأيي احترق بنوري •

ادرك المهدي خطورة الحركة ، فجهز جيشا كبير العدد ، كثير العدة ، ولم يكن من السهل القضاء على المقنع لكثرة انصاره ، ومناعة مواقعه • وبعد اربعة اشهر من القتال العنيف الذي تناوبه عدد من قواد الخليفة أمثال معاذ بن مسلم ، وعقبة ابن مسلم وجبريل بن يحيى ، وسعيد الحرشي ، تمكنت القوات العباسية من السيطرة على الموقف وايقاع الهزيمة بالمقنع ، حيث استسلم عدد كبير من قواته (٣٨٢) •

ولما شعر المقنع بالهزيمة اشعل النار في القلعة ، وأحرق كل ما فيها من دواب وثياب ومتاع وجمع نساءه وأولاده ، وطلب ممن أحب من أصحابه أن يلقوا بانفسهم في النار ليرتفعوا الى السماء • وذكر لهم بأنه صاعد الى السماء ، وأن من أراد ان يصحبه فليشرب من شراب أعده لهم • فشرب وسقاهم شرابا مسموما فماتوا جميعا • وألقى نساءه وأولاده في النار ، ثملقى بنفسه خشية أن يظفر اعداؤه بجثته أو جثث نساءه (٣٨٣) •

وهكذا انتهت حركة المقنع (٣٨٤) ولكن حركة المقتنية المبيضة لم تمت بموته ،

(٣٨٠) - فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ، ص ١٧٣ •

(٣٨١) - يرى الترشيحي ان هذا القناع كان اخضرا على حين ان ابن الاثير وابن خلكان والشهرستاني يذكرون ان هذا القناع على صورة وجه انسان •

(٣٨٢) - انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٣٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٣٩ •

(٣٨٣) - الترشيحي : المصدر السابق ، ص ١٠٣ - ١٠٤ •

(٣٨٤) - الترشيحي : المصدر السابق ، ص ١٠٤ •

فقد اعتقد اصحابه انه ذهب الى السماء ليأتي بالملائكة وينصرهم^(٣٨٥) وبالتالي فان مذهبه بقي له بعض المعتنقين من العوام والضعفاء من الناس في ولايتي كش ونحشب وبعض قرى بخارى ، وكان هؤلاء يتظاهرون بالاسلام ويخفون ما يعتقدون به^(٣٨٦) . وقد اشارت المصادر الى وجود اتباع للمقنعية حتى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي .

ومما لاشك فيه ان المبادئ الدينية ، والآراء السياسية التي طرحها المقنع الخراساني ، تمثل خطرا على الديانة الاسلامية . وعلى الخلافة العباسية التي تحميها . ويهدد نفوذها في الشرق الاسلامي خاصة .

ح - حركة بابك الخرمي :

لم تكن الخرمية فئة واحدة ، بل كان منها الخرمية المحمرة والخرمية البابكية التي تزعمها بابك الخرمي . وقد انتشر هؤلاء في منطقة الجبال بين اذربيجان وأرمينية ، وكانوا متأثرين بالعقيدة المزدكية^(٣٨٧) وقد جاء اسم الخرمية اما من خرم بلد في فارس ، أو من خرم الفارسية ومعناها لذيد^(٣٧٨) .

تميزت حركة بابك الخرمي عن غيرها من الحركات الفارسية ذات الطابع الديني والقومي بجهازها المنظم وقيادتها القادرة ، مما جعلها تصمد أمام جيوش الخلافة فترة طويلة .

وينسب المؤرخون الى بابك ادعاءه بالالوهية وأن روح جاويدان^(٣٨٩) حلت فيه . كما آمن وأصحابه بمبدأ الرجعة وبتناسخ الارواح . كما اباح لأصحابه كل

(٣٨٥) يرى النرشخي : المصدر السابق ، ص ١٠٤ ان الحركة انتهت سنة ١٦٧ هـ - ٧٨٠ م ، على حين ان فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ١٧٧ يرى انها في سنة ١٦٣ .

(٣٨٦) - النرشخي : المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٣٨٧) - المزدكية حركة اصلاحية اجتماعية قادها مصلح عرف بمزدك لاصلاح المجتمع الساساني . انظر احمد امين : فجر الاسلام ، الطبعة العاشرة ١٩٦٥ - ص ١٠٩ .

(٣٨٨) - شاكر مصطفى : في الدعوة العباسية ، ص ١٢٢ .

(٣٨٩) - جاويدان احد رؤساء الخرمية ولما توفي اقامت امراته بابك مكانه . انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٢٨ .

مايلذ النفس ، وينزع اليه الطبع مالم يعد على احد بالضرر ، وبالتالي فانه أبساح
المحرمات ، والاشترائية في النساء • كما رفع عنهم الفروض الدينية كالصلاة
والصوم والحج والزكاة (٣٩٠) •

أثارت الخرمية حربا شعواء على الاسلام والعرب وفي نيتهم تحويل الملك من
العرب الى الفرس ، واعادة مجدهم السابق ، والانتقام لمقتل أبي مسلم • ومما
يؤيد ذلك أن كثيرا من المؤرخين ارجعوا بابك الى سلالة أبي مسلم الخراساني ،
ورأوا أن حركته استمرار لحركة المقنع الخراساني ، ولحركة الراونديه • ويعودون
بنسب بابك هذا الى مطهر بن فاطمة بنت أبي مسلم التي تنتسب اليها الفاطمية من
الخرميين (٣٩١) •

اعلن بابك الخرمي ثورته على الخلافة العباسية سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م متخذا
من جبال أذربيجان مركزا لحركته • ثم توسع في المناطق المجاورة حيث لاقت
دعوته تأييدا واسعا خاصة في منطقة الجبال بين همدان وأصفهان • وانتشر
أصحابه بعد ذلك في طبرستان وجرجان وبلاد الديلم ، يعيشون فسادا ويشيرون
الاضطراب ، يساعدهم على ذلك انصراف المأمون الى الشؤون الخارجية ،
وانهماك قواته بحرب البيزنطيين ، وقوة حصانة المنطقة الجبلية التي اعتصم بها
بابك وجماعته (٣٩٢) •

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها المأمون للقضاء على هذه الحركة ، فقد
استمرت بعد وفاته • وكان على خليفته المعتصم أن ينهض للقضاء على هذه الحركة،
ولم يبخل المعتصم بتسخير كل قوته لقتال بابك ، والقضاء على حركته ، حتى أنه
قدمها على قتال البيزنطيين • واختار لقيادة جيوشه خيرة قواده • واهتم ايضا
بتدعيم مراكز قواته • فأمر ببناء الحصون التي خربها بابك فيما بين زنجان

(٣٩٠) - انظر البدء والتاريخ : جزء ٤ ، ص ٣٠ - ٣١ - فان افلوتن : السيادة العربية ، ص ٩٩-١٠٠

(٣٩١) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٠٨ •

(٣٩٢) - زكار : المرجع السابق ، ص ٢٧٣ •

واربيل ، ووضع فيها رجالا مسلحين ، جعل سبيلهم حنظ الطريق لتأمين وصول الميرة الى قواته . ولما حاول رجال بابك الوقوف في وجه الامدادات ، ومنعها من الوصول الى القوات المرابطة هاجمهم رجال المعتصم ، وقضوا على سريتهم . وكانت هذه أول هزيمة لجنود بابك . وقد استفاد المعتصم وقادته من المعلومات التي حصلوا عليها من الاسرى بعد أن أحسنوا معاملتهم ، ودفعوا لهم أضعاف ما كانوا يأخذونه من بابك ، وجندوهم للتجسس لحسابهم (٣٩٣) .

ودفع المعتصم بقواته كافة لقتال بابك ففي سنة ٢١٨ هـ / ٧٣٣ م تمكن أحد قادته وهو اسحق بن ابراهيم من تشتيت الخرمية في همذان ، ثم قام قائده التركي الافشين سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م بشن هجوم عنيف على معقل الخرمية الاصلي في اذربيجان وحاصروهم مدة طويلة ، حتى اضطر قائدهم بابك الى الفرار سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٦ م (٣٩٤) .

في الفترة التي وجد بابك نفسه في خطر ، حاول تخفيف الضغط عن نفسه . بتحريض البيزنطيين على مهاجمة الثغور الاسلامية ، وأعلنهم بأن المعتصم قد شغل عنهم بقتاله . وانه قد دفع كل قواته في هذا السبيل ، وأنه لا يوجد من يقف بوجههم ، وكانت غايته من ذلك اشغال المعتصم بالبيزنطيين . الا ان ذلك لم ينفذه . وانتهت حركته بالفشل ، وألقي القبض عليه ، فسيق الى سامراء حيث قتل ومثل به . ولم تنته هذه الحركة الا بعد أن أفنت عددا كبيرا من جند الخلافة ، وكلفت الخلافة الكثير من الاموال (٣٩٥) .

استمرت الحركة الخرمية بعد قتل بابك ، وقام بأمرها المازيار (٣٩٦) الذي كان على صلة سابقة ببابك ، يحرضه ويعرض عليه المساعدة ، فثار في وجه الخلافة

(٣٩٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

(٣٩٤) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢٣-٢٧ .

(٣٩٥) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

(٣٩٦) هو من دعاة الفرس وكان موضع ثقة المأمون ، فولاه أطراف طبرستان ، وسمح له بالاحتفاظ بلقب الاصبهيد .

العباسية مخرضا أكرة الضياع على الوثوب بأربابهم ونهبهم • وقد استطاع عبد الله بن طاهر أن يقبض على المازيار ، ويرسله الى المعتصم • وانتقم المعتصم من رئيسي الخرمية في أيامه فصلبهما في سنة ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م • وقد ساعد القبض على المازيار الخليفة على اكتشاف موقف قائده الافشين ومطامعه ، وجرت له محاكمة اتهم على أثرها بالزندقة ، كان من اعضائها محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد ابن أبي دؤاد • وكان قرار المحكمة الصلب والحرق (٣٩٧) •

د - ثورة استاذسيس :

قام استاذسيس في سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م بثورته في خراسان • وعلى الرغم من أن أهداف القيام بهذه الثورة مجهولة ، فيمكن القول بأن السبب الذي دعاه الى الخروج هو السبب نفسه الذي دعا غيره من الفرس الى الثورة على الخلافة العباسية العربية الاسلامية • وتكمن خطورة هذه الثورة بالاعداد الكبيرة التي استطاع استاذسيس جمعها حوله من أهالي هراة وبادغيس وسجستان • ويبدو أن استاذسيس وانصاره قد عاثوا فسادا في المناطق التي احتلوها فنهض أهالي وولاة المناطق المجاورة بمقاومتهم قبل وصول جيوش الخلافة • وقد تمكن استاذسيس بما لديه من قوة ، وبالنفوذ الذي أصبح له بين أنصاره من هزيمة هذه الجيوش المحلية التي حاولت الوقوف في وجهه ، فقوي مركزه بين أنصاره •

لم يدع المنصور أمر هذه الحركة للقوات المحلية ، بل وجه للقتال جيشا جعل على قيادته خيرة قواده ، وهو خازم بن خزيمة • وقد تمكن خازم بما قام به من جهود من السيطرة على الموقف ، وانتصر انتصارا حاسما على استاذسيس ، ووضع السيف في أنصاره ، وقضى بذلك على هذه الثورة (٣٩٨) •

(٣٩٧) - احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ •
(٣٩٨) - انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢٩ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٥ - العيون والحدائق ، ص ٢٦٣ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٨ •

المفصل الثاني

الاضاع العامة في شمال افريقيا والاندلس :

١ - الاوضاع في مصر وبلاد النوبة :

كان أول من تولى امرة مصر اثر قيام الخلافة العباسية صالح بن علي بن عبد الله بن العباس ، عم الخليفة ابي العباس ، استقبل صالح ولايته في محرم سنة ١٣٣ هـ / اب ٧٥ م ، فبعث بوفد مصر الى الخليفة لاعلان البيعة للعباسيين^(١) ثم عمل على ملاحقة الامويين وانصارهم فيها ، فعاقب بعضهم بالقتل ، واعطى لبعضهم الامان ، وضبط البلد للخلافة العباسية^(٢) . وحاول ان يجد لنفسه حاشية وانصارا ، فاقطع بعض من شعر باخلاصه للعباسيين اراضي قرب مدينتي الفسطاط والاسكندرية ، أو اراضي قرى أهنا^(٣) . وأمر للناس باعطياتهم ، وقسم الصدقات على اليتامى والمساكين^(٤) .

قام صالح بن علي ببناء مدينة العسكر مع قائده ابي عون في الشمال الشرقي من الفسطاط بمنطقة الحمراء القصوى ، وجعلها عاصمة له عوضا عن السابقة . وكان

(١) - عن الوفد المرسل انظر الكندي : الولاة والقضاة ، طبعة الالباء اليسوعيين ١٩٠٨ ، ص ٩٧-٩٨ القرينزي : المخطط ، جزء ١ ، ص ٥٧١ .

(٢) - الكندي : المصدر السابق ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣) - اسم كوره في الصعيد الابنى وهي على شربي النيل ليست بعيدة عن الفسطاط : انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان جزء ١ ، ص ٢٨٤ - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٠١ .

(٤) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

الذي دفعه إلى ذلك شعوره بأن الفسطاط تضيق بعسكره • واستمر البناء بعده بهذه المدينة حتى اتصلت بمدينة الفسطاط^(٥) •

تناوب حكم مصر في عهد الخليفة أبي العباس ، والفترة الأولى من حكم الخليفة أبي جعفر كل من صالح بن علي وأبي عون • فقد استخلف صالح أبا عون عبد الملك بن يزيد على مصر بأمر من الخليفة في مستهل شعبان ١٣٣ هـ / آذار ٧٥١ م ، على حين تسلم هو ولاية فلسطين^(٦) •

كانت ولاية أبي عون على مصر ولاية عامة^(٧) ، ولم يحدث في أثناء ولايته تلك أحداث ذات أهمية ، وانتهت حين جمع الخليفة أبو العباس لصالح بن علي ولاية فلسطين ومصر وأفريقية ، وكله بتهدئة أوضاع المغرب في ربيع الآخر سنة ١٣٦ هـ / أيلول ٧٥٣ م ، وكانت هذه ولايته الثانية ، وحين توفي الخليفة أبو العباس في السنة نفسها ، أقر الخليفة المنصور صالح بن علي على مصر^(٨) •

ثم تكن مصر بأهاليها في تلك الفترة بعيدة عن الأحداث السياسية العامة التي قامت في المنطقة • فقد تعاون أهالي البلاد مع واليهم ، بالحملة التي أعدت للمغرب أولا ، ثم بالحملة التي أرسلت لقتال أبي الخطاب بن الشيخ عبد الأعلى ابن الشيخ الإباضي^(٩) • وقدم أمام حملته رجالا من أشراف مصر كدعاة لأهالي أفريقية^(١٠) • كما استعان بهم لأجل تهدئة ثورة الحكم بن ضبعان الجذامي في فلسطين •

حدث تعبير متكرر لولاية مصر في عهد المنصور بعد ولاية أبي عون الثانية

(٥) - عن العسكر انظر ياقوت الحموي : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٢٣ •

(٦) - المقرئ : الخطط ، جزء ١ ، ص ٥٧١ •

(٧) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٠١ •

(٨) - المقرئ : الخطط ، جزء ١ ، ص ٥٧٥ •

(٩) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٠٩ •

(١٠) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٠٢ •

عليها • فتولى موسى بن كعب حتى سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م (١١) • اثر عزله عين محمد ابن الاشعث حتى سنة ١٤٣ هـ / ٧٦٠ م (١٢) ثم تولى حميد بن قحطبة • وفي ولايته قدم الى مصر علي بن محمد بن عبد الله بن حسن داعية لاييه وعمه • فعزل عقابا له ، لعدم قبضه على هذا الداعية سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م ، وعين يزيد بن حاتم من آل المهلب مكانه • وقد دامت ولايته حوالي ثماني سنوات ، وهي اطول مدة بقي فيها أمير على مصر في عهد العباسيين حتى هذا التاريخ ، ولكنه لم يستطع ان يقف حائلا في وجه انتشار دعوة بني الحسن في مصر • فقد تقبل الاهالي هذه الدعوة بقبول حسن (١٣) وكل ما استطاع هذا الوالي ان يفعله في هذا المجال ، هو منع اتصال الثوار بمحمد النفس الزكية ، بمنعهم من الحج في سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م • ولم تلبث هذه الحركة ان انطفأت اثر نبأ وفاة محمد ثم اخيه ابراهيم ، على الرغم من بقاء علي بن محمد في مصر حتى وفاته (١٤) •

ويبدو ان اسباب التغيير المستمر للولاة يعود لاسباب اقتصادية بالدرجة الاولى ، الى جانب الاسباب السياسية وغيرها من الامور التي لامجال لذكرها الان • فمن الواضح ان اوضاع مصر في الفترة الاولى من الحكم العباسي كانت مشابهة الى حد ما لاوضاع بلاد الشام ، ولكنها اقل حدة • وان اوضاع مصر الاقتصادية كانت تسير الى الاسوأ ، مما ادى الى تملل الاهالي احيانا • فمن المعروف ان خراج مصر كان في عهد الدولة الاموية حوالي ٣٦ مليون درهم اي مايقارب ثلاثة ملايين دينار (١٥) • وان هذا المبلغ تناقص حتى بلغ في عهد الرشيد مليوناً وتسع مائة وعشرين ألف دينار (١٦) • ومما لاشك فيه ان هذا النقص في الخراج كان بسبب تدهور الاوضاع الاقتصادية ، وان التأخر الاقتصادي ادى الى

(١١) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٠٧ - ١٠٨ •

(١٢) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١١٠ •

(١٣) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١١٠ - ١١١ •

(١٤) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١١٥ - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٥٧٧ •

(١٥) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٤٦٨ •

(١٦) - الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢٨٢ •

تحرك السكان ، والى اضطرار خلفاء العباسيين الى تحريك ولايتهم ، عسى ان يجدوا من بينهم من يستطيع إعادة الاوضاع الاقتصادية في مصر الى سابق عهدها .

قامت ثورات عديدة في مصر والمناطق المحيطة بها . وكان على والي مصر ان ينهض بعبء تهدئة هذه الثورات . ولذلك فقد عمل الولاة على تدعيم قوتهم بجيوش من مركز الخلافة . وكمثال على ذلك ان حميد بن قحطبة احضر معه الى مصر عشرين الفا من الجند ، الى جانب امدادات اخرى وصلتته بعد ذلك . ومن جملة ذلك ان جيشا ارسل لغزو الحبشة لخروجها عن الطاعة ، فظفر الجيش بالخارج على السلطنة (١٧) .

كما خرج القبط في سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م على واليهم يزيد بن حاتم ولما لم يستطع تهدئة الثورة وانهزم جيشه امامهم ، صرف عن الولاية (١٨) . كما خرج في مصر في عهد الخليفة المهدي احد رجالات بني امية وهو دحية بن مصعب بن الاصبح بن عبد العزيز بن مروان ودعا لنفسه بالخلافة وتمكن من التغلب على بلاد الصعيد ، وفشل والي العباسيين ابراهيم بن صالح العباسي (١٦٥ - ١٦٧ هـ / ٨٧١ - ٨٧٣ م) في القضاء على هذه الثورة فعزله الخليفة المهدي ، وأعطى الولاية الى موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمي (١٦٧ - ٦١٨ هـ / ٨٧٣ - ٨٧٤ م) . وفشل الاخير في انتضاء على الثورة ، وانتهت حياته بالقتل . ويبدو ان فشل الوالي الاخير كان بسبب اساءته للاهالي ، وفرضه عليهم فروضا مالية زادت عما كان يجبيه سابقوه . فقد زاد ما كان يؤخذ على كل فدان بمقدار الضعف . كما فرض فروضا على أهل الاسواق وغيرهم ، فكرهه المتضررون ، وقامت الفتن في طول البلاد وعرضها وبلغت ذروتها في الصعيد وكوره الحوف (١٩) .

(١٧) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١١٦ - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٥٧٧ .

(١٨) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١١٦ - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٥٧٧ .

(١٩) - الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦ - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٧٨ - ٥٧٩ .

لم تنته ثورة دحية بقتل موسى بن مصعب ، بل استمرت في عهد خلفه عسامه ابن عمرو المعافري ، وفي ولاية خلفه الفضل بن صالح . وقد تمكن الأخير من هزيمة دحية زعيم الثائرين ، ثم قبض عليه وقتله في سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٧ م . ولم يجن الفضل ثمار انتصاره ، اذ عزل في السنة نفسها التي ولي فيها (٢٠) . ونهض خلفه علي بن سليمان بالاحسان الى الاهالي ، فظهر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنع الملاهي والخمر ، وهدم الكنائس المحدثه في مصر ، كما اكثر من دفع الصدقات للمحتاجين (٢١) .

هدأت أحوال مصر في ولاية موسى بن عيسى ، لانه استطاع ان يوفق بين الاهالي ويحسن اليهم . فقد اشتهر بالعدل وحسن الادارة . واكتسب بذلك محبة الاهالي ، كما انه احسن الى النصارى ، وأذن لهم ببناء الكنائس التي هدمها سلفه ، كما انه ارضى المسلمين بما قام به من توسيع لجامع عمرو بن العاص (٢٢) .

ويبدو أن هذا الهدوء كان مؤقتا ، وان اسباب الثورات بقيت كامنة في البلاد . وانه لسبب أو لآخر كان الخراج ينكشف في مصر في بعض السنوات ، وكان على أولي الامر فرض زيادة على المزارعين لسد النقص ، وكثيرا ما أدى ذلك الى عودة الاضطراب ، وقد حدث ذلك في خلافة هارون الرشيد مما أدى الى خروج أهل الحوف واضطرار الخليفة الى قتالهم (٢٣) .

وتكرر تغيير الولاة كما عاد أهل الحوف ثانية للثورة في عهد الرشيد سنة

(٢٠) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٧٩ .

(٢١) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٣١ وما بعدها - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٧٩ .

(٢٢) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٣٢ - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٧٩ .

(٢٣) - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٨٠ .

١٨٦ هـ / ٨٥١ م . وامتنعوا عن دفع الخراج (٢٤) . وعادت الفوضى ثانية للبلاد
اثر النزاع بين الامين والمأمون ، فتعصب بعضهم للامين واخرون للمأمون . فقد
ثار بعضهم حين أراد الامين نكث العهد وخلع المأمون من ولاية العهد ، لانهم
رأوا وجوب الوفاء بالعهود . واضيف الى هؤلاء اصحاب النزعات الخاصة الذين
يستغلون الفتن لتحقيق مصالح لهم .

أرسل المأمون الى مصر كتابا يدعو الاهالي فيه الى خلع الامين . وطلب من
وكيل ضياعه في مصر قراءة الكتاب على الجند ، وخرج السري بن الحكم يدعو
للمأمون ، فبايعه بعضهم وتمكن الجميع بتعاونهم من اخراج والي الامين من
الفسطاط ، ولما كان للامين أنصار في مصر فقد وقع الخلاف والقتال بين الفريقين ،
وتم انصر لانصار المأمون على أنصار الامين (٢٥) .

لم تهدأ الاحوال في مصر بعد ذلك ، ولم يستطع المأمون من السيطرة على
الوضع . ونشبت الثورات في كل مكان وخضعت كل منطقة لتأثر . وقام كل من
التأثرين بجباية الضرائب لنفسه ، وبالتصرف في ولايته تصرف المستقل ، ولم يذعنوا
لاوامر خليفة بغداد . وليس أدل على شدة الاضطراب من أن الشرطة تقلدها خمسة
في بضع أسابيع (٢٦) .

وبدت مصر في هذه الفترة خارجة عن طاعة العباسيين ، حتى أن كثيرا من
المؤرخين يعتبرون هذه الفترة بداية لاستقلال مصر عن الخلافة العباسية ، استقلالا
يسبق ذلك الذي جرى في عهد الطولونيين (٢٧)

(٢٤) - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٨٢ - انظر الكندي : المصدر السابق ، ص ١٤٠ ،
لتجد ان اسباب الثورة اقتصادية .

(٢٥) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٤٨ - ١٥٠ .

(٢٦) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٤٨ - ١٥٠ وما بعدها . وانظر عن الاضطرابات في مصر ،
وما فعله المأمون لتهدة الاحوال ، المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١٢٣ وجه ظهر .

(٢٧) - الكندي : المصدر السابق ، ص ١٥٩ - ١٨٠ .

كلف المأمون قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين بالقضاء على هذه الاضطرابات التي سادت مصر نحواً من احدى عشرة سنة . وقد تمكن هذا من اعادة الأمور الى سيرتها الاولى ودخل مدينة القسطنطينية حيث اخذ يعمل على اصلاح الأمور فيها . وظن ان الهدوء عاد نهائياً الى المنطقة فتركها وعاد الى العراق (٢٨) .

الا ان الثورات عادت سيرتها الاولى ، فندب الافشين لاعادة الاوضاع الى حالها . ثم حضر الخليفة الى مصر لدراسة الاوضاع عن كثب . وتمكن بفضل الجهود المتكررة التي صرفها من اعادة الامن الى نصابه (٢٩) . وقد شجعت الاوضاع المضطربة فئة من الاندلسيين — كانوا قد طردوا من قبل الحكم بن هشام الاموي اثر هيجة الربض في قرطبة سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م — على الالتجاء الى الاسكندرية والسيطرة عليها واقامة ما يشبه بالجمهورية ترأسها زعيمهم ابو حفص عمر البلوطي ، فقاتلهم عبد الله بن طاهر ، وانتصر عليهم واجلاهم عن الاسكندرية ، فالتجأوا الى جزيرة كريت (٣٠) .

ولما تولى المعتصم عرش الخلافة واسقط العرب من ديوان العطاء اندمج العرب مع اقباط مصر وامتثلوا الزراعة ورضخوا لسلطة الولاة الاتراك (٣١) .

أما بلاد النوبة (٣٢) فلم تخضع للمسلمين في صدر الاسلام . وكل ما استطاع عبد الله بن سعد بن أبي سرح ان يفعله سنة ٣١ هـ / ٦٥٤ م هو ارغام ملك النوبة

(٢٨) — الكندي : المصدر السابق ، ص ١٨٠ — ١٨٥ .

(٢٩) — انظر الكندي : المصدر السابق ، من ص ١٨٩ — ١٩٢ — وانظر المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٨٤ — ٥٨٥ .

(٣٠) — الكندي : المصدر السابق ، ص ١٨٣ — ١٨٤ — ابن تفرى بردي الانابكي : النجوم الزاهرة ، جزء ٢ ، ص ١٩٢ .

(٣١) — الكندي : المصدر السابق ، ص ١٩٣ وما بعدها — المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٨٦ .

(٣٢) — تقع المنطقة جنوب اسوان على بعد خمسة اميال مركزها مدينة دنقلة . انظر المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٥٩ — ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٥ ، ص ٢٠٩ .

على طلب الصلح وكتابة عهد على نفسه ينص على التسامح الديني وحسن الجوار وتبادل المنافع الاقتصادية بينه وبين المسلمين . فمصر تمد النوبة بالحبوب والثياب والخيل ، وبالمقابل تمد النوبة مصر بالماشية والرقيق لفلاحة الارض . وبهذه المعاملة تخلص المسلمون من خطر هذه المنطقة . ولم يتعرض عبد الله بن سعد بن أبي سرج في انصرافه من النوبة للبيعة لانه علم ان لاخطر منهم (٣٣) .

أما عبيد الله بن الحبحاب فقد هادن البيجة (٣٤) ، اواخر القرن الاول للهجرة/ السابع الميلادي وعقد معهم معاهدة تيسر انتقال المسلمين ، وتحمي تجارتهم في المنطقة . وكانوا قد انتشروا في بلاد النوبة وغيرها ، ولاسيما بين النيل النوبي والبحر الاحمر في الاراضي الممتدة بين دنقلة واسوان تقريبا (٣٥) .

ويبدو ان العرب قد اتصلوا اتصالا وثيقا بالبيجة في القرن الثاني الهجري عن طريق البحر الاحمر ووادي النيل ، وخاصة من اقليم اسوان . ورحلوا الى هذه المناطق كتجار ومنقبين عن الذهب والزمرد . وقد استقر جماعة من العرب المسلمين هناك بنوا مساجدهم ، وقد أدت هذه العوامل وهذا الاختلاط في مناطق البيجة شرقي السودان الى سهولة تعريب المنطقة (٣٦) .

ولم يحافظ البيجة على العهد الذي قطعوه على أنفسهم مع عبيد الله بن الحبحاب بل قاموا بغارات متعددة على جهات اسوان ، واشتد ايذاؤهم للمسلمين ، فرفع امرهم الى الخليفة المأمون العباسي سنة ٢١٦ هـ / ٨١٣ م ، وعمل الخليفة العباسي بواسطة

(٣٣) - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٦٦ .

(٣٤) - اول بلاد البيجة من قرية تعرف بالحزبه وبينها وبين قوص نحو من ثلاث مراحل . وآخر بلاد البيجة اول بلاد الحبشه . وهم في بطن هذه المنطقة الى سيف البحر الملح مما يلي جزائر سواكن وباضع ودهلك أي انهم يقيمون على مقربة من عيسذاب على البحر الاحمر . انظر المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٦٣ .

(٣٥) - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٣٦٦ .

(٣٦) - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٦٦ .

القوى التي سرحها اليهم على ابرام عهد جديد بينه وبين ملكهم كنون بن عبد العزيز^(٣٧) ، ومن أهم شروط هذا العهد :

١ - ان تكون بلاد البجة من حدود اسوان الى البلاد التي تمتد بين دهلك وباضع ملكا للحنيفة وان يكون كمون ملكا على البجة .

٢ - ان يؤدي ملك البجة كل عام الخراج او البقط على ماكان عليه أسلافه مائة من الابل أو ثلاثمائة دينار .

٣ - ان يحترم البجة الاسلام ، والا يذكره بسوء ولا يعينوا أحدا على أهله ، والا فانهم يكونون قد نقضوا العهد ، وأحل دمهم .

٤ - ان لا يمنعوا احدا من المسلمين من الدخول في بلادهم والتجارة فيها برا وبحرا ، وان يؤمنوا المقيم منهم والحاج والتاجر حتى يترك بلادهم .

٥ - اذا نزل البجة صعيد مصر مجتازين او تجارا فلا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدن او القرى باي حال^(٣٨) .

وهكذا فانه يبدو من نصوص هذه المعاهدة ان صلات المسلمين كانت وثيقة جدا بمنطقة البجة ، وانه كان لهم مساجد في اكثر من بلد بها . واستمرت الاتصالات بين الفريقين حتى كان عهد المعتصم الذي عمل على تجديد العهد ، فقابله ملك النوبة بزياره ودية الى بعض مناطق مصر ، حيث قوبل بمظاهر الاحترام ، وعاد الى بلاده يحسل الهدايا .

نقض ملك البجة العهد في عهد المتوكل . وامتنع عن اداء الجزية وغزا الريف في صعيد مصر ، كما تعرض الى عمال مناجم الذهب من العرب . فاستنجد اهالي جنوب مصر بالخليفة المتوكل ، الذي ندب لهم الجيوش لقتالهم ، وتمكنوا من

(٣٧) - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٦٦ .

(٣٨) - انظر المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٨ .

الانتصار عاينهم وقتل زعيمهم^(٣٩) . ومالبث هؤلاء ان رضخوا للطاعة ثانية وصالح اميرهم الجديد المسلمين طالبا الهدنة على أن يسمح له بالسفر الى بغداد ومقابلة أمير المؤمنين ، وفي هذه المقابلة عاهد الخليفة على اداء الخراج ، واشترط عليه الخليفة ان لا يمنع المسلمين من العمل في المحدث^(٤٠) .

٢ - الاوضاع العامة في بلاد المغرب (٤١) :

على اثر قيام الخلافة العباسية ، ونقل مركز الخلافة الى العراق والدور الذي قام به الفرس في مساعدة العباسيين على نجاح دعوتهم وتحقيق اهدافهم في الخلافة ، انصرف اهتمام العباسيين الى الولايات الشرقية من أراضي الخلافة ، مما أفسح المجال واسعا امام المناطق الغربية للقيام بحركات استقلالية ناجحة ، كما أدى ضعف قوة قبضة العباسيين على المنطقة الغربية الى ان تصبح ملجأ للفئات الفارة من غلبة العباسيين .

وقد نتج عن ذلك ان أصبح شمال افريقية العربي مسرحا للفتن والقتال في العصر العباسي ، وكان ذلك لأمور متعددة بالإضافة الى مذكراته ومن هذه الامور :

- عدم معاملة العرب لسكان البلاد الاصليين بالمساواة .
- فداحة الضرائب التي كان يفرضها الولاة على السكان ، والتي أثقلت كاهل الاهالي .
- انتشار المبادئ الخارجية بين سكان المنطقة لموافقة المبادئ الديمقراطية التي نادى بها الخوارج لعقول أهالي المنطقة اكثر من المبادئ الاخرى .
- محاولة سكان البلاد تحقيق استقلالهم الذي حلموا به ، عن طريق تأسيس

(٣٩) - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٦٨ .

(٤٠) - المقرئ : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٦٨ .

(٤١) - لقد اختصرت مادة هذا البحث والذي يليه باعتبار ان الكتاب جامعي وان هناك مؤلفا ومادة خاصة للمغرب والاندلس .

دول مستقلة • وساعدهم على ذلك بعد هذه البلاد عن السلطة المركزية ، وانشغال خلفاء بغداد بتوطيد اركان دولتهم والسيطرة على الحركات الثورية المتعددة التي نشبت بوجههم في هذه الفترة من تاريخهم •

ثار محمد بن الاشعث والي افريقية على الخليفة ابي جعفر المنصور ، فاعطى الخليفة ولاية هذه البلاد الى الاغلب بن سالم ، فقدم القيروان سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٥ م ، وسرعان ماثار عليه سكان البلاد بزعامة قواد من العرب ، وقتلوا الاغلب على أبواب مدينة القيروان سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٨ م • ويبدو أن القلاقل في شمال افريقية العربي كانت مستمرة طوال عهد الخليفة المنصور ، وانه اضطر الى ارسال الجيوش المتتالية لاعادة المنطقة الى الطاعة ولكن دون جدوى • واستمرت مدينة القيروان تسقط في أيدي الثوار حيناً وفي أيدي العباسيين حيناً حتى نهاية عصر المنصور (٤٢) •

وحين علم المنصور نبأ مقتل الاغلب اعطى ولاية افريقية الى عمر بن حفص • فوصل الى القيروان حيث تسلم امرة هذه المناطق من جند الاغلب ، واقام الامن في البلاد مدة • ولكن الخوارج من الاباضية والصفرية استغلوا انشغال الوالي فانتقضوا عليه وهاجموا مدينة القيروان ، ثم حاصروا طبنه • وقد قاموا بقتل عمر ابن حفص ، فاضطر الى ارسال يزيد بن حاتم بن قبيصة ليحل محل ابن حفص ، وتمكن من رد الخوارج بعد ان انتصر عليهم ثم دخل مدينة القيروان (٤٣) •

واستمر خروج شمالي افريقية عن طاعة العباسيين في عهد هارون الرشيد ، واضطر الرشيد الى ارسال قائده هرثمة بن اعين على رأس جيش كثيف الى المنطقة ، فوصلها في شهر ربيع الاول سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م الا انه لم يجد في نفسه الطاقة على اعادة الاستقرار الى البلاد ، فاعتذر للرشيد عن بقاءه وعاد الى العراق (٤٤) •

(٤٢) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٨٦ - ٥٨٧ •

(٤٣) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٩٨ - ٦٠٢ •

(٤٤) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٧ - ١٢٩ •

وهكذا فان الفتن والقلال استمرت في المنطقة ، وكانت حصيلتها ظهور دول مستقلة عن الخلافة العباسية كان منها الدولة الرستمية في تاهرت للخوارج الاباضية ، ودولة بني مدرار في سجلماسة للخوارج الصفرية ، وولاية تلمسان التي اسسها بنو قرّة الصنهاجيون ، ودولة برغواطة في تامستا^(٤٥) . ودولة الاغالبة التي اسسها ابراهيم بن الاغلب في تونس ، ودولة الادارسة التي اسسها ادريس بن عبد الله بن الحسن الشيعية الزيدية في المغرب الاقصى .

٣ - الاوضاع في الاندلس :

حين قامت الخلافة العباسية كان الصراع محتدما في الاندلس بين القبائل العربية من قيسية ويمنية . ونتيجة ذلك اجري تبديل متكرر لولاة المنطقة دون ان يحصل أحد من هؤلاء على رضا الاهالي . واخيرا اتفقت الآراء على يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري وهو من مضر ، على ان يتولى أمر الاندلس لمدة سنة ثم يليها رجل يماني يختارونه في السنة المقبلة وهكذا^(٤٦) .

حين استقرت امور الاندلس على هذا الشكل ، وكان الامويون يعانون من تعقب أفراد الأسرة العباسية لهم ، قام أحدهم وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بالفرار الى شمال افريقيا فبلاد الاندلس ، واستطاع بعد مصاعب جمة لقيها ان يدخل عاصمة الاندلس قرطبة في سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م^(٤٧) . وان يأخذ البيعة لنفسه بالامارة وبصبح بعدها اميرا على الاندلس .

وهكذا فقد استطاع هذا الرجل الاموي (حفيد هشام بن عبد الملك) من ان يؤسس حكما مستقلا في هذا الاقليم منذ سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م . ولم يخف أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي - والذي حدث في عهده انفصال هذا الجزء الهام

(٤٥) - قرية بالمغرب قرب المسيلة كانت لكتامة وزناته ، انظر الحموي : معجم البلدان ، جزء ٢ ص ٧

(٤٦) - انظر حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٢٩ .

(٤٧) - احمد بدر : دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها ، ص ٧٢ - ٨٦ .

من أراضي الخلافة العباسية — اعجابه بعبد الرحمن ومقدرته الخارقة وعزيمته التي ليس لها حد ، فاطلق عليه اسم صقر قريش ، اذ أن مما أعجب به المنصور ان رجلا طريدا شريدا ملاحقا يتمكن من تأسيس ملك واسع له في هذه البلاد البعيدة عن المنطقة التي كان يستقر فيها (٤٨) . وقد ابقى عبد الرحمن (صقر قريش) الداء للمخلبة العباسي المنصور لمدة عشرة اشهر ثم قطعها (٤٩) . وبذلك فانه استقل تماما عن الخلافة العباسية .

ومما لاشك فيه ان انسلاخ الاندلس عن الخلافة العباسية قد فت في عضدها . الا ان ظروف المنصور الداخلية لم تكن تسمح له بالعمل على اعادة سلطان العباسيين الى هذه البلاد ، ولذلك فانه حاول في البداية ان يستميل عبد الرحمن اليه عن طريق الرسل ، الا انه لم يحصل على نتيجة (٥٠) . كما حاول ان يثير الناس حوله ليستعيدوها فاففق . كما حاول بطرق دبلوماسية اخرى فلم يحصل على نتيجة (٥١) .

ولذلك قرر المنصور استخدام القوة وخاصة وانه كان قد انتهى من منافسة أكبر منافسية محمد بن عبد الله (النفس الزكية) . فارسل قائده العلاء بن مغيث اليحصبي في سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م الى الاندلس لاجراج الامويين منها . الا ان هذا القائد فشل أمام عبد الرحمن حين اصطدم معه بمعركة عسكرية قرب اشبيلية . وكانت هزيمة الجيش العباسي قاسية ، ولذلك فان المنصور لم يكرر هذه المحاولة في عهده (٥٢) .

وحين تولى حلفه المهدي وكان يضر العدا لعبد الرحمن الداخل سعى الى

(٤٨) — المقري : نفح الطيب ، جزء ١ ، ص ١٥٧ .

(٤٩) — المصدر نفسه ، ص ٨٥ — ٨٦ .

(٥٠) — Muir : The Caliphate, P. 463 .

(٥١) — Muir : op. Cit., p. 464 .

(٥٢) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٥٧٥ .

استعادة الاندلس ، ولكن قائده فشل ومنى بهزيمة كسابقه امام قوات عبد الرحمن^(٥٣) . فكرست هاتان الهزيمتان انفصال الاندلس .

وهكذا سنحت الفرصة لعبد الرحمن للاستقرار وبدأ بأعماله العمرانية فبنى في قرطبة قصرا ومسجدا جامعا ، ونظر في المظالم بنفسه ، واورث ابنائه ملكامستقرا بعد وفاته سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، الا ماكان من ثورة قرطبة على الحكم الاول^(٥٤) .

(٥٣) - لاجل تفاصيل المعركة انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٥٤ .

(٥٤) - المقري : نفع الطيب : جزء ١ ، ص ١٦٩ .

الفصل الثالث

العلاقات الخارجية :

١ - العلاقات مع البيزنطيين :

احتلت بلاد الشام مركزاً استراتيجياً هاماً في الدولة الإسلامية كان له أثره الكبير في توجيه النشاط الحربي الإسلامي ضد البيزنطيين، ففي أيام الخلافة الأموية وعندما كان مركز الخلافة قريباً من الثغور مدة ثمانين سنة، كانت الجيوش العربية تنطلق من شمال بلاد الشام إلى شرقي آسيا الصغرى في غزوات مستمرة لقتال البيزنطيين في أراضيهم^(١) ولم تتوقف هذه الغزوات إلا في فترات الفتن والمنازعات الداخلية، وقد انقطعت الحملات العسكرية الإسلامية إلى البيزنطيين في خلافة مروان بن محمد، وأصبح موقف المسلمين دفاعياً محضاً^(٢) ماعداً بعض الصوائف، فقد شغلته أحداث الخلافة الإسلامية والثورات التي نشبت في أيامه عن الجهاد، ووجد البيزنطيون الفرصة سانحة للخروج ومهاجمة أطراف الشام وفي نيتهم دفع خطر المسلمين عن آسيا الصغرى^(٣).

نم لم تلبث سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ - ٧٥٠ م أن شهدت سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية في العراق، فزالت عظمة إقليم الشام، وانتقل مركز الإسلام

(١) - Le Strange : Bagdad during the Abbassid Coliphate.,p.3

(٢) - عجاج نويهض : أبو جعفر المنصور ، ص ٢٨ .

(٣) - ابن شداد : الإغلاقات الخطيرة ، ورقة ٧٠ .

بعيدا نحو الشرق • ومن ثم قل تهديد المسلمين لحدود الدولة البيزنطية بصورة واضحة في العصر العباسي^(٤) • واستغل الامبراطور قسطنطين الفرصة ، فتوجه الى منطقة الثغور وهاجم كلا من ملطية وكمخ^(٥) • الا انه كان عاجزا عن استغلال الظرف على نطاق واسع ، فقد كانت الدولة البيزنطية في شغل شاغل بحركة جدل ديني نشأت اثر نجاح البيزنطيين في الدفاع عن عاصمتهم القسطنطينية ضد المسلمين ، وشن الامبراطور ليو الثالث منقذ القسطنطينية حملة على عبادة الايقونات • وحدث رد فعل على هذه السياسة تسبب في قيام ثورة داخلية^(٦) •

ومهما يكن من أمر فان القلاقل التي رافقت انتقال الخلافة من الامويين الى العباسيين ، وتحول مركز الخلافة من دمشق الى بغداد قد هيأ الفرصة لباطرة البيزنطيين على الرغم من ظروف دولتهم ان يسيطروا نفوذهم في اتجاه الشرق ، مما اضطر معه الخليفة ابو جعفر المنصور وخلفاؤه الى ان يبذلوا الجهد في تحصين ثغور بلاد الشام الشمالية والساحلية^(٧) ، وان ينظموا منطقة العواصم والثغور ، ويحيوا الغزوات التي سميت بالصوائف والشواتي • والتي كان يقوم بها اهالي الشام والجزيرة صيفا وشتاء مما يلي ثغور الشام والجزيرة^(٨) •

فقد بدأ البيزنطيون علاقتهم مع العباسيين بالهجوم على ملطية وكمخ كما ذكرنا^(٩) ثم ما لبثوا ان ساروا الى قالقيلا وتمكنوا من دخولها بعد فترة من الحصار ، فقتلوا رجالها وسبوا نساءها • وساروا بالغنائم الى امبراطورهم^(١٠) •

(٤) - عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ٥٢ - ٥٣ •

(٥) - قلعة كمخ على الفرات الغربي على مسيرة يوم جنوب اذربيجان في يسار النهر • انظر كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٥١ •

(٦) - العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٦٦ عن نشوء حركة الايقونات • انظر نفس المرجع ، ص ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ •

(٧) - فيليب حتي : المرجع السابق ، ص ١٦٣ •

(٨) - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٦٣ - ستيفن رنسيمن : الحصار البيزنطية ، المقدمة ص ٢ •

(٩) - انظر ماسبق •

(١٠) - احمد بن زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، جزء ١ ، ص ٢٣٦ •

ورأى الخليفة أبو العباس أن يقف موقفا حازما من البيزنطيين فكتب إلى عسه وواليه على الشام عبد الله بن علي بأن يتخذ موقف الحزم والشدة تجاه البيزنطيين وأن ينفذ بالجيش التي معه لبيتها في نواحي الثغور ، وزحف عبد الله بن علي حتى أتاه خبر وفاة أبي العباس فانصرف (١١) .

وما أن تولى أبو جعفر المنصور الخلافة ، حتى استغل ظروف البيزنطيين السيئة أيما استقلال ، فقد كان الطاعون قد اشتد عليهم . كما كانت الحرب الداخلية تذر قرنها بينهم بسبب الخلاف على الأيقونات ، وكان الامبراطور قسطنطين من أعداء الأيقونات ، فبطش بالرهبان ، وأغلق الأديرة ، وصادر الاملاك ، وحطم الصور . وبالإضافة إلى ذلك فإنه كان يواجه متاعب خارجية كبيرة من البلغار الذين ظهروا عليه في منطقة البلقان (١٢) .

وابتدأ أبو جعفر المنصور أعماله بتنظيم أموره في مناطق الجزيرة وقسرين والعواصم ، فتسبب ذلك بقيام حرب كبيرة بينه وبين البيزنطيين ، انتصرت فيها قوات المنصور ، وأجبرت الامبراطور قسطنطين على عقد معاهدة صلح لمدة سبع سنوات (١٣) استغلها المنصور لفداء أسرى القلايا وغيرها (١٤) . كما أنه قام بتعمير المدن الخربة ورد أهلها اليها ، ورمم الحصون المتهمة ، وزار بنفسه جميع تلك المواقع (١٥) .

وبدأ المنصور بإعادة بناء حصن ملطية وتحصينه في سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ — ٧٥٧ هـ (١٦) . إلا أن البيزنطيين مالبثوا أن عادوا إليه وخربوه ، فرد عليهم المنصور

(١١) — اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٩٩ .

(١٢) — عجاج نويهض : أبو جعفر المنصور ، ص ٢٨ .

(١٣) — سيد امير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص ١٨٨ .

(١٤) — زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٧ .

(١٥) — سيد امير علي : المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

(١٦) — البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٨٨ — ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١١٤ بينما

يذكر ابن العبري : في تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠٩ أن ذلك جرى في سنة ١٤٠ هـ .

بصائفة عمه صالح بن علي • وتوغلت الصائفة في الاراضي البيزنطية من طريق درب الحدث (١٧) • بينما دخل جعفر بن حنظلة البهراني من درب ملطية (١٨) •

ثم ارسل المنصور الحسن بن قحطبة على رأس جيش كبير الى الثغور • وكلفه ببناء حصن ملطية • فاستنفر البناة من كل بلد ، وجد الناس في العمل حتى فرغوا منه في ستة اشهر وكان لسياسة الحسن مع البناة أكبر الاثر في نشاطهم في العمل ، وسرعة انجازه • اذ كان يحسن اليهم ويطعمهم • وكان يشاركهم العمل بنفسه • ولما انتهى بناؤها اسكن المنصور فيها اربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لانها من ثغورهم • وزاد اعطيات كل منهم عشرة دنانير ومعونة مائة دينار • واقطعهم المزارع ، وشحن المدينة بالسلاح (١٩) • ربلغ مجموع الحشود في ملطية وحدها في عهده عشرة آلاف مقاتل (٢٠) • وحاول الامبراطور قسطنطين أن يغزوها بعد ذلك الا انه حين بلغه كثرة من بها ، تراجع عن ذلك (٢١) •

وكذلك أمر المنصور بتعبير مدينة المصيصة في سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ - ٧٥٧ م واعادة بناء سورها الذي هدمته الزلازل • واضاف بأن حفر خندقا حولها ، فاطمأن أهلها وعادوا الى سكناها في السنة التالية • ويقال ان المنصور زاد عدد مقاتليها ، واعطاهم الاقطاعات وشحنها بالسلاح • وكانت المصيصة قبل ذلك حصنا صغيرا بناه عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وكان البيزنطيون يهاجمونه كلما سنحت لهم الفرصة ، فيستبيحونه قتلا ونهباً (٢٢) • واضاف المنصور بأن اتم بناء مدينة

(١٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٩٧ - المعيون والحدائق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ - ابو الفداء المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٥ •

(١٨) - زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٧ - عجاج نويهض : المرجع السابق ، ص ٢٩

(١٩) - ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص ١١٤ - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٨٨ •

(٢٠) - حسن محمود : العالم الاسلامي ، ص ١٥٦ •

(٢١) - ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص ١٤٤ - البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٨٨ •

(٢٢) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٢٠ - ١٢١ - البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٦٥ - ١٦٦ •

الرافقة ، وكان البدء في بنائها في عهد أبي العباس ، فبناها على هيئة بغداد في ابوابها وقصولها ورحابها وشوارعها (٢٣) .

وهكذا فانه يبدو واضحا للعيان ان المنصور اهتم اهتماما بالغا في تحصين الثغور ، وبث الثقة في اهاليها ، كما جعل من منطقة الجزيرة كيانا اداريا مستقلا ، ووضع اساس النظام الثغري الذي وصل الى حد الكمال ايام الخليفة المعتصم . فكان يقسم المرابطين الى جماعات صغيرة ، كل منها يتألف من عشرة الى خمسة عشر مقابلا ، ويبنى لهم حصنا على بعد ثلاثين ميلا من دار اقامتهم ، بالاضافة الى زيادة العطاء (٢٤) .

وفوق كل هذا فقد حدد اسلوب القتال وتقاليده ، فحافظ عليها الخلفاء الذين تعاقبوا ، فأعاد تنظيم الصوائف والشواتي ، فكانت الصائفة تبدأ من عشرة يوليو تموز وتستمر مايقارب الستين يوما . واما الشواتي فلا يتوغل الغزاة فيها ولا يتعدون عن مكان انطلاقهم ولا تتجاوز فترة المسير عشرين يوما ، يحمل فيها الرجل على فرسه مايكفيه ويكفيها ، وتبدأ في آخر فبراير / شباط يستغل الغزاة في ذلك قلة عدد العدو ، واما الربيعية فتبدأ من عشرة مايو / مايس بعد ان يكون الناس قد اربعوا دوابهم ، وحسنت أحوال خيولهم . فيقيمون ثلاثين يوما وهي بقية مايو / مايس وعشرة من يونيو / حزيران فيجدون الكلا في الأراضي البيزنطية (٢٥) .

وتابع المهدي الطريق نفسه الذي سلكه والده ، حيث اخذ في بناء الحصون وشحنها بالسلاح ، وحشد الجيوش ومواجهة الاعداء (٢٦) . ففي فترة خلافته هاجم الامبراطور البيزنطي ليو الرابع وبرفقتة ثمانون الفا من جنوده مدينة

(٢٣) - اليعقوبي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٠٦ - العيون والحدائق ، ص ١٦٥ .

(٢٤) - حسن محمود : العالم الاسلامي ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢٥) - حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٥٧ نقلا عن قدامة بن جعفر .

(٢٦) - حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٥٨ نقلا عن البلاذري .

مرعش في سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩ - ٧٨٠ م فأشعل فيها النار وفتك بأهلها ، وعاث في المدن المجاورة لحدوده وخربها (٢٧) . فتصدى له المهدي ووقف في وجه هذه الحملات البيزنطية على الثغور (٢٨) . فجهز جيشا ضخما قادرا مؤلفا من متطوعين من خراسان والموصل والشام واليمن والعراق والحجاز ، جعل على قيادته الحسن ابن قحطبة ، فلقنهم درسا قاسيا ، واضطرهم الى التقهقر عن المواقع التي سبق ان احتلوها . وثقلت وطأته على أهلها حتى صوروه في كنائسهم (٢٩) . وكان للحسن ابن قحطبة فضل في إعادة بناء طرسوس وتحصينها وشحنها بالمقاتلة (٣٠) و اضاف بأن أمر بالبدء ببناء ثغر الحدث . ومما لاشك فيه ان تحصين طرسوس وبناء ثغر الحدث كان له اثر كبير في قوة الثغور أمام البيزنطيين (٣١) .

ولم يكتف الخليفة المهدي بما أحرزه الحسن بن قحطبة من نصر ، بل قرر ان يقود المعركة بنفسه ، وان يصطحب معه ابنه هارون ، فتوجه في سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩ - ٧٨٠ م الى الثغور حتى وصل الى نهر جيحان (٣٢) حيث ترك ابنه يقوم بالمهمة التي اوكلها اليه ، وذهب هو الى بيت المقدس (٣٣) ، ورافق هارون خالد بن برمك وجماعة من القواد المشهورين من امثال عيسى بن موسى ، وعبد الملك بن صالح ، وحسن بن قحطبة (٣٤) . فحاصر سمالو بالمجانيق لمدة ثمانية وثلاثين يوما . ولما اشتد الحصار عليها ، وافق اهاليها على التسليم بشرط منحهم الامان على الا يقاتلوا ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم . فأعطاهم الامان ووافق على شروطهم (٣٥) .

(٢٧) - سيد امير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص ٢٠٠ - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٨٩ الان البلاذري يذكر ان الذي قام بالهجوم الامبراطور ميخائيل ، وهذا خطأ لان الامبراطور ليو الرابع ، وقسطنطين السادس هما اللذان عاصرا المهدي .

(٢٨) - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٨٩ - ١٩٠ - عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ٥٣ .

(٢٩) - حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٥٨

(٣٠) - البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٦٩

(٣١) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٢٩

(٣٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٤٦ - الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ١٥٠

(٣٣) - العيون والحدائق : ص ٢٧٨ - ابن العميد : المصدر السابق ، ص ١٠٥

(٣٤) - سيد امير علي : المرجع السابق ، ص ٢٠٠

(٣٥) - لطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٣٥ - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٧٠ - ١٧١

وقد أجرى المهدي في هذه الحملة بعض التنظيمات في الثغور فرمم مدينة المصيصة وزاد في سلاحها وجنودها (٣٦) . كما أنه عزل عبد الصمد بن علي عن الجزيرة وولى مكانه زفر بن عاصم الهلالي . ويبدو ان هنا لأسبابا قوية دعت به للقيام بهذا العمل تتجاوز الاسباب التي قيلت في ذلك ، وهي ان عبد الصمد لم يتلق الخليفة في مسيره المذكور ، ولم يهييء له الانزال (٣٧) .

وفي سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ - ٧٨٧ م أصبح الرشيد خليفة فصار سيرة المنصور والمهدي من قبل ، واهتم باستكمال تحصينات منطقة الثغور ، فعمر مدينة طرسوس ثم نهض في سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٦ - ٧٩٧ م ببناء مدينة عين زربه وتحصينها . وزاد في اعداد المرابطين فيها ، واعطاهم المنازل والاقطاعات (٣٨) . وفي سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م بنى مدينة الهارونية وشحنها بالمقاتلين . كما امر ببناء مدينة الكنيسة السوداء وتحصينها ، وزاد عدد الحماة فيها ، وزاد اعطياتهم (٣٩) . وكذلك فقد اتم بناء كفريا وحصنها بخندق ، وجعل لها سورا مزدوجا (٤٠) .

يضاف الى هذا كله ان الجيش العباسي تكامل قدرة ونظاما وتدريباً وكفاية في عهد هارون الرشيد . يؤكد ذلك تجنيده للاعداد الكبيرة في منطقة العواصم وتسخير له عدد من الفرق في حملاته المتكررة المظفرة ، مما يؤكد كفاية التدريب وحسن التسليح . فقد كان الجيش العباسي في عهد هارون الرشيد من اكفأ الجيوش التي عرفها العالم في ذلك الوقت . فقد بلغ تعداد الجنود الذين اشتركوا معه في حملته على البوسفور خمسة وتسعين الفا وسبعمائة وثلاثة وتسعين جندياً ، كما اشترك معه في حملة هرقله مائة وخمسة وثلاثون الفا من المرتزقة سوى الاتباع

(٣٦) - البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

(٣٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٣٨) - البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٧١ - ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص ١١٣ .

- ابن الشحنة : تاريخ مملكة حلب ، ص ١٨٥ - حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

(٣٩) - البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٧١ - ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٤٠) - البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

والمطوعة ومن لا عطاء له • كما قاد داود بن عيسى في بعض الحملات سبعين ألفا •
وقاد شراحيل بن مهن بن زائدة وكذلك يزيد بن مخلد مثل هذا العدد (٤١) •

وقد قام الرشيد بالحملة الاولى ردا على غارات البيزنطيين المتكررة على الحدود ، والتي حرمت البلاد من الهدوء والطمأنينة ، فقد اجتاحت جيشهم الشنور ، واطلقوا ايديهم سلبا ونهبا • فأسرع الرشيد الى صد زحفهم وانزل بهم خسائر فادحة (٤٢) ، وخرج برفقة الرشيد ذلك الجيش الجديد الذي اهتم بتأليفه وتقويته مع من سبقوه من خلفاء بني العباس • وقد اوقت الخلافة العباسية بكل ثقلها في هذه الحرب ، وجندت له عددا كبيرا من الجنود ، كما دعمته بالمال الكافي • وتوغل هارون الرشيد في آسية الصغرى فافتتح حصن ماجده (٤٣) • واصبح الطريق مفتوحا امام المسلمين بعد هزيمة قائد البيزنطيين ، فتوجهوا الى نقيمودية (٤٤) بقيادة يزيد بن مزيد (٤٥) • وواصل الرشيد سيره حتى اشرف على البوسفور (٤٦) •

كانت حملة هارون الرشيد هذه خاتمة الحملات العربية على البوسفور ، وكانت بعد اربع حملات قبلها جرت في عهد الامويين (٤٧) • وعلى الرغم من استمرار الغزوات بعد ذلك عبر آسية الصغرى ، الا انها لم تصل الى البوسفور حتى ان هارون الرشيد نفسه في حملاته بعدها لم يتعد هرقله (٤٨) •

وتذكر المصادر والمراجع العربية التي تحدد تاريخ حملة هارون الرشيد على البوسفور ، والتي عقد البيزنطيون على اثرها معاهدة الصلح مع هارون الرشيد

-
- (٤١) - حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٥٨ ، ص ١٦٠ •
(٤٢) - سيد امير علي : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ •
(٤٣) - حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٥٨ •
(٤٤) - نقيمودية : بين انقرة والقسطنطينية : تبعد عن انقرة ثلاث مراحل وعن القسطنطينية اربع مراحل • انظر المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٥٠ •
(٤٥) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٥٢ •
(٤٦) - ابن المبري : المرجع السابق ، ص ٢١٨ •
(٤٧) - انظر فيما سبق •
(٤٨) - سيد هزني : المرجع السابق ، ص ٤٢ — CANARD : Sayf Al Dawla

على انها جرت في جمادى الاولى من سنة ١٦٥ هـ / ٧٨١ م^(٤٩) . ومن المؤكد ان هذا التاريخ الذي حدد لهذه الحملة ليس صحيحا لأسباب عديدة :

— ان الهدنة بين هارون الرشيد وايرين استمرت اثنين وثلاثين شهرا ، ثم نقضها نقفور بعد ان تولى العرش^(٥٠) . ولما كان نقفور قد تولى العرش في سنة ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م^(٥١) ، فان ذلك يرجح ان حملة هارون الرشيد على البوسفور قد قامت بين سنتي ١٨٢ — ١٨٣ هـ / ٧٩٨ — ٧٩٩ م .

— ان هارون الرشيد تولى الخلافة في سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م واغفل المؤرخون دور المهدي في هذه الحملة ، مما يؤكد انها جرت في خلافة الرشيد وليس في عهد المهدي . اذ لو كانت الحملة قد جرت في سنة ١٦٥ هـ / ٧٨١ م أي في عهد المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ / ٧٧٥ — ٧٨٥ م) لاشادت المصادر باسمه مع اسم ابنه قائد الحملة .

— ان ايرين تولت العرش البيزنطي في سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ م بعد خلافة الرشيد باحدى عشرة سنة وكانت قبل ذلك وصية على ابنها ، الا ان ما يذكره الطبري من ان الهدنة بين الطرفين استمرت اثنين وثلاثين شهرا ثم نقضها نقفور تؤكد ان الحملة جرت بعد تولي ايرين عرش الامبراطورية ، وليس في عهد وصايتها .

ومهما يكن من امر ، فان هارون الرشيد اظهر في هذه الحملة كثيرا من المهارة والحنكة العسكرية . وكان من اثر ذلك النصر ، ان الامبراطورة ايرين اضطرت الى طلب الصلح ، وعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات ، تمهيدا

(٤٩) — منها : العيون والحدائق ، ص ٣٠١ — حسن محمود : العالم الاسلامي ، ص ١٥٨ .

(٥٠) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٦٧ .

(٥١) — انظر العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ جدول الاباطرة البيزنطيون والخلفاء المسلمون ملحق ٦ .

الامبراطورة بموجبها ان تدفع جزية سنوية قدرها تسعون ألف قطعة تؤديها على قسطنطين (٥٢) . وان تمد الجيش العباسي بالادلاء وتيسر لهم المؤن في الطريق (٥٣) .

ومما لا شك فيه انه كان لشجاعة الرشيد واقدامه الفضل الاكبر في هذا النصر . الى جانب ظروف اخرى ساعدته على التحقيق . وتعود الى سوء الظروف الداخلية في الامبراطورية البيزنطية في ذلك الحين . فقد كانت الامبراطورة ايرين في وضع سييء ، اذ كانت تلقى معارضة داخلية قوية من اخوة زوجها ، وانصار قسطنطين الخامس والجيش وكبار الموظفين بالدولة ، الذين كانوا من اعداء عبادة الايقونات . يضاف الى هذا ان الكنيسة نفسها كانت تحت حكم البطريك بولس ، وكان ضد عبادة الايقونات . وفوق كل ذلك فقد كان عليها ان تواجه الثورات في صقاية وبلاد اليونان (٥٤) .

وقام هارون الرشيد بحملته الثانية كرد رادع لامبراطور البيزنطيين الجديد نقفور . فقد تولى العرش اثر ثورة داخلية قامت في بيزنطة قبض فيها على ايرين (٥٥) ، وكان يظن ان لديه من القوة مايكفيه للوقوف في وجه المسلمين بقيادة هارون الرشيد . فبدأ بنقض الهدنة ولم يكن قد مضى على عقدها اثنان وثلاثون شهرا . والقى بجموعه على عين زربة والكنيسة السوداء ، حيث قاموا بما يشبه الاغارة الحربية ، واسروا كل من تمكنوا من اسره وعادوا (٥٦) .

(٥٢) - حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٥٩ ويشكك بين ٩٠ - ألف قطعة او سبعين الفا ويذكر صاحب العيون والحدائق ، ص ٢٧٨ ان الجزية كانت ألف ألف دينار . أما زيني دحسلان المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٤٤ فيذكر ان مقدار الفدية سبعون ألف دينار كل سنة .

(٥٣) - سيد عزمي : المرجع السابق ، ص ٤١ - حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٥٩ - نورمان بيتز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٦٢ — CANARD : Op. Cit., p 102

(٥٤) - عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، طبعة دار المعارف ، ١٩٦٧ ، ص ٩٥-٩٦ .

(٥٥) - عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٥٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ١٦٧ .

- ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٢ ظهر و ٧٣ وجه .

وتمادى تقفور في غيه ، وظن ان بإمكانه ان يتوقف عن دفع الجزية او بالاحرى اكثر من ذلك . فقد اراد ان يستعيد مادفعته ايرين من الجزية ، فكتب في سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٢ - ٨٠٣ م (٥٧) الى الخليفة هارون الرشيد كتابه المشهور ، الذي يظهر فيه ضعف الامبراطورة التي كانت قبله ، ويطلب من الرشيد اعادة الاموال التي اخذها من ايرين ، ويهدده بالحرب ان لم يفعل . وتبدو في لهجة كتابه اعتداده بقوته وشجاعته ولا عجب فقد كان جواب الرشيد اشد ايجازا وفيه دلالة قوية على استعداده للقتال وثقته بالنصر وتحقيره لعدوه (٥٨) .

ونهض الرشيد لتنفيذ ما صمم عليه من اعطاء العدو درسا لا ينساه ، فجمع جيوشه باعدادها الكبيرة برية وبحرية في سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ - ٨٠٦ م وسار هو على رأس قواته البرية ، فحاصر هرقله ثلاثين يوما حتى فتحها وسبى أهلها (٥٩) . ثم وزع جيشه الى اقسام متعددة ، توجه كل قسم الى جهة محددة في الاراضي البيزنطية . وقام قواد هذه الاقسام بفتح حصون عديدة منها : حصن الصنصاف (٦٠) وملقونية وحصن الصقالبة ودبسة . عند ذلك وجد تقفور نفسه عاجزا عن الوقوف في وجه جيوش المسلمين . فوافق على دفع جزية سنوية قدرت بثلاثمائة ألف دينار مقابل وقف القتال . و اضاف بدفع جزية عن نفسه وولده وبطارقته قدرها خمسون ألف دينار ، واشترط على الرشيد الا يخرب ذا الكلاع ولا صملة ولا حصن سنان . كما اشترط الرشيد عليه ان لا يعمر هرقله (٦١) . اما الحملة

(٥٧) - العيون والحدائق : المصدر السابق ، ص ٣٠٩ .

(٥٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٥٩) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٢٠ - ابو الفداء : تاريخه ، جزء ٢ ، ص ١٩ .

- ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٣٠٩ .

(٦٠) - يقع حصن الصنصاف في طريق القسطنطينية قرب لؤلؤة . انظر كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٧١ .

(٦١) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٢٠ - ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٣٠٩ .

بينما يذكر الجعشيارى الوزراء والكتاب ، ص ٢٠٧ ان الصلح عقد على ان يدفع الامبراطور جزية كبيرة عن كل حاكم ممن عنده دينارا عدا الامبراطور وابنه .

البحرية التي رافقت هذه الحملة فقد قادها حميد بن معيوف وبلغت حتى قبرص (٦٢) .

الا ان نقفور مالبت ان نقض العهد ، وخان الميثاق ، مطمئنا الى ان الرشيد لن يعود اليه بسبب البرد ، فخاب ظنه حين وجده قد دخل الاراضي البيزنطية وهو اصاب واشد من المرة السابقة ، ولم يتركها حتى بلغ ما أراد ، ورضخ نقفور لمطالبه (٦٣) .

ويمكننا القول ان الصوائف في عهد هارون الرشيد كانت مستمرة تقريبا ، ولم يكن يمنع قيامها وجود هدنة بين الفريقين . بالاضافة الى ان هذه الصوائف لشدها كانت اشبه بحملات عسكرية . ففي سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ م غزا الرشيد نفسه أرض البيزنطيين ، ففتح حصن الصنصاف عنوه . ودوخ البيزنطيين وغنم غنائم طائلة ، وعاد سالما (٦٤) . وكذلك قاد ابراهيم بن جبريل صائفة كبيرة ودخل أرض البيزنطيين من درب الصنصاف . وخرج نقفور بنفسه للقتال ، الا انه مالبت ان ارتد بسبب مشاكل داخلية عرضت له . فسنحت الفرصة بذلك لابراهيم وجنوده بالتقدم ، فحقق اهدافه وعاد (٦٥) .

ويبدو ان الهدنة بين الخليفة هارون الرشيد ونقفور لم تطبق بحذافيرها ، اذ ان الغزوات لم تنقطع في أثنائها . ففي سنة ١٩١ هـ / ٨٠٦ - ٨٠٧ م غزا يزيد بن مخلد الهيري أرض البيزنطيين في عشرة آلاف ، فأغلق هؤلاء المضيق عليه ، وقتلوه على بعد مرحلتين من طرسوس مع خمسين من المسلمين (٦٦) .

(٦٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٢٠ - عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ١٤ بينما ترد في العيون والحدائق ، ص ٣١٢ حميد بن معتوق .

(٦٣) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ - ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٢٢٤ - السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٦٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢٦٨ - ابو الفداء : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٦ .

(٦٥) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣١٣ - ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٢ ظهر .

(٦٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٢٤ - ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٣ ظهر و ٧٤ وجه .

ولكثرة الحروب التي كانت تحدث بين المسلمين والبيزنطيين ، فإن اعداد الاسرى كانت كبيرة ، وكان لابد من اقتدائهم ، ويقال ان اول فداء استخدم فيه المال لاسترجاع الاسرى كان في خلافة العباسيين . اما في عهد الامويين فلم يحدث فداء مشهور ، وانما كان يفدى النفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر وفي الثغور ، الى ان كانت خلافة الرشيد حيث جرى الفداء الاول في سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٤ - ٨٠٥ م على نهر اللامس (٦٧) ، ولم يترك الرشيد في ايدي البيزنطيين مسلما الا اقتداه ، وبلغ عدد من فودي به في مدة اثني عشر يوما ثلاثة آلاف وسبع مائة اسير (٦٨) وفي سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٧ - ٨٠٨ م كان الفداء الثاني بين المسلمين والبيزنطيين على يدي ثابت بن نصر بن مالك (٦٩) .

وهناك أمر آخر ظهر بوضوح في عهد هارون الرشيد وهو وضوح الاصطدامات البحرية مع البيزنطيين ، وقيام السفن البحرية بحملات عسكرية لشد ازر الحملات البرية . ولا يعني هذا ان الحملات البحرية كانت قد توقفت نهائيا قبل عهد الرشيد ، بل جرت حملات عديدة ، منها حملة جرت في سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٣ - ٧٧٤ م قادها القائد ثمامة بن وقاص الذي قام بعملية برية وبحرية على شواطئ اقليم ايسورة بآسية الصغرى للاغارة على بعض المدن الساحلية . فأرسل الامبراطور قسطنطين اوامره الى الجيش والاسطول المقيم في آسية الصغرى (٧٠) بالتوجه الى اقليم ايسورة للاغارة على بعض المدن الساحلية ، وقطع خط الرجعة على ثمامة . واستطاعت السفن البيزنطية احتلال المياه الإقليمية لشاطئ ايسورة عند مدينة سيس . وقطعت الاتصال بين ثمامة وبين سفن الشام التي ابخرت معه . على حين

(٦٧) - السعدي : التنبيه والاشراف ، ص ١٨٩ - وابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٢ ظهر فيذكر ان هذا هو الفداء الثاني في عهد العباسيين .

(٦٨) - المقرئ : المخطوط ، جزء ٣ ، ص ٣١٠ .

(٦٩) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٢٨ .

(٧٠) - كان الاسطول البيزنطي ينقسم الى قسمين الاول الاسطول الامبراطوري ومقره مياه القسطنطينية ، ويعهد اليه بالدفاع عن العاصمة . والثاني اسطول الاقاليم ويضم لاسطول غرب آسية الصغرى . واسطول جزر بحر ايجة ، وهذه الاساطيل الاخيرة هي التي وقفت بالمرصاد لنشاط السفن الاسلامية ، واشتبكت معها مرارا . انظر العنوي : الامبراطورية البيزنطية ، حاشية ١ ، ص ٨٦ .

لقى الجيش البيزنطي الحصار على قوات ثمامة البرية • وإذا كان ثمامة استطاع ان يفلت من حلقة الحصار البري والبحري التي فرضت حوله ، فان الجدير بالملاحظة هو ظهور نشاط الاساطيل الاسلامية والبيزنطية لشد ازر الحركات البرية (٧١) •

وكانت خطط الفريقين البحرية الاسلامي والبيزنطي تعتمد على مراقبة سواحلهم ، ومن ثم مهاجمة الاهداف بصورة مفاجئة ، ففي سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م - ٧٩٠ م اسر الاسطول البيزنطي المراقب للسواحل الاسلامية بضع سفن اسلامية وهي في طريقها من مصر الى الشام • ومما يذكر انه في تلك السنة نفسها اغار اسطول اسلامي شامي على قبرص (٧٢) ، وتمكن من انزال قواته في الجزيرة ، وقد تكون هذه الغارة ردا على ما فعله البيزنطيون من اسر بعض السفن الحربية الاسلامية ، وربما كان الاسطول البيزنطي الذي اسر السفن المصرية السالفة الذكر يراقب حملة اسلامية بحرية كان مزمعا قيامها على قبرص ، وأراد ان لا يدع فرصة للسفن المصرية لمؤازرة السفن الشامية (٧٣) •

ولما علمت ايرين بأنباء الحملة الاسلامية ارسلت قسما من الاسطول البيزنطي، فوصل سريعا الى مياه قبرص • غير ان امير البحر البيزنطي تعجل مهاجمة السفن الاسلامية ، فلقى هزيمة منكرة ، ووقع اسيرا في قبضة المسلمين • وعاد المسلمون

(٧١) - العدوي : انرجع السابق ، ص ٨٦ ويذكر ارشيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط ، ص ١٦٠ أنه في سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م اغار الاسطول الشامي على قبرص واسر حاكمها البيزنطي ، وانهم قاموا بهذه الغارة عندما شغلت قوات القسطنطينية البحرية بالحرب ضد البلغار . ولم تقم سفن البحرية الشامية باعمال اخرى حتى سنة ١٧٣ هـ / ٧٩٠ م . ويضيف عاشور : قبرص والحرب الصليبية ص ١٣ قوله : يبدو ان تلك الحملة قصد بها صرف البيزنطيين عن قلقيلية حيث كان ثمامة بن وقاص يعمل منذ ثلاث سنوات على فتح ذلك الركن الهام من الدولة البيزنطية . عسى ان يؤدي ذلك الى تخفيف شيء من الضغط الواقع على ثمامة لعله يحقق مهمته بنجاح .

(٧٢) - كان البيزنطيون قد احتلوها في عهد ابي العباس ، انظر عاشور : المرجع السابق جزء ١ ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٧٣) - العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٧ .

من غاراتهم ومعهم امير البحر البيزنطي الذي أمر هارون بقتله لرفضه التعاون مع المسلمين (٧٤) .

ويبدو انه بالاضافة الى هذه المعركة التي جرت في مياه قبرص ، فاز معركة بحرية اخرى دارت بالساحل الجنوبي لآسية الصغرى عند خليج اضايا بالشمال الشرقي من الجزيرة . وعندما علمت الامبراطورة ايرين نبأ تلك الغارة ، ارسلت اسطولاً لاحتياط غرض المسلمين (٧٥) .

وعلى الرغم من النصر الذي احرزه المسلمون في قبرص ، فانه يبدو ان خسائرهم كانت كبيرة جدا . لأننا لم نعد نسمع لمدة ستة عشر عاما بعدها عن حركات هجومية لاسطول الحدود الشامية الطرسوسية . الا ان الاسطول الشامي مالبث ان عاد الى الهجوم بعد فترة التوقف هذه . وقاد حميد بن معيوف والي السواحل الشامية في سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ - ٨٠٦ م حملة لغزو قبرص (٧٦) في اللحظة التي عبرت فيها حملات الرشيد البرية الاناضول الى هرقله ، فأعمل التخريب والتدمير فيها . وعاد بأسرى يبلغون ستة عشر ألفا ، عدا الغنائم الوفيرة التي غنمها . وفي العام التالي اغارت بعض السفن الاسلامية على رودوس ، وعادت محملة بالغنائم ، حينذاك قبل نقفور دفع الجزية للرشيد (٧٧) .

على ان اشارات المسلمين البحرية قد توقفت مثل غاراتهم البرية على الحدود بين دولتهم والبيزنطيين ابان انشغال الرشيد في اواخر ايامه بالفتن والقلاقل ، وكذلك طوال فترة الخلاف التي نشبت بين الامين والمأمون .

ثم ان البيزنطيين ارادوا استغلال انشغال المأمون بالقضاء على ثورة بابك الخرمي ، وظنوا ان بإمكانهم تحقيق ما عجزوا عن تحقيقه ايام خلفاء العباسيين

(٧٤) - ارشيبالد : المرجع السابق ، ص ١٦٠ - ١٦١ عاشور : المرجع السابق ، ص ١٣

(٧٥) - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٧٦) - أنظر فيما سبق .

(٧٧) - ارشيبالد : المرجع السابق ، ص ١٦٥

الذين سبقوا • فقام امبراطورهم تيوفيل عام ٢١٥ - ٢٢٨ هـ / ٨٢٩ - ٨٤٢ م ببعض الهجمات المضادة ، ولكنه فوجيء بالخليفة المأمون يقابله ويرد له الصاع صاعين • وجرت بين الطرفين حروب متقطعة استمرت حتى وفاة المأمون • وقد بدأ الخليفة المأمون بالتغلغل تدريجيا في الاراضي البيزنطية حتى وصلت جيوشه هرقله سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م في الوقت الذي اغارت الاساطيل العباسية على الجزر القريبة من انشأطىء الغربي لآسية الصغرى • ويبدو ان حماسة الخليفة المأمون لقتال البيزنطيين دفعته الى ان يتولى بنفسه قيادة ثلاث حملات في آسية الصغرى (٧٨) •

وقد ساعد المأمون في حروبه التي كللت جميعها بالنصر قوة الجيوش الاسلامية في عهده ، وصمود الثغور بفضل التنظيمات والترتيبات التي قام بها اسلافه ، وحافله عليها المأمون ، ودعمها بكل مايسطيع • ولما كان المأمون خليفة محاربا شجاعا ، فانه فكر جديا في القضاء على الامبراطورية البيزنطية ، ونظم اموره في حملته الثالثة تنظيما دقيقا ليقوم بهذه المهمة • الا ان المنية عاجلته فمات قبل ان يحقق حلمه • واهم ما تميزت به حروب المأمون مع البيزنطيين ، اتخاذ موقف الهجوم وتغلغله في الاراضي البيزنطية • ولم يكن امام اعدائه الا الوقوف موقف المدافع ، مع القيام بين الحين والآخر ببعض الغارات الانتقامية السريعة التي لم تتعد منطقة الحدود •

ونهض المأمون للقيام بحملته الاولى في اول صفر سنة ٢١٥ هـ / ٣٠ مارس ٨٣٠ م (٧٩) وسار متوجها الى طرسوس حيث غادرها في منتصف جمادى الاولى من السنة نفسها / منتصف يوليو • وكان يرافقه ابنه العباس ، وبصحبتها اللاجىء الرومي منويل ، ومعه من القواد اشناس وجعفر الخياط • واصدر المأمون اوامره لابنه العباس وبرفقته منويل الرومي ان يكون مجال عملياته اقليم ملطية الحدث • بينما عبر المأمون من درب قيليقية ودخل الاراضي البيزنطية • وخلال المعارك التي

(٧٨) - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٥٤

(٧٩) - انظر تفاصيل المعركة في المقرئى : المقفى ، ورقه ١٢٣ وجه وظهر - فازيليف : المرجع السابق ، ص ٩٢ - ٩٤ •

قام بها العباس تمكن من فتح بعض الحصون^(٨٠) فاستخلف عليها منوئل • الا ان هذا مالبث ان غدر به وطرده المسلمين من الحصون ، بعد ان استولى على السلاح • وصالح الامبراطور البيزنطي^(٨١) •

وكان مسرح عمليات الجيش الذي قاده المأمون بنفسه في قبادوقية ، وبشكل خاص في المنطقة المتاخمة لقيليقية ، فيما يسميه المسلمون باقليم المطامير • واتخذت المنطقة هذا الاسم لكثرة الكهوف الارضية التي كانت ملجأ لاهالي الاقليم^(٨٢) • وعجزت الحصون البيزنطية عن مقاومة جيوش الخليفة فاستسلمت اليه • واول ما استسلم حصن ماجدة ، ويقع في اقليم المطامير • فما ان استولى عليه المأمون حتى حاصر حصنا آخر من حصون قبادوقية وهو حصن قره^(٨٣) • وعلى الرغم من ان هذا الحصن قاوم كثيرا ، الا انه ما لبث ان سقط في يد المأمون في يوم الاحد ٢٦ جمادى الاولى من السنة نفسها ٢١ يوليو ، فخربه المأمون بعد ان امن أهاليه على حياتهم • وسقط كذلك حصن سندس بيد قائد المأمون ايناس وحصن سنان^(٨٤) بيد عجيف وجعفر الخياط^(٨٥) •

ويبدو ان المأمون اضطر الى العودة الى بغداد ليقتضي على ثورة بابك الخرمي • ولما كان تيوطين حريصا على الانتقام لهزيمته التي اصابته سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م فانه اغتنم فرصة ابتعاد المأمون عن الحدود البيزنطية ، وانشغاله بقتال بابك

(٨٠) - فازيليف : المرجع السابق ، ص ٩٢ - ٩٤ •

(٨١) - ابن طيفور : كتاب بغداد ، جزء ٦ ، ص ٢٦٣ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ٩٤ •

(٨٢) - كان يوجد في كل بيت طابق سفلي محفور في الصخور ، وهذه الغرف الارضية متصلة فوق ذلك بممرات طويلة يمر بها الانسان من بيت الى بيت ، انظر فازيليف : المرجع السابق ص ٩٤ •

(٨٣) - وهي تابعة لقونية ولا تبعد كثيرا عن شرقيها • انظر كي سيسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٨١ •

(٨٤) - حصن سنان في بلاد الروم فتحه عبد الله بن عبد الملك بن مروان • انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٣ ، ص ٢٨٥ •

(٨٥) - المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٢٣ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ٩٤ - ٩٥ •

الخرمي^(٨٦) ، فسار فجأة مجتازا جبال طوروس وقتل ما يقارب الالفين من سكان طرسوس والمصيصة ، وعاد بعد هذا النصر الى عاصمته^(٨٧) . ويقال ان فرقا اخرى من جيش تيوفيل سارت في الوقت نفسه نحو الشمال الشرقي من قبادوقية وأوقعت بالمسلمين هزيمة شديدة قرب حصن خرشنة واسر بعضهم^(٨٨) .

احتفل تيوفيل بغارته الموفقة على طرسوس والمصيصة احتفالا رائعا . الا انه مالبث ان عانى من الحرب الثانية التي قادها الخليفة المأمون ردا على غارته على الثغور الاسلامية ، وما قام به من تقديم معونات الى الثائر بابك الخرمي . وانصرف المأمون عن قتال الاخير ليووجه جهوده كلها لقتال البيزنطيين^(٨٩) . ودامت غارته هذه من (١٥ جمادى الاولى الى ١٧ شعبان سنة ٢١٦ هـ / أول تموز حتى آخر ايلول من سنة ٨٣١ م) وساعد المأمون في هذه الحرب اشغال البيزنطيين بالقتال في صقلية^(٩٠) . فاجتاز الحدود حتى وصل الى اذنه . وادرك تيوفيل انه لن يستطيع الوقوف في وجه المأمون ، فأرسل اليه سفيرا عرض عليه باسم الامبراطور اطلاق سراح خمسمائة أسير . الا ان المأمون رفض هذا العرض وقرر قتال البيزنطيين . ووقعت معارك حملة المأمون الثانية في الاقاليم نفسها التي وقعت فيها معارك الحملة السابقة ، وقصد المأمون هرقله ، فخاف اهاليها منه وخرجوا يقدمون اليه الطاعة التامة بمجرد اقترابه منها^(٩١) .

وانقسم جيش المسلمين ثرقا متعددة ، وارتادت كل فرقة وجهة خاصة ، وحققت جميعها النجاح واستولت على حصون عديدة . واسرت اعدادا كبيرة . وكان

(٨٦) - الرفاعي : المرجع السابق ، مجلد ١ ، ص ٢٩٠ .

- المقرئزي : المصدر السابق ، ورقة ١٢٣ ظهر .

(٨٧) - ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٤ وجه ١٠٠ : المصدر السابق ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .
فازيليف : المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٨٨) - فازيليف : المرجع السابق ، ص ٩٦ نقلا عن صاحب صلة تيوفان .

(٨٩) - الرفاعي : المرجع السابق ، مجلد ١ ، ص ٢٩٠ .

(٩٠) - فازيليف : المرجع السابق ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٩١) - كان الرشيد قد استولى عليها في سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م ثم استردها البيزنطيون . انظر -
فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٠١ .

النصيب الأكبر من النصر وانظر من نصيب الجيش الذي قاده العباس بن الخليفة المأمون . فانه فتح حصونا في قبادوقية منها : اتيجو - وحصين - والاخر ، واصطدم في معركة عسكرية مع الامبراطور تيوفيل كان النصر فيها للعباس . واضطر الامبراطور البيزنطي بعد هزيمته الى الارتداد ، وترك للعباس غنائم كثيرة (٩٢) . ويقال ان المأمون فتح مع قواده في هذه الحملة ما يزيد عن عشرين حصنا سوى المطامير (٩٣) . وقدر تيوفيل قوة المأمون ، واستحالة النصر عليه ، فقرر طلب الهدنة ، فأرسل اليه رسولا يحمل خطابا ، وكان الخطاب الذي حملة يبدأ باسم الامبراطور تيوفيل ، فأثار ذلك سخط الخليفة المأمون ، فردّه دون قراءته . فأرسل له الامبراطور كتابا آخر عرض فيه مائة الف دينار ، واطلاق سراح سبعة آلاف اسير مسلم كانوا بيده ، اذا اعاد له المأمون ما اخذه من الحصون ، وهادنه خمس سنوات (٩٤) .

ولم يكن المأمون يرى مهادنة البيزنطيين لذلك لم يكلف نفسه الرد عليه ، ولكن ظروفًا طارئة اضطرته الى ترك القتال . فقد نشبت ثورة في مصر ، بالاضافة الى قدوم فصل الشتاء ، فارتد الى كيسوم ومنها الى دمشق في طريقه الى مصر (٩٥) .

اما الحملة الثالثة التي قام بها المأمون فكانت تتمة لحملة الثانية التي اضطر الى التوقف عنها بسبب الثورة في مصر . ولما هدأت الاحوال فيها عاد مسرعا الى الحدود البيزنطية ، حيث اجتازها ووقف قريبا من اذنه . واراد في هذه الجولة ان يستولي على دروب جبال طوروس ليسيتر على الطريق الى الامبراطورية البيزنطية . ثم يستولي على مركز متقدم في اراضي الاعداء ، يتخذة قاعدة لعملياته الحربية في تلك الجهات . وغايته من ذلك ان يعمل جاهدا حتى القضاء على

(٩٢) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٩٢ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٩٣) - ابن طيفور : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٦٤ .

(٩٤) - اليعقوبي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٢ اما فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٠٢ - ١٠٣ فيذكر ان تيوفيل عرض الف دينار .

(٩٥) - انظر فيما سبق وانظر اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ١٩٤ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

الامبراطورية البيزنطية ، وارتأى ايضا ان يستفيد من خبرة اهالي الشام في قتال البيزنطيين . ففرض على اجنادها كافة ارسال عدد محدد من الرجال للاشتراك معه (٩٦) .

وقرر المأمون الاستيلاء على حصن لؤلؤة لسيطرته على مفارق الطرق . فحاصره في سنة ٢١٧ هـ / ٨٣٢ م واستمر على ذلك مائة يوم دون ان يتمكن من الاستيلاء عليه . الا انه لم يتراجع عما عزم عليه ، بل رأى ان يقيم حوله حصنان فيحصر بذلك البيزنطيين في حصن لؤلؤة ويجعلهم تحت سيطرته ، وجعل قيادة هذين الحصنين لقائده عجيف بن عنبسة . وسار المأمون الى سلغوس (٩٧) فأقام بها وقتا ثم قضى الصيف في الرقة ودمشق . وفي تلك الفترة تمكن البيزنطيون المحاصرون في قلعة لؤلؤة من اسر عجيف . فقويت عزيمتهم بذلك ، وارسلوا الى امبراطورهم يطلبون منه المساعدة ، وتقدم تيوفيل ترافقه بعض الفرق نحو لؤلؤة ، الا انه لم يصمد امام قوات المسلمين وانهم هزيمة ساحقة واستولى المسلمون على غنائم كثيرة (٩٨) .

ولما علم حاكم لؤلؤة البيزنطي بانهزام تيوفيل ، ايقن استحالة الاستمرار في المقاومة ، فأخذ يفاوض أسيرة عجيفا ويعدده بالحرية ، وتسليم الحصن ، شريطة ان يأخذ الامان لمن بالحصن من المأمون . فأجابه عجيف الى ذلك ووفى بوعده (٩٩) .

وتحقق حلم المأمون بالاستيلاء على حصن لؤلؤة ، واصبح بذلك مسيطرا على درب الابواب القيليقية . ومن ثم فانه اراد ان يجد لنفسه مركزا متقدما في قلب

(٩٦) - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٩٧) - على الطريق من الرقة الى الثغور الجزوية ، انظر ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٩٨) - اليعقوبي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٤ - العيون والحداثق ، ص ٢٧٥ فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٩٩) - العيون والحداثق : ص ٢٧٥ - ابن العميد : المصدر السابق ، ص ١٣٨ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

الامبراطورية البيزنطية يجعله مكانا لامدادات جيوشه • فاختار لذلك طوانة (١٠٠) فأمر ابنه العباس في اول جمادى الاولى سنة ٢١٨ هـ / ٢٥ مايو سنة ٨٣٣ م ان يقصدها ، فسار اليها واستولى عليها • ثم اخذ في بنائها وتحصينها وتوسيعها • وبلغت مساحة الطوانة الجديدة ميلا عربيا مربعا (١٠١) • وجعل حولها سورا امتداده ثلاثة فراسخ • وجعل نه اربعة ابواب ، وعند كل باب حصن ، واستغل المأمون الفترة التي اتفقها ابنه في تحصين طوانة بالعمل الدؤوب على تنظيم الجيوش وتجهيزها للمهمة الكبيرة التي كان ينوي القيام بها • وارسل بعض من جندهم من أهالي الشام للحاق بالعباس عند طوانه • بينما سار المأمون بنفسه ببقية الجيش ودخل الاراضي البيزنطية وعسكر في البدندون (١٠٢) •

ولم يجد تيوفيل في نفسه القدرة على قتال المأمون فبعث اليه رسولا يحمل خطابا (١٠٣) يعرض فيه على الخليفة ان يؤدي له ثقات حملته • وان يطلق سراح مالدیه من اسرى المسلمين دون فداء • وان يصلح ما أفسده البيزنطيون من ثغور المسلمين ، على ان يضع المأمون الحرب • ولكنه رفض ذلك رفضا مبرما ، وشاءت الظروف ان يموت المأمون في تلك المرحلة دون ان يحقق هدفه (١٠٤) •

وهكذا فان موت المأمون قضى على هذا الهدف الكبير الذي لم يفكر فيه من جاء بعده من خلفاء المسلمين حتى كان عهد محمد الفاتح • فقد واجه الخليفة المعتصم

-
- (١٠٠) - تقع شمال حصن لؤلؤة ، وهي تيانا عند البيزنطيين ، انظر كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٧١ •
- (١٠١) - الميل العربي المربع يساوي كيلو مترين مربعين •
- (١٠٢) - البدندون : واد بيضاوي الشكل في نهاية درب الابواب القليقية •
- انظر فتحي عثمان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٨٧ - العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧٣ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١١٠ •
- (١٠٣) - انظر نحن الخطاب كاملا في الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٢٩ - ابن طيفسور : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٨٤ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩ •
- (١٠٤) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١٢٤ وجه وظهر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جزء ١ ، ص ٦٨ •

مشاكل متعددة منذ اول خلافته ، وارتأى ان يقضي على المشاكل الداخلية ثم يتفرغ لقتال البيزنطيين . فعمل قبل ان يترك الاراضي البيزنطية على تخريب حصن طوانة خشية ان يستولي عليه البيزنطيون بما فيه ، وذلك في سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ، واخذ كل ما ودد فيه من آلات وسلاح . وامر الجنود الذين كان المأمون قد نقلهم اليها بالعودة الى بلادهم ، وعاد المعتصم بعد ذلك الى بغداد (١٠٥) .

ولا بد لنا قبل ان ننتهي من استعراض حروب المأمون مع البيزنطيين من البحث عن المعارك البحرية التي حدثت بين الطرفين في عهده . ويمكننا ان نقرر هنا هذه الحقيقة وهي انه على الرغم من ازدياد القوة البحرية الاسلامية في مياه الشام ، فان البيزنطيين تمكنوا من الاحتفاظ بالسيادة البحرية في العصر العباسي حتى سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢١ - ٨٢٣ م ولم تززع هذه السيطرة الا ثورة توماس الصقلي (١٠٦) .

وقد قام توماس بثورة ضد الامبراطور ميخائيل الثاني ٢٠٥ - ٢١٤ هـ / ٨٢٠ - ٨٢٩ م ، ولم يتأخر الخليفة المأمون عن مساعدة توماس حين طلب منه ذلك . وعقد معه حلفا تعهد فيه ان يمدّه بجيش قوي يساعده في مهاجمة القسطنطينية . واتخذ هذا الحلف صبغة شرعية حين توج بطريك انطاكية التابع للخلافة الاسلامية توماس امبراطورا (١٠٧) . وقد مد المأمون يد المساعدة لهذا الثائر ، لانه كان يرى ان قتال توماس مع الامبراطور سوف يربك البيزنطيين ، ويضعف قوتهم ، ثم ان هذه المساعدة كانت ردا على ما كان يقدمه البيزنطيون من دعم ومساعدة لثورة بابك الخرمي .

وامد المأمون الثائر بالعون . وبعث في الوقت نفسه جيوشه واساطيله المراقبة في انشام الاغارة على جزر وشواطئ اسية الصغرى تأييدا للجهود التي يقوم بها

(١٠٥) - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١١٣ .

(١٠٦) - ارشيبالد : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(١٠٧) - العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٠ - ٨١ فازيليف : المرجع السابق ، ص ٣٦-٣٧ .

توماس (١٠٨) • وعلى الرغم من هزيمة توماس في النهاية ، الا ان هذه الثورة تمكنت من تشتيت اساطيل الولايات البيزنطية ، في الوقت الذي كانت فيه اساطيل بلاد الشام وشمال افريقية وسائر اساطيل المسلمين تجمع قوتها (١٠٩) •

وساد الهدوء بين المسلمين والبيزنطيين في الفترة الاولى من حكم الخليفة المعتصم ، وحتى سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ - ٨٣٨ م دون ان يكون هناك هدنة رسمية معلنة • اذ كان المعتصم قد وجه جل اهتمامه لاختتام الفتن الداخلية (١١٠) •

وعندما عاد القتال بين تيوفيل والمعتصم كان سببه المباشر ما قام به بابك الخرمي من تحريض البيزنطيين على قتال المسلمين ، وخاصة بعد ان رأى قوته تتضاءل وان جيوش الخلافة تحاصره وتكاد تطبق عليه • فاتصل بتيوفيل موضحا له ان كل قوات الخلافة الاسلامية مشغولة بقتال الخرمية • واضاف بأن تظاهر بأنه مسيحي ليزيد في حماس الامبراطور لمساعدته (١١١) •

جهز تيوفيل حوالي مائة الف مقاتل توجه بهم نحو الحدود الاسلامية ، وكان يرمي الاتجاه لاعالي الفرات آملا في الاتصال بشوار ارمينية واذريجان • وتمخضت هذه الغارة عن اشعال النار في حصن زبطرة الحصين (١١٢) واحرقت هذه المدينة وقتل الذكور من اهلها ، واسر النساء والاطفال وكان يمثل بالرجال اشنع تمثيل فتسمل عيونهم وتشوه وجوههم بالحديد المحمى (١١٣) • ثم اقتربت جيوش البيزنطيين من ملطية ، ففتحت ابوابها خوفا من ان يجرى عليها ماجرى لاهالي حصن زبطرة •

(١٠٨) - ارشيبالد : المرجع السابق ، ص ١٦٨ - ١٦٩ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ٣٧ •

(١٠٩) - ارشيبالد : المرجع السابق ، ص ١٦٩ •

(١١٠) - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١١٣ - ١١٥ •

(١١١) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٦ - العيون والحدائق ، ص ٣٨٩ - ٣٩٠ - العدوي : الامبرلاطورية البيزنطية ، ص ٨٣ •

(١١٢) - هي بلدة بين حصن ملطية وسميساط والحدث • انظر : ابن الشحنة تاريخ مملكة حلب ص ١٩٤

(١١٣) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٥ - ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٢٤٢

- سيد امير علي : المرجع السابق ، ص ٢٤٤ •

واطلق اهلها سراح من بها من اسرى البيزنطيين ، واحرق تيوفيل
شمشاط حتى تحولت الى رماد (١١٤) ، وسبى من المسلمات اكثر من ألف
امرأة (١١٥) وعاد الامبراطور الى عاصمته مظفرا . فلما بلغ مكانا يقال له برياس على
الشاطئ الاسيوي ، امر ببناء قصر وزرع حدائق تخليدا لنصره (١١٦) .

وعلم المعتصم بالخبر فغضب وامر بالتجهيز لحملة انتقامية . و اضاف بانه
ارسل قسما من هذا الجيش لنجدة اهل زبطرة ، وتمكن هؤلاء من اعادة السكان
الى مدنها وقراهم . ولما انتهى المعتصم من تجهيز الجيش ، وقضى نهائيا على ثورة
بابك الخرمي ، توجه لقتال البيزنطيين ، ووقع اختيار المعتصم على عمورية لتكون
هدفا ، هجومه . وكان غرضه من ذلك ان يصل الى احصن مدينة في الامبراطورية ،
بالاضافة الى انها كانت موطن الاسرة الحاكمة .

وغادر المعتصم سامراء في جمادى الاولى سنة ٢٢٣ هـ / اول ابريل نيسان
٨٣٨ م (١١٧) على رأس قوات كبيرة لم تجتمع لخليفة من قبل عددا وسلاحا ، وقدر
هذا الجيش بمائتين وخمسين الف مقاتل . ونقش المعتصم على الالوية والتروس
عمورية . كما جعل في رفقته اقدر قواده اشناس والافشين . ووقف الجيش على
مسيرة يوم من طرسوس على نهر اللامس (١١٨) .

كانت خطة المعتصم ان يغزو أرض البيزنطيين من جهات مختلفة على ان تكون
وجهة جميع فرق الجيش نحو عمورية ، فبعث بالافشين مع قسم من الجيش نحو

(١١٤) - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(١١٥) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٥ .

(١١٦) - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(١١٧) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٢٠١ - ابن قتيبة : المعارف ، ص ١٧١ .

- ابو الفداء : تاريخه ، جزء ٢ ، ص ٣٦ .

(١١٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٧ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

- ١٣١ - ١٣٢ .

مدينة سروج (١١٩) • وامره ان يدخل الاراضي البيزنطية عن طريق درب الحدث في يوم محدد • انضم الى هذا الجيش جند من الارمن ، وكذلك جنود من ملطية بقيادة اميرغا • وعسكر جميع هؤلاء عند سهل داسيوس • وفي يوم الاربعاء ٢٢ رجب من السنة نفسها ٢١ / يونيو / حزيران امر الخليفة اشناسا ان يتقدم في درب طرسوس وامره ان ينتظر مجيئه في الصفصاف قرب لؤلؤة • وسار وصيف خلف اشناس ثم سار المعتصم خلف الجميع يوم الجمعة ٢٤ رجب / ٢٣ يونيو / حزيران على ان يتوجه الى أنقرة ، فاذا تم احتلالها توجه الى عمورية (١٢٠) •

بلغت تيوفيل الانباء بعظم الجيش الاسلامي فاضطرب ، وارتأى عليه كثير من أعوانه اخلاء عمورية من سكانها الى مكان آخر خوفا على حياتهم • ولكنه رفض ذلك وقرر تحصين المدينة ، وان يمهّد بحمايتها الى قائد مجرب ، وارسل لها الامدادات (١٢١) •

وتسكنت مقدمة جيش المعتصم بقيادة اشناس من اسر بعض البيزنطيين للوقوف منهم على معلومات عن الامبراطور وجيشه • وعلم من هؤلاء ان الامبراطور معسكر منذ ثلاثين يوما وراء نهر الهليس يترقب مرور جيش المعتصم للوثوب عليه • ولكنه حين علم بالجيش الذي كان متوجها الى سروج بقيادة الافشين • توجه للقائسه بعد ان ترك قسما من جيشه بقيادة احد اقاربه في منطقة الهليس • ولم يتمكن المعتصم من ابلاغ الافشين وتحذيره من تطورات الموقف بسبب تقدمه في الاراضي البيزنطية • وسنحت الفرصة لجيش المعتصم بالتقدم • وكانت مقدمته تسير امامه على مسيرة يوم بينهما (١٢٢) • ووصل اشناس الى انقرة بعد ان استولى على

(١١٩) - على بعد ١٢ فرسخا من سميساط وهي بلدة قريبة من حران من ديار مصر - انظر ياقوت : معجم البلدان ، جزء ٣ ، ص ٨٥ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٢٣ •

(١٢٠) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٧ - ٥٨ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٢٣ - ١٢٤ •

(١٢١) - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٣٢ •

(١٢٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٩ - العيون والحوادث ، ص ٣٩١ - فازيليف : المرجع : السابق ، ص ١٣٦ •

نيقية (١٢٣) ، وكذلك وصلها المعتصم . وهناك وصلتهم الاخبار بانتصار الافشين على الامبراطور بعد معركة قوية دارت بينهما في جند ارمنياق بقرب جبل اسمه انزن . وقرر الامبراطور ومن نجا من رجاله بعد هذه المعركة دعم جيشهم الذي يعسكر في منطقة الهليس . الا ان الاخبار وصلته بتفرق هذا الجيش ، وعدم اطاعة افراده لاوامر قائدهم . فغضب الامبراطور عند ذلك ، وانتقم بقتل القائد . كما ارسل اوامره الى المدن والحصون ليقبضوا على الهاريين ويجلدوهم ويعيدوهم لقتال المسلمين (١٢٤) .

وارسل الامبراطور دعما لانقرة وانسحب هو الى دروليه على مسيرة ثلاثة ايام من عمورية . وسرت شائعة بين الجميع ان الامبراطور قد قتل . فثار الناس لذلك واضطربوا . وفي هذا الوقت بالذات كانت جيوش المسلمين مجتمعة تطبق على انقرة . فانهار الامبراطور وفقد شجاعته ، وارسل الى المعتصم يستعطفه . وادعى ان قواده تجاوزوا اوامره حين دخلوا زبطرة ، ووعد بتأثها على ثقته (١٢٥) .

واضاف بأنه سيرسل اليه كل الذين انتهكوا حرمة زبطرة من بطارقة وغيرهم ليرى رأيه فيهم (١٢٦) . ولكن المعتصم كان قد صمم على الانتقام . فلم يصغ الى ذلك بل انه اخذ يعد العدة للتوجه الى عمورية (١٢٧) .

وعند ابواب عمورية قسم المعتصم جيشه الى ثلاثة اقسام ، وجعل المسافة بين كل قسم وآخر فرسخين . وقاد اشناس الميسرة . والافشين الميمنة ، واتخذ

(١٢٣) - بين الصفصاف وانقرة وهي من اعمال استانبول على البر الشرقي ، انظر ياقوت الحموي :

معجم البلدان ، جزء ٨ ، ص ٣٦١ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(١٢٤) - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

(١٢٥) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٦١ - ٦٢ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(١٢٦) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٢٠١ .

(١٢٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٦١ - ٦٢ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

المعتصم قيادة القلب • وانقسم كل قسم من هذه الاقسام الى ميمنة وميسرة •
 واصدر المعتصم اوامره بالانتقام لما فعله البيزنطيون في زبطرة وما ارتكبوه من حرق
 وتخريب للقرى • ووصل القواد جميعا الى عمورية ، حيث خصص قائد معين لحصار
 عدد محدد من ابراجها الحصينة (١٢٨) • ونصب مجانيق كبيرة يبلغ ارتفاعها ارتفاع
 السور ، ويتسع كل منجنيق منها لاربعة رجال ، وركزت هذه المجانيق على كراس
 تحتها عجل لتتحرك بسهولة • وقام الجنود برمي اكياس مملوءة بالتراب في الخندق
 ليتمكنوا من تخليه (١٢٩) • وتحصن اهل عمورية بها ، وكافحوا كفاحا مريرا على
 الرغم من علمهم بانتهزام جيوشهم • وتمكنوا ان يهددوا بالفشل اول محاولة
 للمسلمين باقتحام السور بعد ان تمكنوا من تصديعه (١٣٠) •

قرر اهالي عمورية ارسال رسولين لاجبار الامبراطور بتصدع سور المدينة
 وضعف القائمين عليها ، واحتمال دخول جيوش المسلمين اليها ، بسبب سوء احوال
 الاهالي • ولكن الرسولين لم يتمكنوا من تنفيذ المهمة وقبض عليهما • وعلم من
 الكتاب الذي حصلانه مدى الضيق الذي وصل اليه اهالي عمورية ، وانهم قرروا
 الخروج من المدينة ، فقوى المسلمون بذلك وشددوا الحصار على الابواب ومنعوا
 البيزنطيين من الخروج منها • وادى القتال الذي جرى بين الطرفين الى قتل وجرح
 اعداد كبيرة من البيزنطيين • وضاق حراس الثلثة بالامر ، وخرجوا يطلبون الامان
 مقابل ان يسلموا اليهم الحصن بما فيه (١٣١) • فمنحهم المعتصم الامان وتسلم الحصن
 ثم تمكن المسلمون من اسر قائد عمورية ، فاستسلمت المدينة (١٣٢) ودخلها المسلمون
 يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢٢٣ هـ / ١٣ اغسطس ٧٣٨ م (١٣٣) • واسر من جيوش

(١٢٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٦٤ .

(١٢٩) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٦٥ - الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جزء ٣ ، ص ٣٤٤ .

(١٣٠) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٦٤ .

(١٣١) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، من ص ٦٤ حتى ٦٧ - العيون والحدائق ، ص ٣٩٣ .

(١٣٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(١٣٣) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٢٠٢ .

المدينة واهلها عددا كبيرا حتى امتلأ معسكر المسلمين بهم • فوزعهم المعتصم على قواده وجنوده ، واطمأن الى تحقيق غايته فارتحل متوجها الى طرسوس (١٣٤) •

ويقال ان المعتصم عاد من عمورية بهذه السرعة لوصول انباء هجوم بيزنطي على الثغور الشامية • اذ نزلت بعض قواتهم البحرية ميناء سلوقية (١٣٥) فاسروا قسما من اهاليها ، ثم ركبوا سفنهم وخرجوا • وكان نزولهم فيها في الوقت نفسه الذي كانت فيه جيوش المسلمين تحاصر عمورية للتخفيف عنها (١٣٦) • وقد ترتب على محاولات البيزنطيين المتكررة للهجوم على الثغور عن طريق البحر ، وللحد من نشاط الاسطول الاسلامي في جزيرة كريت ، اهتمام السلطات العباسية في بغداد بتدعيم قواعدها البحرية في الشام ومصر ، فنشط الاسطول العربي في عهد المعتصم واخذ في مهاجمة البيزنطيين (١٣٧) •

ولم يعقب هجوم المعتصم على عمورية مضاعفات خطيرة على الامبراطورية البيزنطية ، لان المعتصم في زحفه على اسية الصغرى اكتفى بالانتقام لمدينة زبطرة ، ثم قفل راجعا • وبذلك استرد البيزنطيون اراضيهم في اسية الصغرى حتى جبال طوروس • وبعد ذلك ساعدت المشاكل الداخلية لكل من الطرفين على عقد هدنة بينهما ، استمرت حتى وفاة كل منهما في سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٣ م (١٣٨) •

وبعد حملة المعتصم على عمورية في سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ - ٨٣٨ م قلت الغزوات

-
- (١٣٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٦٩ - ٧٠ .
(١٣٥) - سلوقية من جند انطاكية في الشام بعد طرسوس ، انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان جزء ٥ ، ص ١١٥ .
(١٣٦) - هازيليف : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .
(١٣٧) - العدوي : الاساطيل العربية ، ص ١٠٥ .
(١٣٨) - عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ٥٥ ولكنه يذكر خطأ ان اسم امبراطور الروم في عهد المعتصم قسطنطين ، بينما يرد اسمه في الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٥ ، ثيوفيل بن ميخائيل في تاريخه ، ثيوفيل في كل من العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ملحق ٦ ص ٢٠١ وفتح عثمان : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٢٩ قائمة بالخلفاء المسلمين والاباطرة البيزنطيين وتاريخ ولاية كل منهم ، ص ٤٢٩ :

الاسلامية للدولة البيزنطية ، ويعود ذلك الى تواتر الفتن في بغداد ، فقد واجه الخليفة الواثق ازمات داخلية خطيرة . مما ادى الى عدم استطاعته الاستمرار في حرب البيزنطيين على نطاق واسع . كما كان يفعل من سبقه من الخلفاء . وشاءت الظروف ان يكون البيزنطيون كذلك ، وبدا للعيان فشلهم في صقلية . ولذلك كان الطرفان مستعدين لاقامة علاقات سلمية عن طريق فداء الاسرى . ووصل في سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م رسول البيزنطيين ليقاوض في امر الفداء لثلاثة الاف من الرجال وخمسائة من الاولاد والنساء . وتم الفداء على نهر اللامس غير بعيد عن سلوقية على مسيرة يوم من طرسوس ، وحضر العرب على رأس قوة كبيرة بلغ تعدادها اربعة آلاف رجل الى مكان الفداء (١٣٩) . وكان البيزنطيون كذلك في مثل هذه القوة . وقد ترأس وفدهم اثنان من كبار قوادهم ، وخشيا كثرة عدد المسلمين في الفداء ، فطلبوا من رئيس وفد المسلمين ان يعقد معهما هدنة لاربعين يوما تكفي لوصول الاسرى الى مناطقهم . وكادت مفاوضات الفداء تفشل لان البيزنطيين لم يرتضوا فداء العجزة من النساء والرجال وفداء الاطفال بمن في ايديهم من الاسرى . واستمر الخلاف اياما الى ان اتفقوا على فداء رجل برجل (١٤٠) . والراجح ان عدد الاسرى المسلمين عند البيزنطيين كان اكبر مما عند المسلمين . يؤكد ذلك ان الواثق امر بشراء من يباع في بغداد والرقا من العبيد الروم ، فلم يكف . عند ذلك قام باخراج من كان في بلاطه من نساء الروم . واستمر الفداء اربعة ايام . واتضح في هذا الفداء انه كان هناك مراسيم حقيقية له (١٤١) .

ولما انتهت هدنة الفداء المؤقتة غزا والي الثغور أحمد بن سعيد بن مسلم ابن قتيبة الاراضي البيزنطية فجأة في الشتاء على رأس سبعة آلاف رجل . ولكنسه

-
- (١٣٩) - ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٤ ظهر - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .
(١٤٠) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١٤٢ - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٧٧-١٧٨ .
(١٤١) - انظر فازيليف : المرجع السابق : ص ١٧٧ - ١٧٨ و ص ١٩٧ - ١٩٨ وعن مراسيم الفداء ، انظر العدوي : الامبراطورية البيزنطية .
ص ٩٦ - ٩٧ وكذلك ملحق ٥ ص ١٩٣ - ١٩٤ .

لم يستطع ان يحقق شيئاً • فعاد ادراجه في الاراضي البيزنطية • فسخط عليه الوراق لفشله وعزله واسند ولاية الثغور في ١٥ جمادى الاولى سنة ٢٣١ هـ / ١٨ يناير ٨٤٦ م الى نصر بن حمزة الخزاعي (١٤٢) •

والخلاصة التي يمكن ان نتوصل اليها بعد استعراضنا للحروب والصوائف والشوائب التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين في العصر العباسي الاول ، ان الغزوات كانت مستمرة تقريبا الا في أيام الفتن • وأن هذه الغزوات لم تتمخض عن نتائج ذات قيمة كبيرة سواء كان للمسلمين أم للبيزنطيين • فقد ظل خط الحدود بينهما في أخذ ورد دون ان يستطيع أحد الفريقين السيطرة التامة على معاقله ودروبه • كما أن نجاح إحدى الغارات أو غيرها كان متوقفا على الاحوال الداخلية عند الفريقين المتنازعين • ولقد ترددت اصداء هذه الحروب في النشاط البحري بينهما (١٤٣) • ومن المهم ان نلاحظ ان المنطقة التي كانت تجرى فيها الحروب بين الطرفين في هذه الفترات محصورة في الثغور الاسلامية والاراضي البيزنطية ، ولم يحدث ان هاجم البيزنطيون الاراضي الاسلامية الداخلية أو اجتازوا منطقة الثغور • وبالتالي فقد كانت خسائر البيزنطيين المادية اكثر من خسائر المسلمين •

وفي النهاية يمكننا القول بأن العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين لم تكن علاقات عسكرية بحتة ، بل تخلل ذلك فترات سلمية تبادل فيها الطرفان الاسرى والوفود وساهم البيزنطيون احيانا في الحركة العمرانية الاسلامية • فقد استقبل المنصور سفيراً بيزنطياً بعد انتقاله الى بغداد عاصمة العباسيين الجديدة الذي اشار على الخليفة بألا يبني السوق داخل سور المدينة حفظاً للامن من الشعب والتجسس كما كانت التجارة نشطة بين الدولتين برا وبحرا (١٤٤) •

(١٤٢) - فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٧٩ •

(١٤٣) - العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٥ •

(١٤٤) - فاروق عمر : العباسيون الاوائل ، جزء ٢ ، ص ١٨ طبعة دمشق ١٩٧٣ •

٢ - العلاقات مع الفرنجة (الكارولنجيين)

اغفلت المصادر العربية الحديث عن العلاقات بين الخلفاء العباسيين وملوك الفرنجة في أوربا الغربية ، مما يجعلنا مضطرين الى الاستعانة بالمصادر الغربية للتعرف على هذه العلاقة ، وان نعمل جاهدين على تحري الحقيقة التاريخية عن طريق المناقشة ، ودراسة الاوضاع السائدة في فترة البحث في كل من الدولتين العباسية والكارولنجية . وأما بالنسبة للمصادر الغربية التي ذكرت وتحدثت عن هذه العلاقات فهي ثلاثة مصادر لاتينية الاخبار الملكية الفرنجية ، وسيرة الامبراطور شارلمان لاينهارد ، وما كتبه الراهب سانت كول (١٤٥) .

وقد أخذ المؤرخون ما جاء في هذه المصادر فشرحوها وأولوها وحملوها أكثر مما تحمل . ويضاف الى ذلك ان مؤرخي الغرب لم يتحدثوا عن هذه العلاقات بنفسية المؤرخ المتحرر الذي يذكر ماله وما عليه ، وانما تحيزوا لاوربة الغربية ، وكتبوا عن هذه العلاقات التي قامت في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي بضوء ما عرفوه عن اوربا في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . ذلك القرن الذي بدا فيه تفوق الغرب المادي والثقافي . وتناسى هؤلاء المؤرخون ما كانت عليه الحضارة الاسلامية في الفترة التي يتحدثون عنها . والفارق الشاسع بينها وبين الحضارة الفرنجية المتدنية في تلك الفترة . لقد صور هؤلاء المؤرخون الماضي بضوء الحاضر ، فرأوا أن الغرب الذي استطاع أن يحصل على الامتيازات من الدولة العثمانية ، وحصلت دوله على حقوق حماية الاقليات المختلفة في هذه الدولة ، كان يستدوره أن يحصل على امتيازات وحقوق حماية الاقليات من الخلافة العباسية في العصور الوسطى (١٤٦) .

فوق كل هذا ، فان نظرة التعالي الغربية على الشرق الاسلامي ، والتي وضعها

(١٤٥) س. صبيح خديري : الصلات الدبلوماسية بين هارون الرشيد وشارلمان ، بغداد ١٩٣٩ ، ص ٤

المصادر التاريخية .

(١٤٦) س. خديري : بحوث في التاريخ العباسي ، ص ١٨٢ .

مؤرخو الغرب في اذهانهم حين التحدث عن الشرق ، هذه النظرة حجبت عن المؤرخين كل ما للعرب والاسلام من حضارة اما قصدا للتشويه ، واما عن غير قصد بسبب ما اختزنوه مسبقا من الافكار . وبالتالي فان كتابتهم لم تبد فيها حقيقة وضع العرب في ذلك الحين ، حيث كان المجتمع العربي الاسلامي متفوقا فكريا وثقافيا واقتصاديا وعمرانيا في الدور العباسي الاول . ولكن ازدياد الاتصال بين الاوربيين والشرق سلما سواء أكان أم حربا أدى الى تعرف الاوربيين على حضارة المشرق وناظمه ، وأخذ بعض المستشرقين يعترفون بما نقله الغرب عن العرب في العلوم المختلفة ، وأنصف بعضهم العرب ، ومن هؤلاء البروفسور بارتولد الذي درس هذه العلاقات بضوء العصر الذي قامت فيه ، وعلى ضوء مآدرسه عن الدولتين العربية الاسلامية ، والكارولنجية . وأوضح هذا الامر قائلا : نجد أن اوربا الغربية في القرون الوسطى كانت بلدا متأخرا تماما قياسا للشرق سواء أكان مسيحيا أم مسلما ، كتأخر الشرق اليوم بالقياس الى اوربا الغربية . ولكننا نجد الاسس المتبعة في طرق البحث التاريخية تجد صعوبة في ازالة الخرافة التي تعتبر اوربا في كل العصور تحتل تلك الاهمية العالمية سياسيا وحضاريا كالتى تتمتع بها الان (١٤٧) .

ثم سارت قضية ادراك الغرب لمعرفة الحضارة العربية الاسلامية قدما ، فكان ماكتبه مونيريه ونيري شاهدا على ذلك ، ثم تعاقبت البحوث والمقالات التي تعالج العلاقات السياسية والحضارية والحرية بفترات مختلفة (١٤٨) .

ونستطيع القول أن ماكتبه المؤرخون عن العلاقات العربية الفرنجية (الكارولنجية) ، غلب عليه الطابع الاسطوري الغامض . ولم يكن هذا فحسب بل ان المؤرخين اختلفوا حول طبيعة هذه العلاقات وأهدافها . والمهم في الامر أن هؤلاء جعلوا اسباب قيام علاقات بين المسلمين والفرنجة ، هو عداوة الطرفين

(١٤٧) - فاروق عمر : المرجع السابق . ص ١٨٢ تصدير دراسات في تاريخ فلسطين في العصور الوسطى
(١٤٨) - فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ١٨٣ - تصدير :

N : Daniel : Islam and the West: the making of an Image 1952 - H.A.R.
Gibbon and Owen Islamic society and the west - R. Frye : Islam and the west B. Lewis : The Middle East and West.

للبيزنطيين و امويي الاندلس . فهناك خلاف وعداء بين الفرنجة وكل من البيزنطيين والامويين في الاندلس ، وبين الخلافة الاسلامية العباسية ، وكل من البيزنطيين والامويين في الاندلس ، وان شارلمان اراد ان يتودد للخليفة العباسي هارون الرشيد رغبة في اقامة علاقات جيدة معه ، تسهلا لمجيء الحجاج الاوربيين الى الاماكن المقدسة ، ومما يذكر في هذا المجال ، أن شارلمان امبراطور الامبراطورية الكارولنجية بدأ يخطب ود الخليفة هارون الرشيد ، فأرسل له وفدا رسميا سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٧ م ثم ارسل رسولا الى بطريق القدس سنة ١٨٤ هـ / ٧٩٩ م ، وقابل الرشيد هذه المبادرة بمثلها . فأرسل في سنة ١٨٦ هـ / ٨٠١ م وفدا الى شارلمان ، فقام شارلمان بالرد بارسال وفد آخر سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٢ م . فرد الرشيد عليه بوفد ارسله سنة ١٩١ هـ / ٨٠٧ م وقد تبادل الطرفان عن طريق الوفود ، الهدايا المختلفة ، ومن جملة ما أهده الرشيد لشارلمان ساعة مائية دقاقة ، وفلا ، وأواني نحاسية تقيسة ، وصيوانا ملونا وعطورا واقمشة حريرية^(١٤٩) . كما ارسل شارلمان هبات الى الاماكن المسيحية المقدسة في فلسطين ، مما دعا بطريق القدس بموافقة الرشيد الى ارسال وفد سنة ١٨٥ هـ / ٨٠٠ م يحمل مفاتيح كنيسة القيامة ، ومدينة القدس ورايتها الى شارلمان ، واولوا هذه الاقوال الخيالية تأويلا ابعد من ذلك ، فأروا ان شارلمان اصبح بذلك حاميا للاراضي المقدسة في فلسطين ، وأميرا على القدس ، وكان — برأيهم — حصول شارلمان على حماية المناطق المقدسة ، مقابل موافقته على محاربة أمويي الاندلس باسم العباسيين ، والوقوف في صف العباسيين ضد البيزنطيين^(١٥٠) .

وقد أيد بعض المؤرخين حدوث هذه المعاهدة بين العباسيين والفرنجة ، أمثال دي ريان . وعارض ذلك المؤرخ الروسي بارتولد في مقالة نشرها سنة ١٩١٢ م أنكر فيها أن يكون شارلمان فاض الرشيد ، وثنى بقوله « ان الرشيد لم يعطه حق الحماية على فلسطين ، ولو كان ذلك حدث فعلا لذكرته المصادر العربية والبيزنطية . ورأي بارتولد ان ما أطلق عليه اسم وفود بين الطرفين ، لم تكن وفودا رسمية ، بل

(١٤٩) - فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ١٩٥ ، حاشية ٤١ تصدير -

H.R. Bitterman : Harun Ar Rashid

Gift of an Organ to Charlemagne. - فاروق عمر : المرجع السابق ، ص ١٩١ .

زيارات من قبل تجار من اليهود الفرنجة ، وان اعطاء هذا الحق من قبل الرشيد لشارلمان لا ينسجم مع سياسة هارون الرشيد وروح العصر الذي عاش فيه . وشاركه رأيه رنسيان الذي دحض اسطورة الحماية مؤكدا انها من اختراعات الراهب سنت كول المستندة على روايات اينهارد الغامضة .

وفي الحق فان ما كتبه بارتولد قد كتبه بعد معرفة روح العصر . وقوة الخلافة الاسلامية وموقفها من العناصر الاخرى الموجودة خارج الخلافة ، والتي لاتدين بدياتها (أهل ديار الكفر) . ثم درست اوضاع الفرنجة وضعفهم عن حماية انفسهم ، فكيف يستعين بهم الرشيد لتهديد امويي الاندلس ؟ وكيف يعطيهم مفاتيح كنيسة القيامة ؟

* * *

الباب الثالث

عصر سيطرة الاتراك

٢٣٢ - ٣٣٤ هـ / ٨٤٧ - ٩٤٥ م

مقدمة :

ان الدور العباسي الثاني هو الدور الذي برزت فيه العناصر الاسلامية المختلفة على مسرح الاحداث . واصبح لها شبه سيطرة تامة على الخلفاء . ويمكن ان نحدد هذا الدور زمنيا بالفترة الواقعة بين سنتي (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ / ٨٤٧ - ٩٤٥ م) ويقسم هذا الدور الى عصور ثلاثة بحسب جنسية العنصر الاسلامي الذي سيطر على الخلفاء .

١ - عصر نفوذ الاتراك ويمتد من سنة ٢٣٢ - ٣٣٤ هـ / ٨٤٧ - ٩٤٥ م .

٢ - عصر النفوذ البويهى ، ويمتد من سنة ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥ م

٣ - عصر نفوذ السلاجقة وهو العصر الذي يقع بين سنتي (٤٤٧ - ٥٩٠ هـ /

١٠٥٥ - ١١٩٣ م) .

وقد اعتاد المؤرخون ان يمدوا هذا العصر حتى سقوط الخلافة العباسية . علما بأن الدولة الخوارزمية قد اطاحت بدولة السلاجقة في سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م وبالتالي فائنا يمكن ان نضيف عصرا رابعا نجعله للحديث عن استعادة خلفاء

العباسيين للسلطة بين سنتي ٥٩٠ - ٦٥٦ هـ / ١١٩٣ - ١٢٥٨ م . وقد تميز هذا الدور بالاضافة لما تحدثت عنه عن وضع الخلافة العربية الاسلامية تحت وصاية العناصر الاسلامية المختلفة بميزات اخرى متعددة منها على سبيل المثال لا الحصر

— ازدياد قوة التيار الانفصالي ، مما ادى الى انقسام الخلافة الاسلامية الى دول كثيرة منفصلة ، وتبع ذلك انقسام الخلافة الاسلامية الى شعب ثلاث : الخلافة العباسية — والخلافة الفاطمية — والخلافة الاموية .

— بروز التيار الشيعي ، وتمكنه من تحقيق جزء من اهدافه . وبرز نزعة الغلوفية — بروز التيار الصوفي لدى فئة كبيرة من السنة .

— نضوج الحضارة الاسلامية ، ووصولها الى الذروة في هذه الفترة .

— قوة الدولة البيزنطية وتهديدها للخلافة الاسلامية وبرز دور الدول الاسلامية المنفصلة في الدفاع عن الخلافة .

الفصل الأول

عصر سيطرة الاتراك

عصر سيطرة الاتراك (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ / ٨٤٧ - ٩٤٥ م)

١ - ظهور العنصر التركي في بلاد الخلافة الاسلامية :

كان المأمون اول من اتخذ من الخلفاء ، الاتراك للخدمة • فكان يشتري الغلام من الاتراك بمائة ألف ومائتي ألف^(١) وبدأ ظهور الاتراك على مسرح الاحداث منذ ان ولي المعتصم الخلافة ، اذ وجد بأنه لا يستطيع الاعتماد على العرب بسبب عصبيتهم واعزازهم بدورهم في الاسلام • ولضعف ثقته بهم • كما انه لا يستطيع الاعتماد على العنصر الفارسي لطموحه ومحاولته تحقيق مصلحته القومية ، بالاضافة الى كرههم لهم • فالبرامكة ، وبنو سهل وغيرهم من الذين قادوا الحركات ذات الاهداف المختلفة في العصر العباسي الاول ، كل هؤلاء كان لهم مطامع يريدون تحقيقها على حساب الخلافة العباسية^(٢) ، ومن جملة ما فعلوه في هذه الفترة انهم حاولوا جعل الخلافة للعباس بن المأمون دون المعتصم ، لتحقيق مطامع قومية على حساب الخلافة العباسية وكانوا يتنافسون مع العرب منذ حدوث الخلاف بين الامين والمأمون ، وقد تكون هذه الامور هي التي دفعت بالمعتصم الى ان يفكر بالاستعانة

(١) - المقرئ : المصدر السابق ، ورقة ١٢٨ ظهر و ١٢٩ وجه

(٢) - انظر ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٦٤ .

بعنصر جديد • فوجد في العنصر التركي ضالته المنشودة ، فامه ماردة منهم ،
بالإضافة لما يتصف به هذا العنصر من القوة والشجاعة ثم انه لا يحمل الاهواء
السياسية التي للعرب ، ولا المصالح الخاصة والمجد القديم الذي للفرس •

ادخل المعتصم الاتراك بصورة خاصة ضمن جيشه كمحترفين ، كما اتخذ منهم
حرسه الخاص ، وبالتالي فانه شعر بانه اصبح يملك جيشا بعيدا عن الصراعات
الحزبية والقبلية ومرتبطا بالخليفة مباشرة ، وشعر بأنه ضمن خضوع هذا الجيش
تماما لسلطته •

استندم المعتصم هؤلاء الاتراك الذين استخدمهم في جيشه من بلاد ما وراء
النهر ، وخاصة فرغانة واشروسنه ، حيث كانت القبائل التركية المعروفة بالهياطلة •
وكانوا على علاقة عداء مع الفرس المجاورين لهم قبل الاسلام وقد تميز هؤلاء
الاتراك وهم بدو العجم كما اسماهم الجاحظ بالصفات الاصلية للبدو ، كحسب
الحرب والفروسية والتعلق بالنظام القبلي •

لم يكن ظهور الاتراك بالخلافة الاسلامية جديدا في عهد المعتصم ، بل وجدوا
في عهد من سبقه في بيوت سادات العرب على شكل خدم ، وقد انخرط بعضهم
في الجيش العباسي منذ قيام الدعوة العباسية^(٣) • ثم تزايد عددهم بما كان يجلب
منهم شراء ، أو كأسرى في الحروب التي نشبت بين العرب والترك على الحدود
الشرقية • وكان بعضهم يرسل كهدايا الى الخلفاء من قبل ولايتهم في بلاد ما وراء
النهر • أو كجزء من خراج خراسان • فقد كان عبد الله بن طاهر يرسل سنويا الى
الخليفة الفتي غلام تركي كجزء من خراج خراسان^(٤) •

وهكذا توارد الاتراك الى بغداد وقارب عددهم سبعين الفا^(٥) • وتعلم هؤلاء
العربية كما بدأوا باعتناق الاسلام • وقد خصهم المعتصم بالنفوذ ورفع من شأنهم

(٣) - فاروق عمر : طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١٨ •

(٤) - شاكر مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٢٧ •

فقلدهم قيادة الجيش وجعل لهم مركزا في مجال السياسة والحرب ، وفتح باب التطوع كمرتزقة امامهم ، وحرم العرب مما كان لهم من قيادة الجيوش ، كما اسقط اسماءهم من الدواوين^(٦) وادر عليهم الهبات والارزاق ، واثروهم على الفرس والعرب في كل شيء ولم يكن هؤلاء اصحاب حضارة سابقة فبهرتهم بغداد بحضارتها . فأخذوا يعبثون بالامن في بغداد ، يسرون في شوارعها راكبين خيولهم دون ان يعابوا بالمارة فيصدمونهم فيموت منهم جماعة من الصبيان والعيان والضعفاء لضغط خيولهم وتزاحمها^(٧) ، دون اكتراث . فتأذى من ذلك أهالي بغداد ، واضطروا الى رفع شكاياتهم الى الخليفة معلنين تأذي الناس من جنده ، وطلبوا منه الخروج بهم خارج بغداد ، والا فانهم سيعلمون الحرب عليه ، وحين سألهم المعتصم عن كيفية حربه ؟ اجابوه : (نحاربك بسهام السحر ، قال : وما سهام السحر ؟ قالوا . ندعو عليك ، فقال المعتصم لاطاقة لي بذلك)^(٨) .

وامام شكوى العامة وخوف المعتصم على جنده ، قرر الانتقال الى القاطول ، موقع مدينة سامراء على بعد يزيد عن مائة كيلو متر عن بغداد العاصمة الى الشمال^(٩) ، وبنى مدينة جديدة سماها سامراء في سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٤ م ، واحضر لها الصناع واهل المهن من سائر الامصار^(١٠) . وقد خصص فيها معسكرات لجنده الاتراك بعيدة عن الاسواق ، وليس معهم في قطائعهم أحد من الناس يختلط

(٥) - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٣ ، ص ١٧٤ .

(٦) وقد وصلنا من كتبه التي ارسلت في هذا المجال الى ولاته . ذلك الكتاب الذي كتبه الى كيدر واليه على مصر يأمره فيه باسقاط من في الديوان من العرب وقطع اعطياتهم . وكان لذلك اثره في ثورة قبائل لخم وجذلام على المعتصم ، انظر احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٩٨ .

(٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١٨ .

- ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٤ .

(٨) - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٣ ، ص ١٧٤ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جزء ٢ ص ٢٣٣ - احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٦ .

(٩) - بين بغداد وتكريت شرقي دجلة ، انظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٣ .

(١٠) - انظر فيما بعد « بناء سامراء » .

بهم (١١) . ولكن شغب الجند الاتراك لم ينقطع ، فكانوا كلما وقعت البلاد في ضائقة مائة وتأخر دفع مرتباتهم شغبوا ونهبوا وسلبوا وقتلوا . ثم شرع كبار قادتهم يطالبون بولايات كاملة كاقطاعات يتصرفون بأموالها كيف شاؤوا . ومن هذا القبيل ولاية بكباك التركي على مصر وارساله نائبا عنه مع بقائه في العاصمة . اما صغار القادة فقد اعطوا اقطاعات من اراضي الخراج كي يجبوا ضريبتها لصالحهم او أعطوا جباية ضرائب احدى المناطق عوضا عن الاجور النقدية . وكان هذا بداية للنظام الاقطاعي العسكري (١٢) .

ونزايد عدد الاتراك الذين اصطفاهم المعتصم ، ودانوا بالاسلام ، واخذوا يتعلمون علوم عصرهم ، ويتغلغلون تدريجيا في وظائف الدولة . ولكنهم لم يحسنوا للخلفاء الذين اعتمدوا عليهم (١٣) . حتى ان المعتصم نفسه الذي استكشر منهم عبر في اواخر ايامه عن استيائه من الاعتماد عليهم (١٤) اذ غرهم ما شعروا به من انهم يشكلون قوة الخلافة الرئيسية . كما لم يعمل هؤلاء الاتراك على اكتساب محبة الاهالي بل تملكهم الزهو والغرور بقوتهم . فاستهانوا بحقوق الناس في الولايات الاسلامية ، كما أساءوا الى العرب . وتدمر المتدمرون ، وقام المبرقع اليماني برفع راية العصيان على خلافة المعتصم ، بعد ان بلغه أن أحد الجنود الاتراك حاول دخول منزله (١٥) . وكان كره الاتراك عاما بين الطبقات كافة ، فقد اخذ المحدثون يعبرون عن استيائهم واستياء العامة بوضع الاحاديث في ذم الترك . فرووا ان النبي (ص) قال : الترك أول من يسلب امتي ما خولوا . وعن ابن عباس انه قال : ليكونن الملك في ولدي حتى يغلب على عزلهم الحمر الوجوه ، الذين كأن وجوههم المجان المطرقة . وعن ابي هريرة انه قال : لا تقوم الساعة

(١١) - اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٤ - ٣١ .

(١٢) - الدوري : نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية ، بغداد ١٩٧٠ ، ص ١٤-١٨ .

(١٣) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ وما بعدها .

(١٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١٢٢ .

(١٥) - بيطار : الحياة السياسية واهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ، ص ٩٨ .

حتى يجيء قوم عراض الوجوه مصغار الاعين ، فطس الانوف ، حتى يربطوا خيولهم بشاطئ دجلة (١٦) .

وصفوة القول : ان سياسة استخدام الاتراك في الجيش واشارهم بالمناصب العليا في عهد المعتصم ومن جاء بعده ، حملت العرب على الانصراف عن تأسيس العباسيين . وكان سكوتهم عن اندفاع عن حقوقهم بسبب عدم توحيدهم في وجه الخطر الذي احقق بهم ، نتيجة السياسة التي اتخذها الخلفاء في الاعتماد على العناصر الاسلامية . فحرص كل فرع قبلي في منطقة محددة من العالم الاسلامي على تشكيل كتلة منفصلة ، وعمل لمصلحته دون سواه .

٢ - الصراع حول السلطة في عصر النفوذ التركي :

بلغ الاتراك عايتهم منذ عهد الخليفة المعتصم . فقد تمكنوا من السيطرة على شؤون الخلافة الهامة . وكان رئيسهم ايتاخ يتسلم أعلى المناصب ، اليه قيادة الجيش ، والاشراف على دار الخلافة ، وازداد نفوذهم تدريجيا ، واصبحوا مصدر قلق واضطراب . فهم يكرهون الفرس والعرب دون ان يكونوا يدا واحدة . فالدسائس بين قادتهم مستمرة ، وبجهلهم وتفرقهم تحكموا وتدخلوا في تولية وعزل الخلفاء . وقد فسح لهم المجال لأول مرة حين توفي الخليفة الواثق دوزان يعهد لاحد بالخلافة من بعده . فنهضوا بالامر ، واختاروا جعفر بن المعتصم بلقب المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م) وقد عمل المتوكل على قتل كبيرهم ايتاخ للتخلص من تسلطه . فاكسب حقد الاتراك عليه ، لانهم خشوا ان يكون مصيرهم كمصير ايتاخ فتآمروا على الخليفة . وشعر المتوكل بما يكنه له هؤلاء فحاول التخلص منهم بنقل حاضرة الخلافة من العراق الى الشام (١٧) . لعله يجد فيها من المنصر العربي ما يغنيه عن العنصر التركي . ولما فعل ثار عليه الاتراك ، كما

(١٦) - ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٣ - احمد امين : ظهر الاسام ، جزء ١ ، ص ٨٧ .

(١٧) - حسن محمود و ابراهيم الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٣٣١ .

لم يسلم من شغب جند الشام عليه مطالبين باعطياتهم فاضطر الى العودة من حيث اتى (١٨) .

اضر الاثراك السوء للمتوكل ، واستغلوا فرصة تأزم الاوضاع بين الخليفة وابنه وولي عهده المنتصر، الذي رأى ان يحتفظ لنفسه بولاية العهد ، بعد أن رأى عزم ابيه على عزله عنها، اثر تحريض وزيره عبيد الله بن خاقان ، ونديمه الفتح بن خاقان فتآمروا على قتل المتوكل . ولما فعلوا بايعوا للمنتصر في سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م بالخلافة .

يعتبر قتل المتوكل اول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، فقد خلفاء العباسيين بعدها ما كان لهم من سلطة . واصبحت حياتهم معرضة للخطر على ايدي الاثراك . ولم يكن على الخلفاء الا الاذعان للامر الراهن ، اذا ارادوا الحفاظ على حياتهم والاقتناع بما بقي لهم من سكة وخطبة . الا من استطاع منهم ان يثبت وجوده ومقدرته على التصرف بأمر الدولة بعزم وحزم .

اصبح المنتصر في قبضة الاثراك بسبب ظروف تسلمه العرش . واصبح لا يستطيع القيام بعمل دون مشورتهم . فقد لبى طلبهم بخلع اخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد — كان لهما بيعة بولاية العهد بعد اخيهما المنتصر من قبل ابيهما المتوكل — خوفا من ان ينتقما من قتلة المتوكل ، فأحضر المنتصر اخويه وطلب منهما خلع انفسهما امام الاثراك موصحا انه لم يفعل هذا رغبة في تولية احد ابنائه ، بل طاعة للاثراك ، وخشية عليهما من القتل . فقال : (اتراني خلعتكما طمعا في ان اعيش حتى يكبر وادي وابايح له ؟؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط . وذا لم يكن

(١٨) — بيطار : المرجع السابق ، ص ١٠١ — ١٠٤ — وانظر عن اسباب ترك المتوكل لدمشق ، المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٢٧٦ — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢١٠ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٩٨ — كرد علي : خطط الشام ، جزء ١ ، ص ١٩٣ .

في ذلك طمع ، فوالله لان يليها بنو ابي احب الي من ان يليها بنو عمي . ولكن هؤلاء
الحوا علي في خلعكم فحفت ان لم افعل ان يعترضكم بعضهم بحديدة
فيأتي عليكم (١٩) .

حرص المنتصر على الرغم من قصر مدة حكمه على توفير اسباب السعادة
والرفاهية لشعبه فأحسن الى العلويين ، والغى ما كان قد صدر بحقهم في عهد
ابيه . الا ان الاتراك لم يتركوه على الرغم من خضوعه من الوجهة العملية لهم .
ولم يكن من عذر لهم في قتله : سوى زلة لسانه وتغييره عما يجيش في صدره
تجاههم بقوله : هؤلاء قتلة الخلفاء . فقتلوه بعد حكم لم يدم اكثر من ستة اشهر
وعمره ست وعشرون سنة . ويقال بانهم اغروا طيبه ابن طيفور بذلك ، واعطوه
ثلاثين ألف دينار . ففصده بريشة مسمومة في ربيع الثاني سنة (٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م) .

على اثر مقتل المنتصر برز قادة الاتراك ، امثال بغا الكبير وبغا الصغير واتامش
ووصيف ، وقد اجتمع هؤلاء وبايعوا لاحمد بن محمد المعتصم خليفة بلقب
المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م) وغايتهم الاستئثار بالسلطة دونه .
وقد قدم لهم المستعين كل ما يستطيع من تنازلات (٢٠) ، حتى اصبح أسيرا بين
أيديهم ، ولا أدل على وضعه بين يدي الاتراك من وصف احد الشعراء للوضع قائلا :

خليفة في قفس بين وصيف وبغا
يقول ما قال له كما تقول البيغا

ادى ازدياد نفوذ الاتراك في عهد المستعين ، وجشعهم المتنامي للمال ، الى
قيام الخليفة بقتل باغر التركي قاتل المتوكل (٢١) . وخوفا من نقيمتهم ولشعوره
بالمؤامرات تحاك ضده ترك سامراء ، والتجأ الى بغداد في سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م .

(١٩) - الطبري : المصدر السابق جزء ٩ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٢٠) - انظر هذه التنازلات في الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢٨٣ .

(٢١) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢٧٨ - ٢٨٢ .

- ابن تقي بريدي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٣٢ .

ولم يرض الاتراك بهذه البادرة ، فلحقوا بالخليفة ، وطالبوه بالعودة الى سامراء ، ولما ابى ويثسوا من عودته ، بايعوا ابن عمه المعتز بالله وانقسم الناس والجنود بينهما . ودارت رحى حرب اهلية بين الفريقين (٢٢) . ولما كانت غالبية القوة العسكرية في جانب الاتراك وهم يناصرون المعتز . فقد كان النصر الى جانبهم ، واضطر المستعين الى التنازل عن الخلافة في محرم سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م . ورحل الى واسط . وعلى الرغم من ذلك فقد اوجسوا خيفة من بقاءه حيا ، وكتبوا الى احمد بن طولون الذي كان يدبر امور المستعين في واسط . يطلبون قتله مقابل ولاية واسط ، فأبى ، فأرسلوا اليه سعيدا الحاجب حيث قتله (٢٣) .

اختل توازن الخلافة في عهد المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ / ٨٦٦ - ٨٦٩ م) من جراء استفحال نفوذ الاتراك ، واختلافهم فيما بينهم . ولم يكن للخلافة الا مساهمتهم حيناً ، وتبدير الدسائس والمؤامرات للتخلص من نفوذهم أحيانا اخرى . ولذلك فان الامر لم يرق لهؤلاء الاتراك ، وثاروا ضده ملحين في طلب مرتباتهم وزيادة خمسين ألف دينار ، ولما عجز عن التنفيذ ، اخرجوه عنوة من القصر وانزلوا به اروع ضروب الاهانات حتى اضطروه الى التنازل عن الخلافة . وعملوا على التخلص منه (٢٤) . كما صادروا اموال امه ، وكان لهذه الاعمال كبير الاثر في الهاب قريحة الشعراء فأخذوا ينشدون الشعر يصفون فيه ما اصاب البلاد (٢٥) .

بايع الاتراك اثر ذلك محمد بن الواثق . ولقبوه المهتدي بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠ م) ، وكان رجلا عادلا محبا للشعب . على مقدرة ممتازة وكفاية منقطعة النظير . وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ويقول : اني استحي ان

(٢٢) - عن هذه الحرب الاهلية انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢٨٣ - ٢١٧ .

- ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٢٣) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٦ .

- ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٦ .

(٢٤) - عن طريقة قتله ، انظر ابن الاثير : المصدر السابق جزء ٧ ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢٥) - احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٢٣ .

يكون في بني أمية مثله ولا يكون مثله في بني العباس . ولما كانت قوة الدولة في عهده بيد الاتراك فانه اراد ان يعيدها للخلفاء ، مستغلا في سبيل ذلك شجاعته وقوته اللتين اشتهر بهما ، بالاضافة الى قوة ايمانه ، وتأيد الشعب له ، وحاول ضرب قادة الاتراك بعضهم البعض . الا انه فشل في ذلك واصبح هدفا لهم . وعلى الرغم من ذلك فانه اظهر عدم اهتمامه بتآمرهم عليه . وافهمهم انه واقف لهم بالمرصاد . وانه غير راض عن عدم قيامهم بواجبهم العسكري تجاه البيزنطيين (٢٦) .

وقد وقع المهتدي نتيجة صلابته وحزمه ، وتشدده في وجه الاتراك دون ان يملك القوة العسكرية والاقتصادية الى نهوض الاتراك لقتاله والتخلص منه . وعلى الرغم من المجهودات الكبيرة التي بذلها الخليفة وبلائه الحسن ، فانه لم يستطع ان يحقق نصرا . فقد انضم من معه من الاتراك الى اخوانهم ، فوقع في ايدي أعدائه . وقد عمل هؤلاء على خلعهم من الخلافة . وكانت نهايته بعد ذلك بقليل في رجب سنة ٢٥٦ هـ / يونيو حزيران ٨٧٠ م (٢٧) .

بويغ على اثر ذلك احمد بن المتوكل ولقب بالمعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ - ٨٩٢ م) فاستدعى اخاه ابا احمد طلحة من مكة ليعاونه في صد خطر الزنج . ثم جعله وليا للعهد بعد ابنه جعفر في سنة (٣٦١ هـ / ٨٧٥ م) . وحجر الموفق على اخيه الخليفة ، ولم يترك له سوى الخطبة والسكة ، والامر والنهي والقول الفصل للموفق . ويبدو أن الموفق كان رجلا حازما ذا مقدرة عسكرية ممتازة ، يتضح ذلك من وصف ابن طباطبا للدولة في عهد المعتمد حيث يقول : كانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع . كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بأمرة المؤمنين ولاخيه طلحة الامر

(٢٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ - احمد امين : ظهور الاسلام ، جزء ١ ، ص ٢٤ .

(٢٧) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٢٨ .

والنهي وقود العساكر ومحاربة الاعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والامراء،
وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته (٢٨) .

لم يكن للاتراك في خلافة المعتمد ما كان لهم في خلافة من سبقه . ويبدو ان ذلك كان لقوة الموقف من جهة ، ولتأثير الحركة التي قام بها المهندي من جهة أخرى . فقد استعاد العباسيون شيئا من سلطانتهم وركن موسى بن بغا (٢٩) الى الهدوء في هذه الفترة . وقد حدث في خلافة المعتمد بعض الاحداث الهامة . منها ثورة الزنج (٣٠) واختفاء الامام الثاني عشر عند طائفة الاثنى عشرية ، ونشاط طائفة الاسماعيلية في أرجاء الوطن العربي الاسلامي (٣١) .

توفي الموفق في حياة اخيه الخليفة في اوائل سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م ، فاجتمع كبار القواد ، وبايعوا ابنه ابا العباس بولاية العهد بعد المفوض الى الله . ولقبوه بالمعتضد ، فتحولت سلطة ابيه اليه ، وخلف عمه بعد وفاته .

كان المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠٢ م) من خيرة خلفاء العباسيين ، عاقلا شهما فاضلا ، ولي الخلافة وهي بحاجة الى رجل قوي السياسة شديد على اهل الفساد . فقام بما يتطلبه منه هذا المركز احسن قيام (٣٢) . فقد وطد الخلافة العباسية ورفع شأنها ، واضعف سلطة الاتراك بقدر ما يستطيع . الا انه وعلى الرغم من المجهود الضخم الذي بذله لاعادة سلطة الخلافة العباسية الى سابق عزها ، لم يستطع لتراكم الفساد في الخلافة من عهد من سبقه . ولذلك فان

(٢٨) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

(٢٩) - درج موسى بن بغا في مراتب الجيش حتى اصبح من اكبر قواده . وقام بدور واسع مع غيره من الاتراك مشتركا في الثورات المتعددة التي قامت في وجه الخلفاء سلبا او ايجابا . فطورا يذب عن عرش الخلافة ، واخر يتآمر مع المتآمرين لشل هذا الفرش . وقد استطاع الخليفة المعتمد ان يكسب جانبه بمصانعته وزيادة اكرامه . فارسله في سنة ٢٥٩ هـ لقتال صاحب الزنج ، وكبح جماح الخارجين على الدولة ، كما ضمه لابنه موسى حين ولاه ولاية المناطق الغربية .

(٣٠) - انظر فيما بعد .

(٣١) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ١٣ .

(٣٢) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ٢٥٦ .

عددا من الحركات الانفصالية والثورات الاجتماعية ظهرت في عهده . فقد خرج عليه عمر بن الليث الصغار فاستولى على اكثر بلاد العجم ، وقوي نفوذه وعظمت ثروته ، حتى انه كان يقول : لو شئت ان اعقد على نهر بلخ جسرا من ذهب لفعلت (٣٣) . كما ظهر نصر بن احمد الساماني في ما وراء النهر (٣٤) . وظهر ابن حوشب في اليمن لنشر الدعوة للمهدى (٣٥) . وابو عبد الله الشيعي في المغرب (٣٦) . كما ظهر القرامطة في الكوفة على يد حمدان قرط ، وفي البحرين على يد أبي سعيد الجنابي (٣٧) .

قام المعتضد بالحد من نشاط هذه الحركات . فأشده ابن المعتز ملحمة بدأها بدم الأتراك وفسادهم في البلاد ، ثم عدد اعمال المعتضد وما قام به من حروب وما اتى به من اصلاح وهي تعد الى جانب أهميتها الادبية ، وثيقة تاريخية هامة للاحداث في عهد المعتضد (٣٨) .

توفي المعتضد بعد أن حكم عشر سنوات ، وترك لابنه وخليفته المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨ م) مهمة القضاء على بعض الحركات التي لم يمهله القدر بالقضاء عليها . ولم يكن المكتفي اقل من ابيه مقدرة ، الا ان الحركات التي بدأت في عهد اسلافه تمكنت في عهده (٣٩) . فقد اضطر الى قتال القرامطة ، وتسريح الجيوش الكثيرة لايقافهم عن قطع الطرق على الحاج (٤٠) كما عمل على

(٣٣) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ٢٥٦ .

(٣٤) - ابن الأثير : المصدر الكامل ، جزء ٧ ، ص ٤٥٦ .

(٣٥) - القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحات الدشراوي ، الشركة التونسية للتوزيع ،

ص ٦ - ٢٥ .

(٣٦) - القاضي النعمان : المصدر السابق ، ص ٣٠ وما بعدها .

(٣٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٣ - ٢٧ .

(٣٨) - احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣٩) - ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٥٤٨ .

(٤٠) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

القضاء على الدولة الطولونية ، واستعاد بذلك السلطة على مصر والشام
والشعور (٤١) .

سثم الاتراك واصحاب السلطة من اختيار الخلفاء القادرين الاكفاء منذ عهد
المهتدي حتى المكتفي اذ لم يترك هؤلاء سلطة للمتنفذين ، وقاموا بامور الخلافة
بانفسهم . فاجتمع اصحاب السلطة بعد وفاة الخليفة المكتفي لاختيار من يرضون
عنه . واسفرت اجتماعاتهم ومشاوراتهم عن اختيار جعفر ابن المعتض باسم
المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٣٢ م) ، وعلى الرغم من وجود من هو
اقدر منه . امثال عبد الله بن المعتز (٤٢) وهو كفء واديب . كان المقتدر في الثالثة
عشرة من عمره . فترك أمور الخلافة لغيره ، رانشغل عنها باللعب واللهو ، فساءت
حالة الخلافة العباسية في عهده . وازداد نفوذ الاتراك وانقسموا في تأييدهم
للمقتدر . وناصر فريق منهم ابن المعتز وتدخل النساء وافراد الحاشية في
الحكم (٤٣) ، ومن المهم ان نذكر ان انقسام الجند على المقتدر كان لاسباب
متعددة : على رأسها مصالح الاتراك المتضاربة ومحاولة كل فئة تأييد من ترى فيه
مصلحتها ، وقد ادى ذلك الى حدوث ثورتين ضده ، وازيح المقتدر عن العرش
مرتين ، كانت المرة الاولى حين وقف ابن المعتز وانصاره في وجه المقتدر في سنة
(٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) (٤٤) . اما الثانية فكانت حين بويح القاهرة بالله (٤٥) .

واقدر وصف على تصوير وضع المقتدر مذكره المسعودي في كتابه التنبيه
والاشراف (٤٦) ، حيث قال : (افضت الخلافة اليه وهو صغير غر ترف ، لم يعان
الامور ، ولا وقف على احوال الملك ، فكان الامراء والوزراء والكتاب يدبرون

(٤١) - انظر بيطار : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٩ .

(٤٢) - عن الاجتماعات والمشاورات التي جرت لاختيار الخليفة المقتدر ، انظر مسكويه : تجارب
الامم ، جزء ١ ، ص ٣ وما بعدها .

(٤٣) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢٠٦ - و ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٤٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١٤٠ وما بعدها .

(٤٥) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢٠٠ - ٢٠٣ .

(٤٦) - ص ٣٢٨ .

الامور ، ليس له في ذلك حل ولا عقد ، ولا يوصف بتدبير ولا سياسة • وغلب على الامر النساء والخدم وغيرهم • فذهب ماكان في خزائن الخلافة من الاموال والعدد بسوء التدبير الواقع في المملكة • فأداه ذلك الى سفك دمه ، واضطربت الامور بعده • وزال كثير من رسوم الخلافة (٤٧) • وهكذا تلاشت هيئة الخلافة نهائيا في عهد المقتدر بعد ان عمل كل من المهتدي والمعتضد والمكتفي على اعادتها الى سابق عهدها •

ولابد لنا في هذا المجال من ان نذكر كيف كان اصحاب النفوذ في الدولة يرون الحجر على من يرشح للخلافة • لينشأ جاهلا غرا • فينصرف الى لهوه ولذته ، ويترك لهم امور الخلافة ، وسنورد مثالا على هذا - على الرغم من كثرة الامثلة والادلة - مذكروه الصولي من انه عهد اليه بتربية الراضي بالله واخيه هارون فكان يلقيهما مرتين في الاسبوع ، وقد رآهما فطين عاقلين • الا انهما خاليان من العلوم • فحبب الصولي العلم اليهما • واشترى لهما من كتب الفقه والشعر واللغة وال اخبار الكثير ، حتى تنافسا في العلم ، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه ، وقرأ الاشعار وال اخبار على الصولي •

وتقدم الاخير في تعليمهما ، فقبل له على لسان اهل القصر (ما تريد ان يكون اولادنا ادباء ولا علماء وهذا أبوهما قد رأينا كل مانحب فيه وليس بعالم) (٤٨) •

تولى القاهر بالله (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ / ٩٣٢ - ٩٣٤) عرش الخلافة بعد اخيه المقتدر ، ولم يكن افضل منه • اذ اشتهر بالقسوة وقبح السيرة • كان سفاحا كثير التلون ، مدمنا للخمر • لم تمض على خلافته سنة واحدة حتى شغب عليه الجند ، واتفق بعضهم على خلعه • واكتشف القاهر المؤامرة فابتدرهم قبل ان يبدأوا به • وبعد ان هدأت الاحوال اعطى الخليفة الجند ارزاقهم وقبض على الامور بحزم ،

(٤٧) - ازداد نفوذ نساء القصر في عهد المقتدر • وكانت السيدة والدة المقتدر تولي وتعزل ، حتى ان الامر تعدى ذلك الى قهرماناتها ، انظر : المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ •
(٤٨) - الصولي : اخبار الراضي بالله والمتقي لله ، وهو جزء من كتاب الاوراق ، دار المسيرة بيروت
ص ٢٦ - ٢٧ - احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٢٧ •

الا ان المؤامرات لم تنته ، فقد خاف البعض بطش القاهر ، فقبضوا عليه واستحضروا الطبيب بخيتشوع بن يحيى ، فسألوه ان يدلهم على من يحسن السمل — وكان اول من سمل من الخلفاء — فسمل ثم سجن (٤٩) . واستمر في السجن الى ان توفي سنة (٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) في خلافة الطائع لله .

ج - ظهور منصب امرة الامراء واسبابه :

ازداد نفوذ قادة الاثراك في عهد الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٠ م) وبدأ الصراع الثلاثي بينهم وبين الخليفة والوزير (٥٠) . وبدأ عجز الوزراء عن ادارة الدولة نتيجة لهذا التسلط . وامام الاضطرابات في العلاقات بين كبار رجالات الدولة ، ولاستشراء الازمة المالية في عهد الخليفة الراضي ، رأى الراضي ان يستميل محمد بن رائق اليه ويسلمه صلاحيات الوزير ، وقائد الجيش معا . اى ان يكلفه بكل المهام الادارية والعسكرية . ويخطب له على جميع المنابر بعد اسم الخليفة (٥١) ، ويعطى لقب امير الامراء .

كان محمد بن رائق — قبل ان يستدعيه الخليفة — يلي واسط والبصرة . فتولى منصب امير الامراء سنة (٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م) واصبح هذا المنصب من المناصب التي يتنافس عليها الاثراك ، وطغى صاحبه على الخليفة . وقال ابن طباطبا (٥٢) متحدثا عن وضع الخليفة والوزير مع امير الامراء ابن رائق . (استبد ابن رائق امير الامراء بالامور ، وولى النظار والعمال ورفع المطالعات اليه ، ورد الحكم في جميع الامور الى نظره . ولم يبق للوزير سوى الاسم من غير حكم ولا تدبير ، ومن تلك الايام اضطهدت الخلافة العباسية ، وخرجت

(٤٩) - المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٣٣٦ .

(٥٠) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣١٢ - ٣١٣ وما بعدها .

(٥١) - الصولي : المصدر السابق ، ص ٨٤ - ٨٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص

٣٢٢ - ٣٢٣ ، وقد اصبحت الوزارة اسمية ، والوزير يملك ولا يحكم .

(٥٢) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ٣٨٢ .

الامور منها ، واستولى الاعاجم والامراء وارباب السيوف على الدولة ، وجبوا
الاموال ، وكفوا يد الخليفة وقرروا له شيئا يسيرا * (حتى عجز عن دفع ارزاق
الجند والحصول على مايكفي نفقاته * .

اصبح منصب امرة الامراء الذي اوجد ليستعين الخليفة بصاحبه على ادارة
شؤون الدولة مجالا للمنافسة * وادى الى بلبلة الاوضاع عوضا عن تهدئتها ، فقد
نافس بجكم - احد قواد ابن رائق - سيده ووقع به الهزيمة ودخل بغداد وحل
مكانه في امرة الامراء (٥٣) .

تجلى الاضطراب في العراق في ولاية بجكم لمحاولة ابن رائق استعادة منصبه *
وتوسط الخليفة بين المتنافسين ، وقرر أن يبقى بجكم معه كأمرير
للأمراء ، وان يخرج ابن رائق الى الشام واليا عليها ، وبقي بجكم في أمرة الامراء
حتى توفي الخليفة الراضي بالله (٥٤) .

وقد اورد ابن الاثير (٥٥) فقرة تدل على مبلغ تسلط رجال الاطراف على
اراضي الخلافة في عهد الراضي فقال : ولم يبق للخليفة غير بغداد واعمالها والحكم
في جميعها لابن رائق وليس للخليفة حكم * واما باقي الاطراف فكانت البصرة في
يد ابن رائق * وخوزستان في يد البريدي ، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه ،
وكرمان في يد أبي علي محمد بن الياس ، والري واصبهان والجبل في يد ركن الدولة
ابن بويه ويد وشمكير اخي مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر
وربيعة في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طعج ، والمغرب وافريقية
في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي العلوي * * * والاندلس في يد عبد
الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الاموي ، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن
أحمد الساماني ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، والبحرين واليمامة في يد أبي
طاهر القرمطي * .

(٥٣) - الصولي : المصدر السابق ، من ص ١٠١ - ١٠٧ .

(٥٤) - الصولي : المصدر السابق ، من ص ١٠٩ وما بعدها .

(٥٥) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٨ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

نوفي الراضي سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م فخلفه ابراهيم بن المقتدر بلقب المتقي لله (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ / ٩٤٠ - ٩٤٤ م) وفي عهده قتل امير الامراء بجكم على يد بعض الاكراد فعاد ابن رائق الى بغداد . وتسلم منصب أمرة الامراء (٥٦) .

لم تصف الامور لابن رائق هذه المرة ايضا فقد نافسه ابو عبد الله البريدي، وهزمه في معركة عسكرية . ونهب البريديون دار الخلافة ، وفعلوا ما لم يفعله احد قبلهم (٥٧) . ففر الخليفة مع ابنه ومحمد بن رائق الى الموصل ، طالبين مساعدة الحسن بن عبد الله بن حمدان . ويبدو أن ابن حمدان طمع في منصب امرة الامراء، فبادر الى مساعدة الخليفة وارسل معه اخاه ابا الحسين علي بن عبد الله ، واغتال محمد بن رائق مبررا فعلته للخليفة بتآمر ابن رائق عليه (٥٨) .

اصبحت امرة الامراء بيد العرب بشخص ناصر الدولة بن حمدان حسب اللقب الجديد الذي حصل عليه بن المتقي لله ، كما اطلق على اخيه لقب سيف الدولة (٥٩) ولم يعمل ناصر الدولة بعد تقلده منصب امرة الامراء على رعاية حقوق الخليفة ، بل استأثر بالسلطة دونه . وضيق عليه وعلى اهل داره في النفقات، واتزع ضياعه وضياع والدته ، ثم لم يلبث ان ترك بغداد وعاد الى الموصل (٦٠) .

اصبح منصب امرة الامراء فارغا برحيل ناصر الدولة . وكان الخليفة بحاجة الى الحماية خشية من البريديين . ولذلك فانه استنجد بتوزون ومهد له السبيل لدخول بغداد في رمضان سنة (٣٣١ هـ / ٩٤٢ م) وخلع عليه واعطاه امرة الامراء (٦١) . ولم يكن توزون اكثر اخلاصا للخليفة . بل ان اعماله دعت الخليفة

(٥٦) - الصولي : المصدر السابق ، ص ١٩٧ وص ٢٠٦ وص ٢٢٥ وما بعدها - السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١١٤ .

(٥٧) - الصولي : المصدر السابق ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٥٨) - الصولي : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ وما بعدها - مسكويه : تجارب الامم ، جزء ٢ ، ص ٢٧ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٣٨٢ .

(٥٩) - الصولي : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

(٦٠) - الصولي : اخیار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٢٣٥ وص ٢٤١ .

(٦١) - الصولي : المصدر السابق ، ص ٢٤٤ وما بعدها .

الى الالتجاء الى ابن حمدان ثانية • ومن عاصمة الحمدانيين استنجد بمحمد بن طغج الاخشيد ، كما سعى الى مصالحة توزون • وذلك لان ابن حمدان لم يحسن استقبال الخليفة ، وبدا منه الملل والضجر ، بالاضافة الى أنه لم يستطع التغلب على توزون (٦٢) •

رحل الخليفة الى بغداد برفقة توزون بعد أن أمنه في محرم سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م ولكنه ما لبث ان قبض عليه وسلمه وسجنه • وبايع ابن المكتفي بلقب المستكفي بالله (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ / ٩٤٤ - ٩٤٥ م) (٦٣) ، وقد ساعده على القيام بفعله الخلاف والتنافس والتآمر بين افراد البيت العباسي بغية الوصول الى السلطة ، بالاضافة الى دسائس النساء ، وتفضيل الاثراك لمرشح دون اخر لتحقيق مصالحهم (٦٤) •

بقي توزون اميرا للامراء في عهد المستكفي المغلوب على أمره (٦٥) ، وانتقلت امرة الامراء بعد وفاة توزون سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م الى كاتبه ابن شيرزاد • ولم يكن هذا افضل من سابقه • فقد لجأ الى مصادرة أموال الناس ليزيد في أرزاق الجند الاثراك والديلم • كما فرض الاموال على الكتاب والعمال والتجار وغيرهم من افراد الشعب • وازدادت الضرائب في أيامه بشكل كبير حتى اضطر التجار الى الهرب من بغداد (٦٦) • واستاء كثير من قواد بغداد فدعوا أحمد بن بويه للمسير اليهم • فرحل من الاهواز قاصدا بغداد في / ١١ / جمادى الاولى سنة ٣٣٤ هـ / ٨ يناير كانون الثاني ٩٤٦ م حيث قابل الخليفة واحتفى به ، وخلع عليه ، ومنحه

(٦٢) - الصولي : المصدر السابق ، ص ٢٤٦ وما بعدها - السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٦٢ •

(٦٣) - السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ •

(٦٤) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٥ •

(٦٥) - المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٤ ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ •

(٦٦) - مسكويه : تجارب الامم ، جزء ٢ ، ص ٨٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص

٤٤٨ - ٤٤٩ •

امرة الامراء ولقبه معز الدولة (٦٧) . وينتهي بهذا عصر نفوذ قادة الاتراك ليبدأ عصر جديد هو عصر سيطرة البويهيين .

ومن ابرز صفات عصر نفوذ الاتراك ازدياد شوكة القادة من الاتراك . وضعف شأن الوزراء في هذا الدور . فقد سحبت ضياعهم وفرض لهم رزق ثابت قدر بخمسة آلاف دينار (٦٨) في الشهر كما انتقصت اختصاصاتهم ، وقطن الوزير منذ سنة (٣١٢ هـ / ٩٣٣ م) في دار الحاجب بعد ان كان يسكن في دار خاصة بقصر الخلافة (٦٩) وكان بقاء الوزير في منصبه مرهونا ببراعته في التوفيق بين مصالحه ومصالح انصاره ومؤيديه من جهة ، ومصالح الخليفة من جهة ثانية . كانت تلعب دورها في اعتماد الوزير وخلعه .

أصبح منصب الوزارة (٧٠) في هذا العصر أشبه بمنصب وراثي فأنحصرت الوزارة في أسر معينة كآل خاقان وآل الفرات وآل وهب (٧١) . كما كان الخلفاء يختارون وزراءهم من المثقفين ثقافة ادبية ، ويأبون اسنادها الى العلماء واصحاب الطيالس ، كما اتضح في هذا العهد عدم اتصاف الوزراء بالصفة الحربية وانحصار قيادة الجيش بيد القادة من الاتراك .

— كان عصر نفوذ قادة الاتراك عهدا سادته الفوضى وبرز مثال على ذلك مايروى من أنه حين توجه ابن رائق الى الشام بعد ان تقلد ولايتها من الخليفة ، جاء رسول الاخشيد الى دار الخلافة يستعلم الامر ، لان الاخشيد كان واليا عليها معترفا به من قبل الخلافة . وكان مجلس الخليفة يضم بجكم امير الامراء ، فأنصت

(٦٧) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٤٤٩ .

(٦٨) — وصل هذا الرزق أحيانا الى سبعة آلاف دينار (انظر محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٣٧) .

(٦٩) — انظر محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٧٠) — انظر عن ذلك الوزارة في عهد الخليفة المقتدر في كتاب مسكويه : تجارب الامم ، جزء ١ من ص ٢ — ٢٠٠ .

ال خليفة ولم يتفوه بشيء ، بينما اجاب امير الامراء ، ولعل جوابه يعبر عن الوضع في بلدان الخلافة في تلك الفترة ، ويوضح عجز الخليفة عن حماية أي من الطرفين • فقد قال بجكم : (من ضرب بالسيف وهزم صاحبه فالعمل له) • وليس هذا الامر غريبا على الخلافة العباسية في ذلك الوقت ، ونحن نعلم أن أمير الامراء كان له الامر والنهي (٧٢) •

— مرت الخلافة العباسية خلال هذا العصر بأزمات مالية خانقة ناجمة عن قلة الموارد من الجبايات لانفصال الاطراف ، وسوء المواسم الزراعية ، وكساد التجارة بسبب كثرة الفتن والثورات كثورتي الزنج والقرامطة • وفوق ذلك فقد تزايدت نفقات البلاط والخليفة ، وقد ادى ذلك الى عقد قروض مع التجار الرأسماليين ، وتضمين الولايات لكبار التجار ، او لبعض الاسر الغنية ، وقد قدم بعض الوزراء آراء اقتصادية للقضاء على الازمات المالية • فقد رأى علي بن عيسى تخفيف النفقات لاصلاح مالية الدولة ، ولكنه حين بدأ بتنفيذها شعر بأنه اصبح بعيدا عن قلوب رجال القصر والحاشية وغيرهم وتعرض لسوء ادبهم فاستغفى (٧٣) •

— وعلى الرغم من ضعف الخلافة العباسية بصورة عامة في هذا العصر فقد تقدم العلم والادب عما كانا عليه من قبل • ذلك ان حركة الترجمة التي بدأت في الدور الاول ونقلت ذخائر الامم المختلفة ، قد نضجت • وأخذ المسلمون يفهمون هذه المؤلفات ويشرحونها ، يهضمها البعض ، يتكر فيها ويزيد عليها •

وفي عصر نفوذ الاتراك ، بدأ استقلال بعض الاقطار الاسلامية عن مركز الخلافة واصبح مركز كل دولة مكانا هاما للعلم والادب • فقد اخذ امراء هذه الاقطار يكرمون العلماء والادباء ليستقطبوا اليهم هذه الفئة ويفاجروا أمراء

(٧١) — انظر ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ٢٣٨ — ٢٤٧ — ٢٥١ — ٢٥٤ — ٢٥٧ — ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ •

(٧٢) — ابن العميد : تاريخ المسلمين ، طبعة لندن ١٠٣٤ ، ص ٢٠٣ •

(٧٣) — انظر مسكويه : تجارب الامم ، جزء ١ ، ص ٢٨ — ٢٩ — وانظر الصابي : الولاء والكتاب • ص ٣٠٦ — ٣٠٧ — حسام قوام السامرائي : المؤسسات الادارية في الدولة العباسية خلال الفترة ٢٤٧ — ٣٢٤ ، ص ١١٦ — ١١٧ •

الاقطار الاخرى في الثروة العلمية والادبية . كما يتفاخرون بعظمة الجند وعظمة المباني ، وهكذا انتشرت وتعددت مراكز العلم والادب ، وبدأت المنافسات والمفاخرات والمساجلات بين علماء قطر وآخر . ولم تكن هذه الظاهرة تقتصر على الامراء الذين يحسنون العربية . بل تعدى ذلك الى امراء الاثراك الذين لا يجيدونها . ومما يذكر في هذا المجال : ان بجكم التركي وكان بواسط استدعى الصولي اليه من المسجد . فتهكم البعض عليه بسبب ذلك لانه لا يجيد العربية . فدافع عن نفسه قائلاً : انا انسان ، وان كنت لا احسن العلوم والآداب ، احب ان لا يكون في الارض اديب ولا عالم ولا رأس في صناعة ، الا كان في جنبي وتحت اصطناعي ، وبين يدي لا يفارقني (٧٤) .

يتضح من هذا أنه ليس من الضروري ان تترافق سوء الحالة السياسية مع انحطاط العلم والادب . فقد يحمل الظلم كثيرا من عظماء الرجال وذوى العقول الراجحة ان يفروا من العمل السياسي الى العمل العلمي ، لانهم يجدون العمل السياسي يعرضهم لمصادرة اموالهم ، واحيانا الى ازهاق ارواحهم . على حين ان العمل العلمي يحيطهم بجو خاص هادى . ويبدو أن الخلفاء والامراء جعلوا للعلماء حرمة ، ولم يتعرضوا لهم طالما لم يتعرض هؤلاء للسياسة . مما ادى الى قيامهم بأبحاثهم العلمية في هدوء وطمأنينة (٧٥) .

— كان عصر سيطرة الاثراك بداية ظهور نظام الاقطاع العسكري . فقد اقطع هؤلاء اكثر أعمال السواد ، فتمسك الراجحون منهم بما حصل في أيديهم من اقطاعاتهم ورد الخاسرون اقطاعاتهم فعوضوا عنها . فصار القانون المتبع أن يخرب الجند اقطاعاتهم ثم يردوها ، ويعتاضوا عنها من حيث يختارون . واقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم . وبذلك كانت الاراضي العامرة تتحول الى خراب وأدى ذلك الى فساد الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية (٧٦) .

(٧٤) - الصولي : اخبار الراضي والنتقي ، ص ١٩٥ .

(٧٥) - احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٩٦ .

(٧٦) - مسكويه : للمصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ .

المفصل الثاني

الصراع الاجتماعي والسياسي والديني - المذاهب الاسلامية

ان التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي تبدت بشكل ظاهر في عصر سيطرة الاتراك ، ادت الى نشوء حركات اجتماعية متعددة ، وبرز تيارات دينية مختلفة . فقد بدأ الفساد والانحلال يدب تدريجيا في جسد الخلافة العباسية منذ نهاية الربع الاول من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وبدأت الخلافة العباسية تفقد سيطرتها على اجزاء كثيرة من امبراطوريتهما الواسعة . فآدى ذلك الى حدوث حركات انفصالية وقيام دويلات عديدة (١) . وبالإضافة الى ذلك فان هذا القرن تميز بميزات أخرى منها اهتمام الكثيرين بالزراعة والتجارة ، وبشكل خاص الزراعة الواسعة والتجارة الكبيرة الرباحة . مما نتج عنه قيام طبقة من أصحاب الثروات العريضة ، وقيام ملكية زراعية واسعة ، الى جانب طبقة كبيرة جدا من الفقراء (٢) .

ونتيجة لهذا التمايز الطبقي الذي ظهر في هذه الفترة ، ونتيجة لكون أصحاب الملكيات الكبيرة اما من الحاشية او من المقربين الى البلاط . فان جباة الضرائب المختلفة كانوا يتفاوضون عن جزء أو كل الضرائب المستحقة على كبار الملاك . في

(١) - انظر فيما سبق .

(٢) - فيصل السامر : ثورة الزنج ، ص ٢٦ .

حين تعرض صغار الفلاحين الى قسوة هؤلاء الجبابة ، فأخذوا يلجئون ^(٣) اراضيهم الى كبار الملاك كوسيلة للتخلص من قسوة العمال وعبث الجبابة ^(٤) . وبازدياد الملجئين اضطرت الخلافة الى انشاء ديوان للضياع ، وتنتج عن ذلك تحول الملجئين الى مستخدمين في الارض بينما اصبح الملجأ اليه مالكا لها ^(٥) . وهكذا أدى الجاء الاراضي الى كبار الشخصيات مع اتعاش التجارة الى انتشار الملكيات الفردية الواسعة على حساب صغار الفلاحين ، مما دفعهم الى التذمر . وشعر هؤلاء المتذمرون من العرب والفرس بضرورة التكاتف فيما بينهم لمواجهة وضعهم السيئ امام الملاك الذين تعاونوا بدورهم بدافع المصلحة المشتركة .

حين كان الوضع الاقتصادي للخلافة الاسلامية يسير بهذا الاتجاه بسدا الضعف على خلفاء العباسيين وتسلبت عليهم الاتراك . فقتل اربعة من الخلفاء على أيديهم في خلال تسع سنوات من سنة ٢٤٧ - ٢٥٦ هـ / ٨٦٢ - ٨٧٠ م . ولم يكن هذا فحسب بل ان الصغار كانوا يسخرون بأعمال الكبار . واذا اضمنا الى ذلك ان القرن الثالث الهجري شهد حركة فكرية واسعة ومتطورة أدت الى تحرير الفكر وشعور الانسان بكرامته وحقه في الحياة الحرة الشريفة ، لادرنا الاسباب التي أدت الى الصراع بين الفئات التي يتألف منها المجتمع . وخاصة وأن المستغلين من العناصر كافة شعروا بضرورة التكاتف فيما بينهم لمواجهة هذه الاوضاع والوقوف بحزم امام كبار الملاك .

١ - حركة الزنج :

اطلق هذا الاسم على الثورة التي قامت في جنوب العراق في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، ودامت مايزيد عن اربع عشرة سنة ، وهي الحركة التي

(٣) - الاجاء : هو تسجيل صاحب الملكية الصغيرة مايملكه باسم احد كبار الشخصيات على اتفاق بينهما باخذ جزء من المحصول وذلك نظير حمايته من عبث جبابة الخراج .

(٤) - محمد عبد الفتاح عليان : قرامطه العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ص ٢٣ .

(٥) - الجهشباري : الوزراء والكتاب ، ص ١١٨ . ويبدو مما ورد في هذا الكتاب ان قضية الاجاء ليست وليدة عصر سيطرة الاتراك ، بل وجدت منذ عصر الخليفة المنصور .

قام بها جماعة من الزنوج^(٦) كانوا يكسحون السباخ في الاراضي قرب البصرة •
كان هؤلاء ملكا لأصحاب هذه الاراضي يعملون في الارض فيعزقونها ويرفعون
عنها الطبقة المألحة ليصلوا الى الارض الخالية من الاملاح الصالحة للزراعة • وكان
هذا العمل شاقا ، والمعيشة العامة لهؤلاء متدنية • فهم لا يتقاضون اجرا عن عملهم
ويقتاتون بقليل من الدقيق والتمر والسويق ، وبالتالي فانهم كانوا مستعدين
لتلبية دعاة التحرر الاجتماعي^(٧) •

لقد سلطت الاضواء على هذه الثورة التي هددت أمن المنطقة من قبل
المؤرخين على انتماءاتهم كافة ، وعلى الرغم من كل الدراسات المقدمة في هذا
المجال ، فان الدارسين لم يصلوا الى حقائق ثابتة عن معتقدات صاحب الزنج •
وما يذكر في هذا المجال هو أن علي بن محمد صاحب الزنج وهو من اهالي
الطالقان • تمكن من استغلال الظروف الاقتصادية والاجتماعية الى حد كبير فادعى
أنه من ولد علي زين العابدين ، كما ادعى ادعاءات أخرى ليثبت مركزه ويزيد في
عدد انصاره • فهو الى جانب ادعائه النسب العلوي ، قد تمسك بالمبادئ
الديموقراطية الخارجية اعتقادا منه انها تلائم اتجاهات المساواة والديموقراطية
التي يتطلع اليها العديد من افراد الطبقة الدنيا • وفوق كل ذلك فانه ادعى علم
الغيب ، وانتحل النبوة • وزعم ان له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه^(٨) ،
وبالنسبة فانه تمكن من ان يضم اليه هؤلاء الزنوج • بالاضافة الى العبيد الفارين
من القرى والمدن المجاورة تخلصا من سوء حالتهم^(٩) •

بدأ علي بن محمد يدعو لنفسه بين الفئات الفقيرة • فتنقل في بداية الامر
بين أهالي هجر والبحرين والعراق واقام سنة في بغداد • ثم استقر به المقام اخيرا في
البصرة سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م حيث نزل في بني ضبيعة ، فاتبعه جماعة كبيرة منهم ،

(٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٤١٠ •

(٧) - الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، ص ٧٦ - ٧٧ •

(٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١٧٦ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٠٧ •

(٩) - الدوري : المرجع السابق ، ص ٧٦ - ٧٧ •

الا ان قوة والي البصرة محمد بن رجاء الحضاري في ذلك الوقت أجبرته على ترك البصرة ، فالتجأ إلى بغداد ، ولكنه لم يكف عن دعوته . وساعدته الظروف بالعودة الى البصرة بعد سنة من خروجه منها ، وذلك بعد عزل ابن رجاء ، ونشوب ثورة فيها . وحين دخلها أخذ يدعو الى نفسه بين الفئات المستضعفة ، ويعددهم التحرر ، فالتف حوله عدد من المظلومين ، ادعى فيهم بأنه ملهم ، وأنه تنزل عليه الآيات ، ويبدو انه كان يث اعوانه بين هذه الفئات ليعلم اخبارهم . ثم يسردها لهم مدعيا الغيب . وقد أخذ نجمه يلمع منذ ان استطاع استئالة بعض غلمان البصرة الذين اقبلوا عليه لمبادئه في تحرير العبيد والفقراء ، فوعدهم بأن يقودهم ويسلكهم الاموال اذا وقفوا الى جانبه وقفة قوية حازمة . وحلف لهم الايمان بأن لا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئا من الاحسان الا أتى به اليهم ^(١٠) وقد تمذ وعوده حين سمح لهؤلاء بضرب سادتهم الذين جاؤوا لمفاوضة صاحب الزنج لردهم ^(١١) ، مقابل خمسة دنانير عن كل منهم ^(١٢) .

كانت حركة صاحب الزنج في بادىء الامر حركة ضد كبار الملاك ، ثم تطورت فصارت حركة ضد الدولة . لان الخلفاء والولاة ظالمون ينتهكون حرمة الله ^(١٣) . فسمح صاحب الزنج لرجاله القيام بسلب السلاح والاموال لاستخدامها في قتال اعدائهم ، وان من يأسر رجلا يصبح عبدا له ، وبذلك تحولت جموع هؤلاء الى قوى مسلحة ، واستطاعوا — بما بذلوا من جهد وبما قدموا من تضحيات — الانتصار على جيوش الخلافة العباسية . وتملكوا الابله وعبادان والاهواز ثم البصرة وواسط والنعمانية ورامهرمز ، كما انهم اغتنوا ماليا . واصبح هؤلاء الزوج يملكون البيض من السادة . وقد جاء في المسعودي ^(١٤) ان صاحب الزنج كان ينادي على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر

(١٠) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩

(١١) — حسن ابراهيم حسن التاريخ السياسي ، جزء ٣ ، ص ٢١٠ نقلا عن تولدكه .

(١٢) — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢٠٩

(١٣) — احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٧٠

(١٤) — مروج الذهب : جزء ٤ ، ص ٣٠٨ .

العرب ، وابناء الناس ، تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة ، وينادي عليها بنسبها . هذه ابنة فلان الفلاني ، لكل زنيجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون ، يطؤون الزنج ، ويخدمون الزنجيات كما تخدم الوصائف . ولقد استغاثت الى علي ابن محمد امرأة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها الى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه . فقال هو مولاك وأولى بك من غيره .

وهكذا انقلب الوضع في هذه الفترة وعاش الزنج عيشة كريمة عزيزة ، بينما لم تدع هجمات الزنج لاهالي البصرة ما يعيشون منه . ووقع الرعب في نفوسهم ، وقتل منهم اعداد كبيرة . واستخفى من سلم من أهل البصرة في آبار الدور . فكانوا يظهرن ليلا ، ويطلبون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها ، ويأكلون الفئران والسنابير ، وصار اذا مات الواحد منهم أكلوه (١٥) .

دامت هذه الثورة أربع عشرة سنة نشب خلالها قتال مرير بين صاحب الزنج وجيوش الخلافة العباسية ، التي ارسلت الجيوش لمتابعة قمع هذه الحركة التي هددت طرق التجارة بين بغداد والجنوب ، وأفسدت الزراعة وأضعفت الاقتصاد .

وقد وضع الخليفة المعتمد على الله في يد أخيه الموفق كل امكانيات الخلافة ليعيد الجيوش على النحو الذي يريده . فبنى الموفق قلعة تواجه مدينة المختارة التي كان صاحب الزنج قد اتخذها عاصمة له ، واقام كل فريق يربط ضد الفريق الآخر . وفي آخر الامر كانت الغلبة للجيش العباسي الذي أباد الزنج قتلا وأسرا . وقتل صاحب الزنج ودمرت مدينته ، وانتهت هذه الحركة بعد ان ذهب ضحيتها مليونان ونصف من الفريقين في رواية ابن طباطبا (١٦) ومليون ونصف في رواية السيوطي .

(١٥) - احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ٤ ، ص ١٢٥

(١٦) - المصدر السابق ، ص ٢٥١

٢ - حركة القرامطة :

أ - ظهور قرامطة العراق والشام :

اختلف المؤرخون في نشأة هذه الحركة وموطن انطلاقها الاول . كما اختلفوا حول مؤسسها ، ومتى كانت . وما يعرف عنهم هو أنهم طائفة من طوائف الاسماعيلية . دانوا بالمذهب على يد دعاة المذهب الاسماعيلي (١٧) . ولم يجتمع رأي المؤرخين حول هذه التسمية . ويذكر الطبري عن ظهور القرامطة ، ان ابتداء أمرهم كان على يد رجل قدم من بلدة خوزستان الى سواد الكوفة . ونزل في موضع يقال له النهرين ، وانه عرف باسم كرميته لاسباب يختلف حولها المؤرخون . وهنا تظاهر بالزهد والورع والتقشف ، وحدث اصحابه عن ذلك وعن الصلاة وفرائضها . ثم اعلمهم بانه يدعو الى امام من أهل البيت . فالتف حوله جمع كبير من الناس ، اتخذ منهم اثني عشر نقيبا ، أمرهم ان يدعوا الناس الى دينهم (١٨) . وقد استدعى نشاطه هذا انتباه رجل اسمه الهيصم ، من كبار الملاك . فسعى الى القضاء على الحركة في المهد ، ففشل . وفي هذه الآونة كانت ثورة الزنج قائمة نشيطة في منطقة البصرة ، فذهب قرمط الى صاحب الزنج فناظره . ولما وجد آراءه تختلف عن آرائه ، تركه وانصرف . ويقال بأنه خرج الى الشام فلم يعرف له خبر (١٩) .

واذا اردنا ان نحلل اسباب ظهور القرامطة في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي لوجدناها متشابهة مع اسباب قيام حركة الزنج ، وتعود الى سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في المنطقة .

استغل حشدان قرمط الفئات المتضررة من سوء الاوضاع غاية الاستغلال ،

(١٧) - انظر حول ذلك دي خويه : القرامطة نشأتهم دولتهم وعلاقاتهم بالفاطميين ، ترجمة وتحقيق حسني زينة ، ص ١٥ - ٣٠

(١٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٣ - ٢٤

(١٩) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٤ - ٢٥

ونادى بمبادئه تقبلتها • قام أول الامر بنشر الدعوة الاسماعيلية في سواد العراق، واعتمد على صهره عبدان الذي كان من أكبر من نشر الدعوة • وصادفت الدعوة الاسماعيلية على يد عبدان كثيرا من النجاح • حتى ان أبا سعيد الجنابي مؤسس دواة القرامطة في البحرين وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة شمالي غربي بلاد العراق وبادية السماوة قد أخذوا عنه (٢٠) •

وقد حدث صراع بين زعماء القرامطة في العراق حول رئاسة الطائفة بعد حمدان قرط • فعلى حين كان عبدان عقل القرامطة المفكر ، كان آل زكرويه يشعرون بأصالتهم في الدعوة وانتهت المنافسة لصالح زكرويه وقتل عبدان (٢١) •

تلقى القرامطة في اثناء رئاسة زكرويه ضربات متتالية من الخلافة العباسية في العراق منها تلك الضربة التي وجهت اليهم في نواحي الكوفة سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م (٢٢) • وعلى الرغم من ذلك فلم يكف القرامطة عن نشاطهم ، وزاد انتشارهم بشكل واضح في سواد الكوفة • الا ان الخليفة المعتضد كان قد وطد عزمه على استئصال شأفتهم في هذه المنطقة • فوجه اليهم عدة حملات تمكنت من قتل اعداد كبيرة منهم •

فكر زكرويه بن مهرويه بتوجيه نشاط القرامطة الى بلاد الشام ليوسع منطقة دعوته وليضم عناصر جديدة اليها ، مستفيدا من التفكك السياسي فيها • ولمعرفة أهالي الشام بالدعوة الاسماعيلية التي كانت قد تسربت اليهم بشكل عام من سلمية ولحمل المهدي على الموافقة على توليتهم (آل زكرويه) لرئاسة الدعوة (٢٣) •

اسند القرامطة في الشام رئاستهم في بادئ الامر الى يحيى بن زكرويه المعروف (بالشيخ) • فأخذ يدعو الى محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ،

(٢٠) - دي خويه : المرجع السابق ، ص ٣٦ نقلا عن ابن حوقل المسالك والممالك ، ص ٢١٠
(٢١) - هناك اسباب اخرى يذكرها دي خويه عن سبب مقتل عبدان انظرها في المرجع السابق ، ص ٥٧
(٢٢) - محمد عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ص ٨٩-٩٠
(٢٣) - عليان : المرجع السابق ، ص ٨٧

وتظاهر بالقدرة على اتيان المعجزات • وقد استغوت ادعاءاته بني العليص فخذ
من كلب (٢٤) ، وكذلك جماعات كثيرة بجوار دمشق (٢٥) •

اشتد أمر القرامطة بعهد في بادية الشام ، وأخذوا يفسدون في المناطق والقرى
التي حولهم فنهضت القوى الاسلامية المسئولة للدفاع عن الشام كالطولونيون
وولاتهم ففشلوا في ذلك على الرغم من قتلهم ليحيى زعيم القرامطة على أبواب
دمشق • تم تولى الخليفة المكتفي هذا الأمر ، وارسل الجيوش الواحد تلو الآخر
حتى تمكن من الانتصار على القرامطة (٢٦) • فأسر اعدادا كبيرة منهم ، كما أسر
الحسين بن زكرويه ، وفر من بقي الى البادية (٢٧) • وعلى هذا الشكل ضعف أمر
القرامطة في الشام لقتل اكثر زعمائهم واستئمان البعض الآخر • الا أن زكرويه
الذي كان مختبئا ، واصل تحركه ضد العباسيين وبعث بدعائه الى بلاد الشام
ثانية • حيث تركزوا في صحراء السماوة ، وهاجموا مدن الاردن ونهبوا هيت على
الفرات ، وهاجموا الكوفة ، ونهبوا قوافل الحجاج وفتكوا فيها • واستمروا في
نشر الذعر والرعب بين السكان حتى سنة ٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م حيث قضت عليهم
جيوش العباسيين (٢٨) •

(٢٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٣٥ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ،
ص ٩٦ - ١٠٤ - العيون والحدائق ، جزء ٤ ، قسم اول ، ص ١٠٨

(٢٥) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٠٤
عليان : المرجع السابق ، ص ٩٤

(٢٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١١١

(٢٧) - ثابت بن سنان وابن العديم : المصدر السابق ، ص ٧٦

(٢٨) - انظر عن ذلك المسعودي : التشبيه والاشراف ، ص ٢٧٣ وما بعدها - عريب بن سعد : المصدر
السابق ، ص ١٠ وما بعدها - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٢ وما بعدها - ثابت
ابن سنان وابن العديم : المصدر السابق ، ص ٢٦-٢٧-٢٨ و ص ٨١ - عليان : المرجع
السابق ، ص ٩٩ وما بعدها - عارف تامر : القرامطة أصلهم نشأتهم تاريخهم حروبهم ، ص
١٠٥ وما بعدها .

ب - قرامطة البحرين :

كان ابتداء امر القرامطة في البحرين ان رجلا يعرف يحيى بن المهدي قصد قطيف فنزل على رجل يعرف (علي بن المعلي) فأظهر له يحيى انه رسول المهدي . وذكر انه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى أمره ، وأن ظهوره قد قرب . فأخبر علي بن المعلي الشيعة من اهل القطيف بالامر ، وقرأ عليهم الكتاب الذي مع يحيى ، فأجابوه واعلموه بأنهم خارجون معه اذا ظهر أمره . ووجه الى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فأجابوه . وكان فيمن أجابه ابو سعيد الجنابي (الحسن بن بهرام) الذي تسلم رئاسة الدعوة ، وأخذ يعمل على نشرها بالبحرين (٢٩) منذ سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩١ م . وقد وجدت تعاليمه مرعى خصيا لدى الاهالي ، وعلى الاخص الاعراب الذين كانوا دائما على استعداد للانضمام الى أي حركة ثورية مادامت تبيح لهم فرصة السلب والنهب . واتخذ الجنابي مدينة الاحساء عاصمة لدولة القرامطة الجديدة التي اسسها سنة ٢٨٦ هـ . واستطاعت هذه الدولة القرمطية من بسط سلطانها على كثير من ارجاء جزيرة العرب . ففتحت اليمامة وتناولت الى عمان ولما طمع بدخول مدينة البصرة اصطدم مع قوات الخليفة العباسي المعتمد سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م وانتصر عليها . كان الحكم وراثيا في أسرة أبي سعيد يعاونه مجلس يتكون من اثني عشر عضوا (٣٠) . كما وضع أبو سعيد نظاما حريا دقيقا لدولته استطاع بمقتضاه اعداد جيش قوي من رعاياه . فقد جمع الاطفال في دور خاصة ، وعين لهم جماعة تشرف على مصالحهم . وأجرى عليهم ما يحتاجون اليه وأخذ يدرّبهم على ركوب الخيل ، واستخدم الاسلحة الحربية فنشأوا نشأة عسكرية .

اصطدم أبو سعيد نتيجة لمطامعه التوسعية في جزيرة العرب وغيرها مع الخلفاء العباسيين وجرت بينهما حروب متعددة تمكن أبو سعيد اثرها من بسط

(٢٩) دي خويه : المرجع السابق ، ص ٤٠ وما بعدها .

(٣٠) سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، ص ٣١

نفوذه على معظم أرجاء جزيرة العرب (٣١) . ومالبث أن اغتيل سنة / ٣٠٢ هـ على يد خادم له كان قد ضمه الى جيشه من الجيش العباسي بعد ان وثق به . وخلصه ابنه سعيد الذي ظل يدير أمور دولة القرامطة حتى ثورة ابي طاهر سليمان أخيه الاصغر الذي قتله ، وتقلد زمام الحكم في دولة القرامطة . حصل أبو طاهر على كتاب توليته من عبيد الله المهدي ، مما يثبت لنا ولاء القرامطة في البحرين للخلافة الفاطمية ببلاد المغرب . ويزيد هذا الامر رسوخا ، اتحاد الطرفين في سياسة العداء ازاء العباسيين . فقد عمل ابو طاهر على اشغال العباسيين في الشرق بحملاته التي وجهها الى بلادهم ، حتى يتيح للمهدي توطيد نفوذه في المغرب . فهاجم البصرة والكوفة مرات متعددة ، وكاد في سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٩ م ان يدخل بغداد (٣٢) . كما انه قام في العام التالي بحملة جريئة فأغار على مكة في ذي الحجة سنة ٣١٧ هـ في عدد من اصحابه ، وغايته اظهار الخليفة العباسي بمظهر العاجز عن حماية الاماكن المقدسة . فنهب الحجاج وقتلهم في المسجد الحرام ، كما انه قلع باب البيت وقبة زمزم والحجر الاسود ، وأخذ كسوة الكعبة ففرقها بين اصحابه . ونهب دور أهل مكة وخطب للمهدي . وفرض على الحجاج اتساوة يؤدونها اليه مقابل حمايتهم . ثم عاد الى الاحساء حاملا معه الحجر الاسود (٣٣) .

حافظ القرامطة طوال النصف الاول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على علاقتهم الودية مع الفاطميين في بلاد المغرب . وكان تعيين أمراء القرامطة يتم بعد موافقة الخليفة الفاطمي . وكان لتعاون القرامطة والفاطميين في نشر آراء المذهب الاسماعيلي أكبر الاثر في صعود نجم العلويين بالقرن الرابع الهجري . على حين بدأ أمر العباسيين بالضعف . وبسط الفاطميون سلطانهم على مصر والشام وكثير من انحاء جزيرة العرب .

(٣١) - المقرئزي : انعاظ الحنفا ، ص ٢١٨

(٣٢) - المقرئزي : المصدر السابق ، ص ٢٤٢

(٣٣) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٩ - سرور : النفوذ الفاطمي ، ص ٣٥ نقلا عن ابن الاثير .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري حدث نزاع بين أفراد اسرة أبي طاهر على العرش ، فقبض سابور بن ابي طاهر على عمه أحمد بن أبي سعيد الملقب بأبي المنصور سنة ٣٥٨ هـ وسجنه . غير انه مالبث ان خرج من اعتقاله وقتل سابور ونفى اخوته واشياعه الى جزيرة أوال ، وانقسم القرامطة بسبب ذلك الى فريقين أحدهما بزعامة بيت ابي طاهر ، وثانيهما بزعامة بيت أحمد بن أبي سعيد وعلى رأسه ابنه الحسن الملقب بالاعصم الذي آلت اليه امارة البحرين بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٩ هـ (٣٤) .

اتبع الحسن بن أحمد الاعصم سياسة جديدة ازاء الفاطميين تخالف سياسة من سبقه من أمراء القرامطة الذين كانوا يحرصون على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين الخلفاء الفاطميين . فلم يعترض اثناء وجوده في مكة على اقامة الخطبة للخليفة العباسي المطيع . ولم يلبث أن أصبح محاربا للفاطميين وراغبا في القضاء عليهم . فطالب الفاطميين بالاتاة التي كان يدفعها الاخشيديون للقرامطة في الشام فرفض القائد الفاطمي أداءها اليه ، واسفر ذلك عن وقوع صدامات مسلحة بين الفاطميين والقرامطة . وأضاف الاعصم بحذف اسم المعز من الخطبة في بلاد البحرين واقامها للخليفة العباسي المطيع (٣٥) .

واذا كان الخليفة العباسي قد رفض مخالفة الحسن الاعصم وجماعته القرامطة ، لانهم في رأيه ملاحدة خارجون على الاسلام (٣٦) فإن بني بويه المتسلطين على الحكم في بغداد امدوهم بالاموال ، كما قدم الحمدانيون لهم الحديد والمال (٣٧) .

قامت الخلافات الداخلية بين قرامطة بلاد البحرين بعد وفاة الحسن بن أحمد ، سنة ٣٦٧ هـ وانكر قسم كبير سياسة القرامطة المعادية للفاطميين . وعمل

(٣٤) - سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٤٨

(٣٥) - سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٤٩ - ٥٠

(٣٦) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٨٩

(٣٧) - المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٣١ - ١٣٢

اتباع ابي طاهر على اقضاء ولد ابي سعيد عن الامارة ، ثم استقر الرأي على أن يتولى الحكم في بلاد البحرين اثنان من سادتهم ، وهما جعفر ، واسحق ، فأعادا ثانية الدعوة القرامطية ، وأخذوا في محاربة بني العباس ، ولكنهم انهزموا على يد صمصام الدولة أمير بني بويه في سنة ٣٧٥ هـ واهرجوا من العراق •

ضعف أمر القرامطة منذ اواخر القرن الرابع الهجري حتى لم يبق لهم الا ولاية صغيرة على الشاطئ الشرقي للجزيرة العربية ، لا تستطيع قطع الطريق على الحجاج ، وأدى التنافس بين ساداتها الى التعجيل باضمحلال دولة قرامطة البحرين وزوالها في نهاية القرن الرابع الهجري •

ج - الوضع الاجتماعي عند القرامطة :

ذكر ابن الجوزي (٣٨) نصا اوضح فيه الفئات التي دخلت في الدعوة القرمطية فذكر ان هذه الفئات اما ان تكون من ضعفاء العقول والبصائر الذين غلبت عليهم البلادة والبله ، ولم يأخذوا شيئا من العلوم • وأما ان يكونوا من ملاحدة الثنوية الذين اعتقدوا ان الشرائع ليست الا معجزات أتى بها الانبياء فاذا رأوا من يعطيهم شيئا من اغراضهم مالوا اليه • ويذكر من هؤلاء الاكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس • ويرى ان انضمامهم الى القرامطة كان بسبب الحقد الذي يسكن في صدورهم •

سار القرامطة في تعميق نفوذهم في المناطق التابعة لهم على سياسة فرق تسد فاستغلوا الاوضاع الاجتماعية ، واعتمدوا على الطبقة الفقيرة الحاقدة ، وأثاروها ضد الاثرياء • وأدى ذلك الى حدوث اضرابات في بادية السماوة وفي مناطق اخرى في الشام • فحمل موالي بني العليص على اسيادهم فقتلوا جماعة منهم وأذلوهم (٣٩) • وتمكن القرامطة بذلك من التأثير بشكل كبير على الحياة الاجتماعية في بلاد الشام •

(٣٨) - عليان : المصدر السابق ، ص ٩٢ نقلا عن ابن الجوزي

(٣٩) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ - ص ٩٥

رتب القرامطة نظاما ماليا اشتراكيا ساعد على نجاح هذه الحركة . فكان من مبادئ القرامطة ان يؤدي افرادها ضرائب محددة بعينية في كل سنة . ثم يدفع هؤلاء خمس ما كانوا يملكون او يكسبون (٤٠) ويبدون أنهم تنازلوا عن خمس ما يملكون ثم دفعوا خمس ما يكسبون ، ويقال بأن اهل القرى كانوا يحملون ما يملكون فاذا جمع جعل مشاعا بين الاعضاء ، وتولى توزيعه رجل من بينهم يثثون به . اذ أوضح قرمط لاصحابه انهم لاجابة بهم الى الاموال ، لان الارض بأسرها ستكون لهم (٤١) .

كان انقرامطة لا يقرون بوجود طبقات متميزة واخرى محرومة في المجتمع ، فأفراد اسرة ابي طاهر الجنابي لم يكونوا يمتازون عن غيرهم من الوزراء أو أعضاء المجلس الاداري المعروف عندهم بالعقدانية الا في قيادة الجيش ورئاسة مجلس الوزراء ، والاشراف على بعض الاعمال الثانوية مما كانت تقتضيه ضرورة التنظيم وحسن الادارة . وكانت السلطات من تشريع وادارة وتنفيذ محصورة في أعضاء المجلس العقدانية المؤلف من ستة افراد يختارهم الشعب . وكان لهؤلاء وكلاء يساعدونهم وينوبون عنهم .

اما عن ملكية الارض فلا تتوفر معلومات عما آلت اليه . ومن المرجح ان القرامطة لم يلجأوا الى نزع الاراضي من أيدي أصحابها . وكان هؤلاء يقرضون صاحب كل حرفة ما يحتاجه من المال حتى يشتغل ، ويجمع من المال ما يكفيه ويكفي أسرته . كما كانت الحكومة تقدم المساعدات لمن تحل بهم مصيبة او كارثة . وقد ضرب القرامطة نقودا خاصة بهم في البحرين من الرصاص لم تكن متداولة الا في منطقتهم ، ومن المرجح انها سكت من الرصاص كي لا يطمع احد بجمعها واخراجها .

(٤٠) - المقرئزي : انما الحنفيا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء ، ص ١٠٤ - ١٠٥
- دي خويه : القرامطة نشاتهم دولتهم وعلاقاتهم بالفاطميين ، ترجمة وتحقيق حسني زينة ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤١) - النويري : نهاية الارب ، جزء ٢٣ ، ورقة ٦٩ .
- دي خويه : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

وقد اسهمت المرأة في المجتمع القرمطي في تحمل الالعباء المالية التي يتطلبها بناء المجتمع ، وادت الضرائب مع الرجل • وكما قدم الرجل خمس مايملكه قدمت المرأة خمس ماتغزل (٤٢) ، وحين يدعو الامر للتبرع تسارع النسوة بتقديم مايملكه من حلي ومتاع ، وما يحصلن عليه ويتكسبه من الاشتغال بالغزل (٤٣) • ويبدو ان المرأة اخذت حقها في التنظيم القرمطي واخذت حريتها كاملة ، ولا رقيب عليها غير المصلحة العامة • وبالتالي نجد ان ما قيل عن الاباحية في التنظيم القرمطي لا يمكن الاخذ به (٤٤) لما تمتعت به المرأة من احترام في ذلك المجتمع ولما عرف عن قوة الرابطة الزوجية • ومن اهم ما جاء عن المرأة في قوانين القرامطة تحديد الزواج بواحدة ، والغاء المهر ، وحق المرأة في العمل ، وفي التعليم ، وفي الطلاق ، وفي رفض الزواج بتاتا ، واعفاء المرأة من الاعمال الشاقة ، ومنها طحن الحبوب ، واستخدام القرامطة كتعويض لذلك مطاحن تدور بقوة الماء جعلت مجانية ، وذلك لتخفيف الالعباء عن النساء •

وهكذا فانه من خلال دراستنا للحياة الاجتماعية في المجتمع القرمطي ندرك بأن حياة القرامطة في هذا المجال كانت متقدمة ، ويبدو كما اوضح الدكتور الدوري في كتابه تاريخ العراق الاقتصادي ان هذا التقدم الاجتماعي كان على حساب الجانب الديني • ويبدو ان القرامطة اعتبروا ان الدين قضية اجتماعية تهدف الى تحقيق العدالة للمجتمع الذي له الحق ان يمارس طقوسه الدينية كيفما اراد • ويبدو ان الخلاف الذي قام بين الفاطميين والقرامطة كان نتيجة للتطرف المادي للحركة القرمطية ، وبقاء الدعوة الاسماعيلية دعوة روحية •

٢ - التيارات السنية والشيعة :

برز في هذا العصر التمايز بين المذاهب الدينية المختلفة من سنية وشيعة ،

(٤٢) - ثابت بن سنان : اخبار القرامطة ، ص ٩٩

- دي خويه : المرجع السابق ، ص ٣٥

(٤٣) - النويري : نهاية الارب ، جزء ٢٣ ، ص ٥٨ .

(٤٤) - دي خويه : المرجع السابق ، ص ٣٦

وبدأ النزاع في أوجه بينهما • فالخلفاء العباسيون ومن تبعهم سنيون يتعصبون للسنة والفاطميون في شمال افريقيا ثم في مصر والشام شيعة اسماعيلية ، والحمدانيون في ديار ربيعة وبكر ومضر من الشيعة ، وغيرهم ، وكان الخلاف بين الفريقين في نظرة كل منهما الى الخلافة (٤٥) • ولم يكن هذا فحسب بل ان الخلاف شديد بين الفقهاء بعضهم مع البعض • حتى اصطبغ هذا العصر بصبغة الخلافات الدينية والمذهبية • وسنحاول ان نتحدث بشيء من الايجاز عن هذه الفرق السنية والشيعة والخلافات التي قامت بينهما •

أ - الشيعة : الشيعة في اللغة الصحب والاتباع (٤٦) وهم اتباع علي بن ابي طالب ، لان هؤلاء رأوا أن عليا وذريته احق الناس بالخلافة ، وان النبي عهد له بها من بعده •

وان من تولى الخلافة دونه معتصبون • وواجب شيعته رد الحق لصاحبه ، والعمل سرا وجهرا لتحقيق ذلك ، ويرون ان الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الامة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لنبي اغفاله ولا تفويضه الى الامة • بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر (٤٧) • وعلى هذه الحال يتضح بان نشوء هذا الحزب ليس جديدا في هذا العصر العباسي ، انما الجديد في الامر هو قوة هذا التيار في هذه الفترة ، وتمكنه من تحقيق جزء من اهدافه • وقد يكون السبب في ذلك هو عدم قيام خلفاء العباسيين بتقريب ابناء عموماتهم من آل علي اليهم • وخاصة بعد اخفاق تجربة المأمون في البيعة لعلي الرضا (علي بن موسى الكاظم) • وقد اتخذ الشيعة في نشاطهم في هذا الدور طابعا ثوريا تارة ، ودعائيا تارة اخرى ، واثمر ذلك عن قيام بعض الدول الشيعية • فقد نجح الشيعة الزيدية باقامة دولة الادارسة في شمالي افريقية منذ الدور العباسي الاول ، كما انشأ هؤلاء

(٤٥) - أحمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٥

(٤٦) - ابن خلدون : مقدمة ، ص ١٧٥

(٤٧) - ابن خلدون : مقدمة ، ص ١٧٥ - ١٧٦ •

دولة في اليمن واخرى في طبرستان (٤٨) . وتشيع الحمدانيون في حلب والموصل ،
وقام الفاطميون من الشيعة الاسماعيلية بتأسيس خلافة لهم في شمال افريقيا اولا .
ثم امتدت الى مصر وجنوب الشام . وسارت الدعوة الفاطمية قدما الى العراق
نفسه . ونجح هؤلاء في السيطرة على بغداد سنة (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) (٤٩) .

وقد انضم الى هذا الحزب المخلصون لمبادئه . ثم انضم اليه كل من كره
الحكم الاموي ثم العباسي ، وتشيع كثير من الموالي لانهم لم يحظوا بالمساواة في
ظل الحكم الاموي ، كما تشيع اكثر الفرس لانهم تملسوا ايام حكم الدولة
الفارسية على تعظيم البيت المالك وتقديسه (٥٠) .

وانقسم الشيعة الى فرق عدة لاختلافهم حول نقطتين (٥١) النقطة الاولى :
كانت تتعلق بالامام والنقطة الثانية : تخص المبادئ والتعاليم ، ومن اشهر فرقهم :

٢ - الامامية الاثني عشرية :

جعل هؤلاء الاعتراف بالامام جزءا من الايمان . فالرسول نص على خلافة
علي . وقد انتقلت الامامة منه الى اولاده من فاطمة الى الحسن فالحسين ، ثم الى
احفاده من ابناء الحسين حتى الامام الثاني عشر . وهو محمد المهدي الذي اختفى
سنة (٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م) في سرداب في الحلة (٥٢) ويذكر بعضهم ان الاختفاء كان
من سامراء (٥٣) وهم يتبرؤون من ابي بكر وعمر، ويعتبرانهما مغتصبين ظالمين (٥٤) .

(٤٨) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٨١ - ص ٢٦٦ - ٢٦٧ - وجزء ٤ ص ١١١-١١٣
(٤٩) Wiet : op. Cit., p. 230.

(٥٠) - احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ٣ ، ص ٢٠٩

(٥١) - لم يبدأ انقسام الشيعة في هذا الدور ، بل ان ذلك بدأ منذ العصر الاموي . وتزايد فسي
العصر العباسي .

(٥٢) - ابن خلدون : مقدمة ، ص ١٧٧ .

(٥٣) - ذكر ذلك حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ص ٣٥ ولكنه لم يوثق ما كتب وبالتالي فقد
رأيت ترجيح ماجاء في مقدمة ابن خلدون من ان الاختفاء كان من الحلة .

(٥٤) - ابن خلدون : مقدمة ، ص ١٧٦ .

اما تسلسل هؤلاء الائمة فهو كما يلي : علي بن ابي طالب - الحسن بن علي - الحسين بن علي - علي زين العابدين - محمد الباقر - جعفر الصادق - موسى الكاظم - عني الرضا - محمد الجواد (التقي) - علي الهادي - ابو محمد الحسن العسكري - محمد المهدي المنتظر ^(٥٥) . وهو سوف يخرج آخر الزمان فيملا الارض عدلا ^(٥٦) كما ملئت جورا . وهم الى الان ينتظرونه ويسمونه المنتظر . كما يرون بأنه غاب غيبتين : الغيبة الصغرى - والغيبة الكبرى ، وقد تبنت الاسرة الصفوية التي حكمت فارس وغيرها منذ سنة (٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م) مذهب الامامية الاثني عشرية . وجعلته مذهب الدولة الرسمي . ولما كان محور الاهتمام في هذا المذهب هو الامام ، ولذلك فانا سنعمل على ايضاح بعض الصفات التي اتصف بها الائمة فمن اولى هذه الصفات :

— العصمة : ويقصد بها ان الامام معصوم عن الكبائر والصغائر وهو حافظ للشريعة ^(٥٧) . وان الايمان بالامام يجب المعاصي ^(٥٨) . ويتصل بهذه العصمة ما جاء من ان الائمة وسطاء بين الله والناس وشفعاء . وان الاعتقاد فيهم يكفي لمحو السيئات ورفع الدرجات ^(٥٩) .

— الغيبة والرجعة : ومعنى ذلك ان الامام قد يغيب عن انظار اتباعه الا انه لا بد ان يرجع . وسموا الامام الغائب بالمهدي المنتظر . وحين يعود يعذب من اعتدى على الائمة وغضبهم حقهم ^(٦٠) الا ان بعض دعاة هذه الدعوة الجريئين ملوا من انتظار عودة الامام الثاني عشر ، فعملوا على تحقيق آمالهم في ظل امام الاسماعيلية المستور الذي يترقب الفرص المواتية لكي يظهر للناس ^(٦١) .

(٥٥) — انظر شجرة النسب في ضحى الاسلام : جزء ٣ ، ص ٢١١ — وانظر المقدمة لابن خلدون ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٥٦) — ابن خلدون : مقدمة ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٥٧) — احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ٣ ، ص ٢٢٧ .

(٥٨) — احمد امين : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٢٢ .

(٥٩) — احمد امين : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٣٤ .

(٦٠) — احمد امين : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٦١) — حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ٣٦ .

— التقية : هي اخفاء ما يضر الانسان مخافة عدوه . فهي مداراة وكتمان ، غايتها ان يحافظ المرء على عرضه ونفسه وماله مخافة عدوه . كما يحافظ بواسطتها على حياة الامام . ولذلك يطلب من الانصار حين البيعة لامام مستور الكتان . والتظاهر بالطاعة ، ريثما تنضج الثورة ، ويحين الوقت الملائم ويعلنون الخروج ويحملون السلاح في وجه الدولة . وقد فسر هؤلاء كثيرا من اعمال الائمة على انهم فعلوها تقية . فسكوت علي علي ابي بكر وعمر وعثمان كان تقية ، ومصالحة الحسن لمعاوية كانت تقية . وقد كان الخوارج مخالفين للشيعة اشد الخلاف في هذا الباب . ورأيهم في ذلك لا تجوز التقية بحال من الاحوال ، ولو عرضت النفس والمال والعرض للاخطار (٦٢) .

تعرض أئمة هذه الفرقة للاضطهاد من جانب خلفاء العباسيين ، ماعدا ما كان من المأمون الذي اوصى بولاية العهد للامام الثامن علي الرضا (٦٣) ونهاية علي الرضا مشكوك فيها . ويرى البعض ان المأمون تراجع عن هذه البيعة وانه تخلص من ولي عهده بالسهم حين اكتشف بأن كل ماجرى في العراق ، ومبايعة عمه بالخلافة ، انما كان بسبب هذه البيعة . ولوحق هؤلاء في عهد المتوكل ومن اتى بعده . وبالتالي فان مركز هؤلاء قد ضعف ، ولذلك فان قسما منهم التحق بطائفة الاسماعيلية ، وامدها بمشهوري الدعاة الذين كان لهم اثر كبير في تاريخ الاسماعيلية ، مثل ابن حوشب وابن فضل اليميني اللذين قامت الدعوة الاسماعيلية في بلاد اليمن بفضل جهودهما ، وابي عبد الله الشيعي الذي يرجع اليه الفضل في نشر الدعوة الاسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب .

ومع كل ماتحدثنا عنه عن عدم تحقيق هذه الفرقة لاهدافها ، فانه يمكن القول : بان هذه الفرقة تغلغلت في دوائر الدولة . واصبح عدد من افرادها ضمن موظفيها . وكان هؤلاء الموظفون يعملون ضمن خلايا تتبع لهذه الفرقة ، وكثيرا ما سلبوا بيت المال لصالحها . وانتعشت بانتساب الحمدانيين اليها . وخاصة حين

(٦٢) — احمد امين : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٦٣) — انظر فيما سبق .

أسس هؤلاء دولة لهم في الموصل • ثم اضافوا اليها حلب ، ونشر هؤلاء معتقداتهم في انحاء الجزيرة وشمال بلاد الشام ، و اضافوا الى آذانهم عبارة حي على خير العمل • كما بنى سيف الدولة على ضريح احد ابناء الحسين مشهدا كتب عليه عمر هذا المشهد المبارك ابتغاء لوجه الله وقربة اليه على اسم مولانا المحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب الامير الاجل سيف الدولة ابو الحسن علي بن عبدالله ابن حمدان (٦٤) •

كما انشد شعراؤهم القصائد التي بكوا بها مقتل الحسين • وعلى رأسهم أبو فراس الحمداني (٦٥) • وقد غلب التشيع على اهل حلب بعد سنة (٣٥١ هـ / ٩٦٣ م) بسبب ذلك (٦٦) • ثم قام ناصر الدولة بن حمدان حين تولى امرة الامراء في بغداد بالعمل على بناء مسجد للشيعة الامامية • وكان هو المسجد الرابع لهم وهو مسجد باراثا •

ب - الاسماعيلية :

عين جعفر الصادق ابنه اسماعيل خلفا له • ويرى البعض ان اسماعيل توفي قبيل ابيه بخمس سنوات في سنة ١٤٣ هـ / ٧٦١ م ، واستتر في رأي آخرين • فاضطر ابوه الى ان يعطي الامامة الى ابنه الاصغر موسى الكاظم ، ولكن انصار اسماعيل الذين لم يؤمنوا بموته ، ولم يقبلوا بتحويل الامامة عنه ، رأوا بأنه اظهر موته تقية من خلفاء بني العباس • وهكذا انقسم اتباع جعفر الصادق على انفسهم • اذ اختلفوا حول الامام بعد جعفر فبعضهم كان يرى ان الامام بعد جعفر الصادق هو موسى الكاظم (٦٧) • وآخرون يرون ان الامامة يجب ان تكون

(٦٤) Canard : Histoire de la Dynastie de Jazira et de Syrie., pp 656-657

Sauvaget : Les perles chaisies - D'Ebn Achihna., pp.85-88.

(٦٥) - ديوان ابي فراس الحمداني جمعه ونشره وعلق على حواشيه سامي الدهان مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق ١٣٦٣ هـ ، جزء ٣ ، ص ٤٢٢ - ٤٢٤ ، وص ٣١٥ وص ٤٢٧ •

(٦٦) - الطباخ : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، جزء ١ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ •

(٦٧) - حسن ابراهيم حسن وطه شرف : عبيد الله المهدي امام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية ، الازهر ١٩٤٧ ، ص ٣٠ •

في ابنه الاكبر اسماعيل وابنائهم من بعده . لان النص لا يرجع القهقري (٦٨) . وانه لوجازت امامة موسى الكاظم فهو امام مستودع (٦٩) . كالحسن بن علي بن ابي طالب الذي لم يورث الامامة لابنائهم . وان اسماعيل هو الامام المستقر (٧٠) ، الذي يورث الامامة لابنائهم ، وسمي الذين نادوا بامامة اسماعيل وابنائهم من بعده بالاسماعيلية .

ونادي الاسماعيلية بالتأويل ، واهتموا بالمعنى الباطن للقرآن ، فلازمهم بذلك لقب الباطنية (٧١) وكان للدعوة الاسماعيلية ثلاثة اركان وهم الامام والحجة والداعي (٧٢) . كما استتر الاسماعيلية بعد محمد بن اسماعيل ويمكن تلخيص اسباب هذا الاستتار بما يلي :

— اخفاق ثورات الشيعة المتكررة : وتعرض القائمين بها الى القتل والاضطهاد مع انصارهم ، وتتبع العباسيين لهؤلاء للتخلص منهم ، حتى اضطر من بقي منهم على قيد الحياة الى الفرار الى بلاد بعيدة عن مركز الخلافة العباسية . فقد تكفل المنصور ببني الحسن . وانهت ثورة محمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن عليه بقتلهما . وسجن المهدي علي بن العباس بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، ثم دس اليه السم . وقتل الحسين بن علي بن الحسن في خلافة الهادي . وكانت نهاية يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين في عهد الخليفة الرشيد غامضة . وسجن الرشيد ابنه محمد حتى مات في السجن . كما تخلص من موسى الكاظم بالسم بعد ان سجنه . ومما يقال عن المأمون انه تخلص من الامام علي رضا بالسم ايضا ، ولا تنسى اخيرا موقف المتوكل الصارم من الشيعة (٧٣) .

(٦٨) — الشهرستاني : الملل والنحل ، جزء ٢ ، ص ٢٨ .

(٦٩) — الامام المستودع هو الذي يتمتع بالامامة في حياته ، ولا يستطيع ان يحولها الى ابنائه من بعده .

(٧٠) — الامام المستقر هو الذي يتمتع بالامامة في حياته ، ويستطيع ان يحولها من بعده الى ابنائه كالحسين بن علي .

(٧١) — الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٩ .

(٧٢) — دائرة المعارف الاسلامية : مادة الاسماعيلية ، ص ١٩٣ .

(٧٣) — عن موقف العباسيين من الشيعة انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٩٠ — حسن

ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٥ — محمد جواد مغنية : الشيعة والحاكمون ،

ص ١٤٦ — ١٦٤ .

— ذهب الاسماعيلية الى ان الامام يجوز له ان يستتر ان لم تكن له قوة يظهر بها على اعدائه • ومن المرجح انهم نهجوا هذه الطريقة خشية ان يلحق بهم مالم يلحق اتباع طائفة الاثني عشرية من الاضطهاد والقتل •

وقد تمكن الاسماعيلية من الاستفادة من الظروف المحيطة بهم ، فعملوا على اسفطاب أنصار الفرق الشيعية الاخرى المضطهدة ، بعد فشل ثورات الشيعة جميعها التي قامت قبل ذلك وعدم تمكنها من احراز نصر سياسي (٧٤) ، كما انهم وبدوا ان المدينة المنورة غير صالحة لبقائهم خشية انكشاف امرهم • ففر محمد ابن اسماعيل وتوغل في شرقي المملكة الاسلامية ، حيث وضع مع حخته اسس الدعوة الاسماعيلية ، ولم يست حتى كانت اسس الدعوة قد وضحت •

وننتج عن استتار الائمة بعد محمد بن اسماعيل نتيجة خطيرة ، وهي اختلاف المؤرخين في اسمائهم والتباس الامر حول اسماء الائمة وحججهم • وهذا ما جعل التحقق من شخصية الائمة المستورين امرا متعذرا على الناس سنيين ام شيعيين • كما اصبح من الصعب التفريق بين الحجج والائمة لاتفاق اكثرهم في التسمية ، اصف الى ذلك ان رؤساء الدعوة في مراكز الدعوة الرئيسية كانوا يختلفون فيما بينهم في ذكر اسماء الائمة حتى كان ذلك من اكبر العوامل في اختلاف المؤرخين حول نسب الفاطميين (٧٥) ، ومن العوامل التي حفظت الائمة المستورين ، وحالت دون انتعرض لاشخاصهم (٧٦) •

ومما يدلنا على امعان الائمة المستورين في التخفي ما ذكره الداعي ادريس بأن

(٧٤) — حسن ابراهيم حسن وخطه شرف : عبيد الله المهدي ، ص ٢٩

(٧٥) — انظر ماكتبه المؤرخون حول نسب الفاطميين في الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، جزء ٦ المسمى الدرة المضيئة في اخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق المنجد ، طبعة القاهرة ١٩٦١ من ص ٤ حتى ١٥ حيث يجمع اقوال المؤرخين الذين سبقوه في نسب الفاطميين •

— العيون والحدائق ، جزء ٤ — القسم ١ ، طبعة دمشق ١٩٧٢ ص ٢٥١ •

— ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٦٤ — ٢٥٦ •

— البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ •

(٧٦) — حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٤١ •

استتار الامام كان كظلمة الليل الشديد ، لانه رأى ان الباطل غلب على الحق ،
ولشدة طلب العباسيين لمعرفة هؤلاء الائمة وانتخلص منهم • ولم يكن يذكر اسم
الامام لاتباع الدعوة • ومن علت درجته كان يعرف اسم الحجة فقط (١٧) •

ويبدو ان عبد الله بن محمد ، او عبد الله الرضي الذي عرف عند
الاسماعيلية بالامام عبد الله الاكبر كان اول الائمة المستورين الذين استقروا
بسلمية ، وذلك ان العباسيين تتبعوه في عهد المأمون ، وتمكنوا من قتل ابنائه
وفتكوا بعامة أسرته • فهرب مع ولي عهده في الامامة ابنه احمد ، وقصد
سلمية (٧٨) • فأصبحت دار هجرة لائمة الاسماعيلية ، والمركز الرئيسي للدعوة •
وادعى عبد الله هناك وليبعد الشبهة عن نفسه بأنه عباسي ، فظل في سلمية موضع
الاحترام والتقدير لورعه وتقواه (٧٩) • وكان اختيار عبد الله لهذه المدينة يعود
الى موقعها الجغرافي على طريق التجارة العالمية في ذلك الوقت ، بالاضافة الى
اضطراب احوالها •

كان هرب الامام عبد الله بن محمد مفاجأة لكثير من دعاة الذين لم
يسنطعوا العثور عليه الا بعد مشقة (٨٠) ، وتوالى ارسال الاموال والذخائر على
الائمة من كل بلد من قبل دعاةهم الى سلمية • وتتألف هذه الاموال مما كان يدفعه
انصار الاسماعيلية - والذين يطلق عليهم اليماني اسم (المؤمنون) من
اخماسهم وبما يتقربون به من الائمة • وكانت هذه الاموال تصل الى دار الامام
عن طريق سرداب محفور من القصر الى مسافة اثني عشر ميلا خارجه • حيث يوجد
هناك باب مغطى بالتراب ، تدخل منه الجمال باحمالها حتى تصل الدار دون ان
يعلم احد بما يجري • وكانت الاموال كثيرة حتى يقال ان المهدي ما كسب بعد أن

(٧٧) - ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ - البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ٢٦٦-٢٦٧ .

(٧٨) - محمد جمال سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ١٧ .

(٧٩) - محمد بن محمد اليماني : سيرة جعفر مجلة كلية الاداب ، القاهرة ، جزء ٤ ، مجلد ٢ ،
ص ١٠٨ .

(٨٠) - انظر تفاصيل هربه واستقراره في سلمية في النيسابوري : استتار الامام ، ص ٩٣-٩٥ .

فتح الله له الا نحوا مما خلف بسلمية (٨١) . وان دل هذا على شيء فانما يدل على مدى انتشار الدعوة لأئمة الاسماعيلية في ذلك الحين . وعلى تفاني أنصارها في دعمها ماديا ومعنويا .

ويبدو أن بداية انتشار المذهب الاسماعيلي في الشام كان قبل هجرة عبدالله ابن محمد الى سلمية واتخاذها موطنًا ودار هجرة . ثم توسعت هذه الدعوة بعد تسربها من سلمية . واصبح لهذا المذهب في مدن الشام وباديتها كثير من الانصار والاتباع . وعهد الائمة الى كبار رجال الدعوة بنشر المذهب الاسماعيلي في ارجاء العالم الاسلامي .

ظلت الامور على هذا الشكل ايام الامام الحسين بن احمد بن عبد الله ، الذي استطاع ان يقيم في سلمية آمنا مطمئنا دون أن تناله يد العباسيين . والواقع ان كرم الامام الحسين وبذله الاموال الكثيرة وتفانيه في اظهار حبه للهاشميين ، وتفاني انصاره في طاعته ، كل ذلك ساعد على ذيوع الدعوة في سلمية ثم في غيرها .

ثم انتقلت الامامة في سلمية الى عبيد الله المهدي او عبد الله ، ويبدو ان ظروفًا دعت امام الاسماعيلية في سلمية الى تركها . ومن هذه الظروف : ظهور بوادر انشقاق من آل زكرويه بعد قتلهم لعبدان . وابعادهم عن رئاسة الدعوة بالكوفة مما اشعر المهدي بعداوتهم له . ومنها ان ابا عبد الله الشيعي ارسل له يغريه بالذهاب الى بلاد المغرب ، فقد ارسل له وفدا من كتامه قابله في سلمية ووقف منه المهدي على مدى نجاح الدعوة في بلاد المغرب فقرّر التوجه اليها . الا انه اخبر انصاره بأنه سيتوجه الى اليمن . وذلك حرصا منه على الا يقع في قبضة العباسيين . واهم هذه الظروف تنبه العباسيين الى خطورة مركز سلمية وذيوع الدعوة الاسماعيلية في بلاد اليمن والمغرب ، الامر الذي دفعهم الى تعقب الامام

(٨١) - سيرة جعفر : مجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة المجلد ٢ ، الجزء ٤ ، يفانوف - مذكرات في حركة المهدي مايو ١٩٣٦ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

ومحاولة القبض عليه (٨٢) . فقد أدرك كل من المعتضد والمكتفي ان الدعوة لامام مستور قد بلغت ذروتها ، وان نشاط الاسماعيلية يزداد في سلمية . وانه اصبح لزاما عليهما ان يعملوا على القضاء على هذه الحركة قبل ان يستفحل خطرهما . ومما نبه العباسيين الى ذلك ان احد ولاة سلمية من قبلهم قد ثارت شكوكه حول المهدي لانه وجده صاحب مقام كبير في سلمية . ورجح لديه انه هو الذي تروج الدعوة باسمه في انحاء العالم الاسلامي كافة (٨٣) .

وبقي المهدي بعد تركه لمدينة سلمية في الرملة فترة ليست قصيرة ، ومن الجائز ان يكون بقاءه لوجود انصار له هناك ، تمكنوا من كتمان أمره عن العباسيين الذين أرسلوا الى ولايتهم في مدن الشام ومصر وشمال افريقية بالعمل جادين للقبض عليه . وكذلك لتضليل هؤلاء عن مكان وجوده .

وما لبث المهدي ان غادر الرملة في اوائل سنة (٢٩١ هـ / ٩٠٣ م) ونجحت رحلة المهدي نجاحا كبيرا ، ويعود ذلك الى انها كانت منظمة تنظيما دقيقا . فقد كانت الاخبار تصله بسرعة فائقة عن طريق الحسام الزاجل . كما ان بعض الحكام ممن كانوا في خدمة العباسيين ويتظاهرون بعقائدهم السنية كانوا يدينون بالمذهب الاسماعيلي ، وينتصرون لقضية الاسماعيلية . ويشايعون المهدي المنتظر ويعملون على نجاح دعوته . وكان عامل مدينة الرملة من قبل الطولونيين من احسن الامثلة التي تؤيد هذا الرأي . فقد كان اسماعيليا يتستر على المهدي وحاشيته (٨٤) . مما أدى الى نجاح المهدي في الهجرة على الرغم من جهود العباسيين في القبض عليه .

تشابهت معتقدات الاسماعيلية حول الامامة مع معتقدات الفرقة الاثنى عشرية . وكانت الاسماعيلية اكثر مزجا لتعاليمها بالافكار الفلسفية التي داخلتها مع

(٨٢) - محمد جدال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ٢١

(٨٣) - محمد بن محمد اليماني : سيرة جعفر ، ص ١٠٩ - ١١٠

(٨٤) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

تطورها • ومن المهم ان نذكر ان مبادئ هذه الفرقة قد تطورت مع مرور الايام •
ويمكن على الرغم من كل شيء ان نذكر بعض هذه المعتقدات :

— التأويل : اي أن لكل نص ديني معنى ظاهريا وآخر باطنيا يفهمه الائمة
ولذلك لازم هذه الفرقة اسم الباطنية (٨٥) •

— مراتب المجتهدين : كان هناك سبع مراتب للمجتهدين ولكل مرتبة من
هذه المراتب تعاليم خاصة ولايستطيع المرء الانتقال من مرتبة الى أخرى الا بعد
قضاء مدة من الزمن يتعلم فيها تعاليم تلك المرتبة على يد الداعي الخاص • وعلى
رأس الدعاة داعي الدعاة أو الحجة • وهذا المنصب من أعلى المناصب •

— اجاز الاسماعيليه للامام ان يستتر ان لم تكن له قوة يظهر بها على اعدائه •
ومن المرجح انهم نهجوا هذه الطريقة خشية ان يلحق بهم مالحق اتباع الاثنى
عشرية من الاضطهاد والقتل (٨٦) •

ج - الزيدية :

فرقة من فرق الشيعة المعتدلة ، وهم اتباع زيد بن علي بن الحسين (٨٧) الذي
ثار ايام هشام بن عبد الملك ، طامحا الى الخلافة • فقد شجعه على الثورة شعوره
بمكانته العلمية والدينية ، وشعوره بعدم تحقيق الامويين للعدالة • وفوق كل
ذلك ماكان من استهتار الخليفة هشام به وعدم حمايته امام والي العراق الذي
اتهمه بوديعة مالية لخالد بن عبد الله القسري ، كما شجعه على الاسراع بالثورة
الحاج انصاره عليه في اعلان امره (٨٨) •

ويرى المؤرخون ان الزيدية اكثر فرق الشيعة اعتدالا ، فهم يرون ان عليا

(٨٥) ... التمهيدستاني : الملل والنحل ص ٢٩ احمد امين ظهير الاسلام ، جزء ١ ، ص ١٢٠

(٨٦) ... سرور : الحماة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ، ص ١٧

(٨٧) ... ابن زيد بن الحسين وعلمه ، انظر ضحى الاسلام : جزء ٢ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ •

(٨٨) ... غانم : دراسات في تاريخ بني امية ، ص ٢٦٥ - ٢٧٠ •

أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر ولكنهم لا ينكرون خلافتها لاجتماع أكثر الصحابة على بيعتها . وذلك لأن الصحابة قدروا الظروف المحيطة بهم (٨٩) ، كما يرى هؤلاء أن الإمام بالاختيار لا بالنص . كما يرون أن الإمامة في أبناء علي شرط أن يكون عالماً زاهداً جواداً شجاعاً . ويخرج داعياً إلى إمامته (٩٠) . وقد اعترف إمامهم زيد بإمامة الشيخين ، فاحتج بعض أنصاره على ذلك ، ورفضوه فسموا بالرافضة (٩١) .

ولما خرج زيد بن علي على الأمويين وقتل وصلب بالكناسة (٩٢) قال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى بالأمر إلى النفس الزكية محمد بن عبد الله (٩٣) .

واختلف الزيدية حول الإمام بعد النفس الزكية (٩٤) . وقد تمكن هؤلاء من تحقيق بعض أهدافهم فأسسوا دولة الإدارة في المغرب . وكان منهم الداعي الحسن بن زيد الذي ملك طبرستان ، وكذلك كان الأطروش منهم (٩٥) . ومن مبادئ هذه الفرقة بالإضافة لما ذكر .

— أن الإمامة في أولاد فاطمة ولم يجوزوا ثبوت إمامة في غيرهم . ولم يفضّلوا أبناء الحسين عن أبناء الحسن ، واشتروا في الإمام العلم والزهد والشجاعة والسخاء والخروج للإمامة .

— جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل (٩٦) .

(٨٩) — أحمد أمين : ظهر الإسلام ، جزء ٤ ، ص ١٣٦ .

(٩٠) — ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٧٦ .

(٩١) — ابن خلدون : مقدمة ، ص ١٧٧ .

(٩٢) — موضع بالكوفة .

(٩٣) — ابن خلدون : مقدمة ، ص ١٧٥ ، وانظر عن ثورة محمد النفس الزكية فيما سبق .

(٩٤) — عن ذلك انظر ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٧٩ .

— ابن خلدون : مقدمة ، ص ١٧٩ .

(٩٥) — أحمد أمين ضمنى الإسلام ، جزء ٣ ، ص ٢٧٦ .

(٩٦) — أحمد أمين : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٦ .

— لايجيز الزيدية التقية ، ولا يتبرؤون من ابي بكر وعمر ولا يلعنوهما ، ولا يقولون بعصمة الائمة ، كما لايجيزون التستر والاختفاء . ولذلك كان كثير من ائمتهم يخرجون فيقتلون (٩٧) .

— السنة : —

كان رأي السنة ينحصر في الابتعاد عن سيطرة الفرد مهما كان فذا وعبقريا . وكانوا يرون اجماع الامة الاسلامية على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله بشكل صريح . واذا غابت النصوص الصريحة فانهم يعتمدون على ما يفسره علماء الدين قياسا على نموذج موجود في القرآن والسنة . وقد سمح بالاجتهاد في الامور الشائكة لفقهاء السنة . ثم اعلن في اواخر القرن الثالث الهجري اغلاق باب الاجتهاد وسمح بالتقليد فقط .

امتاز الدور العباسي الاول بظهور المذاهب الاربعة وارساء اركانها في الوقت نفسه الذي كان فيه علم الكلام في أوجه ، وعلماء المعتزلة يتدخلون في الحكم . وينتصر الخلفاء لهم . وحين بدأ الدور العباسي الثاني وفي عهد المتوكل بالذات الذي كان أول خلفاء هذا الدور ، نادى بترك القول بخلق القرآن وعدم التعرض لمن لا يرى هذا الرأي ، كما انه أمر الناس بالتسليم والتقليد . وامر المحدثين باظهار السنة والجماعة (٩٨) . وساعد بموقفه هذا على ظهور جماعة من علماء الكلام عارضوا المعتزلة .

ويعتبر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي الفترة الفاصلة في تاريخ التشريع الاسلامي . فقد توقف فيه التكوين المستقل للتشريع الاسلامي المبني على الاجتهاد المطلق . وعلى الحكم بالرأي في فهم القرآن والحديث واصبح الفقيه لا يستطيع اصدار حكمه الخاص الا في المسائل الصغيرة (٩٩) .

(٩٧) — احمد امين : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٦

وظهر الاسلام ، جزء ٤ ، ص ١٣٦

(٩٨) — المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٣٦٩ .

(٩٩) — آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٦٩ .

كان اهم المذاهب بين اصحاب الحديث الحنابلة والاوزاعية والثورية ، وقد اندثر المذهبان الاخيران وبقي المذهب الحنبلي جنبا الى جنب مع المذهب الشافعي والحنفي والمالكي . وقد انتشر مذهب ابن حنبل في العراق ونم يخرج خارجها الا في القرن الرابع الهجري ، وكانت مكة والمدينة اكبر مراكز الشافعية (١٠٠) ، وكذلك الشام ومصر . وقد نافست المالكية الشافعية في مصر . وقد اقتسم المالكية والحنفية بلاد المغرب ، وكانت السيادة في الاندلس لمذهب مالك . اما بغداد نفسها فقد كان الحنابلة دون سائر اهل السنة اكبر من اقلق بال الحكومة (١٠١) .

وبدا انتصار مذهب السنة بشكل حقيقي على يد ابي الحسن الاشعري (١٠٢) الذي ولد سنة (٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م) وعلى الرغم من كل ما يقال عن هذا الفقيه ونشأته على مذهب المعتزلة فانه في النهاية رفض هذا المذهب ، واخذ من خلال معرفته لمداخله ومخارجه يناقش انصار المعتزلة ، ويدحض آراءهم بالاسلحة المنطقية نفسها التي امدوه بها (١٠٣) . وقد ساعد على انتشار مذهب الاشعري المؤلفات الكثيرة التي ألفها في علم التوحيد مثل كتاب اللع وكتاب الموجز ، وكتاب ايضاح البرهان وكتاب التبيين عن اصول الدين وكتاب الشرح والتفصيل في الرد على اهل الافك والتضليل . وقد كان لجهوده اثر كبير في احياء السنة والحد من انتشار الاعتزال (١٠٤) .

وقد اختلف الاشعري عن الحنابلة ، في انه لم يمانع في المناقشة التي ترمي الى التقريب بين تعاليم الدين ومبادئ العقل . على حين رفض الحنابلة اي كلام أو جدل في امور الدين خشية التأثير بآراء المجادل . ولذلك وقف الحنابلة موقفا

(١٠٠) - آدم ميتز : المرجع السابق ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣

(١٠١) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(١٠٢) - هو من ذرية ابي موسى الاشعري والي البصرة لعمر ثم لعثمان بن عفان . ووالي الكوفة لعثمان وهو ممثل علي في التحكيم .

(١٠٣) - عن الاشعري انظر احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ٤ ، ص ٦٥ حتى ٦٩ .

(١٠٤) - احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ٤ ، ص ٦٧ - ٦٩ و ص ٦٥ .

صلبا في وجه الاشعرية ، ووجهوا اليها حملاتهم مما ادى الى عدم انتشارها في بغداد . حتى اضطر بعض الاشعريين الى مغادرة بغداد .

ومهما يكن من امر ، فان الاشعرية التي قدر لها ان تصبح مذهب جمهور المسلمين ، قد وجدت النصر الاكبر في نظام الملك وزير السلطان السلجوقي الثالث ملك شاه . وكان احتواؤه لها لانه وجدها اقدر من الحنبلية على الوقوف في وجه الشيعة الغالية .

وهكذا فانه يتضح بأن السنة لم تقو الا بانتصار السلاجقة لها وتأييدهم لآرائها ، وذلك في القرن الخامس الهجري . وان الحنبلية التي كان اتباعها اكثر لم تستطع مقاومة الاوضاع السائدة لاسباب متعددة ، كان على رأسها تعصبهم الشديد حتى ضد المذاهب السنية الاخرى . واستخدمهم القوة ضد كل من يخالفهم مما زاد في عدد اعدائهم . ومما قاموا به نتيجة تعصبهم قتال الشيعة ، فهاجموا مسجدهم في باراثا مرتين ، وتبنوا محو كتابات اللعن لابي بكر وعمر . كما انهم حالوا في سنة (٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) دون دفن المفسر والمؤرخ المشهور محمد ابن جرير الطبري ، لانه لم يجعل أحمد بن حنبل من الفقهاء . كما انهم تعدوا على فقهاء المدرسة الشافعية . ووقفوا بحزم امام شاربي الخمر . وقد ادت شدتهم امام مخالفتي مذهبهم الى وقوف الخليفة الراضي في وجههم سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م فهددهم بالقتل ، ومنع اجتماعاتهم (١٠٥) .

ومن اهم ميزات هذا الدور بالنسبة للمذاهب الاسلامية ظهور المذاهب الاربعة . وهي على الترتيب المذهب الحنفي ، المذهب المالكي - المذهب الشافعي - المذهب الحنبلي .

(١٠٥) - مسكوية : تجارب الامم ، جزء ١ ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

ـ التصوف

ساير انتشار السنة ، تيار آخر هو تيار التصوف .

ويرى بعض العلماء ان التصوف نزعة من النزعات الاسلامية لا فرقة مستقلة .
لذلك يصح ان يكون الانسان معتزليا وصوفيا ، شيعيا وصوفيا في آن واحد
وغير ذلك ، كما يرى آخرون بأن الصوفية طائفة من اهل السنة (١٠٧) . والاصل
في التصوف العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف
الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والافتراد عن
الخلق في الخلوة للعبادة (١٠٨) .

انتشرت الصوفية بعد ان فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ،
وجنح الناس الى التمتع بالدنيا (١٠٩) ، ولكن نشأة التصوف كانت قبل هذا
العصر . فقد وجد رجال كثيرون من بداية الاسلام يعرفون بالزهاد ، وهم رجال
الصفة ، كما وجد غيرهم كأبي ذر الغفاري والحسن البصري ، دون ان يطلق عليهم
اسم متصوفة (١١٠) .

وقد اختلف الناس في اصل التسمية هل هي من الصفة او الصفاء
او الصوف لانهم اختصوا به . ويرجح البعض ومنهم ابن خلدون انها نسبة الى
الصوف لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس
الصوف (١١١) . وقد زهد المتصوفة عن الدنيا . وافتردوا عن الخلق بالاقبال على

(١٠٦) ـ يمكن العودة الى مقال هاملتون جب دراسات في حضارة الاسلام ، دار العلم للملايين ، من
ص ٢٧٥ - ٢٨٨ .

(١٠٧) ـ احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ٤ ، ص ١٤٩

(١٠٨) ـ احمد امين : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٥٢

(١٠٩) ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٣٩

(١١٠) ـ احمد امين : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٥٠

(١١١) ـ ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤٣٩ .

العبادة حبا بالله وتقربا اليه . ثم دخلت الفلسفة الى التصوف وخاصة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وغيرها ، وذلك لاتصال الصوفية بأهل الديانات الاخرى (١١٢) .

تبدأ مراحل التصوف من مرتبة المريد ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى ان ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة . واذا وقع تقصير في النتيجة او خلل فيعلم انه انما اتى من قبل التقصير في الذي قبله . ويحتاج المتصوف لاجتياز هذه المراحل الى محاسبة نفسه في سائر اعماله والنظر في خفاياها لان حصول النتائج عن الاعمال ضروري ، وقصورها من الخلل فيها كذلك (١١٣) . كما يحتاج كذلك الى المجاهدة والخلوة والذكر ليصل الى كشف حجاب الحس ، والاطلاع على عوالم من امر الله ليس لصاحب الحس ادراك شيء منها . وسبب هذا الكشف أن الروح اذا رجعت عن الحس الظاهر الى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت الروح . وغلب سلطانه (١١٤) .

كان الصوفية خصوما ألداء لجميع الفقهاء ، وقد عبروا عن احتقارهم لعلم الفقه الذي يسمونه علم الدنيا تعبيرا قاسيا ، وقد انتصر الصوفية في هذا الباب وبشكل خاص على يد الغزالي امام جمهور المسلمين المتأخرين ، فجاهر بأن علم الفقه علم دنيوي لا ديني ، كما وجد بين الصوفية طوائف كثيرة ترفض العلوم جملة (١١٥) .

ومن اشهر المتصوفة رابعة العدوية صاحبة الحب الالهي ، لاحسانه اليها وانعامه عليها بحظوظ العاجلة ، ولانه اهل لهذا الحب . ثم جاء ابو يزيد البسطامي الذي بدأ بفكرة الفناء في الله ، وهذه الفكرة كثيرة الشيوع في كلام الصوفية .

(١١٢) - احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ٤ ، ص ١٥٨ - هاملتون جب : المرجع السابق ، ص ٢٧٦

(١١٣) - ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤٤٠ .

(١١٤) - ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٤٤١

(١١٥) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٣٤

فلكثر اندماجه بعبادته يصل الانسان الى انعدام النفس • ويصف السري السقطي من وصل الى هذه الحالة بقوله : (انه لو ضرب بسيف على وجهه لما شعر به) (١١٦) •

ونسب الى ذي النون المصري ادخال الكلام في المقامات والاحوال في الصوفية ، حتى شغلت جزءا كبيرا منها • فللصوفية كلام طويل في الاحوال والمقامات التي وضع فكرتها ذو النون ، خلاصتها ان طريق الوصول الى الله شاق ، وعسير يجب ان يتدرج فيه المريد في مراحل يسلم بعضها الى البعض وهذه المراحل المتعددة تسمى بالمقامات ، وقد جعلها الطوسي صاحب كتاب اللمع وهو من اقدم الكتب الصوفية سبعا كل واحدة تسلم الى ما بعدها • وهي مقام التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا ، ويرون ان الطالب بعد التوبة يجب ان يتبع مرشدا او شيخا يطيعه طاعة عمياء • ويحتقر المتصوفة من يسير في الطريق من غير مرشد (١١٧) •

والى جانب المقامات فقد كانت الاحوال ، فعدوا منها انتأمل والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والانس والطمأنينة والمشاهدة والتعين • ويرون ان المقامات يتوصل اليها بمجهود الشخص ، اما الاحوال فموهبة من الله لاحكم للانسان عليها • وهذا معنى قولهم فالاحوال مواهب والمقامات مكاسب (١١٨) •

وقد تطور التصوف قدما على يد الحلاج الذي كان يرى الغلو في الفناء أي فناء المحب في المحبوب حتى لا يرى شيئا الا هو ، وبالتالي فانه كان يرى حلول الله في الانسان ، أي انه هو والله شيء واحد ، ثم تجلى بعد ذلك وحدة الوجود في ابن العربي وابن الفارض وابن سبعين العفيف التلمساني وغيره • ومعنى القول بوحدة الوجود ان العالم والله شيء واحد (١١٩) • وليست مظاهر العالم المختلفة

(١١٦) - امين : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ •

(١١٧) - احمد امين : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٦٠ •

(١١٨) - احمد امين : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٦٠ •

(١١٩) - احمد امين : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٦٢ •

الا مظاهر لله تعانى ، اي ليس لله وجود الا الوجود القائم بالخلوقات . وليس هناك غيره ولا سواه ، وان العبد انما يشهد السوى مادام محجوبا ، فاذا انكشف الحجاب رأى انه لا اثر للغيرية ولا للكثرة . وعليه فعين الرائي عين المرئى والمشاهد عين المشهود (١٢٠) .

— كان المصوفية ادب غزير له خصائص متميزة ، كالسمو الروحي ، والمعاني النفسية العميقة ، والخضوع لارادة الله القوية ، وبعد الخيال كما يتصف بالغموض والمعاني الرمزية (١٢١) .

هذا ويجب ان نذكر انه لم يكن للمتصوفة في القرن الثاني جامعة تجمعهم ولا امكنة خاصة يؤدون فيها شعائرهم . وانما كانوا افرادا متفرقين ، قد يكون لبعض منهم تلاميذ ، ثم تزايد اعداد التلاميذ حول المرشد بعد ذلك فكونوا مجموعات متميزة .

(١٢٠) — أحمد امين : المرجع السابق ، جزء ٤ ، ص ١٦٣

(١٢١) — أحمد امين : المرجع السابق جزء ٤ ، ص ١٧٠ .

الفصل الثالث

تفكك وحدة الخلافة الإسلامية

عجزت الخلافة العباسية منذ الدور الاول عن المحافظة على وحدة أراضيها ويعود ذلك الى قوة التيار الانفصالي . وقد ازداد هذا التيار قوة أثر تسلط العناصر الإسلامية على الخلافة . فمِنذ استأثر الاتراك بالنفوذ فيها دون الخلفاء ، تعرضت الخلافة الى الكثير من الاضطرابات السياسية ، وأخذت العناصر المختلفة التي تشكل شعوب الخلافة تعمل على تأسيس دول مستقلة . ومما لاشك فيه ان هذه الحركات الانفصالية قد اظهرت الخلافة العباسية بمظهر التفكك . واصبح الخلفاء العباسيون في بعض فترات تاريخهم المتأخر لا يسيطرون الا على مدينة بغداد . وعلى الرغم من هذا الانقسام ، فان أقطارا كثيرة تمتعت بكثير من الطمأنينة والرخاء . وبذل حكام هذه الدول جهودهم في سبيل توطيد دعائم ملكهم . وانتفع كل قطر بموارده الخاصة . وصارت إيرادات الاقطار المستقلة المتجسدة من الخراج والجزية والضرائب الاخرى ، ينفق جزء كبير منها في اصلاح مرافقها . كما غني حكامها بتنمية موارد الثروة في اقطارهم . مما ساعد على توفير اسباب المعيشة لرعاياهم ، وانتعاش الحياة الاقتصادية في بلادهم (١) .

ولم يؤد انقسام الدولة الإسلامية الى انقطاع الصلة بين اقاليمها وولاياتها المنفصلة عنها . بل كانت مجموع الاقاليم تؤلف دولة واحدة هي مملكة الاسلام .

(١) . احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ١ ، ص ٩٣ - ٩٤

وقامت بينها وحدة لا تتقيد بالحدود السياسية المحدثه . فقد كان المسلم يتمتع بحق المواطن في جميع انحاء هذه المملكة . فلا يتعرض أحد لحرية الشخصية . ويستطيع ان يتنقل بين اطراف الاقطار الاسلامية بأمان ، من دون رعايا دار الحرب ، الذين لا يستطيعون دخول هذه الاراضي الا باذن ، ويسمون مستأمنين مفردها مستأمن ، واذا دخلوها دون أمان ، فلا يسكن حمايتهم وتتعرض حياتهم للخطر^(٢) .

يضاف الى هذا أن انقسام الدولة الاسلامية الى دول مستقلة ، لم يؤد الى تدهور او انحطاط الحضارة في تلك الدول . بل على العكس فإن الاقطار الاسلامية كانت بعد استقلالها عن الخلافة في بغداد منيعة الجانب وافرة العدة عظيمة الخيرات . فقد نوه الرحالة بما بلغته دولة السامانيين في خراسان وما وراء النهر من بقي حضاري . كما أن الحضارة في مصر تقدمت تحت حكم الفاطميين بشكل أكبر ووضح مما كانت عليه ايام ولاة العباسيين . ولما اتيح للاندلس الاستقلال في بدء العصر العباسي ازدهرت فيها الحضارة واسهمت في تقدم العلوم والآداب^(٣) . ويمكن رد أسباب نشوء هذه الدول الى عوامل متعددة منها :

١ - سياسة الدولة العربية الاسلامية التي تسلمت الاشراف على الجيش والبريد والخراج . وتركت ما تبقى من شؤون الدولة بيد الاسر المتنفذة والغنية في بعض الاقاليم . مما دعا هذه الاسر الى استغلال نفوذها ، وتحقيق غايتها في الاستقلال .

ويضاف الى ذلك تطرق الفساد الى النظام المالي ، فقد ساءت الجباية وأخذت جباية منطقة من المناطق تعطى للاشخاص على سبيل الالتزام . وغاية الدولة من ذلك الحصول على أكبر قدر مالي ، دون النظر الى مصالح أهالي المناطق . ونهض عولاء الملتزمون لجمع اضعاف مالدفعوه . فاشتد عسفهم بالناس في كثير من الاحيان . وقد ولد ذلك تدمير الطبقة الفقيرة التي لم تظفر بالتقرب من الحكام .

(٢) - آدم هيتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣-٤

(٣) - سرور الحضارة الاسلامية في الشرق ، ص ٧٠ - ٧١ - احمد امين ، ظهر الاسلام ، جزء ١ ص ٩٢

وقد ترتب على تدمير السكان قيام الثورات ، ثم طمع البعض باستغلال الثورات لمصلحتهم .

٢ - عدم تمازج العناصر التي تشكل الخلافة الاسلامية ببعضها . وشعور بعض هذه العناصر بذاتها نتيجة الابقاء على الحضارات السابقة . واقتباس الخلافة العباسية بعض مظاهرها .

٣ - شعور بعض الاقاليم بأهميتها الاقتصادية والثقافية في المجتمع الاسلامي ، فأخذت بالانفصال لتعبر عن ذاتها .

٤ - ضعف السلطة المركزية في العاصمة ممثلة بالخلافة التي تسلط عليها الاعاجم . ويمكن القول بان الحركات الانفصالية كانت كثيرة لهذا السبب ، حتى ان خريطة العالم الاسلامي خلال الدور العباسي الثاني ، كانت مضطربة غاية الاضطراب .

٥ - اتساع اراضي الخلافة الاسلامية ، وتباعد اطرافها عن المركز .

وقد بدأت بعض المناطق الاسلامية في الاستقلال عن الخلافة العباسية منذ الدور العباسي الاول ومن أمثلة ذلك . الدولة الأموية في الاندلس ١٣٨ - ٣٩٧ هـ / ٧٥٦ - ١٠٩٢ م ، ودولة الادارسة في المغرب الأقصى ١٧٢ - ٣١١ هـ / ٧٨٨ - ٩٣٢ م ودولة الاغالبة في تونس ١٨٤ - ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٩٠٨ م والدولة الطاهرية ٢٠٥ - ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ - ٨٧٢ م في خراسان وازداد عدد هذه الدول في الدور العباسي الثاني ، فكانت الدولة الصفارية ٢٥٤ - ٢٩٨ هـ / ٧٦٨ - ٩٠٣ م التي ورثت الدولة الطاهرية ، والدولة السامانية ٢٦٦ - ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ - ٩٩٩ م والدولة الطولونية ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م ، والدولة الاخشيدية والحمدانية والمرداسية والعقيلية الى جانب الخلافة الفاطمية . وسنقتصر في دراستنا على اهم الدول المنفصلة التي نشأت في عصر سيطرة الاتراك ويمكن تقسيم هذه الدول بحسب جنسية حكامها في هذه الفترة الى قسمين .

— الدول الفارسية

— الدول التركية

وكانت هذه الدول تابعة من الناحية الاسمية للعباسيين • وكان امراؤها يعترفون بالخلافة العباسية ويتضح هذا الاعتراف بأمور ثلاثة :

١ — الدعوة للخليفة على المنابر على أنه امام المسلمين

٢ — ذكر اسم الخليفة على النقود ويليه اسم الامير •

٣ — ارسال قسم من الخراج الى بيت مال الخلافة الا في بعض الظروف^(٤).

— الدول الفارسية :

قامت دول مستقلة في شرقي الخلافة الاسلامية على يد عناصر فارسية ، ومن هذه الدول :

٦ — الدولة الطاهرية (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ — ٨٧٢ م)

كانت الدولة الطاهرية اول دولة في الشرق تظفر بشبه استقلال عن حكومة بغداد ، ونسج غيرها على منوالها • أسس هذه الدولة طاهر بن الحسين وهو من قواد المأمون ، وساعده الايمن في حربه ضد الامين ، وقائده في قتال نصر بن شبث العقيلي^(٥) • ثم منحه ولاية المناطق الواقعة من مدينة السلام الى أقصى عمل المشرق^(٦) ، وجعل على القيادة ابنه عبد الله بن طاهر • وقد اتخذ الخليفة هذا الاجراء أثر عجز واليه السابق عن ادارة الامور •

جعل طاهر بن الحسين من مدينة نيسابور عاصمة له ،

(٤) — يوسف العش : الخلافة العباسية ، ص ١٢٦ — ١٢٧ •

(٥) — ابن خلدون : الخلافة العباسية ، جزء ٢ ، ص ٢٥١

(٦) — ابن خلدون : الخلافة العباسية ، جزء ٣ ، ص ٢٥١ — محمد جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية في الشرق ، ص ٧٨ •

وخلفه أبنائه في إدارة هذه الدولة • وعملوا منذ النصف الأول من القرن الثالث على إنشاء حكم مستقر في خراسان ، ومراقبة تحركات الثائرين لمقاومتهم ، كما شجعوا التعليم ، واهتموا بشكل خاص بشؤون الزراعة ، ووجهوا اهتمامهم الى تطويرها •

ويبدو انه على الرغم من هذا الاستقلال الذي أظهره الطاهريون في المناطق الشرقية ، فان ثقة الخلفاء بهم كانت كبيرة • وقد استعان العباسيون بهم في القضاء على الثورات التي نشبت في وجههم • ومن مظاهر الثقة بين الطرفين ان الطاهريين كانوا يدفعون مبلغا ماليا سنويا للخلفاء ، وقد يكون هذا المال فائض الخراج • ففي سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ارسل آل طاهر الى بغداد ثمانية وثلاثين مليون درهم من جملة وارد يقدر بثمانية واربعين مليون درهم • كما ان الخلفاء استعانوا بهم في القضاء على ثورات العلويين والخوارج • وأبقوا شرطة بغداد في أيديهم حتى سنة ٣٠١ هـ / ٩١٤ م ^(٧) • ووقف العباسيون الى جانبهم في نزاعهم مع الصفاريين • حتى تمكن يعقوب الصفاري من القضاء على أسرته ^(٨) •

ب - الدولة الصفارية ٢٥٤ - ٢٩٠ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٣ م

عاصرت هذه الدولة ، الدولة الطولونية ، وكان يعقوب بن ليث الصفار مؤسسها من الصناع الذين يعملون بالصفر • وقد سنحت الظروف له أن يؤسس دولة عاشت ستا واربعين سنة ، ابتدأت في سجستان ، ثم توسعت الى فارس والاهواز وخراسان • كانت سجستان من المناطق التابعة للدولة الطاهرية يحكمها عامل من قبلهم • وقد استفحل فيها نفوذ الخوارج ، فأخذوا يعيشون في الارض الفساد يقتلون وينهبون • فأرسل عامل سجستان جيشا لقتالهم وتأديبهم • جعل على قيادته صالح بن النصر الكناني ^(٩) ، وعرف باسم صالح المطوعي • وكان في صحبة هذا الجيش يعقوب بن الليث الصفار • تمكن هذا الجيش من التغلب على

(٧) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، ص ١١٠ - ١١١ •

(٨) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٠٩

(٩) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٩٣

سجستان • وقد بدت مواهب يعقوب الصفار العسكرية في الظهور من خلال ماقدمه من مهارة عسكرية في قتال الخوارج ، واعادة الاستقرار الى سجستان (١٠) •

أخذ يعقوب بن الليث يعمل على تقريب الجنود اليه ، وكذلك عمل على تحبيب الشعب به باغداقه للاموال • وقد اثمرت جهوده فأصبح رئيسا للجند ثم حاكما لسجستان (١١) • ولم يلبث أن بسط سلطانه على وادي كابل وأنسند ومكران وفتح هراة من مدن خراسان • ثم استولى على كرمان وفارس ، وضم بلخ الى حوزته (١٢) •

لم يكن يعقوب بن الليث الصفار في بادىء الامر يريد الاستقلال عن الخلافة العباسية ، وكانت رغبته أن يكون أميرا للعباسيين • الا ان وقوف العباسيين الى جانب آل طاهر ، ثم مالمسه من ضعف العباسيين تحت نفوذ الاتراك • جعله يفكر في فتح خراسان دون اذن العباسيين • وتمكنت جيوشه من دخول نيسابور عاصمة الدولة الطاهرية مخالفا أوامر الخليفة ، وادعى في سبيل تحقيق هدفه ، أن أهل خراسان أرسلوا اليه يطلبون انقاذهم من آل طاهر (١٣) •

أدرك الخليفة العباسي مدى الخطر الذي يقع على دولته من جراء ازدياد نفوذ الصفار ، فأضمر له العداة ، وأراد أن يضعف مركزه باظهار سخطه ، وعدم رضائه عنه • فجمع حجاج المناطق الشرقية في بغداد ، وكلف من يقرأ عليهم كتابه بلعن الصفار ، وأرسلت عشرات النسخ من هذا الكتاب الى الامصار لتذاع بين الناس (١٤) •

(١٠) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ٢٩٤

(١١) - يوسف العش - الخلافة العباسية ، ص ١٣٠ - ١٣١

(١٢) - محمد جمال الدين سرور - المرجع السابق ، ص ٧٩ - ٨٠

(١٣) - ابن خلدون : الخلافة العباسية ، جزء ٣ ، ص ٣٠٩ - ٣١٠

(١٤) - الطبري : المصدر السابق جزء ٣ ، ص ٥٠٧ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ،

ص ٣٠٨ - ٣٠٩

ولما شعر الصفار بقوته ، أراد أن يفرض على الخليفة المعتمد الاعتراف به .
ولما رفض قرر قصد العراق . فأعد عدته وسار الى الاهواز . حيث استولى
عليها (١٥) ، مستغلا انشغال الخلافة في صراعها مع الزنج . ومن هناك كاتب الخليفة
وسأله ولاية خراسان وفارس وكرمان وسجستان والسند ، وطلب منه أيضا أن
يحضر من قرأ عليهم كتابه الاول ، ويقرأ عليهم خلاف ذلك ليبطل الاول بالثاني .
ولما كان الخليفة المعتمد على الله وأخوه الموفق في شغل بقتال صاحب الزنج اجيب
الصفار الى ماطلب (١٦) .

الا أن اطماع الصفار لم تقف عند حد . فطمع في بغداد نفسها . ويبدو انه
كان يطمع في أن يكون له من النفوذ ما للاتراك . وشجعه على ذلك جيش قوي
يأتمر بأمره . ولكنه فشل في مشروعه هذا ، فأخذ يتوسع على حساب الامراء
المجاورين (١٧) .

انصرف اهتمام يعقوب بن الليث الصفار الى تكوين جيش قوي مطيع له . كما انه
اعتمد في ادارة البلاد على قوته الشخصية ، على الرغم من عدم اظهاره مقدرة
سياسية في ادارتها (١٨) . وكان يعمل على ايجاد اتباع مخلصين له ، فيحسن
تدريبهم . وكان قدوة لهم في التقشف ليكونوا جنودا مخلصين . مما جعله يترك
خزائنه عامرة بالاموال . فسا جاء حول ذلك (كان لا يجلس الا على قطعة مسح
يشبه ان يكون طوله سبعة أشبار في عرض ذراعين أو أرجح . والى جانبه ترسه
وعليه اتكاؤه . وليس في مضربه شيء غيره ، فاذا اراد أن ينام من ليله او نهاره
اضطجع على ترسه .) وقد اجاب رسول الخليفة الذي سأله عن سبب تقشفه

١٥ ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢١٦ .

١٦ شلحان : وفيات الاعيان ، جزء ٢ ، ص ٢١٦ .

١٧ ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٦٦ .

١٨ رادي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزء ٤ ، ص ٢٠٠ - محمد جمال الدين سرور :

المسابق ، ص ٨٠ .

(أن رئيس القوم يأتهم به أصحابه في أفعاله وسيرته • فلو استعانت ماذكرت من
الاثاث ، لأثقلنا البهائم ، ولأتم بي في فعلي من في عسكري ••) (١٩) •

وهكذا نجح يعقوب بن الليث الصفار ، على الرغم من انه لم يكن من بيت
غريق • من تأسيس دولة استطاعت مع قصر عهدها ان تنشر نفوذها ليس في
سجستان وحدها ، حيث بدأت ، بل في معظم أرجاء فارس • ووصلت الى أسوار
بغداد تقريبا (٢٠) •

نوفي يعقوب بن الليث في سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٧ م دون ان يستطيع انهاء الخلاف
بينه وبين الخليفة العباسي • وبايع الجند أخاه عمرو بن الليث • وتحسنت العلاقات
— في البداهة — بين الأخير والخليفة المعتمد ، فاعترف به كأمر على خراسان
واصبهان والسند وسجستان ، كما أضاف اليه شرطة بغداد (٢١) • وقد احسن عمرو
التدبير والسياسة فيما اوكل اليه (٢٢) • الا ان العلاقة بينهما مالبت ان ساءت ،
وعادت الى ماكانت عليه في عهد يعقوب •

نميز عمرو بن الليث بكفايته في ادارة شؤون دولته • وأحب ان يطلع دائما
على شؤون قواده ، وان يجعل هؤلاء يأترون بأمره • فمنع أصحابه وقواده من
أن يضرب أحد منهم غلاما الا بأمره • وكان يشتري المماليك الصغار ويربيهم
ويهبهم لقواده ، ويجري عليهم الجرايات الحسنة سرا ليطلعوه باحوال قواده (٢٣) •

ادى اعتزاز عمرو بن الليث بنفسه ومقدرته ، وثقته بجنده الى وقوعه أسيرا
في قضية اسماعيل بن أحمد الساماني وتشتت شمل جيشه في موقعة عسكرية •

(١٩) — المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٤ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥

(٢٠) — حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٦٧

(٢١) — ابن خلدون — المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣١٨

محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٨١ — حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ،
جزء ٣ ، ص ٦٧ •

(٢٢) — ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٢٠ •

(٢٣) — المسعودي : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٠٥ — ابن الاثير : جزء ٧ ، ص ٥٠٠

وهذه الموقعة من المواقع الهامة التي أدت الى سقوط الدولة الصفارية ، وقيام الدولة السامانية على انقاضها (٢٤) .

ولما أسر عمرو ، آل حكم الدول الصفارية الى حفيده طاهر بن محمد بن عمر ابن الليث ، ولم يكن له من الامر شيء . فقد استبد غلمان جده بالسلطة . واستمر الحكم للصفاريين اسما . حتى تمكن احمد بن اسماعيل الساماني من الاستيلاء على سجستان والقبض على محمد بن علي بن الليث الصفاري ، وأرسله الى بغداد في سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م .

ويرجع ضعف الدولة الصفارية وزوالها الى موقف الخلافة العباسية العدائي منها . والجهود المتصلة التي بذلتها للقضاء عليها . الى جانب ما كان من السامانيين الذين قضوا عليها . يضاف الى كل ذلك مساواة بعض قوادهم لهم في الفترة الاخيرة (٢٥) .

كان الصفاريون يعتنقون المذهب السني ، ويدعون للخليفة على المنابر لاكتساب رضا الجماهير . ولكنهم على الرغم من كل شيء ، حاولوا تقليص سلطته ومشاركته في مظاهر سيادته . فأمر يعقوب بذكر اسمه في الخطبة مع اسم الخليفة . كما نقش اخوه عمرو اسمه على الدنانير . ولم يرسل الصفاريون فائض خراجهم للخلفاء العباسيين ، بل تصرفوا بأموال المناطق الخاضعة لهم ، مما اكسبهم عدااء الخليفة . ولكنهم وعلى الرغم من كل شيء طبقوا مبادئ العدل والمساواة بين أتباعهم ، فأيدتهم الطبقات الفقيرة (٢٦) .

(٢٤) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٢٥) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٧٠ .

(٢٦) - محمد جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية في الشرق ، ص ٨٥ .

- الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، ص ١١٨ - ١١٩ .

جـ - الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ - ٩٩٩ م)

تنسب هذه الدولة الى أسرة فارسية عريقة في المجد ، يرجع أصلها الى بهرام جور • أصلهم من مدينة بلخ • وقد برز أحفاد سامان في عهد الخليفة المأمون ، وتسلموا ولاية بعض مدن خراسان وماوراء النهر لطاهر بن الحسين • وتطور الامر حتى أسس هؤلاء دولتهم في ماوراء النهر وخراسان •

اشهر أحفاد سامان اسماعيل ونصر • تسلم نصر بن أحمد الساماني ولاية سمرقند • ثم وصله منشورا بأعمال ماوراء النهر من الخليفة المستعين سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م (٢٧) ، وتأكد في خلافة المعتمد سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م (٢٨) • وبذلك تأسست الدولة السامانية (٢٩) •

اشرك نصر اخاه اسماعيل معه في الحكم ، ثم ارسله في سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م لتولي مدينة بخارى على اثر الاحداث المؤلمة التي مرت بها المدينة (٣٠) • فأحسن معاملة أهلها فأحبوه ، وتمكن من جمع كلمتهم ، والقضاء على حركات التمرد التي كانت كثيرة (٣١) • وقد أدى ذلك الى اثاره روح الحق في نفس أخيه نصر ، وخاصة بعد تدخل الوشاة بينهما (٣٢) •

توفي نصر في سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٣ م فأصبحت السلطة بيد اسماعيل منفردا • فنهض لتدعيم الدولة السامانية الناشئة • وأخذ يسيط سلطانة على خراسان ،

(٢٧) - النرشخي : تاريخ بخاري ، ص ١٠٦ ، ولكنه يورد أن ذلك حدث في عهد الخليفة الواثق وهذا خطأ لان المستعين هو الذي كان يحكم في هذا التاريخ •

(٢٨) - النرشخي : المصدر السابق ، ص ١١٠

(٢٩) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٧ ص ٢٨٠

(٣٠) - النرشخي : المصدر السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩

(٣١) - النرشخي : المصدر السابق ، ص ١١١

(٣٢) - النرشخي : المصدر السابق ، ص ١١٢ - ١١٦

واستخلصها من الدولة الصفارية . كما ضم طبرستان الى حوزته وكذلك اري (٣٣) .
وتمكن خلفه أحمد من القضاء على الدولة الصفارية نهائيا ، والتوسع في منطقة
سجستان (٣٤) . وحافظ ولي عهده نصر بن أحمد على حدود ولايته كما ورثها ،
على الرغم من منافسة افراد أسرته له (٣٥) .

كان دعاة الاسماعيلية في فارس وشرق الخلافة الاسلامية يبذلون جهودا
كبيرة لجذب كبار الامراء الى زعيمهم عبيد الله المهدي ، ومن بين هؤلاء الدعاة
أبو عبد الله بن أحمد النسفي ، الذي استطاع أن يضم الى الاسماعيلية كثيرا من
أهالي خراسان . وعزز نجاحه في خراسان بنجاح آخر في بلاد ماوراء النهر . ودخل
بخارى حيث لقي اهتماما ومساعدة من بعض كبار رجال الدولة السامانية . وبفضل
هؤلاء استطاع النسفي الوصول الى نصر بن أحمد الساماني الذي رحب بمبادئه ،
ودعاه الى مقابله بعد أن كان من أكبر معارضي المذهب الاسماعيلي ، وهو الذي
قبض على الحسين بن علي المروزي استاذ النسفي وسجنه ، وظل مسجوناً حتى
توفي . غير أن النسفي استطاع بدهائه وحسن سياسته ان يستميل نصر بن أحمد
الساماني الى جانب الخليفة الفاطمي عبيد الله . كما دفع دية المروزي الى النسفي
الذي أرسلها بدوره الى عبيد الله المهدي ليبرهن عن اخلاص نصر للدعوة
الاسماعيلية .

أرسل نصر بن أحمد الساماني كتابا الى عبيد الله المهدي ، يعترف فيه بسلطته
الروحية ، ويعدده بامداده بالرجال . وقد قال في كتابه : (انا في خمسين ألف مملوك
يطيعونني وليس على المهدي بهم كلفة ولا مؤونة ، فان أمرني بالمسير ، سرت اليه
ووقفت بسيدي ومنطقتي بين يديه ، وامثلت اوامره) .

ويبدو ان ازدياد نفوذ الداعي النسفي في عهد نصر . أدى الى غضب كبار

(٣٣) - الترشيحي : المصدر السابق ، ص ١١٧ - ١٢٣

(٣٤) - الترشيحي : المصدر السابق ، ص ١٢٥

(٣٥) - الترشيحي : المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٦

رجال الدولة السامانية منه • ودفع هؤلاء الى العمل على التخلص منه • وقد أدرك نصر الخطر المحدق به ، وأراد أن يحتفظ بالامارة في أسرته ، فتنازل عنها لابنه نوح • وكان الابن على غير رأى والده • فوجه اهتمامه الى القضاء على الدعوة الاسماعيلية وانصارها في بلاده • وقتل النسفي مع عدد كبير من القواد الذين دخلوا في المذهب الاسماعيلي سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م (٣٦) •

تعرض السامانيون لهجمات البويهيين من جهة ، وتمرد القبائل التركية فيما وراء سيحون من جهة أخرى ، بالإضافة الى تمرد مواليهم عليهم • وقد بدأ الصراع بين البويهيين والسامانيين منذ عهد نوح بن نصر من أجل مدينة الري ، ولما فشل نصر أمام البويهيين ، طمعوا في القضاء على الدولة • وقام الصراع بين الطرفين حتى سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م (٣٧) • وقد تعرض هؤلاء الى هجمات الاتراك على حدود دولتهم الشرقية (٣٨) ، كما قام مواليهم من الاتراك الذين تقلدوا للسامانيين مناصب عالية في الجيش والادارة بـسنافسـتهم ، واصبحوا خطرا هدد السامانيين • وقد أدت هذه العوامل الى جانب عوامل أخرى الى ضعف سلطة السامانيين ثم انهيارها • وهذه العوامل هي :

— وقوع النزاع بين أفراد البيت الساماني ، ووصول أمراء للحكم ليسوا على قدر المسؤولية •

— اعتماد السامانيين على الاتراك في جيشهم • وتوليتهم مناصب عالية في الجيش والادارة وتمتعهم بسلطات واسعة جعلتهم خطرا يهدد السامانيين •

هذا وقبل ان اختتم الحديث عن الدولة السامانية يجب ان اعترف للسامانيين

(٣٦) — محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٨٤

(٣٧) — ابن نفري بردي الاتابكي : النجوم الزاهرة ، جزء ٤ ، ص ٦٢

(٣٨) — ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٣٥

الذين اتخذوا من مدينة بخارى عاصمة لهم بما قدموه من خدمات في المجال الحضاري . حتى غدت بخاري وسمرقند في عهدهم موبلا للعلم والادب والفن . كما تقدمت في عهدهم الدراسات بالعربية والفارسية . وقد وصف لنا الرحالة المقدسي الوضع في خراسان واقلية ماوراء النهر في عهدهم فقال (انهم أشد الناس تفقها ، وبالحق تسكا . وهم بالخير والشر أعلم . . .) . كما قال عن أمراء السامانيين بأنهم أحسن الملوك سيرة ، وانهم لا يكلفون أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم (٣٩) .

(٣٩) - المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ٢٩٤ - ٢٩٦

الدول التركبة

آ - الدولة الطولونية في مصر والشام ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م .

طولون هو أحد الاتراك الذين كان الولاة يرسلونهم من بلاد ما وراء النهر ضمن هداياهم الى الخلفاء العباسيين . وقد أخذ الاتراك بالظهور على مسرح الاحداث منذ أن قرر المعتصم الاعتماد عليهم وتسلم بعضهم امرة الولايات الاسلامية وفصل هؤلاء البقاء في العاصمة للتمتع بالنعيم والترف ، وارسال من ينوب عنهم الى حكم الولايات . وكان هؤلاء النواب يدعون للوالي الاصلي على المنابر بعد الخليفة ، كما كان اسمه ينقش على السكة .

كلف أحمد بن طولون بولاية القسطة قسبة مصر ، نيابة عن واليها الاصلي باكبك التركي في سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م وحين دخل احمد بن طولون الى مصر وجدها مقسمة بين عدة أشخاص (١) . ولذلك فان موقفه كان ضعيفا لانه كان نائبا على منطقة محدودة من مصر ، وفي استطاعة واليها الاصلي عزله . اذا لم يحز رضاه . يضاف الى ذلك ما كان من منافسة ابن المدير عامل الخراج في مصر ، ومحاولته الايقاع به عند الخليفة . ويبدو أن سباب كره ابن المدير لاحمد بن طولون تكمن في ما لمسه من شهامته ، وما يعرفه من كره الاهالي له بسبب زيادة الضرائب عليها . واستعماله القسوة في الجباية .

(١) - ابن سعيد الاندلسي : المغرب في حلي المغرب ، ص ٧٧

سارت الظروف في صالح أحمد بن طولون • فقد قتل باكباك ، فتولى مصر يارجوخ صهر أحمد بن طولون ، فكتب الأول للثاني (تسلم من نفسك لنفسك) ، وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها • وحين توفي يارجوخ في سنة ٨٧١/٢٥٧ م تقلد ابن طولون ولاية مصر من الخليفة مباشرة • فتوطدت قدمه في هذه البلاد ، وتمكن من تأسيس الدولة الطولونية في مصر •

عمل أحمد بن طولون منذ أن ولي مصر على تقوية نفوذه بها • فشرع في تحصين البلاد واعداد الجيش وتسليحه ، وانشاء السفن الحربية فبنى مدينة القطائع^(٢) وضرب دنانير خاصة عرفت بالاحمدية • ثم تطلع الى حماية حدوده الشمالية • وأراد أن يمد نفوذه الى بلاد الشام حتى الثغور • وكان يريد بذلك أن يظهر بظهر حامي دار الاسلام من أعظم خطر يتهدهده وهو الخطر البيزنطي ، وقد تحقق أمله حين قلده الخليفة ولاية الثغور الشامية وتبع ذلك توليته خراجها أيضا • ثم كلفه بقتال عيسى بن الشيخ الشيباني في الشام^(٣) ، ولكنه غير رأيه بسبب وشاية الوشاة •

انتظار أحمد بن طولون ظروفًا أخرى تمكنه من دخول الشام • فتهيأت له هذه الظروف في سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٨ م اذ انه اصبح يملك جيشا قويا في الوقت نفسه الذي بدت فيه الخلافة العباسية عاجزة عن القضاء على الثوار في مركز الخلافة نفسها^(٤) • ثم عجز قوات العباسيين عن الدفاع عن الحدود امام البيزنطيين ، فأدى هذا الى اعادة الثغور اليه • ثم ساعدته الظروف بموت كل من منافسيه موسى بن بغا وأماجور • وحصل على وثيقة رسمية من قبل الخليفة بتوليته الشام •

(٢) - حسن محمود : مصر الاسلامية العصر الطولوني ، مكتبة النهضة العربية سنة ١٩٦٠ ، ص ٨٧

(٣) - عيسى بن الشيخ بن السليل من ولد جساس بن مرة بن ذهب من شيبان ، انظر ابن الوردي : تاريخه ، جزء ١ ، ص ٢٣١ - يوسف الياس الدبس : تاريخ سرورية ، مطبعة بيروت العمومية سنة ١٩٠٠ ، مجلد ٥ ، جزء ٣ ، ص ٣١٧

(٤) - ابن ظافر الازدي : المصدر السابق ، ورقة ٢٩ -

Zaky. M. Hassan: Les Tulunides Etude de l'Egypte Musulmane à la fin du IX^e siesle, Paris 1933., pp. 4. 64-65.

تمكّن أحمد بن طولون بذلك من فتح بلاد الشام بكاملها بما فيها الثغور • وتوحدت مصر والشام في عهده • وبدأ أحمد بن طولون حربه المقدسة ضد البيزنطيين ، ولكنه ما لبث أن اضطر الى إيقاف نشاطه هذا عقب الاخبار التي وصلتته عن ثورة ابنه العباس في مصر • وقبل أن يغادرها نظم شؤونها ، وترك بها قوات عديدة ، بقيادة حاجبه لؤلؤ • وترك حامية في حران ، وأخرى في الرقة ، وثالثه في دمشق • وكانت غايته من ترك الحاميات في مدن الشام تثبيت مركزه الجديد والمحافظة على أملاكه (٥) •

كان الطولونيون ولاية من قبل الخلفاء العباسيين وكانوا ينقشون اسم الخليفة على السكة ، ولم ينقش ابن طولون اسمه على السكة مع الخليفة ، الا بعد ان قام بحملته الاولى على الشام (٦) •

— علاقة الطولونيين بالخلافة العباسية

كانت سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م بداية النزاع بين أحمد بن طولون والموفق • وتعود جذور هذا النزاع الى أن ابن طولون كان يعمل على مراعاة شؤون الخليفة المعتمد على الله ، وتنفيذ رغباته ، وخاصة المادية منها • ويبدو أن الموفق كان على علم بذلك • وكان في حاجة الى الاموال لاتفاقها في حروبه مع صاحب الزنج • فأرسل احد رجاله الى ابن طولون يستحثه على حمل الاموال وغايته مراقبة ابن طولون وتحريض قواده ضده •

أخذ الموفق يعمل على تفويض سلطة ابن طولون • فعمل على حرمانه من الثغور الشامية ، وأخذ يحتج لدى الخليفة المعتمد على الله بأن ابن طولون عاجز عن حمايتها ، والقيام بأمر الجهاد • وأن الثغور تحتاج الى من يقيم فيها ويغزو بأهلها • ووصف أحمد بن طولون بأنه مهمل في هذا الامر • واتخذ القرار

(٥) — مصطفى طه بدر : مصر الاسلامية ، جزء ١ ، ص ١١٥

(٦) — ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ، جزء ٢ ، ورقة ٥٢ ظهر

بارسال ولاية الثغور من قبل الخلافة مباشرة^(٧) . أدى هذا التصرف من قبل الموفق الى ضعف القيادة في الثغور ، والى خسارة المسلمين لثغر لؤلؤة الذي سقط في يد البيزنطيين^(٨) .

كان سقوط لؤلؤة السبب المباشر الذي شجع الخليفة المعتمد على إعادة الثغور الى أحمد بن طولون . الا أن الموفق لم يرض عن ذلك . وأخذ يكيّد لابن طولون عن طريق نأليب ولأنه عليه في الشام والثغور .

وبدأ العداء بين أحمد بن طولون والموفق ، وزادت حدة الامور حين عزم الخليفة المعتمد على الله في سنة ٥٢٦٩/٨٨٢-٨٨٣م على ترك بغداد هرباً من أخيه الموفق . وكان قد كتب الى ابن طولون يشكو اليه سوء حاله مع أخيه . فأجابه بكتاب هام حسن له فيه المجيء الى مصر . ووعدته بأن تكون جميع قواته تحت أمرة الخليفة . وأرسل له سفتجة بمائة ألف دينار^(٩) ، ومالئث ان جاءه جواب الخليفة يذكر وصول رسوله وكتابه والسفتجة ، وأنه في طريقه اليه .

كان اهتمام ابن طولون هذه المرة بالخليفة موجهها ضد الموفق ، وتشير المصادر والمراجع الى هلع الموفق حين علم بتصميم أخيه على الخروج من العراق . وأدرك انه اذا تم هذا الامر ، اسنولى احمد بن طولون على أمر الخلافة ، ولم يبق لاحد معه شيء^(١٠) . ولكن الامر لم يتم ، ولم يستطع الخليفة الالتجاء الى ابن طولون بفضل تنبه الموفق الى المؤامرة .

أراد ابن طولون أن يضرب الموفق ، بعد أن ضرب مخططه في نقل مركز الخلافة . فكتب من دمشق الى عامله في مصر ، ان الموفق قد نكث ببيعة الخليفة

(٧) - ابن شداد : الاغلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، مخطوطة مصورة بجامعة الدول العربية رقم ٤٣ تاريخ ، ورقة ٧٥ وجه .

(٨) - ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٥ وجه - البلوى : المصدر السابق ، ص ٨٩-٩٠

(٩) - البلوى : المصدر السابق ، ص ٢٨١ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٠٣-٣٠٤
Lane Poole : op. Cit., p. 68

(١٠) - حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٧٤-٧٥

المعتمد على الله • وطلب منه أن يسير اليه الفقهاء والقضاة والاشراف الى دمشق • ولما حصروا اليه ، عقد معهم اجتماعا انضم اليه قضاة وأشراف أهل الشام بما فيها الثغور (١١) • وقرروا في هذا الاجتماع خلع الموفق ، وأفتوا بذلك • وبرروا عملهم هذا بأن الموفق كان يخالف المعتمد ويحصره ، فوجب جهاده على الأمة • وكتب الكتاب على عدة نسخ ، وأنهى الى كل عمله نسخة تقرأ على المنبر وذلك في يوم الخميس ١٢ / ذي القعدة سنة ٢٦٩ هـ / ٢٤ مايو ٨٨٣ م (١٢) •

كان لهذه الاعمال من قبل احمد بن طولون أثر كبير في نفس الموفق ، ولذلك فانه أمر بلعن احمد بن طولون في دار العامة وعلى المنابر • وقد صدر قرار اللعن من قبل الخليفة المعتمد على الله نفسه ليكون له صفة شرعية ، ولاضعاف مركز ابن طولون في الشام ومصر • كما اصدر قرارا بمنح ولاية المناطق التابعة لاحمد بن طولون انى اسحق بن كنداج •

لقد كان لموقف الموفق الحازم من أحمد بن طولون اكبر الاثر على موقف ابن طولون في الشام ، وخاصة رانه سبق ذلك هزيمة قواته في مكة على يد قوات الموفق • فقد شغب الامراء في الولايات ، وكان لهذا أثره في موقفه العسكري • فثارت ضده بعض المدن ، وحلت به الهزيمة في طرسوس (١٣) • وفي غمرة هذه الاحداث خرج ابن طولون بأمر آخر على الناس • فقد بنى على قبر معاوية بن ابي سفيان اربعة اروقة ، ورتب عند القبر اناسا يقرأون القرآن ، ويوقدون الشسوع ، ومن المرجح ان يكون ذلك تحديا لبني العباس لكرههم التقليدي للامويين • ويبدو أن ما استحدثه ابن طولون ، استمر في عهد أبنائه ، مما دعا الخليفة المعتمد الى الرد على ما قام به الطولونيون من احياء ذكرى معاوية بلعنه على المنابر • وقام

(١١) - الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٢٦

Lane Poole : op. Cit., p. 69.

(١٢) - الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٢٦

(١٣) - حسن محمود : العالم الاسلامي ، ص ٤٣٣

بأنشاء كتاب يقرأ على الناس حول ذلك الامر ، على الرغم من تحذير رجال الخليفة له (١٤) .

كان ابن طولون سياسيا محنكا وقائدا ماهرا ، خيرا بأساليب الحروب ، ونعبة الجبهش ، كما كان اداريا حازما ، وقف على موارد الثروة المختلفة ، واستغلها لمصلحة الدولة والاهالي ، كما عمل على نشر العدل بينهم ، فاستتب له الامن ، واستقرت له الامور ، وسادت الطمأنينة بين الناس ، توفي سنة ٢٧٠ هـ فخلفه ابنه خمارويه .

ظلت املاك الطولونيين في مصر والشام في عهد خمارويه ، كما كانت في عهد ابيه محط اطماع المتنافسين من القواد الاتراك ، ومثار حسد الموفق . ولذلك فان الموفق لم يجب خمارويه على كتابه الذي يطلب فيه اقراره على سائر البلاد التي في يده (١٥) .

وادر ك خمارويه ان ولايته لن تكون مستقرة ، وان حكمه في البلاد لن يكون شرعيا لعدم حصوله على اعتراف الخليفة به . وأن اعداءه سوف يكيدون له مستغلين ذلك . وخاصة وان الامير الشرعي للبلاد حتى ذلك الوقت هو اسحق ابن كنداج . ولذلك فانه نظم اموره في هذه المنطقة وشحنها بالجيوش .

وحدث ما كان يتوقعه خمارويه ، فقد أيدت الخلافة العباسية مطامع اسحق ابن كنداج في أخذ الشام ، واعانتته بجيش عباسي قاده ابن الموفق «ابو العباس الخليفة المعتضد فيما بعد» وانضم اليهما ابن أبي الساج وساعدتهم الظروف بعصيان أحد فواد خمارويه عليه وهو أحمد بن دوغباش (١٦) .

(١٤) - ابن الجوزي : المنتظم ، جزء ٥ ، ص ١٧١ - العيون والحدائق ، جزء ٤ ، قسم اول طبعة دمشق ١٩٧٢ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(١٥) - ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٨٠ .

(١٦) - ابن العديم : بغية الطلب ، جزء ٢ ، ورقة ١٣٠ ظهر - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٥٥ .

وتكرر خروج ابن ابي الساج وابن كنداج على خمارويه بتحريض من العباسيين في سبيل أخذ البلاد التابعة له . وأزهقت لاجل ذلك ارواح كثيرة . ولم يستطع هؤلاء تحقيق حلمهم في القضاء على الدولة الطولونية أو حتى في ابعادها عن بلاد الشام . ولذلك نرى الموفق وبعد أن رفض الاعتراف بولاية خمارويه فيما سبق ، يقبل ذلك على اثر كتاب من خمارويه يطلب من الخلافة الاعتراف بولايته مقابل مال يبذله عما يبدد ، فأجيب الى ذلك . وكتب له كتابا ارسله الى مصر مع فalc الخادم في رجب سنة ٢٧٣ هـ / ديسمبر كانون الاول ٨٨٦ م ذكر فيه ان المعتمد والموفق وابنه كتبوه بأيديهم تعظيما لخمارويه ، وترحيبا بهذا السلام . وحصل خمارويه بذلك على ولاية مصر والشام جميعه بما فيه النغور لمدة ثلاثين سنة ، وشرط المعتمد على خمارويه ان يحمل اليه في كل سنة بعد القيام بجميع مصاريف المنطقة التابعة له ، وأرزاق اجنادها مائتي الف دينار^(١٧) . وأضاف بعض المؤرخين شرط التوريث ، فذكروا ان الاعتراف كان لخمارويه وأولاده . فأمر خمارويه بالدعاء للموفق ، وبذلك استوفت الامارة الشكل . واصبحت الدولة الطولونية دولة يعترف بها أصحاب النفوذ الاسمي والفعلي^(١٨) .

وعلى الرغم من هذا الاعتراف ، فقد عاد ابن ابي الساج الى مطامعه ، وحاول استعادة نفوذه على شمالي الشام . فقاتله خمارويه بجولتين كبيرتين ، وانتصر عليه فيهما^(١٩) . ثم انتصر ايضا بجولة ثالثة وعادت قوات ابن ابي الساج تجر اذيال الخيبة .

وبذلك قضى خمارويه على أعدائه الذين كانوا قد اجتمعوا على قتاله ، وأقر السلام على حدوده . وامتد نفوذ الطولونيين الى مناطق لم تكن تابعة لهم ، فاهتم

(١٧) - ابن ظافر : الدول المنقطعة ، ورقة ٣٢ - ٣٣ - ابن تغري بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٥٢

- حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، ص ١٢٢

18 — Lane Poole : op. Cit., p. 73-Zaky Hassan : op. Cit., p. 115.

19 — Zaky Hassan : op. Cit., p. 116.

خمارويه بعدها بشؤون الثغور ، ليستأنف امر الجهاد ضد البيزنطيين • وصفت له الامور بشكل تام على اثر وفاة الموفق سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ - ٨٩٢ م وبعده ابن كنداج في سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٣ م • ثم توفي الخليفة المعتمد على الله ، وتولى ابو العباس بن الموفق الخلافة بلقب المعتضد • فبادر خمارويه بارسال الهدايا اليه ، وورد كتاب المعتضد اليه باقراره على ولايته • وتجددت بذلك الوثيقة التي كان الخليفة المعتمد قد منحها لخمارويه • وجعل اليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الاعمال ، على ان يحمل في كل عام من المال مائتي الف دينار عما مضى وثلاثمائة ألف عن كل عام للمستقبل • وتقدم خمارويه بتزويج ابنته قطر الندى لابن الخليفة المعتضد ، فاخترها لنفسه وتزوجها في سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م • وكان صداقها مليون درهم • وقد قيل ان المعتضد اراد بزواجه من قطر الندى افقار الدولة الطولونية • وحدث ما اراد فقد جهزت قطر الندى بجهاز لم يعلم بمثله •

وفي سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م خرج خمارويه الى الشام فقتل هناك • ويروي المؤرخون قصصا شتى عن مقتله واسبابه • ومما يلفت النظر اضطراب هذه الروايات التي يؤكد معظمها انه ذبح على فراشه بأيدي غلمانه في قصره بسفح جبل قاسيون اسفل دير مران في دمشق الاحد ٢٨ ذي القعدة سنة ٢٨٢ هـ / ١٩ يناير ٨٩٦ م^(٢٠) ويختلف المؤرخون في ذكر السبب الذي دعا غلمانه الى قتله • ولاداعي لذكر كل ما قيل في هذا الامر • الا ان لي رأيا في الموضوع عسى أن اصل به الى الصواب • وقد بدا لي ذلك من خلال مطالعاتي في مخطوطة بغية الطلب لابن العديم • مما جعلني ارجح أن غلمانه قتلوه بايعاز وتحريض من طعج بن جف •

ينقل ابن العديم من أقدم مؤرخي هذه الفترة وهو ابن زولاق • فيذكر

١٢٥ : الكندي : المصدر السابق ، ص ٢٤١ - ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٢٥
 ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ٨٦ • وهناك قصص كثيرة في أسباب قتله انظر
 أيضا ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٨٥ - سعيد بن البطريق : المصدر
 السابق ، ص ٧٢

ان حضور خمارويه الى دمشق في المرة التي قتل فيها كان على اثر غضبه الشديد من طعج بن جف لعدم تنفيذ اوامره التي اصدرها اليه بقتل راغب الخادم • وكان خمارويه مصمما على قتل طعج • وشعر الأخير بالامر ، وخاصة حين امتنع خمارويه عن الشرب على المائدة التي احضرها له طعج • ويبدو ان الحديث دار في هذه الجلسة بين خمارويه وطعج بن جف حول الموضوع نفسه • وأن خمارويه اعترف بأنه ماجاء الى دمشق الا من اجله فقط • وبدا الاضطراب على طعج بن جف ، مما اضطر خمارويه الى تغيير الحديث • ثم انصرف كل منهما وطعج بن جف في أشد الحالات من الخوف لانه ادرك انه سيقته ولما أصبح الصباح كان العكس قد حصل اذ وجد خمارويه مقتولا (٢١) • وتظاهر طعج بن جف بأنه مع الطولونيين وأنه يفتش عن القتلة • وأخذ البيعة لجيش ابنه ليعيد عن نفسه الشبهة والشك • الا انه ما لبث ان تغير على الطولونيين (٢٢) •

— جيش وهارون ابنا خمارويه

اضطربت احوال الدولة الطولونية بعد موت خمارويه سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥م، وتدخل الجند في الحكم ، وتنافس الامراء الطولونيين فيما بينهم • واشتعلت الفتن والنورات • وفقد أمراء البيت الطولوني عنصر القوة • كان جيش صيبا غرا لم يتجاوز الرابعة عشر ، الا انه كان أكبر أولاد خمارويه ، وتولى طعج بن جف حاكم دمشق اخذ البيعة له من قواد الجيش (٢٣) • ولم يكن جيش على مستوى المسؤولية التي حملها ، اذ انه لم يستطع ان يقوم بالمهمات التي يتطلبها مركزه كحاكم لمصر والشام ، ومدافع عن الثغور الشامية (٢٤) •

ولم تكن مشاكل الامارة في عهد جيش تنحصر في سوء سياسته ، بل انه

(٢١) — ابن العديم : بنية الطلب ، مجلد ٦ ، ورقة ١٠ - ١٣

(٢٢) — انظر فيما بعد الدولة الاخشيدية •

(٢٣) — Zaky Hassan : op. Cit., p. 134.

(٢٤) — سعيد بن بطريق : المصدر السابق ، ص ٧٢

تسلمها والخزائن فارغة من الاموال • وزاد من مشاكل الامارة تفكك الاسرة الطولونية وحسد افرادها بعضهم الى بعض •

وما لبثت بلاد الشام ان خرجت عن طاعة جيش ، وبدأت بها أولى مظاهر اختلال الحكم الطولوني • وحكم طعج بن جف مايبده من اعمال الشام دون أن يقدم الطاعة للامير • كما ساءت أحوال مصر • وبقي الامر على هذه الحال حتى قتل جيش سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م •

كان هارون أقل خبرة من أخيه • ومما زاد الامر سوءا عدم اعتراف الخليفة العباسي المعتضد بامارته حتى سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م أي بعد ثلاث سنوات من ولايته على الرغم من الحاح هارون في ذلك • كما خرجت بلاد الشام ومنطقة الثغور عن طاعته • ولم يبق له من الامر سوى الاسم •

وفي سنة ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م كرر هارون طلبه ، وأرسل الى الخليفة المعتضد طالبا منه الاعتراف بامارته على ما بيده من بلاد الشام ومصر • وعاد الرسول وبرفقته رسول الخليفة المعتضد ليقدم شروط الاعتراف بهارون • ويبدو أن هذه الشروط تتعلق بالثغور وبالاموال التي يجب ان يقدمها هارون الى الخلافة مقابل ذلك • الى جانب ارسال مولى تركي من قبل الخلافة للاشراف على أمير الطولونيين في مصر نفسها (٢٥) •

وقد وافق هارون على شروط الخلافة مقابل اعتراف الخليفة به كأمر على البلاد التي في يده • وخاصة وانه وجد أن الثغور قد خرجت فعلا من يده ، وان تبعيتها اليه اسمية فقط • وان الخليفة المعتضد بدأ يتدخل بشكل مباشر في أمورها دون ان يتمكن هرون من الاتيان بأي عمل • اذ كان المعتضد قد تدخل في شؤون الثغور • واهتم بها لدفع البيزنطيين ورد عدوانهم ، منذ ان قدم اليه وفد من

٢٥٩ - الخيري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٧٠

أهالي طرسوس يناشدونه العناية بشؤونهم ، وضبط أمور ثغرهم • وتعيين من يقودهم في الجهاد ، قبل توقيع الاتفاقية مع هارون (٢٦) •

ويبدو أن سيطرة الخلافة على شمال الشام قبل سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م ، وفي نهاية عهد خمارويه • فقد وجدت نقود ذهبية في الرافقة تعود الى سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م لم يذكر عليها أسماء الأمراء الطولونيين ، ولم يذكر عليها سوى اسم الخليفة المعتضد (٢٧) •

— نهاية الدولة الطولونية

بدأت الدولة الطولونية تتهاوى أمام ضربات القرامطة في الشام • فلم تستطع جيوشهم الصمود ، وقتل معظم رجالها • وكان أميرهم هارون بن خمارويه سيء السيرة • حتى أن معظم قواده وأنصاره قد تركوه وانضموا الى العباسيين • وخرجت بلاد الشام عن سلطتهم ، وأصبحت تتبع لهم تبعية اسمية منذ أن خرج عليهم طعج بن جف ، كما أن الخزينة الطولونية كانت فارغة ، وعجز الطولونيون عن دفع رواتب الجند • هذا فضلا عن تنافس أفراد الأسرة الطولونية للوصول الى كرسي الإمارة •

وفوق كل ذلك فإن الخلافة العباسية شهدت في عهد كل من الخليفتين العباسيين المعتضد والمكتفي فترة من فترات الأحياء ، تعود الى قوة شخصية هذين الخليفين • وقد اتضح اثر ذلك في عهد الخليفة المكتفي ، الذي تمكن من استعادة هيئة الخلافة العباسية • وتمثل في انتصاره على القرامطة ، ثم فيما بعد في استعادة مصر والشام من الطولونيين •

اهتم الطولونيون بال عمران الى درجة كبيرة • فقد بذل امراؤهم الاموال

(٢٦) — حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٦٧

Lane Poole : The Mahammadan Dynasties. p. 86.

(٢٧)

الضخمة على المباني الفخمة والمنتزهات . ومن جملة ذلك بناء مدينة القطائع قرب
الفسطاط ، حيث بنى فيها أحمد بن طولون المسجد المعروف باسمه حتى اليوم .
والذي ضم مئذنة على نسط المئذنة الملوية في جامع سامراء في العراق .

كما بنى خسارويه قصرا أقام فيه قاعة مذهبة حفرت فيها صورته وصور
نسائه على الخشب بالحجم الطبيعي كما بنى مارساتانا للرضى ، ووفر لهم
سبل الراحة .

كما أنفق بسخاء على مطابخه . ويقال بأن نفقاته بلغت كل شهر ثلاثة وعشرين
آلف دينار . وقد كانت مدينة القطائع أيام الطولونيين تعج بالفقهاء والمحدثين
والمتصوفة والادباء والمؤرخين . ومن أشهر الفقهاء وأعلمهم بكار بن قتيبة ، ومن
المتصوفة ذو النون المصري ، ومن المؤرخين ابن عبد الحكم ، بالإضافة الى وجود
عدد كبير من الشعراء .

وفي نهاية هذا البحث يبقى لازما علينا أن نتساءل عن أسباب اشتداد نشاط
الاسماعيلية والقرامطة في عهد الطولونيين في بلاد الشام . والجواب على ذلك هو
أن هؤلاء واولئك بدأوا نشاطهم في بلاد الشام بعد ان دخلت الدولة الطولونية
مرحلة الضعف ، وكذلك كانت الدولة العباسية . وكان هذا الضعف نتيجة
للصراع النامي بين أحمد بن طولون والموفق ، الى جانب الاسباب الاخرى .

ب - الدولة الاخشيدية (٢٨) في الشام ومصر (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥-٩٦٩م)

لمع نجم طنج بن جف والد مؤسس هذه الدولة منذ عهد الامارة الطولونية .
فقد قدمه خسارويه على جميع من معه ، وقلده دمشق وطبرية (٢٩) . الا أن خلافا
حدث بينهما وعزم خسارويه على الفتك بطنج ، غير انه قتل قبل تحقيق ذلك .

(٢٨) - عن أصل الاخشيديين انظر ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٤٩ - ابن خلكان : المصدر
السابق ، جزء ٤ ، ص ١٤٧

(٢٩) - ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٤٩ - ابن ظافر الازدي : الدول المنقطعة ، ورقة ٣٤

وكان طعج معه في القصر ليلة قتله • وسخط طعج على جيش بن خمارويه وشق عليه عصا الطاعة في دمشق • وحكم الشام حكما مستقلا في عهد هارون • ومالبت أن حصل — بعد تسوية سلمية بينهما — على اقراره بولاية دمشق وان يكون تابعا للطولونيين • وكان طعج من بين القواد الطولونيين الذين لم يرضوا عن قتل هارون بن خمارويه ، ولم يعترفوا بخلفه شيان • وكان لانضمام قادة الطولونيين للجيش العباسي الذي يقوده محمد بن سليمان اثر كبير في انتصار هذا الجيش والقضاء على الامارة الطولونية • ويبدو أن محمد بن سليمان أراد أن يفيد من خبرة طعج بن جف ويتخلص من وجوده في دمشق • فقرر ارساله الى الثغور ، وجعله واليا على قنسرين • وضم اليه طائفة من جند بني طولون •

لم يبق طعج في هذا المنصب طويلا • اذ أنه اضطر الى الذهاب الى بغداد مع اولاده • حيث سجنوا اثر خلاف مع وزير الخليفة المكتفي^(٣٠) • وسنحت الفرصة لولدي طعج بقتل الوزير بعد وفاة والدهما في السجن • ثم توجه احدهما وهو محمد ابن طعج الى الشام ، حيث ساعده الحظ ، وأخذ يرتقي في المناصب ، حتى اصبحت له ولاية الرملة ، ثم ولاية دمشق^(٣١) •

وقد أتيح لالاخشيدي أن يؤسس لنفسه جيشا ضم اليه طائفة كبيرة من الجند • وأخذ يجمع المال بالطرق والوسائل المختلفة ، وعلى رأسها مصادرة الاموال عند من يعرف عنهم الثراء •

وحين استقرت له الامور في دمشق ، طمع الى ولاية مصر • فدخلها بعهد من الخليفة الراضي في ٢٣ رمضان سنة ٣٢٣ هـ / ٢٧ اغسطس اب ٩٣٥ م بقوة السلاح^(٣٢) • وهكذا حقق محمد بن طعج كل ما يصبو اليه • فأخذ في تنظيم اموره في بلاد الشام ومصر • كما حصل في سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م على لقب الاخشيد من

(٣٠) - طه بدر : المرجع السابق ، ص ١٦٩ - سيده كاشف : المرجع السابق ، ص ٦٠

(٣١) - ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥٣ •

(٣٢) - ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٤٨ - ابو الفداء : تاريخه ، جزء ٢ ، ص ٨٨٧

ال خليفة الراضي • وفي اعطاء الاختييد هذا اللقب ، اعتراف من الخليفة بمكانته
كما كان هذا صدى لما أصبح للاختييد من مكانة في العالم الاسلامي •

ولقد ساعد الاختييد في حكمه قائده كافور الذي كان مسلوكا خصيا حبشيا ،
الا انه ما لبث أن ترقى في بلاط الاختييد فأصبح مرييا لاولاده الى جانب القيادة
العسكرية •

وحين أصبح الاختييد في أوج قوته ، استنجد به الخليفة المتقي لله — حين بدا
له أن الحمدانيين ضجوا من مقامه بينهم ، بعد أن فر اليهم من ظلم توزون — وارسل
له كتابا يشرح له فيه وضعه • وخرج على اثر ذلك الى الرقة مع اولاده وحرمه ،
يرافقه وزيره ابن مقله ، فوصلها في أوائل رمضان سنة ٣٣٢ هـ /ابريل نيسان ٩٤٤م (٣٣)

ولما ورد على الاختييد كتاب الخليفة المتقي لله سار الى الشام في رجب سنة
٣٣٢ هـ /مارس اذار ٩٤٤ م حتى وصل الى دمشق ، ودخلها • ثم اتفق مع احمد
ابن سعيد الكلابي أموالا الى الخليفة المتقي ، وتوجه بدوره نحو شالي الشام •
فدخل حلب بعد أن فر منها الحسين بن حمدان امامه • وسار الاختييد حتى
بلغ الرقة ، وأراد المتقي أن يعبر اليه ، فلم يفعل خوفا على نفسه أن يحدث له
مثل ما حدث لابن رائق — فعبر المتقي اليه ، واجتمعا هناك (٣٤) •

اظهر محمد بن طعج الخشوع للخليفة • فامتنع عن الركوب بين يديه •
وحمل اليه هدايا واموالا كثيرة • ولم يدع أحد من أصحاب الخليفة وحواشيه
الابره ووصله • واجتهد بالمتقي لله ان يسير معه الى الشام ومصر فأبى ، فأشار
عليه بالمقام مكانه • وصمن له أن يمد له بالاموال فلم يفعل • ولا شك في أن تصرفه
هذا كان لخوفه من الاتراك والحمدانيين •

وهكذا كبر الاختييد ما فعله ابن طولون ليجعل من مصر قاعدة للخلافة
العباسية ، ولم ينجح في ذلك ، وظهر فقط باعتراق الخليفة له بولاية الشام ومصر

(٣٣) — سيده كاشف : المرجع السابق ، ص ٨٥

(٣٤) — ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٩١ •

له ولابنه أو نوجور مدة ثلاثين سنة^(٣٥) . وبهذا الاعتراف من الخليفة المتقي بتبعية بلاد الشام لمحمد بن طنجج الاخشيد ولابنه من بعده . فانه يكون قد حرم بني حمدان منها ، ووقف في وجه مطامعهم . كما ضم الاخشيد الحجاز الى املاكه قبل سنتين من وفاته فقط .

تعرض نفوذ الاخشيد للخطر في بلاد الشام حين نافسه محمد بن رائق أمير الامراء على حكمها . ومما لاشك فيه أن هناك ظروفًا دعت ابن رائق الى ترك مركز الخلافة في بغداد ، والتوجه بانظاره نحو بلاد الشام . وتتلخص هذه الظروف فيما كان يسود مقر الخلافة العباسية من منافسات ومؤامرات للاستئثار بالنفوذ ، والاستيلاء على منصب امير الامراء .

وسار ابن رائق في ربيع الثاني سنة ٣٢٧ هـ / يناير كانون الثاني ٩٣٩ م الى أن أتى مدينة حلب فاستولى عليها^(٣٦) . وبدأت منذ ذلك الوقت سلسلة من الصدامات بينه وبين محمد بن طنجج الاخشيد . اذ قام بتهديد الاخشيد في أملاكه . وطالبه بدفع مقدار من المال كجزية على الممتلكات الاخشيدية في الشام . وقلق ابن طنجج أشد القلق لهذا الوضع ثم اشار عليه بعض معاونيه بأن يسترضي ابن رائق بالاموال ليكشف سره عنه . ولكن ما لبث أن بدا للعيان ان المطالبة بالاموال لم تكن الا حجة أراد ابن رائق أن يتذرع بها للاستيلاء على الشام . فلما دفع الاخشيد الاموال المطلوبة ، لم ير ابن رائق بدا من أن يكشف عن نواياه الحقيقية . وهكذا خرج الى الشام على رأس جيش كبير . ولما بلغ الرقة ، بعث الاخشيد جيشا لمقابلته فهزم . وعلى اثر ذلك تمكن ابن رائق من الاستيلاء على حلب وحمص وغيرها . كما استولى على دمشق بعد أن هزم فيها عبيد الله بن طنجج . وسار ابن رائق حتى

(٣٥) - ابن العديم : زبدة الحلب ، جزء ١ ، ص ١٠٧ - حسن محمود واحمد الشريف : العالم الاسلامي ، ص ٤٣٩

(٣٦) - ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٠ - بيتشوف : تحف الانباء في تاريخ حلب الشهباء ، طبعة بيروت ١٨٨٠ ، ص ٢٨

دخل مدينة الرملة في آخر ذي الحجة سنة ٣٢٧ هـ / سبتمبر ايلول ٩٣٩ م . وانصرف
اصحاب الاخشيد عنها دون قتال (٣٧) .

وأحسن ابن طعج الاخشيد بخطر ابن رائق ، وعظم الجهود اللازمة لصدّه ،
كما بلغه ما كان يقال من أن الخليفة قلد ابن رائق ولاية الشام . فرأى أن يلجأ الى
الخليفة ليستطع جلية الامر . ومثل رسول الاخشيد امام الخليفة مقدما رسالة
الاخشيد . وكان مجلس الخليفة يضم بجكم امير الامراء . ولعل جوابه يعبر عن
الوضع في بلدان الخلافة في تلك الفترة . ويوضح عجز الخليفة عن حماية أي
من الطرفين فقد قال بجكم (من ضرب بالسيف وهزم صاحبه فالعمل له) (٣٨) .
وليس هذا الامر غريبا على الخلافة العباسية في ذلك الوقت ، ونحن نعلم أن أمير
الامراء كان له الامر والنهي (٣٩) .

وحين علم الاخشيد بموقف الخليفة وأمير الامراء ثارت ثائرتة ، وتبدلت
صلة المودة التي كانت تربطه بالخليفة العباسي الى كراهية ، لدرجة أنه اصدر اوامره
بقطع الخطبة للخليفة العباسي وذكر اسم الخليفة الفاطمي عوضا عنه (٤٠) .

ووقع بين الاخشيد وابن رائق مناوشات ومعارك عديدة انتهت لصالح
الاخشيد (٤١) . ثم قامت وساطة بالصلح بين الفريقين على ان يحكم ابن رائق
الولايات الشامية شمالي الرملة ، وعلى أن يدفع الاخشيد اليه جزية سنوية ،
قدرها مائة واربعين الف دينار (٤٢) .

(٣٧) - ابن سعيد . المصدر السابق ، ص ١٧٤

(٣٨) - ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٧٦

(٣٩) - ابن العميد : المصدر السابق ، ص ٢٠٣

(٤٠) - انظر نص موقف الاخشيد هذا كاملا في حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ١٢٠-١٢١ .

(٤١) - الصولي : اخبار الرازي بالله والمتقي لله ، ص ١٤٣ - ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٧٨

- ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٣١٢ - سيده كاشف : المرجع السابق ،

ص ٨٢ - ٨٣ .

(٤٢) - الانطاكي : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جزء ١ ، ص ٧٢٠

ولانشك في آن الظروف المحيطة بالاخشيدي هي التي دعتة الى عقد الصلح على هذا الشكل . فقد اصبح يخشى تهديد الفاطميين له . حيث ان قوتهم تزايدت في المغرب ، واصبح في مقدورهم أن يهددوه في مصر . كما أنه كان يعرف مكانة ابن رائق ولا يريد أن يستمر في حرب معه . اذ كان يخشى ان تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه ، على الرغم من انتصاره على خصمه . وقد عد بعض المؤرخين هذه المعاهدة دليلا على ضعف محمد بن طعج ، اذ وقعت بينهما بعد ان كانت جيوش الاخشيدي قد نجحت في الوصول الى حلب والانتصار على والي ابن رائق فيها .

وقد ساعدت ظروف الخلافة العباسية السيئة والنزاع على منصب امرة الامراء في عودة بلاد الشام الى الاخشيدي . فقد استدعى ابن رائق الى بغداد . ثم انتهت حياته على يد ابن حمدان . ثم مالبت الاخشيدي ان وقع في صدام مع الحمدانيين لمطامعهم في بلاد الشام^(٤٣)

عهد الاخشيدي الى كافور بالوصاية على ابنه ابي القاسم اونوجور . وقد تسلم الاخير الامارة بعد موت ابيه في ٢٤ ذي القعدة سنة ٣٣٥ هـ / يوليو تموز ٩٤٦ م وقام كافور بتدبير أمره فأصبح صاحب السلطان المطلق في ادارة الدولة الاخشيديبة .

قام في وجه كافور في مبدأ حكمه بعض المشاكل الداخلية والخارجية ، فنجح في انقضاء على ثورة قام بها أهالي مصر ، فارتفع شأنه بين الناس . ثم وردت الانباء باضطراب الامور في الشام ، واستيلاء سيف الدولة الحمداني صاحب حلب على دمشق ، وبأنه قد عول على المسير الى الرملة لغزو مصر . فحاربه كافور ، وانتصر عليه انتصارا حاسما بالقرب من سرج عذراء بجوار دمشق . ودخل جيش الاخشيديين مدينة حلب ، وعقدت بين الفريقين معاهدة صلح بالشروط نفسها التي عقدت بها اواخر عمر طعج ، ما عدا الجزية التي وقف دفعها .

(٤٣) .. انظر فيما بعد الدولة الحمدانية .

وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسي على تولية انوجور على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة . وحكم كافور هذه المناطق باسم انوجور ، وخاطبه عليه القوم بالاستاذ وذكر اسمه في الخطبة ، ودعي له على المنابر في مصر والبلاد الاخرى التابعة له (٤٤) .

وبعد ان توفي انوجور ، ونولى اخوه علي بن الاخشيد . ظل كافور يباشر الامور بنفسه . وبقي الامير الحقيقي قابعا في داره . يأخذ ماعينه له كافور ، وقدره اربعمائة الف دينار في كل سنة . ومات في سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م .

كان احمد بن علي الوارث للعرش صغير السن . فحال كافور دون تعيينه بحجة انه غير صالح لصغر سنه . وبقيت مصر بغير امير نحو من شهر . وفي محرم سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م اخرج كافور كتابا من الخليفة العباسي ، بتقليده على ولاية مصر ، واطهر الخلع التي وصلت اليه من الخليفة العباسي ، وحكم باسمه زهاء سنتين وأربعة اشهر حتى وفاته في جمادى الاولى سنة ٣٥٧ هـ / ٢٣ ابريل نيسان ٩٦٨ م (٤٥) .

وبعد وفاته عقدت الولاية لاحمد بن علي الاخشيد . الا ان الحسن بن عبيد الله بن طنج لم يبايعه اولا بل أخذ البيعة لنفسه . واستولى على ما كان لكافور من اموال في الرملة . ويبدو أن الامور سارت في النهاية على أن يدعى لاحمد بن علي الاخشيد على منابر مصر والشام والحرمين ، ثم من بعده للحسن بن عبيد الله بن طنج (٤٦) ، الا أن الامارة الاخشيدية في مصر مالبت ان سقطت في يد الفاطميين ثم تبعتها بلاد الشام . وبذلك وضع الفاطميون حدا لسلطان الدولة الاخشيدية . ويمكننا ان نأخص اسباب سقوط الدولة الاخشيدية بما يلي :

(٤٤) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٤٠

(٤٥) - سيده كاشف : المرجع السابق ، ص ١٢ - بينما يذكر الانطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ،

ص ٨١١ بأن كافورا توفي في ٢٠ جمادى الاولى سنة ٣٥٦ هـ .

(٤٦) - الانطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨١١

— الخلافات بين أفراد الأسرة الاخشيدية ، وتنافسهم فيما بينهم للوصول الى عرش الامارة • الى جانب اختلاف القواد على تولي أمر الجند • وأخذ كل واحد منهم بتسعى بالامير • ويتربص الفرص للايقاع بصاحبه • وقد ادى ذلك الى فرار قسم كبير من الجنود من مصر • واللاحق بالحسن بن عبيد الله في الشام ، وما نتج عن ذلك من فلة عدد جنود الاخشيديين في مصر •

— وقد لعب ارتفاع الاسعار وتعذر الاقوات دورا كبيرا في سقوط الامارة ، يتضح ذلك مما ذكره المقرئزي^(٤٧) ، اذ قال : (مات كافور فكثرت الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وتنازلت حروب كثيرة بين الجند والامراء قتل فيها خلق كثير ، وانهبت اسواق البلد ، واحترقت مواضع عديدة • فاشتد خوف الناس وضاعت اموالهم ونغيرت نياتهم وارتفع السعر وتعذر وجود الاقوات حتى بيع القمح كل وية بدينار • واختل العسكر فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبيد الله بن طنج وهو يومئذ بالرملة • وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمي ، وعظم الارجاف بمسير القرامطة الى مصر ، وتواترت الاخبار بسجيء عساكر المعز من المغرب) •

ومما لا شك فيه ان اضطراب الاسعار وزيادة ثمن الحبوب ، رافقه وباء عظيم • وقد امتد ذلك فترة طويلة يحددها الانطاكي^(٤٨) من سنة ٣٥٣ — ٣٥٧ هـ / ٩٦٤ — ٩٦٨ م بينما يذكر المقرئزي^(٤٩) انها دامت تسع سنين متتالية ، ابتدأت من سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م • ويعزى سبب ذلك الى انخفاض ماء النيل • ومما يذكر ان الامر تفاقم في سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م وهلك الضعيف من الناس • وأكلوا الجيفة وكانوا يسقطون موتى من الجوع • وزاد الوباء فكثرت الموت ، حتى انهم لم يتمكنوا من دفن موتاهم جميعا • وكانوا يحضرون لهم حفرا وينزل فيها عدد كبير من الموتى ، ويردم عليهم التراب من غير صلاة ولا غسل ولا كفن^(٥٠) •

(٤٧) — اغاثة الامة في كشف الغمة ، ص ١٣

(٤٨) — المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨١٢

(٤٩) — اغاثة الامة ، ص ١٢ — ١٣ •

(٥٠) — الانطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨١٢ — ٨١٣

— كما عانت الدولة الاخشيدية كثيرا من المتاعب بسبب كثرة الحروب التي اضطرت الى خوضها وكان آخر هذه الحروب مع القرامطة الذين اضعفوا مركزهم في بلاد الشام • وبالتالي فقد ضعف مركزهم في مصر نفسها • وجاء الفاطميون فوجدوا البلاد بحالة شديدة من الضعف فسهل عليهم تحقيق اهدافهم في القضاء على الدولة الاخشيدية في مصر والشام وضمها الى املاكهم •

لم تخلف الدولة الاخشيدية شيئا يذكر من المآثر العامة ، وقد وجه جل اهتمامها الى تقريب الشعراء والادباء • ومن أشهرهم المتنبى الذي التحق بهم بعد ان فارق سيف الدولة • وكان يأمل في تولي بعض الاعمال ولما لم يحقق ما يصبو اليه ترك كافور بعد ان هجاه هجاء مرا مقذعا • ونبع في عهدهم ابو عمر الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، وكتابه الولاة القضاة من الكتب الهامة • وكذلك الحسن ابن زولاق المتوفى سنة ٢٨٦ هـ / ٩٩٧ م صاحب كتاب العيون الدعج في حلى بني طنج ، وسيبويه المصري المتوفى سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م •

—*—

المفصل الرابع

((العلاقات العربية البيزنطية في عصر سيطرة الاتراك))

انتهى الدور العباسي الاول والغلبة فيه للعباسيين على البيزنطيين ، على الرغم من عدم قيامهم باحتلال ثابت للأراضي البيزنطية ، ذلك ان مسرح القتال كان في الثغور أو داخل الأراضي البيزنطية . ولكن الوضع تغير في عصر سيطرة الاتراك سواء اكان ذلك في الفترة التي تولى فيها العباسيون مواجهة البيزنطيين بقيادة جندهم الاتراك ، أو في الفترات التالية والتي تولت فيها الدول المستقلة عن الخلافة في المنطقة قضية الدفاع مثل الطولونيين والاشبديين والحمدانيين . وسنتناول العلاقات مع البيزنطيين في هذا العصر بالتتابع بحسب القوى التي تسلمت الدفاع ضد البيزنطيين .

١ - العباسيون يتولون الدفاع عن الثغور :

بدأ عصر سيطرة الاتراك بخلافة المتوكل ، ولم تكن اوضاع الخلافة العباسية الداخلية في عهده بأحسن مما كانت عليه أيام الواثق . فقد كانت مشاكل الخلافة الداخلية تشده ، لذلك فانه رجب بالفداء الذي عرضه عليه البيزنطيون . وقد جرى الفداء كالعادة على نهر اللامس ، وفودي به ما يقارب ٨٧٥ رجلا و ١٢٥ امرأة^(١)

(١) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢٠٣ - ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٥ وجه - انظر المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ١٩١ وهو يذكر ان هذا الفداء هو الرابع من نوعه ، وان عدد من فودي به ٢٢٠٠ انسانا .

واتخذ البيزنطيون دور المهاجم ، فأخذوا في سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٥ - ٨٥٦ م في الاغارة على عين زربه ، فأسروا كل من وجدوه بها . وكان اكثرهم من الزط الذين نقتلهم المعتصم اليها بعد ثورتهم التي قاموا بها (٢) . وبعد هذه الغزوة تأكد البيزنطيون ان المسلمين مشغولون بخلافاتهم الداخلية ، فنشطوا لمهاجمة الحدود (٣) .

الى جانب ذلك فقد اخذت الصوائف الشواتي تتعرض لخطر كبير . وأخذ قوادما في معظم الاحيان يتعرضون للقتل او للاسر على ايدي البيزنطيين اثناء قيامهم بالغزوات . فقد قتل البيزنطيون في تلك الفترة قائدين من أشهر قواد المسلمين وهما عمر بن عبيد الله الاقطع ، وعلي بن يحيى . فقد قتل الاول في ١٥ رجب سنة ٢٤٩ هـ / ٤ سبتمبر ٨٦٣ م مع الف من المسلمين . اما القائد الثاني فقد نقر للالتقاء من البيزنطيين بعد خروجهم الى الثغور الجزرية ، الا أنه مالبث أن قتل مع اربعمائة من رجاله في رمضان من السنة نفسها (٤) .

وبعد فترة وجيزة أسر فائد ثالث هو عبد الله بن رشيد بن كاوس الذي دخل بلاد البيزنطيين في اربعة الاف فارس . فانتصر في أول الامر ، ولكنه مالبث أن حوصر وأسر وقتل جميع رجاله ماعدا خمسمائة منهم (٥) .

وشعر اهالي بعض الثغور بضعف المسؤولين عن حمايتهم . فأخذوا يترددون في اعلان ولائهم للبيزنطيين . كما وبدا منذ ذلك الوقت سقوط بعض قلاع المسلمين نهائيا في ايدي البيزنطيين . ففي سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٦ م سقط حصن لؤلؤة بيد البيزنطيين ، ثم تلاه بعد ذلك سقوط قلاع اخرى لا تقل عنه أهمية (٦) . وكانت هذه

(٢) - البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٧١ - ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٦٤ وجه

- ابن العميد : المصدر السابق ، ص ١٥٠

(٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢٠٧

(٤) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢٦١

(٥) - ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ - زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٧٤ .

Zaky Hassan: op.cit , p. 157

(٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٢٢

القلعة بيد المسلمين منذ ان سقطت بأيديهم في عهد المأمون . وبقيت طوال هذه الفترة شجى في حلق العدو . فلم يقيم البيزنطيون بغزوة برية او بحرية الا رآهم حراس هذه القلعة واندروا المسلمين^(٧) .

أما في البحر فانه في سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ - ٨٦١ م قامت قوة بحرية مستقرة عند طرسوس ، ويمكن ان يكون هذا الاسطول قد دعم بفرق مصرية بالهجوم على القاعدة البحرية البيزنطية الاناضولية في اضالية . ورافق هذا الهجوم هجوما اسلاميا بريا على آسية الصغرى^(٨) .

٢ - الطولونيون والبيزنطيون :

كون الطولونيون امارة في مصر والشام . وتسلموا كذلك حماية الثغور والدفاع عنها للوقوف في وجه البيزنطيين . فقد ازعجت انتصارات البيزنطيين الخليفة المعتمد الذي رأى ان جميع الممتلكات في قيليقية اصبحت مهددة بالخطر البيزنطي بعد ضياع قلعة لؤلؤة وقلاع اخرى^(٩) . فسلم الثغور لاحمد بن طولون .

ولم تشهد هذه الفترة من مراحل النزاع بين العرب والبيزنطيين حروبا حقيقية بينهما ، فلم يكن الامر يعدو مجرد غزوات وغارات متبادلة ، رجحت في بعضها كفة البيزنطيين وفي البعض الاخر كفة الطولونيين . واستمر الامر كذلك حين آل امر الثغور الى العباسيين اثر سقوط الامارة الطولونية حتى سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ - ٩٢٥ م .

وجه نائب أحمد بن طولون طخشي بن يلبرد ضربات مركزة للبيزنطيين عقب قيامه باصلاح الثغور ، وخصي الامبراطور البيزنطي من قوة موقف الطولونيين

(٧) - زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٧٤

(٨) - ارشيبالد : المرجع السابق ، ص ٢٢٥

Zaky Hassan: op.cit , p. 157

(٩) - ابراهيم العدوي : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣

في الثغور ، فبعث بطلب الهدنة ، ورفض ابن طولون في البداية ، ثم قبل عرضا بيزنطيا آخر بعد اشتداد الخلاف بينه وبين الموفق . واطلق البيزنطيون مقابل ذلك سراح الاسرى المسلمين ، وعلى رأسهم عبد الله بن رشيد بن كاوس ، كما أطلق المسلمون سراح الاسرى البيزنطيين بالمقابل^(١٠) .

وقد استغل ابن طولون الهدنة لتقوية دفاعاته ، وزيادة اعداد جنوده ، وتحسين اسلحتهم في هذه المنطقة^(١١) . ولا يحدد المؤرخون مدة هذه الهدنة او تاريخ عقدها . ويتضح مما حدث اثر عقدها انها لم تتمخض الا عن فداء الاسرى فقط ، اذا ما لبث البيزنطيون ان قاموا باعتداءات متتابة على الثغور ودافع اهالي الثغور عن أنفسهم ثم دعمهم احمد بن طولون ببعض القوات^(١٢) .

اتضح لابن طولون حاجته الى وجود اسطول قوي لحماية شواطئه ، ومواجهة الهجوم البيزنطي ، والمحافظة على طريق الاتصال البحري بين سواحل مصر والشام . ولذلك فانه أنشأ قاعدة بحرية في عكا ، وجدد حصونها واسوارها ، كما أنه اهتم بتحسين بقية الموانئ الشامية^(١٣) . وأخذت الاساطيل الطولونية بهجمة البيزنطيين في عقر دارهم عوضا عن خطة الدفاع .

وأضاف بأن نقل بعض وحدات الاسطول الى طرسوس ، وجعلها قاعدة بحرية تخرج منها السفن لشن ازر القوات البرية التي تهاجم معاقل البيزنطيين في آسية الصغرى . وأصبحت مدينة طرسوس بذلك ذات اهمية كبيرة في الصراع البحري بين الطولونيين والبيزنطيين .

(١٠) - ابن تفرى بردي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٠ -

Zaky Hassan: : op. cit., p. 158

(١١) - من اجل تفاصيل اكثر انظر البلوى : المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٠ - ابن تفرى :

المصدر السابق ، ص ٩٨ - Zaky Hassan: : op. cit., p. 158

(١٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٥٤٩ - زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، جزء ١ ، ص ٢٧٥

(١٣) - المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ١٦٣

وكان موقف الثغور في عهد خمارويه مشرفا بفضل سيطرة يازمان عليها ، الذي اشتهر بالجهاد * وكانت غزواته برية وبحرية استمرت حتى سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩٢ م ، حيث اصيب امام حصن سلندو^(١٤) . واستمرت قبضة الطولونيين قوية على الثغور حتى بعد وفاة يازمان ، بفضل جهود طنج بن جف الذي تمكن من فتح بعض الحصون في الاراضي البيزنطية .

واستمرت الثغور في صمودها في وجه البيزنطيين حتى بعد وفاة خمارويه . ولم يكن ذلك بسبب قوة خلفائه ، ولكن بفضل وقوف بعض ولاة الثغور بحزم في وجه البيزنطيين . وما لبث ان ظهر للعيان ضعف الطولونيين عن حماية الثغور . وان البيزنطيين اتخذوا ثانية دور المهاجم ، فاتخذ الخليفة المعتضد قراره بحماية الثغور والدفاع عنها من قبله مباشرة . واستعادها من ايدي الطولونيين بناء على الحاح من جانب اهالي الثغور^(١٥) .

٢ - العباسيون والبيزنطيون - احوال الثغور بين الامارتين الطولونية والاشيدية :

لم يستطع العباسيون في هذه الفترة من الوقوف بحزم في وجه البيزنطيين بسبب المشاكل الداخلية التي كانوا يعانونها وقد زاد الامر سوءا اشتداد خطر القرامطة في بلاد الشام . ولذلك فان البيزنطيين استمروا في اتخاذ موقف المهاجم . فأغاروا في سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ - ٩٠١ م على كيسوم كرد على غزوة موفقة قام بها المسلمون في السنة نفسها ، وفتحوا بها عددا من الحصون^(١٦) . ثم اغار البيزنطيون في محرم سنة ٢٩٢ هـ / نوفمبر تشرين الثاني ٩٥٤ م على مرعش ونواحيها . وقد ارتأى العباسيون مهادة البيزنطيين في هذه الفترة لانشغالهم في قتال الطولونيين^(١٧)

(١٤) ... الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٧ - ابن شداد : المصدر السابق ، ورقة ٧٦ وجه Zaky Hassan: : op. cit., p. 158

(١٥) ... الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(١٦) ... ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٧ - ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٢٦٢

(١٧) ... تاريخ ابن سعد : المصدر السابق ، ص ٧ - ابن العديم : مخطوطة بغية الطالب ، جزء ٢ ، ورقة ٩٤ وجهه

وبنهضة الثورات التي اعقبت ذلك في بلاد الشام • ووافقوا على اجراء فداء في السنة نفسها اطلق عليه اسم فداء الغدر • لان البيزنطيين افتدوا قسما من الاسرى ثم انسحبوا قبل اتمام الفداء (١٨) •

وما ان تخلص العباسيون من مشاكلهم الداخلية حتى بدأ نشاطهم يظهر في قتال البيزنطيين واجر نيو الطرابلسي من طرابلس بأساطيل المدينة ومدن الشام الساحلية الاخرى • وتعاون مع اسطول مصر ليهدد سالونيك ويدمر استعداداتها الحربية (١٩) • وكذلك فقد استنقذ العباسيون اربعة الاف شخص من اسرى المسلمين، كما استولوا على ستين مركبا للبيزنطيين • ويقال ان نصيب الرجل الواحد من الغزاة بلغ ألف دينار (٢٠) •

واخذت جيوش المسلمين تتقدم في الاراضي البيزنطية ، كما انتظمت الصوائف والشواتي التي كانت موفقة في معنمها • ويبدو انه كان لقوة كل من الخليفين العباسيين المعتضد ومن بعده المكتفي دور كبير في ظهور المسلمين على البيزنطيين (٢١) • ولم يستمر الوضع على هذا الشكل ، اذ مالبت الامور ان تدهورت في عهد الخليفة المقتدر ، وظهر ضعف القائمين على الثغور وعدم مقدرتهم الدفاع في وجه تقدم البيزنطيين • وتواردت شكاوى أهالي المنطقة على الخليفة المقتدر • مما يقاسونه من البيزنطيين ، فأمدهم بما استطاع من مال ورجال، كما ارسل بعض قادته للقيام ببعض الغزوات • فمن ذلك ما قام به مؤنس الخادم في سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ - ٩١٧ م حيث تمكن من فتح حصون عديدة (٢٢) ، الا ان ذلك لم يكن كافيا لردع البيزنطيين •

(١٨) - المسعودي : التشبيه والاشراف ، ص ١٩٢ - عريب بن سعد : المصدر السابق : ص ٧ •

(١٩) - عريب بن سعد : المصدر السابق ، ص ٥٥

(٢٠) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ١١٧ - الذهبي : مخطوطة تاريخ الاسلام ، جزء ٢ ، ورقة ٢٥ ويذكر انها ٩٠ مركبا •

(٢١) - انظر من اجل ذلك الطبري : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٤٥

- عريب بن سعد : المصدر السابق ، ص ٥٥ - ابن الجوزي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص

٨٢ و ٨٩ و ٩٧ و ١٢١

(٢٢) - زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، جزء ١ ، ص ٢٨٠

وفي سنة ٣٥٥ هـ / ٩١٧ - ٩١٨ م تقدم البيزنطيون بطلب الهدنة والفداء ، واجابهم الخليفة المقتدر الى طلبهم * وتسهب كتب التاريخ في ذكر مدى ما أظهره الخليفة المقتدر بالله امام الوفد البيزنطي لابرار الخلافة ، الا ان هذه الهدنة لم تطل ، اذ مالبت الصوائف والشواتي أن عادت في السنة نفسها في البر والبحر . وتكرر ذلك في سنة ٣٠٦ - ٣٠٧ هـ / ٩١٨ - ٩١٩ م واستمرت غزوات المسلمين في سنة ٣١٠ و ٣١١ هـ / ٩٢٢ - ٩٢٣ م ، وفي معظم الاحوال كانت برية وبحرية وكانت موفقة احيانا .

واشتد القتال بين الطرفين في سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ - ٩٢٦ م ، فقد أدرك البيزنطيون مبلغ ضعف الخلافة العباسية في عهد الخليفة المقتدر . وعدم تمكنها من الوقوف بحزم في وجههم . حتى ان امبراطور البيزنطيين كتب في هذه السنة الى أهالي الثغور ، يأمرهم بحمل الخراج وهددهم بالقتل والسبي ان لم يفعلوا (٢٣) .

وبدأ سقوط الثغور الاسلامية بيد البيزنطيين ، فسقطت ملطية سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ - ٩٢٧ م . كما هاجم البيزنطيون سميساط سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، وتمكن مؤنس الخادم من صدهم عنها . ثم تسلكوا خلاط وبدليس صلحا (٢٤) . وخشي أهالي الثغور من البيزنطيين فأرسلوا الى دار الخلافة يستنجدون بالخليفة ان يمددهم بجيش يمنع عنهم كيد المعتدين ، وهددوا بالخضوع للبيزنطيين ودفع الاتاوة لهم ، اذا لم يحصلوا على معونة تمكنهم من الصمود . الا ان طلبهم هذا لم ينظر فيه . فقد كانت بغداد غارقة في فتنة عارمة خلع فيها المقتدر ، ونصب مكانه القاهر . ثم مالبت ان أعيد المقتدر ثانية . وعلى اثر ذلك اضطر أهالي الثغور الجزرية ومنها ملطية وميافارقين وآمد وارزن الى مصالحة البيزنطيين والخضوع لهم (٢٥) .

(٢٣) - زيني دحلان : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٨١

(٢٤) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٢١٢ - ابن خلدون : المصدر السابق ،

جزء ٢ ، ص ٢٨٦

(٢٥) - اخلاط او خلاط وتقع في طرف بحيرة وان الغربي ، أما بدليس فتقع في جنوب غربي بحيرة وان

انظر كي لمسننج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢١٨ .

وتوالى على عرش الخلافة خلفاء ضعاف ، وأخذ هؤلاء يتلقون كتب البيزنطيين التي يقدم فيها امبراطورهم اسمه على أسمائهم ، دون أن يشير ذلك فيهم أي نوع من الضيق .

وإذا كان مذكوره كل من سعيد بن البطريق ويحيى بن سعيد الانطاكي (٢٦) ، من أن كلا من بطريق الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس ، اخذوا في ذكر اسم الامبراطور في صلواتهم وقداستهم ، بناء على كتاب وجهه اليهم الامبراطور البيزنطي في سنة ٣٢٦هـ / ٩٣٧ م مع رسوله ، فان هذا يدل دلالة كبيرة على شدة ضعف المسلمين في تلك الفترة ووقوفهم مكتوفي الايدي أمام تدخل البيزنطيين في شؤون البلاد الاسلامية . ثم مالبث أن برز دور الحمدانيين في الدفاع عن الثغور الجزرية . ولذلك نقل البيزنطيون هجومهم الى الثغور الشامية . هكذا كان الوضع حين آل امر الدفاع عن الثغور الشامية الى الاخشيديين ، والجزرية للحمدانيين ، ثم اجتماع الثغور بقسميها للحمدانيين .

٤ - الاخشيديون والبيزنطيون :

تدرب الاخشيديون على قتال البيزنطيين منذ عهد طعج بن جف الذي تولى امر الثغور للطولونيين ، وتابع ابنه محمد الاهتمام بأمر الحدود مع البيزنطيين منذ أن عمل على اثناء الامارة الاخشيدية . واشترك الاخشيديون مع الخلافة العباسية في دفع النفقات اللازمة لفداء أسرى المسلمين . وأول فداء اشترك فيه محمد بن طعج كان في سنة ٣٢٦هـ / ٩٣٧ - ٩٣٨ م (٢٧) وقد كان هذا الفداء تعبيراً عن رغبة الاخشيديين في الحياة بسلام مع البيزنطيين . اذ كانوا في حاجة الى هذا السلام لتعرضهم المخطر المستمر من جانب الفاطميين في المغرب ، ولمواجهة القلاقل الداخلية التي تبثها الدعاية الفاطمية في البلاد (٢٨) . وقد قوبلت رغبة الاخشيديين هذه

(٢٦) - سعيد بن البطريق : المصدر السابق ، ص ٨٧ و ٨٨ - الانطاكي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧١٠ - ٧١١ .

(٢٧) - سيدة كاشف : مصر في عهد الاخشيديين ، ص ١٠٦ .

CANARD : Histoire de la Dynastie de Hamdanides. p. 589.

برغبة مماثلة عند البيزنطيين . وتتأكد لنا هذه الرغبة من خطاب الامبراطور البيزنطي الى الاخشيدي في سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ - ٩٣٧ م ، وتظهر فقرات هذا الخطاب رغبة البيزنطيين في الصداقة مع الاخشيديين ، وفي تبادل الاسرى (٢٩) .

الا ان هذا الفداء وما تبعه من هدنة لم يسنع من قيام بعض الغزوات . اذ قام نصر الثملي أمير الثغور من قبل الاخشيدي في سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ - ٩٤٢ م بغزوة تأديبية من ناحية طرسوس فأسر عددا من الاسرى . وكان بين أسراه عدد من البطارقة ، وعاد محملا بالغنائم . وكان ذلك ردا على خروج البيزنطيين الى قرب حلب ، وافسادهم في البلاد وسبيهم لخمسة الاف انسان .

وحدث فداء آخر بين محمد بن طعج والبيزنطيين . وبدأ التفكير في هذا الفداء ، عندما أرسل الامبراطور رومانوس رسولا الى الاخشيدي يحمل اليه هدية وكتابا يتودد اليه فيه . فقبل الاخشيدي ذلك (٣٠) . وقد بدأ تنظيم هذا الفداء أيام محمد بن طعج الاخشيدي ، وتم في عهد كافور ، رحين توجه الوفد الاخشيدي لاتمام الامر ، وجدوا ان سيف الدولة استولى على الثغور ، فأتم الفداء ونسب اليه (٣١) .

وهكذا يبدو ان الاخشيديين اتبعوا سياسة المهادنة مع البيزنطيين ، فمكنتهم هذه السياسة من توجيه اهتمامهم - بشكل خاص محمد بن طعج - الى اقتصاديات المناطق التابعة لهم ، واصلاح احوالها ، وتقوية قبضتهم عليها امام امارة الحمدانيين . كما كان لهذه المهادنة أثرها في اتجاه البيزنطيين نحو الثغور الجزرية (٣٢) .

(٢٩) - CANARD : Une Lettre de Muhammad Ibn Tugj Al Ikshid., p. 4.

(٣٠) - عن كتاب امبراطور البيزنطيين الى الاخشيدي والرد عليه ، انظر ابن سعيد : المصدر السابق ، من ص ١٦٧ حتى ١٧٢ - الفلشقيندي : المصدر السابق ، جزء ٧ ، من ص ١٠ - ١٨
CANARD : op. cit., p. 3

(٣١) - بيبرس الدوادار : مخطوطة زبدة الفكرة ، مجلد ٦ ، ص ١٧١ .
CANARD : Sayf Al Dawla., pp. 83-85.

CANARD : Une Lettre de Muhammad Ibn Tugj Al Ikshid., pp. 2-3. (٣٢) -

الفصل الرابع

أهم مظاهر الحضارة العربية الإسلامية
من سنة ١٣٢ - ٣٣٤ هـ / ٧٥٠ - ٩٤٦

مقدمة :

بدأت الخلافة العباسية من الناحية الحضارية كأيام الربيع المزهرة بشتى أنواع الزهور . فقد كان التقدم الحضاري عاما وشاملا ، وشمل هذا التقدم العلوم الدينية والدينية ، بعد أن اقتصر على الأمور الدينية تقريبا في العصر الأموي . فنهض العرب في ذلك العصر بترجمة كتب الفلسفة اليونانية بجميع فروعها . كما ترجموا كتب الطب والطبيعية والكيمياء والنجوم والرياضيات . ولنا فيما كتبه لنا ابن خلدون عن المرحلة التي يبدأ اهتمام الإنسان فيها بالعلم ، تلك المرحلة التي يكون فيها قد بلغ غايته من المعاش ، فينصرف الى غيرها ، فيقول : (فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم ، انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع . . ولا بد له من الرحلة في طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها . واعتبر ماقررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام ، واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم ، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم ، واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاقوا المتأخرين) (١) .

(١) - ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤٠٠

ويبدو ان هناك عوامل متعددة ساعدت على تقدم العلوم في هذه الفترة وعلى رأسها صناعة الورق • فقد انتشرت هذه الصناعة ، وظهرت أنواع عديدة ، منها : الورق الفرعوني نسبة الى فرعون مصر ، والورق السلياني نسبة الى سليمان بن راشد عامل الخراج على خراسان للرشيد • والورق الجعفري نسبة لجعفر البرمكي ، والورق الطلحي نسبة لطلحة بن طاهر ، والورق الطاهري نسبة الى طاهر بن الحسين ، وانتشرت مصانع الورق في سمرقند ، وفي دار الخز ببغداد ، وفي تهامة واليمن ومصر وفي دمشق وطرابلس وحماة ومنبج وفي المغرب والاندلس (٢) • وكان نشاط مصانع الورق ، ورخص أثمان منتجاتها عاملا هاما في تقدم العلوم • وقد أدى وجود الورق الى نشوء صناعة الوراق ، وهي نسخ الكتب وتصحيحها ، وانتشار دكاكين الوراقين •

وبالإضافة الى ذلك فان انتقال الخلافة العباسية الى العراق ، وماتج عنه من اختلاط الامم الاسلامية بعضها ببعض ، وماتم اثر ذلك من أخذ وعطاء بينها ، كان من العوامل الاساسية التي أدت الى تقدم العلوم • اضافة الى الحرية التي أعطيت للامم الاسلامية في العصر العباسي ، وعامل الزمن ، فقد مر على ظهور الاسلام قرن وثلاث القرن •

١ - نظام الحكم

آ - النظام السياسي

- الخلافة : (٣)

حكم خلفاء بني العباس زهاء خمسة قرون من سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م • وقد تأثر نظام الحكم العباسي الى درجة كبيرة بنظام الحكم الفارسي • وساست الخلافة العباسية العالم الاسلامي سياسة ممزوجة بالدين والملك • كما كان الحكم العباسي وراثيا ، فولاية العهد استمرت لحصر الخلافة في البيت العباسي ، كما

(٢) - احمد امين : فصحى الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٢ - ٢٣

(٣) - عن الخلافة العباسية ، انظر فيما سبق ، سمات الخلافة العباسية

سار العباسيون على نظام تولية العهد لأكثر من واحد . وكان الخليفة يحاول عزل
وئي عهده وتولية ابنه مكانه ، وكثيرا ما حدثت خلافات بين أفراد الاسرة الحاكمة
لأجل ذلك ، وتطورت الامور في احيان كثيرة الى امتشاق السيف . وقد احتفظ
خلفاء العباسيين في حقهم بتعيين ولاية عهودهم حتى في الادوار العباسية المتأخرة
بعد ان بدا ضعفهم ، وتركوا غالبية أمور الدولة لغيرهم .

اتخذ خلفاء العباسيين في الدور العباسي الاول بعض أعوانهم من الفرس ،
وسدوهم غالبا منصب الوزارة . وبدا تفوذ هذا العنصر من خلال ذلك . وقد توفر
لخلفاء العصر الاول المقدرة على حفظ التوازن السياسي ، وجعل الخلافة السلطنة
العليا والمنصب الاول في الدولة (٤) .

أما في الدور العباسي الثاني فقد طبعت الخلافة بطابع جديد بدا فيه أكثر
الخلفاء على درجة من الضعف ، والانصراف الى أمورهم الشخصية ، وعدم الحفاظ
على سلطتهم السياسية والعسكرية في الدولة ، مما سمح للعناصر الاسلامية غير
العربية بالسيطرة على الخلفاء . ففي الفترة الاولى من هذا الدور وبالتحديد من
سنة ٢٣٢ - ٣٣٤ هـ / ٨٤٧ - ٩٤٥ م سيطر العنصر التركي على الخلفاء من خلال
تسليمه للقيادة العسكرية . وتدخل هؤلاء في شؤون الدولة ، وأخذوا في تنصيب
وعزل من يشاؤون من الخلفاء، وقتل وسب البعض الآخر . مما نتج عنه اثارة التناحر بين
أفراد البيت الحاكم . كما امتاز هذا العصر بتدخل النساء في شؤون الدولة ، وكثرة
تولية الوزراء وعزلهم .

— الوزارة :

ظهرت الوزارة للمرة الاولى في العصر العباسي (٥) . وكانت مرتبة الوزير
تأتي بعد مرتبة الخليفة مباشرة . ولم تكن سلطات الوزير محددة في البداية ، ولكنها

(٤) — البيروني : الآثار الباقية ، ص ١٢٢ .

(٥) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٢١ وفيما بعد — الأزدى : المصدر السابق ،

ص ١٦١ - ١٦٢ .

اتضحت وتحددت في شكلها النهائي أواخر الدور العباسي الاول . وقد انقسمت الوزارة الى قسمين : وزارة تفويض ووزارة تنفيذ . وكان منصب وزير التفويض يماثل منصب رئيس الوزراء حاليا ، على حين ان وزير التنفيذ كان يقوم بالمهام الموكلة اليه من الخلافة . وقد كان وزير التفويض ساعد الخليفة الايسن ، يساعد الخليفة في أعماله وينوب عنه في حكم البلاد ، وينصب العمال ، ويشرف على الضرائب ، ويجمع في يده السلطتين المدنية والعسكرية (٦) . اشتهر من وزراء العصر العباسي الثاني بنو الفرات وبنو وهب وبنو الجراح (٧) . وقد ساءت حالة الوزارة في نهاية عصر الاتراك ، وبشكل خاص في عهد الخليفة المقتدر . بسبب السياسة التي اتبعها في تعيين وزرائه وعزلهم ، بالإضافة الى اعتماده في بعض الاحيان على وزراء ضعاف كأبي علي محمد بن مقله . ثم مالبث الوزراء أن فقدوا سلطتهم في عهد الخليفة الراضي ، وعجزوا عن ادارة الدولة ، بسبب ازدياد نفوذ القواد وتدخلهم في الامور الادارية دون ان يكون لديهم امكانية القيام بالعمل . فاضطر الخليفة الراضي الى ايجاد منصب جديد يجمع صاحبه بين المهام القيادية والادارية ، ويستطيع التخلص من الازمة الاقتصادية التي أحاقت بالبلاد ، فأوجد منصب أمرة الامراء ، وقلده الى ابن رائق . ولم يبق للوزراء في عهد أمرة الامراء شيء من النفوذ ، واصبحوا بمثابة كتاب لا أكثر ، واقتصرت أعمالهم على أمور شكلية تتعلق بالحضور الى دار الخلافة أيام المواكب مرتدين السواد ، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعار الوزارة . وبلغ الامر شأوا بعيدا حين قام أمير الامراء بتعيين الوزراء وعزلهم بعد ان كان هذا الامر بيد الخليفة فقط (٨) .

— الكتابة والحجابه —

عقب ازدياد أعمال الوزراء وتضاعف مسؤولياتهم ، دعت الحاجة الى اتخاذ

(٦) — عن وزراء الدور العباسي الاول انظر : الصراع بين الخلفاء والوزراء — وانظر الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ٢٢ — ٣٠ — المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٢٨٤ — مقدمة ابن خلدون ، ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٧) — هلال الصابىء : تاريخ الوزراء — وانظر فيما سبق

(٨) — مسنن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .

الوزراء للكتاب يساعدونهم في الاشراف على الدواوين المختلفة وادارة شؤونها •
ومن أشهر مجالات الكتابة في هذا العصر كتابة الرسائل والخراج والجند والشرطة
والقضاء • وبرز بذلك كاتب لكل كتابة مذكورة •

كانت مهمة كاتب الرسائل اعلان المراسيم وتحرير الرسائل السياسية وختمها
بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل في مجلس القضاء للنظر
في المظالم ، وختم الاحكام بخاتم الخليفة • وفي بعض الاحيان كان كاتب الرسائل
يتولى مكاتبة الملوك والامراء نيابة عن الخليفة • ولذلك فقد وجب أن يتحلى بسعة
العلم ، وجزالة الاسلوب •

وقد ذكر ابن خلدون الصفات التي يجب أن تتوفر في الكاتب عامة وفي كاتب
الرسائل خاصة في مايلي : (واعلم أن صاحب هذه الخطة لابد ان يتخير من أرفع
طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فانه
معرض للنظر في أمور العلم ، لما يعرض في مجلس الملوك ومقاصد أحكامهم من
أمثال ذلك ، مع ماتدعو اليه عشرة الملوك من القيام على الاداب ، والتخلق بالفضائل ،
مع مايضطر اليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها) (٩) • ولم
يقبل مركز الكاتب عن مركز الوزير في كثير من الاحيان ، حتى ان الكتابة كانت
ترشح صاحبها لتقلد الوزارة •

ويبدو ان كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة ، استخدموا في الكتابة
طريقة تشبه مانسبها اليوم « الشفرة » فقد اصطالحوا على وصل كلمات بعضها
بالبعض وحذف حروف معروفة عندهم ، لايعرفها الا أهل مصطلحهم ، فتستعجم
على غيرهم • وذلك لكتبان الامور الهامة عن الناس ، ويعرف استخراج معاني هذه
الكتابة بفك المعسى (١٠) •

(٩) - ابن خلدون : مقدمة ، ص ٣٨٠

(١٠) - ابن خلدون : مقدمة ، ص ٣٨٢

زخر العصر العباسي بطائفة من الكتاب لم ير لهم مثيل ، مثل يحيى بن خالد البرسكي والفضل بن الربيع وأحمد بن يوسف في عهد المأمون • واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق • ولم يكن اتخاذ الكتاب مقصورا على الخلفاء وحدهم ، بل كان عمال الاقاليم وامراء الامراء يتخذون كتابا يعاونونهم في ادارة الدولة •

أما الحاجب (١١) فيعتبر من موظفي الدولة الكبار وتنحصر مهمته في ادخال الناس على الخليفة مراعيًا في ذلك مركزهم ، وأهمية العمل الذي يقومون به • ولم تستجد وظيفة الحاجب في العصر العباسي ، بل كانت منذ العهد الأموي • واقتدى الخلفاء العباسيون ببني أمية ، فاتخذوا الحجاب ، ولم يسمحوا لاحد بمقابلتهم الا اذا كانت له حاجة هامة • وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الاسلامية ، واصبح يستشار في كثير من أمور الدولة • ويستبد أحيانا بالنفوذ دون الوزير ، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع اليه في كل أمور الدولة (١٢) •

ب - النظام الاداري :

— انولايات والولاة : تبنت الخلافة العباسية في العصر العباسي الاول نظام الحكم المركزي • وكان عمال الاقاليم يتبعون مباشرة للحكومة المركزية • فكانت سلطاتهم وصلاحياتهم محدودة • ولذلك فاننا لانجد بين عمال العباسيين من وصل الى درجة زياد بن أبي سفيان ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، وخالد بن عبد الله القسري • وكان الخليفة أو وزير التفويض يختار عمال الاقاليم بنفسه لادارة شؤونها دون أن يعطيهم صلاحيات مدنية وقضائية واسعة ، ولذلك فانه كان السلي جانب الوالي صاحب البريد والقاضي وصاحب بيت المال • واقتصر عمل الوالي غالبا على الصلاة وقيادة الجند • وفي العصر العباسي الثاني ازداد عدد العمال

(١١) — انظر عن الحاجة الى الحاجب في مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٥٩ — ٢٦٠

(١٢) — انظر ماكتبه ابن خلدون : مقدمة ، ص ٢٥٩ — ٢٦٠ عن درجات الحجابة الثلاث .

المساعدين الموالي ، فأصبح فيهم القاضي والبندار (١٣) وصاحب الجند ، وصاحب البريد ، ومتولي السواقى والضياح السلطانية ، وصاحب المعونة ، وكان يساعد صاحب الجند . وفوق هذا وذاك ، فإن الولاية لا تترك للعامل زمنا طويلا ، وحين يعزل العامل عن منصبه كان يطلب منه أن يقدم بيانا مفصلا عن شؤون ولايته . وكان أقل شك في صدقه كافيا لمصادرة أملاكه جميعها . ولنا مثل في ذلك ما كان يفعله المنصور الذي أنشأ لاجل ذلك ديوانا سماه بيت مال المظالم أو ديوان المصادرات (١٤) .

انقسمت الدولة العباسية في عهد أبي العباس من الناحية السياسية الى عدد من الولايات ، أبرزها ولاية الحجاز وولايتي العراق ، وخراسان ، وفارس ، والشام ، ومصر ، والمغرب . وكانت هذه الولايات تزداد عددا باتصال بعض أجزائها وتشكيل ولاية جديدة ، فقد فصل أبو العباس فلسطين عن الشام ، كما فصل أرمينية واذربيجان عن الجزيرة ، وجعل منهما ولايتين (١٥) .

فضل الخلفاء العباسيون اعطاء ولاية الولايات الاسلامية البعيدة لبعض أفراد البيت العباسي ، أو الى كبار القواد . وقد انحصرت معظم الولايات في العرب دون سواهم في الدور العباسي الاول (١٦) ، ثم ازداد عدد الولاة من الفرس والترك . ومنذ مطلع الدور العباسي الثاني أخذ الولاة يفضلون البقاء في عاصمة ملكهم ، وأنابوا عنهم نوابا يحكمون هذه الولايات باسمهم . ولم يظهر خطر هذا العزل حين كانت السلطة المركزية قوية . إلا أنه حين بدأ الضعف يدب في جسد السلطة المركزية ، جنح بعض هؤلاء النواب الى الاستقلال (١٧) .

(١٣) - كاتب السلفة ومهمته المطالبة بالخراج ووجوه المال .

(١٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٨١

(١٥) - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٦٧

(١٦) - اليعقوبي : تاريخه ، جزء ٣ ، ص ٨٨ - ٨٩ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٥٦ و ١٥٤ - ١٦٣ - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(١٧) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٦٧

اهتم العباسيون في الدور العباسي الاول باختيار ولائهم من أفاضل الناس • وعملوا على أن يصرف هؤلاء طاقة أعمالهم في ولاياتهم لمصلحة أهالي الولاية • كما جعلوا صاحب البريد عينا عليهم للخليفة • وحين يعلم الخليفة إهمال الوالي لأمور الرعية ، وانشغاله بأموره الخاصة يعمل على عزله • وأكبر دليل على ذلك ما فعله المنصور مع واليه على حضرموت • فقد أعطى ولايتها الى رجل من العرب ، ولكنه علم عن طريق صاحب البريد أن الوالي يكثر الخروج في طلب الصيد بيزاة وكلاب قد أعدها • فعزله وكتب اليه : ثكلتك أمك ، وعدمتك عشيرتك ، ماهذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش انا انما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش • سلم ماكنت تلي من عملنا الى فلان ابن فلان ، والحق بأهلك ملومنا مدحورا (١٨) •

ويمكن القول أن الامارة مهما كان نوعها من حيث الصلاحيات الممنوحة للوالي أو طريقة حصوله على الولاية ، فانه يمكن تقسيمها بحسب مجاء في الاحكام السلطانية (١٩) الى ثلاثة أنواع •

١ - امارة استكفاء :

وفيها يفوض الخليفة الى الوالي امارة بلد أو اقليم ، فيشمل نظره سبعة أمور : أحدها النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي ، وتقدير أرزاقهم ، الا أن يكون الخليفة قدرها فيذرهما عليهم ، والثاني النظر في الاحكام وتقليد القضاة والاحكام • والثالث جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منها • والرابع حماية الدين والذب عن الحريم • والخامس اقامة الحدود في حق الله وحقوق الادميين ، والسادس الامامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو تستخلف عليها ، والسابع تسيير الحجيج من عمله ، ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه • فان كان هذا الاقليم نغرا متاخما للعدو ، اقترن بها ثامن

(١٨) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٨

(١٩) - الماوردي : ص ٢٨ - ٣٤

وهو جهاد من يليه من الاعداء ، وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لاهل
الخمس (٢٠) .

٢ - امارة استيلاء :

وهي أن يستولي أحد الامراء قسرا على ولاية من الولايات فيضطر الخليفة
الى اقراره عليها ويفوض اليه تديرها وسياستها .

٣ - امارة خاصة :

بمعنى أن ينصر الخليفة عمل الوالي على تدير الجيش وسياسة الرعية
وحماية البيضة ، والذب عن الحريم ، دون التعرض للقضاء والاحكام أو لجباية
الخراج والصدقات .

- الدواوين :

هي دوائر العمل في الدولة تشبه الوزارات في العصر الحالي . وعلى رأي ابن
خلدون فان (الدواوين ضرورية للملك لان اصحابها يقومون بالجبايات وحفظ
حقوق الدولة في الدخل والخرج ، واحصاء العساكر بأسمائهم ، وتقدير أرزاقهم ،
وصرف أعطياتهم في اباناتها ، والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها قومة تلك
الاعمال ... وقهارمة الدولة . وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في
الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب ، لا يقوم به الا المهرة من أهل
تلك الاعمال) (٢١) .

كان لكل ولاية ديوان ببغداد يدير شؤونها ، ولم يكن لبغداد دواوين في
الولايات (٢٢) . وبذلك فان الدواوين انقسمت الى دواوين مركزية ، ودواوين
أصغر منها في الولايات .

(٢٠) - الماوردي : المصدر السابق ، ص ٢٨

(٢١) - ابن خلدون : مقدمة ، ص ٢١٦

(٢٢) - آدم هيتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، جزء ١ ، ص ١٢٩ .

أهم الدواوين على الإطلاق ديوان الخراج وديوان الدية ، وديوان الجند ، وهو أول ديوان وضع في الاسلام ، ويرى البعض أنه وضع في عهد النبي ، وآخرون يرون أنه وضع في عهد عمر بن الخطاب وهو الاصح . وقد استمر على نظامه حتى كان عهد المعتصم الذي أسقط العرب من الديوان وحرّمهم العطاء (٢٣) .

وديوان الموالي والغلمان وتسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده ، وديوان الرسائل (٢٤) . وديوان الحوائج ، وديوان الاختام ، وديوان الاكزة للاشراف على الترع والجسور . وكانت هناك ادارة خاصة تنظر في مصالح غير المسلمين يدعى رئيسها كاتب الجهباز ، كما أنشئ ديوان سمي بديوان المظانم ، وكان يجلس له الخليفة يستمع الى شكاوى العامة والخاصة .

ولم يكن ديوان البريد محدثا في العصر العباسي بل وجد في العصور السابقة . ولكنه نظم وأصبح أكثر سرعة ، كما اوجدت به محطات جديدة (٢٥) . وكان البريد خاصا باعمال الدولة ، ولا يهتم بنقل رسائل الجمهور . وكان على صاحب البريد ان يراقب العمال ، ويتجسس على الاعداء وهذه نقطة تطور في مهمة صاحب البريد الذي كانت مهمته تقتصر على نقل الاخبار من الخليفة الى العمال وبالعكس ، فأصبحت تتعدى ذلك ويصبح عين الخليفة الساهرة ، فهو اذن يقوم بالاعمال التي يقوم بها رئيس قلم المخابرات . وقد اهتم الخلفاء العباسيون بصاحب البريد اهتماما خاصا ، وكان أبو جعفر المنصور يقول : ما احوحني الى ان يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم . . . والرابع ثم عض على اصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه آه ، قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب البريد يكتب خبر هؤلاء على الصخرة (٢٦) .

(٢٣) - النويري : نهاية الارب ، جزء ٨ ، ص ١٩٦ - ١٩٨

(٢٤) - انظر فيما سبق : الكتابة والحجابة .

(٢٥) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٧٣

(٢٦) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧٢ .

كان المنصور يقف بواسطة صاحب البريد على أعمال الولاية ، وعلى ما يصدره القضاء من الاحكام وما يرد بيت المال من الاموال وما الى ذلك . كما كان ولاية البريد يوافقونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وأدم ومأكولات وغيرها . وبلغ من انتظام ادارة البريد في عهده أن عماله كانوا يوافقونه بذلك مرتين في كل يوم . فاذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، واذا صلى الصبح كتبوا اليه بما جرى في الليل من أمور . وبهذا كان يقف على كل ما يحدث في الولايات الاسلامية ، فيوقف القاضي عند حده اذا ظلم ، ويرجع أسعار المحاصيل الى حالتها الاولى اذا شعر انها زادت عن الحد . واذا رأى من احدهم تقصيرا وبخه ولامه أو عزله عن عمله .

اما صاحب الشرطة فكان يختار من عليه القوم ومن أهل العصبية والقوة . فهو رئيس الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الامن وحفظ النظام ، والقبض على الجناة والمفسدين (٢٧) .

هذا وما يذكر من اصلاحات للدواوين في الفترة العباسية انشاء ديوان الزمام من قبل الخليفة المهدي سنة ١٦٢ هـ لجمع ضرائب العراق وتقديم حساب للضرائب في الاقاليم الاخرى (٢٨) . ثم اصبح لكل ديوان زمام أي ان الديوان الواحد ينقسم الى قسمين الاول وهو الاصل ، ويختص بوضع الضرائب وحملها الى بيت المال وتقوية موارد الدولة أي يقوم بالعمل الاداري عامة ، والقسم الثاني الزمام او ديوان المال (٢٩) . ثم اجري الخليفة المعتضد في نهاية القرن الثالث الهجري اصلاحا جديدا ، حيث ضم دواوين الولايات كلها وألف منها ديوانا سماه ديوان الدار ، او ديوان الدار الكبير ، وله ثلاثة فروع : ديوان المشرق وديوان المغرب وديوان السواد . وقد وضع الخليفة أزمة هذه الدواوين كلها في يد رئيس واحد .

(٢٧) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٦

(٢٨) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٥٧ - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ،

جزء ٢ ، ص ٢٦٩

(٢٩) - ادم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٢٩

ثم جعل الاصول كلها في يد رئيس واحد في سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، حيث جاء القرن الرابع الهجري ، وادارة الدولة تنقسم الى ما يشبه وزارتين احدهما الداخلية ، وهي ديوان الاصل ، والاخرى للمالية وهي ديوان الازمة .

ج - النظام العسكري : الجيش

اختلف الجيش في تكوينه وسماته في الخلافة العباسية ، عما كان عليه أيام الخلافة الاموية . فقد كان في عهد الامويين جيشا عربيا صرفا بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى . وغلب عليه الطابع العربي في قياداته وعناصر جنده . وكان الجيش في مطلع الخلافة العباسية عربي القيادة على الاغلب . وقد انضم الى صفوف جنوده الفرس من الذين عملوا في مساعدة الدعوة العباسية ، وقد تزعم هؤلاء أبو مسلم الخراساني . وكلما تقدم الزمن كان أفراد الجيش من الفرس يعملون على تقوية فريقهم .

تعدد قادة العرب في الدور العباسي الاول ، فكان منهم عبد الله بن علي بطل معركة الزاب ، وأبو جعفر المنصور الذي قاد الجيوش في قتال ابن هبيرة ، وعيسى ابن موسى الذي قاتل النفس الزكية وأخاه ابراهيم ، وقحطبة بن شبيب الطائي الذي كان من كبار الدعاة ، وقاد الجيش العباسي الذي تعقب نصر بن سيار ، والحسن ابن قحطبة الذي استطاع أن ينتزع النصر من الامويين في العراق ، وتابع سيره الى الكوفة فدخلها ، حيث كان له دور مهم في اعلان خلافة أبي العباس . وبرز اسمه ايضا في الحملات العسكرية التي وجهها العباسيون ضد الدولة البيزنطية .

وبرز أيضا من قواد العرب خازم بن خزيمة الحرسى وهو الذي تسلم قتال استاذسيس ، كما اشترك في قتال الراوندية (٣٠) . وهذا قائد عربي آخر هو معن بن زائدة الشيباني ، الذي قاد قتال الراوندية ، وكان له فضل فتح الطالقان وطبرستان ونهاوند وفرغانه . كما أنه تولى اليمن للمنصور كمكافأة له عن أعماله . كما تولى

(٣٠) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٨٦ - ١٩٨ - العيون والحدائق ص ٢٦٣-٢٦٤

بعض نواحي خراسان (٣١) . والى جانب هؤلاء كان يزيد بن زائدة أخيه معن الذي قاتل معه (٣٢) . وابنه يزيد بن يزيد ، الذي رافق معن في حروبه ، وكان على ميمنته في قتال رتبيل الذي ثار في عهد المنصور . وقد قام يزيد بأمره سجستان بعد أن استرجعت من رتبيل (٣٣) ، كما أنه قاد الجيوش ضد يوسف بن ابراهيم المعروف بالبرم ، الذي ثار بخراسان سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٧ م ، وتمكن يزيد من أسره وإرساله الى المهدي (٣٤) . ثم تولى أرمينية حتى عزله الرشيد عنها سنة ١٧٢ هـ (٣٥) ، كما أنه تسلم ولاية الموصل سنة ١٨٤ هـ (٣٦) ، وقاد يزيد الجيوش لقتال الخارجي المسمى الوليد بن طريف الشاري ، الذي ثار في سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م في منطقة الجزيرة (٣٧) . وهرثة بن أعين (٣٨) ومرار بن أنس الضبي الذي قتل أبا سلسة الخلال (٣٩) ويزيد ابن البدر البطل قائد العباسيين في قتال البيزنطيين (٤٠) ، وأبو عون قائد معركة الزاب قبل حضور عبد الله بن علي . وتحمل كتب التاريخ كثيرا من أسماء القواد العرب الذين قادوا الفتوح والمعارك في بداية عصر الخلافة العباسية ، مما يثبت أن القيادة كانت للعرب في الفترة الاولى (٤١) . وكثيرا ما كان خلفاء الدور العباسي الاول يقودون الجيوش بأنفسهم ، فهذا المهدي يغزو بنفسه سنة ١٦٣ هـ / ٧٨١ م ، وكذلك غزا هارون الرشيد البيزنطيين مرات متتالية .

ويتضح دور العرب الكبير في الجيش العباسي الذي قاتل الامويين حين نطلع

-
- (٣١) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٦٠٦ - العيون والحدائق ، ص ٢٦٤
(٣٢) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٦٠٦
(٣٣) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٩
(٣٤) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٤٣
(٣٥) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١١٨
(٣٦) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٦٦
(٣٧) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٤١
(٣٨) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٧ وما بعدها - زكار : المرجع السابق ، ص ٢٥٣
(٣٩) - ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٦
(٤٠) - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٧٨
(٤١) - بيطار : الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام منذ قيام الخلافة العباسية حتى الفتح الفاطمي ، ص ٣٣ .

على ما كتبه صاحب الامامة والسياسة عن هذا الموضوع ، اذ يفرق بين أهل خراسان من العرب وبين الفرس منهم ، فيذكر ان تعداد الجيش كان اثنا عشر ألفا من أهل خراسان سوى الاعاجم (٤٢) .

الا ان الحال لم يستمر على هذا بل كان عدد قواد الفرس في تزايد مستمر كلما تقدم العهد بالخلافة العباسية ، حتى كان عهد المعتصم الذي أخرج العرب من ديوان الجند ، وأهملهم . كما انه أهمل الفرس في الوقت نفسه واعتمد على جنود الترك . وعلى الغالب فان اهم الدوافع التي دعت خلفاء بني العباس الى الاعتماد على العناصر غير العربية بدءا بالعنصر الفارسي ثم التركي يعود الى العصبية القبلية التي كانت تتأجج نارها بين عناصر الجند العربي من حين الى حين . حتى ان أبا جعفر المنصور فكر في تأسيس الكرخ ليعيد عنه خطر جنده من اليمينية والمضرية (٤٣) .

ومن قواد الفرس الذين قادوا الجيوش في هذه الفترة ، وشهد لهم الجميع بالكفاءة ، طاهر بن الحسين الذي برز خلال الازمة الخطيرة والحرب الأهلية التي قامت بين الامين والمأمون بسبب ولاية العهد (٤٤) . ثم ظهر قواد من الترك منذ عهد المعتصم ومن أمثال هؤلاء الافشين وكان له دور كبير في قتال البيزنطيين في موقعة عمورية ، وكذلك فانه تمكن من القضاء على حركة بابك الخرمي الانفصالية .

وقد ظهر ضعف الجيش في الدفاع عن حدود الخلافة العباسية في هذه الفترة أمام البيزنطيين . حتى قرر بعض الخلفاء التخلص منهم ، فاستعانوا ببعض فرق المرتزقة من العناصر الاخرى . فاصطنع المعتز المغاربة والفراغنة دون الاتراك . وكان ذلك من اسباب قتله على أيدي الاتراك .

(٤٢) - بيطار : الحياة السياسية واهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ، ص ٢٦

(٤٣) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٤٤) - زكار : المرجع السابق ، ص ٢٥١ .

ويهمنا هنا أن نذكر بعض التطورات التي بدأت تظهراً على الجيش في عصر سيطرة قادة الاتراك . ذلك هو تعويض الجند عن رواتبهم بواردات أرض خراجية، وهو ما يمكن أن يطلق عليه الاقطاع . ويمكن فهم جذوره بالعودة لبدايات العجز المالي واضطرار الخلافة لتعويض ذلك بمنح الجند قطائع من أملاكها ، في وقت كانت فيه الدولة تتجزأ ، وتقل واردات الاطراف الى العاصمة ، مع حاجتها الى تهدئة الاضطرابات الناشئة عن التجزئة . وقد كان على الجند في البداية ان يقدموا من واردات الاراضي المقطعة لهم الزكاة أو العشر ، ويبقى واردهم الصافي الفارق بين ضريتي العشر والخراج .

كان تعداد الجيش العباسي كبيراً جداً بلغ مئات الالوف من الجند النظاميين، وبجانبهم طائفة أخرى من الجنود والمتطوعة من البدو وطبقة الزراعة وسكان المدن . وكان هؤلاء يشتركون في الحرب مدفوعين بعوامل مادية أو دينية . كما استعان بعض الخلفاء بفرق من المغاربة ومن الخزر . وبذلك فإن الجيش العباسي بعد الدور الاول كان يتألف من فرق عديدة تضم المرتزقة والنظامية . وتتألف هذه الفرق من المشاة الذين يتسلحون بالرمح والسيوف والحراب والتروس . والرماة ويتسلحون بالسيوف والاقواس والتروس والنشاب، ويلبسون الدروع لتقي رؤوسهم، والدروع لتقي صدورهم ، ولها اجزاء للساعدين والساقين . كما كان يتألف من النشابين وهم الذين يرمون بالنشاب ، والمنجنيقيون ، والنفاطون وهم الذين يقذفون النفاط ويرتدون الملابس التي لا تؤثر فيها النيران لاقتحام الحصون . ويرافق الجيش فرق من الفعلة والاطباء والبيطرة (٤٥) .

كان الجيش ينظم بشكل دقيق ، ويتألف من أقسام صغيرة ، تجتمع عدة أقسام لتشكيل فرقة أكبر منها . فقد كان على كل عشرة آلاف جندي أمير ، وعلى كل ألف قائد ، وعلى كل مائة نقيب ، وعلى كل عشرة عريف (٤٦) ويختلف لباس الجند

(٤٥) - المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٨٣

(٤٦) - المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨

باختلاف الفرقة والاسلحة . وكانت صلاحية الجند للخدمة العسكرية ، تقرر بعد اختيار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد (٤٧) . كما كان الجيش ينظم وقت القتال ، ويقسم الى أقسام مختلفة ، وغالبا ما تكون خمسة أقسام : القلب وهو مركز القائد العام ، والميمنة والميسرة ، والطليعة والساقة . وكانت الطليعة تتقدم الجيش ، وهي سرية من الفرسان يلبسون الدروع اللامعة والخوذ الفولاذية ويحملون الرماح (٤٨) .

وقد عني العباسيون بالجاسوسية في الجيش ، واستخدموا في ذلك كلا الجنسين الرجال والنساء ، الذين كانوا يدخلون الى البلاد المجاورة متنكرين في أزياء التجار والأطباء ، وغيرهم لجمع الاخبار ونقلها الى دولتهم .

وكان للجيش مجلسان هما مجلس التقرير ، وينظر في تقدير رواتب الجند وأوقات دفعها اليهم ، ومجلس المقابلة ويختص بالاشراف على سجلات الجند ، ومراجعة أسمائهم . وينقسم كل من هذين المجلسين الى أقسام معينة من الجند كجند الخاصة ، وجند الخدمة العسكرية وجند الولايات (٤٩) .

أما آلات الحرب التي استعملها العباسيون فهي كثيرة منها ما عرف قبل عهدهم كالمنجنيق والدرقة والسيوف والرماح . كما يبدو ان العباسيين ، استخدموا في قتالهم منذ الفترة الاولى بعض الاسلحة التي كان يستعملها أهالي المناطق الشرقية من دولتهم ومنها المشاقة وهي من الكتان أو القطن أو الشعر الخالص ، تجعل على رؤوس الاسنة ، وتروى بالنفط ثم تشعل فيها النيران وتلقى على الأعداء (٥٠) . وكثيرا ما اتخذ الجنود الخوذ على رؤوسهم والجواشن على ظهورهم والدروع والتجافيف (٥١) .

(٤٧) - من اجل طريقة الاختيار ، انظر هلال الصابىء : تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، ص ١٣-١٤

(٤٨) - سيد امير علمي : مختصر تاريخ العرب ، ص ٣٧٧

(٤٩) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٣٠

(٥٠) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٤٦٣

(٥١) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٦٤

- حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧٧

د - النظام المالي

بشمل النظام المالي كل ما يتعلق بالواردات (استخراج) والنفقات (مصاريف الدولة) • كانت سياسة العباسيين المالية ترمي الى تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصارفها • كما كانت الجباية بالدرهم في أقاليم المشرق • وبالدينار في أقاليم المغرب • ومن أهم موارد بيت المال : الخراج والجزية والزكاة والفيء والغنيمة والعشور •

عمل خلفاء العباسيين على اشاعة الامان ، ورفع الظلم عن الرعية في جباية الخراج مهما كانت الطريقة التي يجبى فيها ^(٥٢) • لاجل ذلك فقد رأى هارون الرشيد ان يعلم كل ماجرى قبله في شأن الخراج ، فأمر قاضي قضاة أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري صاحب الامام أبي حنيفة النعمان ، بجمع ما يعرفه من أمور الخراج في كتاب جامع ، سماه كتاب الخراج • وكذلك فان المأمون لم يكن أقل اهتماما من أبيه بهذا الامر ، ولذلك فانه طلب من رجاله اعادة مسح الاراضي ، وحدد عليها الخراج مجددا ^(٥٣) • وصفوة القول أن خلفاء العباسيين الاوائل ، عملوا على عدم ارهاق المزارعين ، وعني البعض بوضع قواعد ثابتة لمقدار الخراج حسب نوع المحصول وجودة الارض • وراعوا خفض الضرائب في بعض الاحيان اذا قل المحصول لسبب من الاسباب • وعلى نرغم من مراعاة أحوال الاراضي الخراجية فان دخل الدولة العباسية كان كبيرا ، فقد بلغ في عصر هارون الرشيد ٢٧٢ مليون درهم و ٤ ملايين ونصف من الدنانير بالسنة في بعض الروايات ، ويتجاوز ذلك فيبلغ نحو خمسمائة مليون درهم من الفضة وعشرة ملايين دينار من الذهب في روايات أخرى ^(٥٤) •

وقد بلغ النظام المالي في العصر العباسي الثاني مبلغا عظيما من الدقة والنظام، فكان لكل ولاية ديوان للخراج يتبع ديوان الخراج الرئيسي في بغداد أو سامراء ،

(٥٢) - كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج : هي المحاسبة والمقاطعة والمقاسمة •

(٥٣) - أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٣

(٥٤) - حسن ابراهيم حسن : التاريخ السياسي ، جزء ٢ ، ص ٢٧٨ وانظر قوائم الخراج في هذا المرجع من ص ٢٨٠ حتى ٢٩١ وكذلك في بيطار : المرجع السابق • ص ٤٣٩ - ٤٤٦

وينقسم كل منهما قسمين ، يشرف أحدهما على النفقات ، ويحمل ماتبقى الى دار الخلافة ، ويشرف الثاني على الموارد (٥٥) . وقد راعى خلفاء هذه الفترة مصلحة الناس ، وعمل الخليفة المعتضد على تأجيل السنة المالية مرتين متتاليتين ، لتصبح هذه السنة متناسبة مع فترة جني المحاصيل . فكان التأجيل في المرة الاولى من ١٥ آذار الى ١٧ حزيران ، وفي المرة الثانية من ١٧ حزيران الى ٢١ تموز (٥٦) . ومهما كان الاصلاح في الجباية في القرن الثالث الهجري ، فان مابدا ظاهرا للجميع ، أن الاموال التي كانت تدخل الى بيت المال الرئيسي قد اصبحت أقل من الفترات السابقة ، مما يدل على سوء حالة الدولة ، واستئثار بعض عمال الاقاليم بالنفوذ (٥٧) .

ويبدو ان قضية اقطاع الارض الى بعض الشخصيات المتنفذة ، التي استخدمت في العصر العباسي ، لم تكن وليدة هذا العصر ، بل تعود الى أيام الفتح الاسلامي . فقد أقطع كثيرون اقطاعات من أراضي الدولة منذئذ . وكان الخراج الذي يؤدي عن الارض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الاقطاع وبين الحكومة ، ويبلغ العشر على ماقرره الفقهاء .

وقد عاد هذا النظام بالضرر على الخلافة كلما أوغلت في استخدامه ، اذ أن المقطع أو الملتزم كان يعمل على الاثراء وجمع المال . ولا يتردد في ارهاق الاهلين واثقالهم بالضرائب المختلفة حتى يستطيع أن يؤدي الى الحكومة ما عليه من مال الخراج ، ويحتفظ لنفسه بما زاد . وقد تطور هذا الاقطاع في عصر سيطرة الاتراك الى اقطاع ولاية بكاملها (٥٨) .

وكانت الجزية التي تؤخذ من اهل الذمة الى جانب الخراج من أهم مصادر بيت المال . وقد فرضت أول الامر على النصارى واليهود مقابل حمايتهم والدفاع

(٥٥) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٩٠

(٥٦) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧٨

(٥٧) - قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ، ص ٢٤٩ - ٢٥١

(٥٨) - انظر ماسبق الحركات الاجتماعية والدينية

• عنهم • لذلك فانها لم تفرض الا على القادرين على حمل السلاح • وكانت تؤدي على قدر طاقة الشخص • ولذلك قسم أهل الذمة الى طبقات ثلاث : دنيا ويدفع الشخص ١٢ درهما في السنة ، ووسطى ويدفع ٢٤ درهما ، وعليا ويدفع ٤٨ درهما • وفي البلاد التي استعملت فيها العملة الذهبية كانت الجزية ديناراً أو دينارين أو أربعة على التوالي • وكانت تؤخذ على أقساط ، ثم أصبحت سنوية ، وقد بلغ المتحصل من ضريبة الجزية في أواخر القرن الثالث الهجري بمدينة بغداد ٢٠٠ ألف درهم في السنة ^(٥٩) • ويبدو عملياً ان غالبية دافعي الجزية كانوا يدفعون الحد الأدنى ، حتى ان بنيامين قال ، ان اليهود في كل بلاد الاسلام يدفعون ديناراً واحداً ^(٦٠) •

ومما لا شك فيه أن هناك موارد أخرى كانت تجمع من أرباب الحرف والصناعات ، ومن التجار الوافدين على الدولة الاسلامية ^(٦١) ، ومن التركات ، وخاصة من تركة من يموت دون أن يترك وارثاً ، حيث يؤول ميراثه الى بيت المال ^(٦٢) •

ومن أهم نفقات بيت المال في هذه الفترة ، النفقات المخصصة للحج ، ونفقات الغزوات لمحاربة الاعداء كالبيزنطيين ، ولفداء أسرى المسلمين ، ولقتال الخارجين على الدولة كالقرامطة والزنج وغيرهم • ونفقات استقبال الملوك والامراء وتوديعهم وتزويدهم بالهدايا والتحف أحياناً ، ونفقات دار الخلافة ، وحفر الترع وكري الانهار ، واکرام العلماء والاطباء والمترجمين وغيرهم ^(٦٣) •

(٥٩) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٧٨ - هلال الصابىء : تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، ص ٤٤٨ •

(٦٠) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٧٨ تصدير بنيامين •

(٦١) - قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ، ص ٢٤٩ - ٢٥١ •

(٦٢) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٧٨ - الصابىء : المصدر السابق ، ص ٤٤٨

(٦٣) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٢

٥ - النظام القضائي :

يعني هذا النظام ، الفصل في الخصومات ، وايصال كل ذي حق حقه ، حتى يسود الأمن ، وتعم هبة الدولة . ويشمل النظام القضائي ، الحديث عن القضاء ، والنظر في المظالم والحسبه . ان القضاء ينبع دستوراه في الاسلام من القرآن والسنة ، واجتهاد القاضي بما لا يتنافى معهما في نطاق علمه وعدله ووجدانه . هذا ويجب ان نذكر ان القضاء لا يجوز أن يقلد الا لمن اجتمع فيه ثمانية شروط هي : الذكورية والبلوغ والعقل والحرية والاسلام والعدالة وسلامة السمع والبصر ، والعلم باحكام الشريعة (٦٤) .

وقد أورد بعض الفقهاء تحفظات على هذه الشروط . من ذلك ان الامام ابي حنيفة قال بجواز أن تقضي المرأة فيما تصح فيه شهادتها . وذهب الطبري الى جواز قضائها في جميع الاحكام (٦٥) . كما جوز الامام مالك ولاية الضير للقضاء (٦٦) .

كان القاضي وهو مثل السلطة القضائية يعين من قبل الخليفة مباشرة دون الوزير والوالي ، كي يستطيع اصدار احكامه بنزاهة ، ولئلا يعزل بعزل الوالي أو يتأثر بأرائه محافظة على منصبه . وقد ظل تعيين القضاة من حق الخليفة حتى عصور متأخرة (٦٧) . وكان مركزه في العصر العباسي أرفع من الوالي ، ولم يكن يمثل أمام الوالي ، بل ان الوالي هو الذي يمثل بين يديه (٦٨) . وظل القاضي في كثير من الاحيان يشغل منصبه في عهد ولاية عديدين . ولم يكن أسرع منه في تقديم استقالته اذا تدخل في احكامه الشرعية متدخل .

اتسعت سلطة القاضي في العصر العباسي الاول فبعد أن كان عمله مقتصرًا على

(٦٤) - الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ٦٥

(٦٥) - مصطفى الشكعة : معالم الحضارة الاسلامية ، دار العلم للملايين ، ص ٧٥

(٦٦) - الشكعة : المرجع السابق ، ص ٧٦

(٦٧) - آدم ميتز : المرجع السابق جزء ١ ، ص ٣٧٩

(٦٨) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠

الفصل بين الخصوم ، أصبح يفصل في الدعاوى والاوقاف ، وتنصيب الاولياء ، ثم وضع يده على الاحباس . كما وضع يده على أموال اليتامى حتى كان عهد الحاكم بأمر الله الذي افرد موزعا يوضع فيه مال اليتام ، ويختتم عليه أربعة من الشهود لايفتح الا بوجودهم (٦٩) . اما النظر في الموارث فلم يدخل في اختصاص القاضي بصورة نهائية الا في القرن الرابع الهجري .

كان القضاء في العصر العباسي نزيها الى اقصى درجات النزاهة ، وكثيرا ما قوضي الخلفاء العباسيون الاوائل انفسهم مع افراد رعيتهم ، وحكم عليهم غالبا لصالح الآخرين ، ومع ذلك فلنا رأي آخر حين تكون القضية المطروحة فيها مساس بمصلحة الدولة العليا (٧٠) . ففي هذه الحالة يجبر الخلفاء القضاة على الافتاء لصالحهم . وقد أدى ذلك الى امتناع كثير من الفقهاء عن تولي القضاء ، خشية ان يحملهم الخليفة على الافتاء بما يحالف الشريعة الاسلامية ، وخير مثال على ذلك الامام أبو حنيفة النعمان الذي اعتذر عن تولي منصب القضاء في عهد أبي جعفر المنصور (٧١) ، وقد تحمل في سبيل هذا الرفض اذى كثيرا . كما اعتذر أبو حاتم الرازي سنة ٢٧٠ هـ كذلك عن تولي منصب قاضي القضاة لاسباب نفسها (٧٢) .

كانت جلسات القاضي للحكم علنية (٧٣) ، فقد كان في أول الامر يجلس في مكان لا يمنع احد من المسلمين من الدخول اليه وهو المسجد الجامع . وفي كثير من الاحيان كان القاضي يجلس للقضاء في داره . وكان المتحاكمون الى القاضي يبسطون قضيتهم وهم وقوف بين يدي القاضي صفا واحدا .

(٦٩) - الشكعة : المرجع السابق ، ص ٧٧

(٧٠) - التقريري : المصدر السابق ، ورقة ١٢٢ ظهر و ١٣٣ وجه حيث يذكر قول المأمون للقاضي الذي أراد من المرأة ان تخفض صوتها اثناء محاكمتها مع ابن الخليفة : (دعها يا أحمد فان الحق انطقها ، والباطل أخرسه)

(٧١) - الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جزء ١٣ ، ص ٣٢٨ وما بعدها .

(٧٢) - الشكعة : المرجع السابق ، ص ٧٧

(٧٣) - ادم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٩٥

رفع العباسيون رزق القضاة ، حتى لا تدفع بهم الحاجة
 وضرورات الحياة ومطالبها الملحة الى الانحراف ، وقبول الرشوة ،
 فتضيع العدالة . فبعد ان كان مرب القاضي في عهد المنصور
 ثلاثين ديناراً في الشهر ، أصبح في عصر المأمون مائة وثمانية وستين ديناراً أو أكثر .
 فقد تقاضى عيسى بن المنكدر قاضي مصر سنة ٢١٢ هـ سبعة دنانير يومياً ،
 وتقاضى بكار بن قتيبة ألف دينار في الشهر على عهد أحمد بن طولون (٧٤) .
 الا ان بعض القضاة امتنعوا عن تقاضي المرتب ، وأخذ بعضهم مرتباً عن ايام العمل
 فقط . اما الايام التي كان يقضيها خارج ذلك فكان يأخذ من اخذ مرتب عنها ،
 فقد امتنع قاضي المدينة في عهد المهدي عن اخذ رزقه ، لانه لم يشأ ان يصيب مالا
 من هذا المنصب الذي يكرهه . وبلغ من نزاهة القاضي أبي خزيمة ابراهيم بن
 يزيد الرعيني (١٤٤ - ١٥٤ هـ) انه كان لا يأخذ عطاءه عن اليوم الذي يقضيه
 بعيداً عن مجلس الحكم ، مهما كان نوع العمل الذي يقوم به في ذلك اليوم . وكان
 يقول : اما انا عامل للمسلمين ، فاذا اشتغلت بشيء غير عملهم فلا يحل لي أخذ
 مالهم . وكان يعمل الارسان رسنين كل يوم يبيعها فينفق ثمن أحدها على نفسه
 وأهله ، أما ثمن الآخر فيبعث به الى اخوان له في الاسكندرية وذلك في
 سبيل الله (٧٥) .

حدث تطور في النظام القضائي في العصر العباسي الاول عما كان عليه في
 العهود السابقة ، وذلك بسبب ظهور روح الاجتهاد في الاحكام ، لظهور المذاهب
 الاربعة . فاصبح القاضي يصدر احكامه وفق احد المذاهب . ومالبث العصر
 العباسي الاول أن شهد قضاة يمثلون المذاهب الاربعة في كل ولاية ، ينظر كل
 منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه (٧٦) .

اتخذ العباسيون نظام قاضي القضاة ، وهو بمثابة وزير العدل اليوم ، وكان

(٧٤) - الشكفة : المرجع السابق ، ص ٧٩

(٧٥) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٨٨ - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ،
 جزء ٢ ، ص ٢٩٤

(٧٦) - حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص ٢٨١

يقيم في حاضرة الدولة ، ويولي من قبله قضاة ينوبون عنه في الاقاليم الاسلامية .
وأول من لقب بهذا اللقب القاضي أبو يوسف صاحب كتاب الخراج في عهد هارون
الرشيد . وكان لقاضي القضاة ببغداد ديوان يعرف بديوان قاضي القضاة . ومن
أشهر موظفي هذا الديوان : الكاتب والحاجب وعارض الاحكام ، وخازن ديوان
الحكم واعوانه (٧٧) . وقد اقتضى تطور نظام القضاء التحري عن الشهود . وكان
القاضي يرتدي السواد شعار العباسيين ، ويغطي رأسه بعمامة سوداء على
قلنسوة طويلة (٧٨) .

ـ النظر في المظالم :

كان صاحب المظالم ينظر في كل حكم يعجز عنه القاضي . وكما جاء في
الماوردي (٧٩) « ونظر المظالم هو قود المتظالمين الى التناصف بالرهبة ، وزجر
المتنازعين عن التجاحد بالهيبة ، فكان من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر،
نافذ الامر عظيم الهيبة ، ظاهر العفة ، قليل الطمع كثير الورع » . ويمكن القول أن
اختصاص قاضي المظالم هو النظر في القضايا التي يقيمها الافراد والجماعات على
الولاة اذا انحرفوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى عمال الخراج اذا اشتطوا
في جباية الضرائب ، وكتاب الدواوين اذا حادوا عن اثبات أموال المسلمين بنقص
أو زيادة . وكذلك النظر في تظلم المرتزقة اذا نقصت أرزاقهم وتأخر ميعاد دفعها
لهم . وكذلك مراعاة اقامة العبادات كالحج والاعیاد والجمع والجهاد (٨٠) . ومن
فوائد النظر في المظالم ، كف أيدي أولي الامر عن الظلم . فهم حين يرون أن
صاحب الحق يستطيع الوصول الى حقه ، باللجوء الى السلطات العليا ، يحذرون
سوء عاقبة فعلهم ، وتحسن سمعة الدولة بذلك (٨١) .

كانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا في عصرنا ، والغرض

(٧٧) ـ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٩٢

(٧٨) ـ ادم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٩٩

(٧٩) ـ الاحكام السلطانية ، ص ٧٧

(٨٠) ـ مشرفة : القضاء في الاسلام ، من ص ١٧٦ - ١٧٨

(٨١) ـ القلقشندي : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦

الاساسي من انشائها وقف تعدي ذوي الجاه والحسب . ولهذا كانت المظالم تسند الى رجل كفء يعرف باسم قاضي المظالم ، وكثيرا ما كان الخليفة يجلس بنفسه للنظر في المظالم في أيام محدودة . وذلك لان أكثر المتظلمين يصلون من أطراف المملكة ونواحيها ، وفيهم الحرم والمنقطعات والايام ، وكل من يفد منهم يعتقد انه يصير الى من ينصره ويكشف ظلامته ويعديه على خصمه . فيجب ان يتلقى كل منهم بالترحاب واللطف ، ويندب لهم من يحفظ رقاغهم ويتنجز التوقيع فيها من غير التماس رشوة ولا فائدة منهم (٨٢) .

كان خلفاء العباسيين الاوائل ينظرون في المظالم بأنفسهم غالبا . فقد كان الخليفة المهدي يجلس للمظالم ، ولئلا تقدم القصص اليه بعضها عن البعض ، ومنعا للرشوة ، فانه اتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص ، يدخله وحده . وقدم عليه رجل فتظلم فأنصفه فاستخفه الفرح حتى غشي عليه ، فلما أفاق قال : ما حسبت أنني أعيش حتى أرى هذا العدل ، فلما رأيته داخلني من السرور مازال معه عقلي . فقال المهدي كان الواجب ان ننصفك في بلدك . فأمر له بخمسين ديناراً كتعويض لنفقات السفر . وكذلك فقد جلس لها الهادي ثم الرشيد ثم المأمون ، وآخر من جلس لها المهدي (٨٣) .

تنعقد محكمة المظالم في المسجد في يوم محدد من الاسبوع اذا كان صاحبها من الموظفين ، وطوال أيام الاسبوع اذا انفرد بالمظالم . ثم بنى الخليفة العباس (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) قبة لها أربعة أبواب سماها قبة المظالم كان يجلس فيها ويلقى فيها العامة والخاصة ، وكان صاحب المظالم يحيط نفسه بخمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته الا بحضورهم وهم الحماة والاعوان ، والحكام الذين يحيطون بالاحكام ويردون الحقوق الى أصحابها ، والفقهاء الذين يرجع اليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل . والكتاب ويقومون بتدوين أقوال الخصوم .

(٨٢) - القلقشندي : صبح الاعشى ، جزء ٦ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥

(٨٣) - الماوردي : المصدر السابق ، ص ٧٦

والشهود ويثبتون ما يعرفونه عن الخصوم ، ويشهدون على أن ما أصدره القاضي لا ينافي الحق والعدل (٨٥) .

ـ الحسبة :

يعرف القائم على الحسبة بالمحتسب ، ويشترط فيه ان يكون عدلا فقيها عالما بالاحكام الشرعية ، ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين ، وعلم بالمنكرات الظاهرة .
والحسبة هي أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله ، واصلاح بين الناس بالطرق المشروعة كافة ، فوظيفة المحتسب على هذا الشكل هي المحافظة على الآداب والفضيلة والامانة ، والنظر في مراعاة احكام الشرع والاشراف ، على نظام الاسواق ، والحوار دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور ، واستيفاء الديون ، والكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للغش ومعاقبة من يعبت بالشرعية أو يرفع الاثمان ، والمنع من التعدي على حدود الجيران (٨٦) ، ويدخل في وظيفة المحتسب الامر باداء الصلاة في مواقيتها ، ومعاقبة من لا يصلي بالضرب أو الحبس ، وتعاهد الائمة والمؤذنين . فمن فرط منهم في حقوق الامامة أو خرج عن الاذان المشروع ألزمه بالصواب (٨٧) . وقد كان قاضي القضاة يخضع لرقابة المحتسب ويأتمر بأمره في بعض الشؤون . فقد من ابراهيم بن بطحاء والي الحسبة ببغداد بدار أبي عمر بن حماد ، وهو يومئذ قاضي القضاة ، فرأى الخصوم جلوسا على بابهم ينتظرون جلوسه للنظر بينهم ، وقد تعالى النهار واشتدت حرارة الشمس ، فوقف واستدعى حاجبه وقال له : تقول لقاضي القضاة ، الخصوم جلوس على الباب ، وقد بلغت الشمس وتأذوا بالانتظار فاما جلست لهم أو عرفتهم عذرك فينصرفوا ويعودوا (٨٨) .

-
- (٨٤) ـ المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ، ص ٤٣١
(٨٥) ـ الكندي : انولة والقضاة ، ص ٤٢٣ - ٤٢٤ - الماوردي : المصدر السابق ، ص ٧٧ وما بعدها
النويري : نهاية الارب ، جزء ٦ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .
(٨٦) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٩٦ - النويري : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٩١
(٨٧) ـ الشمكة : المرجع السابق ، ص ٨٤
(٨٨) ـ الشمكة : المرجع السابق ، ص ٨٧

وقد أصبح للحسبة دار خاصة بها • فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في اوقات معينة ، ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم ، فيعابرها • فان وجد فيها خللا صادرها والزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره باصلاحها (٨٩) •

وأول من وضع نظام الحسبة دون استعمال اللفظ الخاص ، الخليفة عمر بن الخطاب ، أما اللفظ فقد استعمل لأول مرة في عهد الخليفة المهدي العباسي (٩٠) •

هذا وقبل ان اختتم الحديث عن النظام القضائي ، لابد لي من ذكر الفروق بين منصب القاضي والمحتسب وقاضي المظالم • مما لم يأت ذكره في مذكر ، ويأتي على رأس الفروق بين القاضي والمحتسب مايلي : —

١ — كان القاضي ينظر في فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام • ووظيفة المحتسب انظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحيانا ، مما يستدعي الفصل فيها الى السرعة • ووظيفة قاضي المظالم ، الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب •

٢ — بني عمل القاضي على التحقيق والاثابة في الحكم ، أما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في الفصل •

أما الفروق بين عمل صاحب ديوان المظالم والقاضي ، فيمكن أن نجملها بما يلي : —

١ — ان لناظر المظالم من جلال الهيئة وقوة التنفيذ ، ما ليس للقضاة من كف الخصوم عن التجاحد والتغالب والتجاذب •

٢ — ان نظر المظالم لا يتقيد بصيغ الوجوب ، وإنما يخرج الى سعة الجواز

(٨٩) — الفزالي : احياء علوم الدين ، جزء ٢ ، ص ٤٢

(٩٠) — النويري : نهاية الارب ، جزء ٦ ، ص ٢٩٣ — انشكة : المرجع السابق ، ص ٨٤

فتكون حركته اسرع ، ويكون بعيدا عن القيود التي يلتزم بها القاضي ويكون مجال عمله أوسع وأفسح .

٣ - يعمد صاحب المظالم الى الارهاب اذا ما اقتنع بأن أمامه عقدة مستحكمة للحل ، لمرأوغة الباغي ومخادعته ، فيصل من خلال ذلك الى اظهار الحق .

٤ - يقوم صاحب المظالم بتأديب من ظهر ظلمه ، وتهذيب من ثبت عدوانه ، وذلك أمر لا يدخل في سلطان القاضي .

٥ - لصاحب المظالم الحق في رد الخصوم الى وسطاء أمناء لفض الخصومات ، والفصل في تنازع ما ، عن طريق الصلح بالتراضي مهما غلا طرف واعتدل الآخر .

٦ - ان يسمع من شهادات المستورين من يشاء حتى يستبين الحق من الباطل .

٧ - يجوز لصاحب المظالم أن يستكثر من الشهود ماشاء له أن يفعل ليزول كل شك عنده ، ويتبدد كل ارتياب في شأن القضايا التي ينظرها .

٨ - يجوز له ان يتدبىء باستدعاء الشهود ، وان يسألهم عما لديهم من معلوم عن تنازع الخصوم . بينما يبدأ القضاء بتكليف المدعي بيينة ، وان يكون صاحب القول الاول في ادعائه (٩١) .

٢ - الحياة الاجتماعية :

يقصد بالحياة الاجتماعية ، الحديث عن عناصر السكان الذين يكونون المجتمع في تفاعلهم مع بعضهم البعض ، ومستواهم المعاشي ، والاديان التي يعتنقونها ، والمناسبات التي يحتفلون بها . والبحث في بلاط الخلفاء وحياة ساكنيه . وسبل تفاعلهم مع طبقات الشعب .

(٩١) انظر : المرجع السابق ، ص ٩٧ - ٩٩

— عناصر السكان

أ — العناصر الجنسية والرق •

تألف المجتمع الاسلامي في الدور الاول للخلافة العباسية من عنصرين كبيرين هما عنصر العرب والفرس اضافة الى عنصر الترك^(٩٢)، وكان لكل من هذه العناصر الثلاثة اثره الكبير في الحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العصر • فقد كانت هذه الامم تختلف في ميقاتها اختلافا بينا واضحا • فهي تختلف في عاداتها ومنهج تفكيرها ، ومقدار ثقافتها وادابها •

وقد أثر كل جنس من هذه الاجناس تأثيرا مخالفا في احوال الدولة الداخلية، فالترك كانوا يحبون الجندية والفروسية ويستكثرون من الجنود المجلوبة من بلادهم لتقوية حكمهم ، كما عرفوا بأنهم ينظرون في شيء من الاحتقار الى اهل البلاد التي يحكمونها ، وينتصرون لمذهب أهل السنة ولا يميلون الى الفلسفة والجدل في الدين ، ويقربون علماء الدين وخاصة علماء التفسير والحديث ، وقد طبع هؤلاء الخلافة بطابعهم الخاص • بالاضافة الى ان حبهم للمال قد أدى الى قيامهم بمصادرة الاغنياء ، وأصحاب الثروات من رجال الدولة^(٩٣) ، والى القيام بثورات ضد الخلفاء مطالبين بزيادة أرزاقهم ورواتبهم ، مما أدى الى اثاره الاضطراب في الدولة^(٩٤) •

اما الفرس فقد ورثوا مدنية قديمة ، فطبعوا عليها بمحاسنها ومساوئها • ولهم قدرة فائقة على تنظيم الحكم ، والمام كبير بالوسائل التي تزيد الثروة وتضاعفها • كما اهتموا بتشجيع العلم بمعناه الواسع الذي يشمل الفلسفة بفروعها المختلفة • ولم ينس الفرس عدم مساواتهم بالعرب في العهد الاموي ، لذلك فانهم مالوا الى اظهار

(٩٢) — انظر مليحه رحمة الله : الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، ص ٩ — ٢٩

(٩٣) — الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨ — مسكويه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٧ — ١٧

(٩٤) — الصولي : اخبار الرازي بالله ، والمتقي لله ، ص ١٢٠ — ١٢٣ — ٢٧٧

ماخفي في أعماق نفوسهم حين حصلوا على المساواة في العهد العباسي . واخذوا يعملون على تحقيق اهدافهم . وقد علمهم التشيع التقية ، فعملوا في الخفاء ، ودبروا المؤامرات للقضاء على خصومهم بالثورات أحيانا وبال دعوة المقنعة بالعلم أحيانا أخرى (٩٥) . وكان تأثير الفرس في الحياة الاجتماعية واضحا ، فقد اخذ الخلفاء عنهم حياة البذخ والترف ، ونظام بناء القصور وزخرفتها وتأثيرها . واقتبسوا منهم اللباس وادوات الطعام ، وكذلك احياء المجالس الغنائية ومجالس الشراب (٩٦) .

وقد احتفظ العرب ببعض عاداتهم القبلية وتعصبوا لبني جنسهم وتأثروا بالحضارة ، الا انهم سرعان ما انغمسوا في البذخ والترف ، وتركوا شؤونهم في أيدي الشعوب الاسلامية الاخرى (٩٧) .

وبالاضافة الى هذه الاجناس الاصلية الثلاثة ، فقد كثر عدد الروم في أراضي الخلافة . وهؤلاء كانوا يجيئون كأسرى حرب من أراضي الدولة البيزنطية ، وغالبا ما كانوا يعيشون في بيوت الخلفاء والاغنياء . ونتيجة لذلك أصبح لهم شأن في الدولة وخاصة في عهد المقتدر (٩٨) .

وكثيرا ما كان يتعاقب على أقطار الدولة الاسلامية هذه الاجناس الثلاثة أو جنسان منها . فتعاقب على العراق العرب والفرس والأتراك ، وعلى مصر العرب والترك ثم المغاربة وكان لهذه العناصر أثر واضح في سياسة الدولة الاسلامية ، كما أثرت في حالتها المادية ، ونهضتها الادبية والعلمية (٩٩) .

عناصر الرقيق :

ومن العناصر التي تكاثرت عددها في العصر العباسي الرقيق الايض من الأتراك

(٩٥) - احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ٥ - مليحه رحمه الله : المرجع السابق ، ص ١٤-١٥

(٩٦) - مليحه رحمه الله : المرجع السابق ، ص ١٥ - ١٦

(٩٧) - سرور : الحضارة الاسلامية في الشرق ، ص ١٦٩ .

(٩٨) - مليحه رحمه الله : المرجع السابق ، ص ٢٠ - ٢١

(٩٩) - سرور : المرجع السابق ، ص ١٧٠

والصقالبة والديلم والاكراذ • والرقيق الاسود الذي كان يجلب من ساحل افريقيا الشرقي كالزنج (١٠٠) • وكانت قصور الخلفاء والامراء والعظماء والاغنياء تأوي الكثير من الرقيق وعلى الاخص الجواري الذبن كانوا من أجناس متنوعة ، تختلف في الطباع والعادات واللغات • وكان الرقيق الصقلبي يفضل على التركي ، ويستخدم التركي عند غيبة الصقلبي ، لما اتصفوا به من خلق وطاعة وهيئة (١٠١) •

فقد كان عند الرشيد زهاء ألفي جارية من المغنيات والخدمة في الشراب ، في أحسن زير • وكان للمتوكل أربعة آلاف سرية (١٠٢) • ولم ينظر الخلفاء العباسيون الى الأرقاء نظرة امتهان وازدراء بدليل ان كثيرا منهم كانوا أبناء أمهات وقعن في أيدي آبائهم عن طريق الاسترقاق • بل ان بعض الخلفاء وكبار رجال الدولة كانوا يتخذون الاماء من غير العرب ، يفضلونهم أحيانا على العربيات الحرائر (١٠٣) وذلك لان الجمال في كثير من نساء هذه الامم المفتوحة أوفر ، كما أن الزوج يراها قبل ان يتسرى بها • على حين انه يعتمد على رأى الخاطبة في زواجه من الحرة ، وقد لا يتفق ذوقها مع ذوقه (١٠٤) •

واتشر في هذا العصر تعليم الجواري الغناء • ولما كان الناس يحرصون على التغني بالشعر العربي الفصيح ، لذلك صار الجواري يتعلمن الادب مع الغناء • وكانت عناية الرجال بتعليم الجواري اكثر من عنايتهم بتعليم الحرائر • ومما دعاهم الى ذلك الناحية التجارية ، فالجارية اذا قيمت بمائتي دينار وهي غير متعلمة ، تقيم اذا اجادت الغناء والادب بأضعاف ذلك • اما الحرائر ، فكانت العناية بتعليمهن مقصورة على طبقة الاشراف ومن في حكمهم • وكان للجواري بيوت معدة لسماع

(١٠٠) - مليحه رحمه الله : المرجع السابق ، ص ٢٢

(١٠١) - ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢٨٧

(١٠٢) - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ٩

(١٠٣) - محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٧٠

(١٠٤) - أحمد أمين : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٠

الغناء في احياء بغداد ، وكان عدد من يحترف الغناء منهم في جانبي بغداد أربعمائة وستين جارية (١٠٥) .

كان هناك اسواق للرقيق يوكل الاشراف عليها لعامل خاص . ومن أشهرها سوق سامراء في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . وهي سوق مربعة فيها طرق متشعبة وفيها الحجر والحوانيت (١٠٦) . كما اشتهرت سمرقند بأنها أكبر سوق للرقيق الابيض . فكان يأتي اليها رقيق تركستان وماوراء النهر . وقد اتخذ أهلها تربية الرقيق وتهذيبه صناعة يعيشون منها (١٠٧) . كما كان في بغداد شارع يسمى شارع دار الرقيق ، انتهب في الفتنة بين الامين والمأمون (١٠٨) . وقد انتشر نوع آخر من الرقيق عدا ما ذكرنا هو الرقيق الرومي ، الذي ازدادت أعداده نتيجة الحروب المتصلة بين المسلمين والبيزنطيين . وقد استكثر الخليفة المقتدر من الخدم والمماليك الروم . كما ان أحمد بن طولون لما ولي مصر ، اشترى العبيد من الروم ، وأفرد لهم قطيعة في مدينة القطائع تعرف بهم . وكان في بغداد حي يسمى دار الروم بالشماسية . وقد أقيم لهم بهذا الحي كنيسة على مذهب النسطورية ، ودير يسمى دار الروم . وكان لبعض الروم الذين استوطنوا الدولة الاسلامية نشاط أدبي وعلمي ، كابن الرومي الذي ينتمي الى أصل رومي ، وابو الفتح بن جني الذي نبغ في النحو والصرف . وكان أبوه جني مسلوكا روسيا لسليمان بن فهد الازدي (١٠٩) .

ومن العناصر التي تزايد عددها وكان لها أثر كبير في الحياة الاجتماعية عنصر الزنج . وكانوا يجلبون الى الدولة الاسلامية من سواحل افريقية الشرقية ، ولا أدل على كثرتهم وخطرهم من ثورتهم التي قاموا بها قرب البصرة ، وكلفت الدولة للعباسية كثيرا من الاموال والدماء طوال أربعة عشر عاما وأربعة أشهر (١١٠) .

(١٠٥) - سرور : المرجع السابق ، ص ١٧١

(١٠٦) - الاصفهاني : الاغانى ، جزء ١٠ ، ص ٩٥ - اليعقوبي : البلدان ، ص ١٣

(١٠٧) - سرور : المرجع السابق ، ص ١٧٠ - ١٧١

(١٠٨) - الاصفهاني : الاغانى ، جزء ١٠ ، ص ٩٧ - امين : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٨٣ .

(١٠٩) - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٢ ، ص ٦٦٢ - سرور : المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(١١٠) - امين : ظهور الاسلام ، جزء ١ ، ص ٧٠ انظر عن ثورة الزنج فيما سبق

وقد قام الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمال كثيرة في الدولة الإسلامية ، واشتركوا في الحياة السياسية والاجتماعية . فقد عملت فئات من جنسياتهم كافة بما فيهم الزنج في خدمة قصر الخلافة ، وكذلك بيوت أوساط الناس . كما ضم الجيش العباسي طائفة كبيرة من الفرس ثم الترك والزنج . ووصل كثير من المعتقين منهم الى مراكز سامية كقيادة الجيوش مثل مؤنس الخادم ، ومنهم من حكم الولايات مثل كافور الاخشيدي في مصر ، وسبكتكين التركي في بلاد الافغان (١١١) .

اما النساء فمنهن القيان في مجال الغناء العامة ، وامهات الاولاد اللاتي كثر وجودهن في بيوت الخلفاء والامراء وغيرهم (١١٢) . وكان بيع الرقيق الجيد يتم في سوق خاص او بواسطة تاجر كبير . اما اذا عرض في السوق العام فان قيمته المادية تهبط ، ويعتبر هذا بمثابة عقوبة للرقيق الجيد . وكان النخاس أو تاجر الرقيق ضعيف القيمة في المجتمع ، وقد يستخدم اسمه للشتيمة (١١٣) .

ب - الطوائف الدينية :

كان افراد المجتمع في الخلافة العباسية يدينون بديانات مختلفة . كانت الاكثرية من المسلمين . وتوزع هؤلاء على مذاهب : المذهب السني ، والمذهب الشيعي بأقسامه المختلفة . فقد كان خلفاء العباسيين من السنة ، واعتنق هذا المذهب عنصر الاثراك ، على حين كان الفاطميون من الشيعة ، وكذلك الفرس ، وغلب على الحمدانيين التشيع (١١٤) .

كان بنو بهاشم من العباسيين والطالبيين يعرفون بالشرفاء . وكان لهم راتب معين من الحكومة الإسلامية . وكان لهذين الفريقين معا نقيب في كل مدينة من

(١١١) - سرور : المرجع السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٦

(١١٢) - سرور : المرجع السابق ، ص ١٧٥ - ١٧٦

(١١٣) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٨٤

(١١٤) - انظر فيما سبق : التيارات الشيعية والسنية

المدن الكبرى ، مثل بغداد وواسط والكوفة والبصرة والاهواز ، ثم صار لكل منهم منذ النصف الثاني للقرن الرابع الهجري نقيب خاص (١١٥) .

كانت ولاية نقابة الاشراف تصح من احد ثلاثة وجوه ، اما من وجه الخليفة المسئولي على كل الامور ، واما ممن فوض الخليفة اليه تدبير الامر كوزير التفويض وامير الاقليم ، واما من نقيب عام الولاية . ويجب ان يكون المرشح لرئاسة النقابة من أجلهم بيتا واكثرهم فضلا ، فيسرعون الى طاعته برياسته ، وتستقيم امورهم بسياسته (١١٦) .

كان من افراد المسلمين عدد كبير من اهل الديانات الاخرى ممن يطلق عليهم اسم اهل الذمة ، وقد تمتعوا بكثير من ضروب التسامح الديني ، فأقاموا الشعائر الدينية في أمن ودعة ، وشاركوا المسلمين في وظائف الدولة ، وفي ممارسة المهن الحرة . ولم يتدخل خلفاء بني العباس بصورة عامة في شؤونهم الدينية الا في بعض الفترات . واستند اهل الذمة الى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ، وما منحوه من حقوق . كلم يندمجوا مع المسلمين ، وحرصوا على تكوين مجموعة لها كيانها المتميز ، فحاولوا بذلك دون وحدة العالم الاسلامي (١١٧) . ومن بين أهالي الذمة في القرن الرابع الهجري ، الصابئة . فقد فرضت صياتهم وحراستهم والذب عن حريمهم ، وتركوا مواريتهم (١١٨) . وكذلك فقد اعترف منذ القرن الرابع الهجري للمجوس بأنهم اهل ذمة الى جانب اليهود والنصارى ، وكان لهم رئيس يمثلهم في قصر الخلافة (١١٩) .

انتشر اليهود والنصارى بأعداد كبيرة في أراضي الخلافة العباسية ، فقد ذكر

(١١٥) - الجاحظ : رسائله ، ص ٢ نشر فائق فلوطن - مليحة رحمة الله : المرجع السابق ، ص ٣٠ ٣١

(١١٦) - الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ٩٦

(١١٧) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٥٧

(١١٨) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٦٠

(١١٩) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٦٠

بنيامين أحد الرحالة اليهود ، ان عدد اليهود في المملكة الاسلامية من غير العرب نحو ثلاثمائة ألف • وكانوا منتشرين على نهر دجلة والفرات وفي جزيرة ابن عمر والموصل وعكبرة وواسط وبغداد والحلة والكوفة والبصرة • وفي كثير من بلاد فارس في همذان وأصفهان وشيراز ، وأيضا في غزنة وسمرقند • وقد كان في بغداد وحدها نحو ألف يهودي (١٢٠) • وكان فيها في اوائل القرن الرابع الهجري ما بين اربعين وخمسين ألفا من النصارى (١٢١) • وقد كان هؤلاء في الغالب يختصون ببعض الحرف حتى تكاد تكون حكرا عليهم • فأغلب اليهود عملوا بالصيرفة والصياغة ودباغة الجلود (١٢٢) ، والتجارة (١٢٣) • كما امتن النصارى الطب والصيرفة (١٢٤) • وعاش جميع الرعايا من الديانات المختلفة في جو من التسامح لم تعرفه اوربا في العصور الوسطى •

كان لليهود رئيس خاص يلقب أحيانا بالملك ، ويدفع له أهل ملته الضرائب ، فيأخذ نصفها ويرسل النصف الآخر الى بيت المال ، بخلاف النصارى الذين كانوا يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة • ويطلق على رئيس اليهود ببغداد رأس الجالوت • وعلى رئيس المسيحيين الشرقيين اسم الجاثليق النسطوري (١٢٥) • وتجري لكل منهما مراسيم عند توليتهما (١٢٦) •

ـ الطبقات الاجتماعية :

انقسم المجتمع في العصر العباسي الى قسمين متمايزين كل التمايز • طبقة

-
- (١٢٠) ـ بنيامين التيطلي : الرحلة ، ص ١٣٥ - ١٣٩ احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ١ ، ص ٣٢٥
(١٢١) ـ سرور : المرجع السابق ، ص ١٧٨
(١٢٢) ـ احمد امين : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٣٢٥
(١٢٣) ـ المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٣
(١٢٤) ـ المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٣
(١٢٥) ـ أبو اسحاق رفائيل : أحوال نصارى بغداد ، ص ٤٨ - بنيامين : الرحلة ، ص ١٣٧
ـ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦
(١٢٦) ـ انظر عن مراسيم تولية الجالوت ، بنيامين : الرحلة ، ص ١٣٧

غنية منرفة منعمة ، وطبقة فقيرة • وقد صور لنا ابن المعتز في شعره الفوارق بين هاتين الطبقتين فقال :

أفما ترى بلدا أقمت به أعلى مساكن أهله خص
وولائه نبط زنادقة مبالى البطون وأهله خمص (١٢٧)

أ - طبقة الخاصة :

كان على رأس الطبقة الاولى الخليفة ورجالاته من وزراء وأمرء ومن يلوذ بهم من الادباء والعلماء • وقد انغمس هؤلاء في الترف والبذخ ، واهتموا بعمران قصورهم ، حتى كانت مضرب المثل في حسن رونقها وبهاؤها ، وفخامة بنائها واتساعها ، وما يكتنفها من حدائق غناء واشجار متكاثفة (١٢٨) • وأفضل الامثلة على قصور الخلفاء قصر التاج في بغداد ، والقصر المعروف بالعروس في سامراء الذي اتفق المتوكل على بنائه ثلاثين ألف درهم ، والجعفري عشرة آلاف (١٢٩) • وقصر ابن طولون في القطائع ، وقصر الوزير ابن الفرات الذي اتفق على بنائه ثلاثمائة ألف دينار (١٣٠) • وكذلك كان البرامكة يهتمون باتخاذ القصور الفخمة ، فاتخذوا منها ما يبقى لهم ذكرا فبنى جعفر قصرا له في الجانب الشرقي من دجلة ، وكان هذا القصر مغشى بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج ، وعليه صور من الجص المجسم (١٣١) •

كانت دار الخلافة وما يتصل بها كأنها لكبرها مدينة قائمة بذاتها • وكانت تشغل مع بساطتها مساحة كبيرة • وتمتد الجدران المحيطة بها فراسخ كثيرة (١٣٢) •

(١٢٧) - ديوان ابن المعتز ، جزء ٢ ، ص ١٤

(١٢٨) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٢٩

(١٢٩) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩

(١٣٠) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩

(١٣١) - سرور : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٨١

(١٣٢) - الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٨٣

وكثيرا ما كانت الانهار تجتازها • وقد انقسمت دور الكبار الى ثلاثة أقسام ، قسم الضيافة ، وقسم الحرم ، وقسم الخدم • وكانت الحدائق الغناء تحيط بهذه القصور ويغلقها سور واحد (١٣٣) •

حفلت قصور الخلفاء والامراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقيين ، وكان يحضر هذه المجالس الشعراء والادباء فينالون من العطاء الكثير (١٣٤) • وقد أخذ العباسيون نظام مجالس الطرب والغناء التي انتشرت في عهدهم عن الفرس • وكان الرشيد من بين خلفاء بني العباس الذين جعلوا للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما فعله أكاسرة الفرس • ولم يجتمع على باب خليفة من الختاء تدماء ومغنون مثلما اجتمع على باب الرشيد • وكان يجزل لهم الصلات ويرفعهم الى أعلى المراتب (١٣٥) • ونبغ في عهده كثير من المغنين الموسيقيين نخص بالذكر منهم : ابن جامع ، وابراهيم الموصلي الذي ابدع في وضع الالحان ، وكتب ابنه اسحق رسالة مطولة في الغناء صحح فيها أنغامه ، واحتفظ بالغناء القديم (١٣٦) •

وكان الامين يميل الى سماع الاغاني ، ويقضي جل أوقاته في الاستمتاع بضروب اللهو • وعلى الرغم من ان كثيرا من أخباره وضعت في عهد المأمون للاساءة اليه والخط من شأنه ، فانا لانستطيع أن ننكر ميله الى اللهو • فقد روى انه لما ولي الخلافة ، وجه الى جميع البلدان في طلب المغنين وضمهم اليه • وأجرى لهم الارزاق ، كما أمر ببناء مجالس لمنتزهاته ، ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانيه (١٣٧) • أما المأمون فقد سمعه من وراء حجاب في البداية ، ولما شغف به دعا الندماء والمغنين الى الجلوس بحضرته ، كما قرب اليه اسحق

(١٣٣) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٤

(١٣٤) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٠ •

(١٣٥) - ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٧١ - ١٧٢

(١٣٦) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١١ - ٣١٤

(١٣٧) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٨ ، ص ٥٠٨ - ٥٠٩

الموصلني ، وأعلى من شأنه . وكذلك فعل مع عمه ابراهيم بن المهدي ، وكان مبدعا في غنائه . واستمر اهتمام خلفاء العباسيين بمجالس الطرب والغناء بعد ذلك . فكانت لهم مجالس يحضرها الشعراء والادباء والمغنون والموسيقيون . ومرجع انتشار الغناء في هذا العصر كثرة الجواري ، وقليل منهن من الحرائر .

ولقد كان انطولوجيون في مصر يعنون بالغناء والموسيقى ، يدلنا على ذلك بيت الذهب الذي بناه خمارويه بن أحمد بن طولون ، واتخذ على حيطانه صورا بارزة من الخشب تمثله ومغنياته بدقة فائقة . أما في عهد الاخشيديين فقد كان الحكام ووجوه القوم يستمعون الى الغناء في مجالسهم الخاصة ومآدبهم .

كما اهتم الخلفاء العباسيون بالاعیاد ، واتخذوها مجالا لابرار مايتمتعون به من مقدرة وقوة ومن سلطة دينية . فقد اهتم العباسيون منهم بالاحتفال بعيدي الفطر والاضحى في شيء من الروعة والابهة . وتجلى الاحتفال بهما على الاخص في دمشق وبيت المقدس وطرسوس^(١٣٨) . وهناك مواسم أخرى احتفل بها العباسيون مثل النوروز^(١٣٩) .

وتتجنى سيادة الخلفاء العباسيين الروحية في مواكبهم التي تميزت بروعتها . فيتقدم مواكبهم أيام الجمع والاعیاد رجال الحرس على اختلاف طبقاتهم ، يحملون الاعلام ، ويلبسونهم امراء البيت العباسي راكبين الخيول المظهمة ، ثم الخليفة منتظبا جوادا ناصع البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة . وكان الخليفة في تلك المواكب يلبس القباء الاسود ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة مديبة مزينة بجوهره ، ويتقلد سيف الرسول الكريم . وفي يده اليمنى الخاتم^(١٤٠) .

(١٣٨) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٣٥ وجزء ٣ ، ص ٤٥٢

- آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٩٢

(١٣٩) - مسكوية : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٥ وهو أحد أيام السنة عند الفرس ، واحد مواسمهم القديمة .

(١٤٠) - سرور : المرجع السابق ، ص ١٩٢

ويظهر ترف الخلفاء العباسيين للعيان في بداية القرن الرابع الهجري في احتفال الخليفة المقتدر باستقبال سفيري امبراطور الروم سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م . فقد أمر الخليفة بعد ان مثل سفيرا الامبراطور اليزنطي بين يديه وأديا له رسالة الامبراطور ان يطاف بهذين السفيرين في دار الشجرة (١٤١) . وقصر التاج (١٤٢) .

وهكذا يمكن القول ان الخليفة ورجال دولته ومن تبعهم ولف لفهم ، كانوا يعيشون في قمة الهرم الذي يمثل المجتمع ، وكانوا قلة في العدد بالنسبة لسائر أفراد الامة ، الا انهم يملكون غالبية الثروة . وعلى الرغم من ذلك فان حاجة هؤلاء الى الاموال لاتفاقها في مجالسهم وعلى كبار رجال دولتهم تدفعهم الى القيام بالمصادرة ، مصادرة الاموال ومواد التجارة وغيرها . ومن ذلك مصادرة المواريث والتركات . وكثيرا ما كان يدعى على التجار الكبار أن عندهم ودائع للسلطان لمصادرة تجارتهم . وكان الاخشيذ صاحب مصر يصادر خاصته وعماله وأصحابه . وقد فشا نتيجة لذلك عادة خزن الاموال واخفائها كالدفن في الارض ونحو ذلك (١٤٣) .

ب - طبقة العامة :

لاعطاء صورة واضحة عن طبقة العامة ، لا بد لنا من التطرق الى الحديث عن طبقة التجار وأرباب الحرف والصناع والعلماء ، واستعراض نمط حياتها بايجاز . وسأتناول بالحديث تلك الفئة التي لم تتح لها الظروف الاتصال بالطبقة الاولى والسير في ركابها ، والاستفادة منها ماديا .

تشكلت طبقة العامة من مختلف الاجناس التي ضمنها الخلافة العباسية من عرب وديلم وترك وكرد ، ولم يكن لها مكانة كبيرة في المجتمع بسبب فقر غالبيتها من جهة ، وجهلهم بالامور الثقافية والدينية من جهة اخرى . وقد اطلق عليهم

(١٤١) - عن دار الشجرة انظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جزء ١ ، ص ١٠٠ - ١٠٢ .

(١٤٢) - سرور : المرجع السابق ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(١٤٣) - امين : ظهور الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٨ - ١٠ .

المؤرخون، تسميات متعددة ، كالسفله ، والغوغاء ، والسقاط ، والجماهير الدهماء ، والابواب (١٤٤) . وكان طعامهم ولباسهم يتميز بالبساطة ، كما كانت بيوتهم دون اسوار تحيط بها . وكانت نوافذهم تطل على الشوارع مباشرة (١٤٥) .

وقد امتنهن هؤلاء التجارة أو الصناعة ، فالتجار تعاطوا بيع المواد الاستهلاكية لسد حاجات الناس اليومية ، وتركوا تجارة السلع الثمينة والمجوهرات لأولئك الذين لهم ارتباط بالخليفة وحاشيته ورجال الدولة (١٤٦) . أما ارباب الحرف والصناع ، فكانوا يعيشون دون مستوى التجار ، لان مواردهم محدودة . فقد كان متوسط أجر العامل في القرن الثالث الهجري درهما ونصف الدرهم في اليوم لصانع الزجاج ، ثم ازداد في القرن الرابع الهجري . وكان ايراد اصحاب الحوانيت لا يتعدى ٣٠٠ درهم في الشهر (١٤٧) .

٣ - الحياة الاقتصادية :

كانت الاسعار رخيصة في العصر العباسي الاول . وبالتالي ساد الرفاه في البلاد . وخير مثال على ذلك قائمة أسعار بعض المأكولات في عهد أبي جعفر المنصور ، فقد كان الكبش بدرهم ، والحمل بأربعة دنانير (١٤٨) . والتمر زنة ستين رطلا بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم . وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ، ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم (١٤٩) . ومما لا شك فيه ان هذه الاسعار الرخيصة ، تدل بشكل قاطع على الرخاء وكثرة الخيرات . ويرجع السبب في ذلك الى اهتمام الخلفاء بشؤون البلاد الاقتصادية ،

(١٤٤) - مليحة رحمه الله : المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٥٣

(١٤٥) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٢٤

(١٤٦) - مليحة رحمه الله : المرجع السابق ، ص ٤٩

(١٤٧) - التنوخي : الفرج بعد الشدة ، جزء ٢ ، ص ١٥٥ - الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ٢٦٠

(١٤٨) - الدانق : سدس الدرهم

(١٤٩) - ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٥٩

وعملهم على تنمية موارد البلاد ، مع بذل جهود كبيرة في الزراعة والتجارة وغيرها من شؤون الاقتصاد والمال (١٥٠) .

ومن المهم أن ندرك أن الثروة التي كانت تبلغ سبعمائة دينار في الدور العباسي الاول ، كانت تعتبر ثروة محترمة . وكذلك فقد كان يكفي الرجل من عامة الناس مع زوجته في عصر هارون الرشيد ثلاثمائة درهم في السنة .

أ - الزراعة :

كانت نظم الزراعة في الدولة الاسلامية متنوعة . فكل قرية انفردت بنظام معين يتلاءم مع ظروفها الطبيعية (١٥١) . وقد اهتم خلفاء العباسيين بالزراعة ، ووجهوا عنايتهم اليها . فنشطوا في حفر الترع والمصارف واقامة الجسور والقناطر ، وكانت الاراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات من أخصب بقاع أراضي الخلافة العباسية ، وكانت الحكومة تشرف على ادارتها اشرافا مباشرا ، وتعمل على تحسين زراعتها وتنمية مواردها . وامتدت في هذه الاراضي شبكة من الترع والمصارف زادت خصبها . وكثرت فيها المزارع والبساتين ، فعرفت باسم أرض السواد . وبلغت مساحة السواد وحده ٣٦ مليون جريب (١٥٢) .

شق المنصور عددا كبيرا من الجداول والقنوات ، منها قناة من نهر دجيل ، واخرى من كرخايا وصلهما بمدينة بغداد (١٥٣) . كما ساق الى الكرخ عدة أنهار منها نهر القلائين ونهر البزازين ونهر الدجاج . ولكثرة الانهار التي أحاطت أو دخلت مدينة بغداد ، أصبحت مدينة محاطة بالمزروعات . فالبساتين والحدائق

(١٥٠) - الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جزء ١ ، ص ٧٠ .

(١٥١) - سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(١٥٢) - الجريب عشرة آلاف ذراع انظر : حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

على حين أنزرد الخوارزمي في مفاتيح العلوم ص ٤٣ أن الجريب يساوي أشل في

أشل يساوي ٣٦٠٠ ذراعا مربعا أي حوالي ٢٤٠٠ مترا مربعا

(١٥٣) - اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٥٠ .

حولها • والنخيل حولها وبدخلها ، بعد ان كانت زراعته مقتصرة على البصرة والكوفة والسواد •

وقد أدى اهتمام العباسيين الاول بالري الى ازدهار الزراعة في العراق وجنوب فارس ، الى جانب عمران هذه المناطق بالقرى والضياع (١٥٤) • كذلك فقد بذل خلفاء الدور الثاني جهودا في هذا المجال ، وعملوا على تنظيم أساليب الري ، وجعل الماء في خدمة الجميع • فقاموا بتنظيم السقاية في مصر والعراق واليمن وشمال شرقي فارس ، وبلاد ماوراء النهر (١٥٥) •

ولم يكتف خلفاء العباسيين بالاهتمام بالامور العملية ، بل عملوا على أن ينوا هذا التقدم الزراعي على أساس علمي • فتوسعوا في البحث النظري ، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحيه التربة لزراعتها ، واستعملوا الاسمدة المختلفة لأنواع النباتات (١٥٦) •

أما بالنسبة لبلاد الشام ، فلم يوجه خلفاء بني العباس أو ولاتهم فيها اهتمامهم للقيام باصلاحات غايتها تنمية الثروة الزراعية في بلاد الشام • فقد استمر الري على ماكان عليه ايام الخلافة الاموية ، الا ماكان من الخليفة المأمون الذي أمر بحفر قناة من نهر منين مارة بسفح قاسيون الى معسكره بدير مران • ويبدو ان الاسباب السياسية كانت وراء ذلك •

وقد قاسى أهالي غوطة دمشق كثيرا من سوء الاحوال الاقتصادية ، ومن مصادرة اراضيهم من قبل العباسيين (١٥٧) ، كما كان بعض أهالي الشام يقاسون من

(١٥٤) - الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ٤٥

(١٥٥) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣١٩

(١٥٦) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦

(١٥٧) - انظر التتوخي : المستجد من فعات الاجواد ، ص ١٨٤ - ١٨٦ - والفرج بعد الشدة ،

جزء ١ ، ص ٩٣ - ٩٨ - بيطار : المرجع السابق ، ص ٤٤٧ - كرد علي : الاسلام والحضارة

العربية ، جزء ٢ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ •

كثرة الخراج • ومما يذكر في هذا الصدد ان بعض أهالي قرى فلسطين تركوا أراضيهم ، فوجه الخليفة هارون الرشيد اليهم أحد كبار قواده الذي أخذ يدعوهم الى الرجوع الى أراضيهم على ان يخفف عنهم من خراجهم ، وان يعاملوا معاملة أفضل مما مضى ، فرجعوا وهؤلاء هم أصحاب التخفيف • ثم عاد قوم منهم بعد ذلك فردت عليهم أراضيهم على مثل ما كانوا عليه وهم اصحاب الردود (١٥٨) • ومن المهم ان نعرف ان العامل الاقتصادي كان احد اسباب ثورة المبرقع اليماني (١٥٩) •

ومما لا شك فيه أن خلفاء العباسيين حاولوا أن يتخذوا بعض الاجراءات الاقتصادية لانقاذ البلاد من التردى ، ولكن هذه الاجراءات الاقتصادية لم ترق للاهالي في كثير من الاحيان • فقد تصدى الخليفة المأمون لتعديل أراضي الشام ، ففرق المساح في اجنادها كافة ، وأقام شتاء سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م كله في دمشق لهذه الغاية • ثم وضع لها كشفا جديدا على امل زيادة الدخل الوارد منها (١٦٠) •

وقد انتشر نظام اقطاع الاراضي للمتنفذين في العصر العباسي الاول ، مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات جليلة • وكذلك فقد انتشرت عادة اقطاع الولايات على ان يؤدي الوالي لدار الخلافة مبلغا من المال عدا الهدايا والطرف (١٦١) • على ان نظام الاقطاع لم يخل من بعض العيوب • اذ ان المقطع أو الملتزم كان يعمل على الاثراء وجمع المال ، ولا يتردد في ارهاق الاهلين واثقالهم بالضرائب المختلفة ، حتى يستطيع ان يؤدي الى الحكومة ما عليه من مال الخراج ، ويحتفظ لنفسه بما زاد عن ذلك • ولا يخفى ما في هذا من غبن الاهالي أحيانا ، وتعذيبهم في احيان اخرى (١٦٢) •

أما أشهر المزروعات التي كانت تزرع في أراضي الخلافة العباسية في هذه

(١٥٨) - كرد علي : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢١٣

(١٥٩) - بيطار : المرجع السابق ، ص ٤٤٩

(١٦٠) - بيطار : المرجع السابق ، ص ٤٤٩ •

(١٦١) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٦

(١٦٢) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٩٥ ، وانظر فيما سبق

الفترة ، فهي الحنطة وكانت تزرع في المناطق الاسلامية كافة حيث يتوفر الماء . وكذلك كانت الكروم تزرع بكثرة ، وفي الارحاء جميعها ، وهي كثيرة الاصناف . وقد امتازت كروم العنب في اليمن بضخامة عناقيدها (١٦٣) . وكان لزراعة الكروم شهرة خاصة في الشام حتى لا تكاد تخلو منها منطقة من المناطق (١٦٤) . وبقيت زراعة الذرة مقتصرة على جنوبي جزيرة العرب . وكان الاهلون يزرعون كذلك الشعير والارز والنخيل واشجار الفاكهة (١٦٥) .

وكان تفاح الشام مضرب المثل في الجودة ، وكان يحمل منه الى الخلفاء في كل سنة ثلاثون ألف تفاحة ، ويقال انها كانت في العراق أعقب منها في الشام . كما كثرت زراعة الزيتون في أرجاء كثيرة من بلاد الشام ، وغيرها من أراضي الخلافة مثل شمال افريقيا . واشتهرت بعض مناطق الشام باستخراج الزيت من الزيتون ، حيث كان من اهم خصائصه الصفاء والنظافة . وكان الزيت يحرز في جباب كبيرة في مدينة حلب . وكانت الشام تمد البلاد الاسلامية بما تحتاجه من الزيت الذي كان يعرف بالزيت الركابي ، لانه كان يحمل على الابل من الشام (١٦٦) .

زرع قصب السكر في البصرة وصور وبيروت وطبرية وكابل وخوزستان وغيرها . وقد استخرج منه السكر في كابل وخوزستان والبصرة (١٦٧) . وقد حاول مسلمو المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التي تنمو في البلاد الحارة كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت ، فلم يقدر لزراعة التوابل النجاح (١٦٨) .

(١٦٣) - آدم ميتز : الحضارة الاسلامية ، جزء ٢ ، ص ٢٩٨ - ٩٢٩

(١٦٤) - بيطار : المرجع السابق ، ص ٤٥٤

(١٦٥) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٩٩

(١٦٦) - الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٥٧ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٢ ، ص ٢٢١

(١٦٧) - محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٣٢

(١٦٨) - ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٧٦ - المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦١ - ١٦٢

(١٦٩) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠٥

(١٧٠) - محمد بن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠٨

واشتهرت مناطق واسعة بزراعة النخيل واشهرها البصرة وكرمان وشمال افريقية ،
ومصر ومنطقة الغور وغيرها (١٦٩) . بالاضافة الى وجود اصناف متعددة من الفواكه
كالتين والموز والجميز والرمان والتوت والبرقوق والمشمش والبرتقال والخوخ
والكشري والسفرجل والليمون والكباد (١٧٠) . والبطيخ (١٧١)

ب - الصناعة :

كان للصناعة نصيب كبير من عناية الخلفاء العباسيين الاوائل . فاهتموا
باستخراج المعادن . فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم
فارس وخراسان .

وكان بالقرب من بيروت مناجم للحديد ، ساعد وجودها على نمو بعض
الصناعات المعدنية ، كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من
شمالي فارس ، والقار والنفط من بلاد الكرج .

وقد اشتهرت صناعة الزجاج ، ولاسيما في عهد المعتصم الذي شيد لها مصانع
جديدة في بغداد وسامراء وغيرها (١٧٢) . كما حافظت الشام على الرغم من التقلبات
كافة التي تعرضت لها على شهرتها في بعض الصناعات ، فقد اشتهرت في صناعة الزجاج
كغيرها ، ووصف زجاجها من قبل كثير من المؤرخين والرحالة ، وضرب به المثل
في الرقة والصفاء ، حتى يقال أرق من زجاج الشام ، واصفى من زجاج الشام (١٧٣) .
وقد مهر أهل الشام في زخرفة الزجاج بالذهب وتلوينه بالوان أخرى . وبلغوا في
ذلك درجة كبيرة من الاتقان . وفي مستهل القرن الثاني للهجرة ، كان الزجاج
الملون المطلي بالميناء يصدر الى كثير من جهات العالم (١٧٤) . كما مهر أهالي الشام

(١٦٩) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٣ - بيطار : المرجع السابق ، ص ٥٦

(١٧٠) - بيطار : المرجع السابق ، ص ٥٧

(١٧١) - سرور : المرجع السابق ، ص ١٣١ - ١٣٢ - ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٢

(١٧٢) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٨

(١٧٣) - الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٥٧

(١٧٤) - بيطار : المرجع السابق ، ص ٤٦١

بصناعة الخزف وبشكل خاص المنقوش منه ، كما أنشئ مصانع للورق في عدة مدن ، وجلب لها الاساتذة والصناع من مصر التي اشتهرت بصنع الورق منذ عهد بعيد . وقد اشتهرت صناعة الورق في بغداد ودمشق وطبرية وطرابلس الشام وسمرقند حتى قيل ان كواغيد سمرقند عطلت قرطيس مصر وبغداد (١٧٥) .

وأنشأ العباسيون دورا للطراز في مناطق متعددة ، وتفوق المسلمون في صناعة الحرير والاطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد . ومما يدل على تفوق المسلمين في هذه الصناعة تلك الشهرة التي نالتها المنسوجات الحريرية المشجرة الجميلة التي كانت تصنع في تستر . وكذلك السجاجيد في قرطب ، والحرير في سوس . وكذلك فقد اشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف انواعها . واشتهرت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها . وتفوقت خوزستان بمنسوجاتها (١٧٦) .

وقد امتازت دمشق بصناعة الاقمشة الحريرية التي لاتزال تسمى دمقس (دامسكو) كما عرف الدمشقيون نسيج الديباج وغيره . ويقال بأن الاقمشة التي كانت تصنع في حمص كانت تقارب الاقمشة المصنعة في الاسكندرية من حيث الجودة والحسن . ومما يذكر ان طبرية كانت تنسج نسيجا أبيض تصنعه ثيابا ، وكان ثمن الثوب منه اربعمائة درهم لجودته ، في الوقت نفسه الذي كان غيره من الاثواب يساوي مائة درهم فقط . ويبدو أن أهالي الشام برعوا في صناعة الصباغ وغيره من الصناعات التي ماتزال لها بقية قليلة الان (١٧٧) .

كذلك فقد اشتهرت اعنالك من نواحي حوران بصناعة البسط ، وبصناعة نوع

(١٧٥) - محمد جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية في الشرق ، ص ١٢٤ - ١٢٥
- احمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٤٦ - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق

مجلد ٢ ، ص ٢٢

(١٧٦) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٩

(١٧٧) - بيطار : المرجع السابق ، ص ٤٦١ - ٤٦٢

جيد من الأكسية • كما اشتهرت بلاد الشام كغيرها من سائر البلاد الإسلامية بصناعة
الحصر ، وبشكل خاص سكان قدس بالقرب من طبرية الذين اشتهروا بقتل الحبال
الى جانب صنع الحصر ، واشتهرت عسقلان بوجود حرير فائق فيها (١٧٨) •

كما اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة المنسوجات ، فكان يصنع في مدينة
تنيس الثياب الملونة والفرش ، ويعمل بها اثواب الخلفاء التي تسمى البدنة ، وبلغت
قيمة الثوب منها الف دينار يحاك من الذهب الخالص المحكم الصنعة ، ليس فيه
من الغزل سدى ولا لحمة سوى أوقيتين • كما بلغ ثمن قطعة النسيج من الكتان
في مدينتي تنيس ودمياط مائة دينار ، مما يدل على مدى تقدم صناعة المنسوجات
المصرية ودقتها في ذلك الوقت (١٧٩) •

برع أهالي الشام في صناعة الفسيفساء • وقد شاهد الرحالة المقدسي جدران
أروقة المسجد الحرام وقد زينت بالفسيفساء التي حملها اليها صناع الشام ومصر (١٨٠)

وكان بالقرب من بيروت مناجم للحديد ساعد وجودها على نمو بعض الصناعات
المعدنية ، كما كان يوجد الحديد في ضواحي دمشق ، ولا سيما في داريا • وكذلك
اشتهرت دمشق في صناعة السيوف المتقنة الصنع • ولشهرة سيوف دمشق ، فقد
أمر خمارويه بن أحمد بن طولون بصناعة سبعة عشر سيفاً دمشقيةا لغلمانه مقابل
سيوفهم التي تبرعوا بها للأعرابي الذي مدح خمارويه (١٨١) • وقد نقل الصليبيون
الى بلادهم سر هذه الصناعة • كما استمر الصناع الدمشقيون محتفظين بتفوقهم

(١٧٨) - المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ و ١٧٤ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ١ ،
ص ٢٩٢

- احمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢٤٥

(١٧٩) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٠٩

(١٨٠) - مجلة المجمع العلمي بدمشق : مجلد ٢ ، سنة ١٩٢٢ ، ص ٢٢

(١٨١) - انظر القصة كاملة في التتويحي : المستجد من فعات الاجواد ، ص ١٣٤ - ١٣٥

في هذه الصناعة الى ان سباهم تيمورلنك فماتت هذه الصناعة لتزدهر في بلاد
العجم (١٨٢) *

وقد اشتهرت بيت المقدس بصناعة النسيج لكثرة زوار المسجد الاقصى (١٨٣)
كما أن أهالي دمشق أبدعوا في ترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة ، وأبدعوا
في النقش على الخشب (١٨٤)

وقد اشتهرت بغداد بالصياغة ، وبلغت صناعتهم شأوا بعيدا في الدقة والجمال،
حتى أنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب . واشتهرت
مصر أيضا بصناعة المعادن ولا سيما صياغة الذهب والفضة ، وضربوا بسهم وافر
في صناعة الادوية والعقاقير *

واشتهرت مصر في العصر العباسي الاول بصناعة المراكب النيلية التي كانت
تسير في النيل حاملة حاصلات البلاد بين الوجهين البحري والقبلي . كما اشتهرت
بصناعة السفن التي تشحن بالاسلحة والمقاتلة لغزو البيزنطيين عن طريق الاسكندرية
ودمياط وتيسس والفرما *

وقد وجدت مقاطع للرخام في بيت جبريل في فلسطين . وفي منطقة عمان
وجدت الجبال البيض التي تسمى الحواره ، التي تستعمل في طلاء سقوف المنازل
باللون الابيض ، كما كانت توضع منه طبقة فوق سطوح المنازل . كما اشتهرت
فلسطين بمقاطع حجارة بيضاء استعمل بعضها في البناء ، واستخرج الكبريت من
منطقة الانغوار ، كما استخرج الملح والحمر من البحر الميت (١٨٥) *

(١٨٢) - بيطار : المرجع السابق ، ص ٤٦٣

(١٨٣) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٦٢

(١٨٤) - مجلة المجمع العربي بدمشق ، مجلد ٢ ، ص ٢٢

(١٨٥) - بيطار : المرجع السابق ، ص ٤٦٤

جـ التجارة

أما التجارة فمما لا شك فيه أنها تحتاج في نشاطها وازدهارها الى توفر عناصر متعددة أهمها انتشار الامن ، وسهولة الانتقال من مكان الى آخر دون عوائق ، لتوفر الحماية لاموال التجار من المصادرة وغيرها • الى جانب وجود أسواق مزدهرة تصرف فيها هذه البضائع •

وقد اهتم خلفاء العباسيين بتسهيل سبل التجارة ، فأقاموا الآبار والمحطات في طريق القوافل ، كما أنهم جاهدوا لبناء الاساطيل لحماية السواحل من اغارات لصوص البحار • وكان لذلك اثر بعيد في نشاط التجارة الخارجية والداخلية ، وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد ، وسفنهم تمرر عباب البحار •

وقد شجع خلفاء العصر العباسي الاول التجارة تشجيعا غير مباشر ، بما أدخلوا من مظاهر الترف الى بلاطهم ، وبتمهيد الطرق ، وتأسيس مدينة بغداد ، التي ساعد موقعها على أن تصبح سوقا تجاريا من الطراز الاول • وكانت دمشق مركزا هاما للقوافل الآتية من آسية الصغرى أو من أقاليم الفرات الى بلاد العرب ومصر ، واصبح الفرات ودجلة شريانين هامين داخل بلاد الدولة العباسية • كما حفروا قناة للملاحة تأخذ ماءها من الفرات عبر العراق ووصلوها الى بغداد • وأصبحت هذه القناة تربط الحاضرة بآسية الصغرى وسورية وبلاد العرب ومصر • كما أن القوافل كانت تأتي اليها من آسية الوسطى مارة ببخارى وفارس (١٨٦) •

وقد وضع المنصور أساس الكرخ في الجهة الجنوبية ، ونقل اليها أسواق بغداد ، وأفرد لكل حرفة سوقا خاصا • ومن هذه الاسواق سوق العطارين وسوق الحدادين وسوق النجارين وسوق البزازين ، وسوق الرياحين ، وسوق القصايين (١٨٧) •

(١٨٦) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٢

(١٨٧) - العيون والمحدثات : ص ٢٦٥ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ١ ص ٤٦٠ وما بعدها

أما مدينة البصرة فقد أصبحت من أهم مراكز التجارة ، وهي باب بغداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع ، وأنواع السلع المستوردة ، في كل أصقاع العالم . ولذلك استفحل بها العمران وكثرت فيها المصانع والصنائع ، وصارت واسطة العرب والعجم (١٨٨) .

كذلك كانت انطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم من أهم مراكز بلاد الشام التجارية بين الشرق والغرب . لا يعيبها سوى وجود السفالة (١٨٩) . وكذلك كانت دمشق وبيت المقدس .

وكان مما يغنيق التجارة في بلاد الشام أحيانا ، اضطراب الاحوال السياسية التي أدت للفوضى ، مع انتشار قطاع الطرق ، وسيطرة الاعراب على طرق القوافل وقيامهم بالنهب والسلب (١٩٠) ، بالإضافة الى تحميل ولاية العباسيين فيها للتجار أمورا اضافية ، كدفع مكوس عند انتقالهم من جند الى آخر (١٩١) . وعلى الرغم مما ذكر ، فان التجارة قد استمرت نشطة في بلاد الشام بسبب موقعها وثروتها ، وتوجيه خلفاء العباسيين لجزء من نشاطهم لازالة العوائق عن التجارة فيها .

وكان طريق قوافل الحجاج التي تجتاز بلاد الشام يمر في الطريق المحاذي لبادية الشام ، وهو الذي يمر شرقي نهر الاردن . وبعد العودة من الحج يقوم الحجاج بزيارة بيت المقدس والمسجد الاقصى وقبر ابراهيم الخليل . وقد أدت هذه الحركة المستمرة الى انتشار السلع في أسواق دمشق . ومن المرجح ان المدن

(١٨٨) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ٣١٢ - ٣١٣

(١٨٩) - هي شعاب نابتة تحت الماء ، بينها وبين قبرص ، كانت تتحطم عليها معظم السفن ، انظر

آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٢٦

(١٩٠) - انظر الامثلة عن انتشار الفوضى فيما ذكره الجاحظ : المحاسن والاضداد ، ص ١٠٢ -

التنوخي : الفرج بعد الشدة ، جزء ١ ، ص ١٦٣ - ابن الجوزي : المنتظم ، جزء ٥ ،

قسم ثاني ، ص ٦٥

(١٩١) - انظر : المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٥٢

البحرية التي لم تكن تبعد عن سوق دمشق كثيرا مثل طرابلس وبيروت وصور وعكا ، كانت تحصل على ما تحتاج اليه من السلع من سوق دمشق ، الى جانب ما كانت تحصل عليه من البضائع نتيجة قيامها بالتجارة البحرية . كما أن دمشق أصبحت مركزا هاما للقوافل التجارية الآتية من آسية الصغرى أو من العراق الى الجزيرة العربية ومصر .

كانت أسواق الفسطاط عامرة بأنواع السلع المختلفة التي ترد اليها من انحاء البلاد المصرية ، ومن بلاد الشام والعراق والمغرب وبلاد الروم (١٩٢) .

كما أن القلزم وجده وعيذاب من أهم الموانئ التجارية على ساحل البحر الاحمر ، وكانت السلع تنقل عن طريق القلزم من الدول الاوربية الى الشرق ، ومن اقطار الشرق الاسلامي الى اوربة ، أما جده ، فترجع أهميتها الى انها محط الحجاج المسلمين الذين كانوا يقدون اليها عن طريق ايلة والقلزم أو عن طريق عيذاب .

أما ميناء عيذاب فهو من المراكز التجارية الهامة ، وتقع على ساحل البحر الاحمر الغربي ، ولها ميناء عميق . وفيها تحصل المكوس على ما تحمله السفن الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن ، وتنقل منها البضائع على الابل الى اسوان مجتازة الصحراء في خمسة عشر يوما ، ومن هناك تنقل بالسفن الى الفسطاط في النيل .

وكان لعدن شهرة تجارية فائقة بسبب موقعها ، وكانت السفن المحملة بمنتجات الدول الاسيوية والاوربية ترسو بها ، ويسمىها المقدسي دهليز الصين ، ويحدثنا أنه سمع عنها أن من الناس من دخلها بالف درهم فرجع بالف دينار . ومنهم من دخلها بمائة فرجع بخمسمائة .

وكانت سيراف من موانئ الخليج العربي ، وترجع شهرتها لقيامها بالتجارة

(١٩٢) - محمد جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية ، ص ١٥٠

البحرية • وقد بلغت هذه التجارة من الازدهار مبلغا جعل من سيراف منافسا للبصرة في الغنى والثروة (١٩٣) •

كان النشاط التجاري الداخلي يتركز في الاسواق التي تقام في كل مدينة • فقد كان لكل طائفة من التجار سوق يختص بها ، حيث يمكثون الى ما بعد الظهر ، ثم يعودون الى منازلهم في المساء • وكانت الحوانيت في بلاد الشام تمتد على طول الشارع من الجانبين ، واتخذت الاسواق أسماء السلع التي تبيعها ، فهناك دار بيع الفاكهة والخضار التي كانت تسمى دار البطيخ ، وهناك سوق الصاغة ، وآخر للسراجين ، وثالث للزجاجين ، وكانت اسواق دمشق من أحفل الاسواق وأحسنها انتظاما ، وكذلك قيسارياتها • فقد كانت كل واحدة منها منفردة بضبتها وأقفالها الجديدة ، وأبوابها مصنوعة من الحديد تشبه ابواب القصور (١٩٤) • أما الفنادق فقد خصصت للتجار الغرباء ، وكانت أشبه بالاسواق الكبيرة • وكان التجار يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها ، ويفلقون غرفهم بأقفال رومية (١٩٥) •

كانت التجارة البحرية نشطة في هذه الفترة ، فقد كان العرب يقومون برحلات بحرية تبدأ من بغداد ، وتسير في الخليج العربي حتى تصل الى شبه جزيرة مالقه (الملايو) وكان التجار يشجعون هذه الرحلات التي تجلب لهم توابل الهند وعطورها وحرير الصين • كما نشطت التجارة في البحر المتوسط ، وكانت مراكب المسلمين تقطع هذا البحر في ستة وثلاثين يوما من مبدئه في الغرب حتى انطاكية (١٩٦) •

لقد جاوز العرب جزيرة سيلان في العصر العباسي الاول ، ووصلوا الى بلاد الصين في القرن الثاني الهجري ، وكانوا من بين الاجانب الذين فتح لهم ميناء كانتون

(١٩٣) - محمد جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية ، ص ١٥٠ •

(١٩٤) - بيطار : المرجع السابق ، ص ٤٦٩

(١٩٥) - محمد جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية ، ص ١٥٠

(١٩٦) - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٤٢٦

وسوقها • وقد اثبتت بعض الفتن التي وقعت بهذه المدينة في سنة ١٤١ هـ / ٧٦٠ م وجودهم هناك • فقد أخذ العرب يقومون برحلات طويلة الى بلاد الصين • وجعل ميناء سيراف الفارسي مرسى للسفن التي تأتي محملة ببضائع الشرق الاقصى، حيث كانت تسير بمحاذاة الشواطىء حتى ملبار ، رغبة منها في شحن البضائع وتفريغها في الموانىء المختلفة •

وقد استطاع العرب منذ اواخر القرن الثاني للهجرة أن يستقروا في ميناء خائفوا الى الجنوب من مدينة شنغهاي الحالية • وكان لهم فيها قاض مسلم يحكم بينهم وفق احكام الشريعة الاسلامية ، ويؤمهم في الصلاة ، كما كانوا يتبادلون التجارة مع الصينيين ، ويحصلون على جوازات تسمح لهم بالتنقل داخل البلاد للتجارة • وبعد أن ساءت أحوال الصين بسبب الفتن والثورات ، انتقل هؤلاء التجار الى شبه جزيرة مالقة ، وهكذا فإن العرب وصلوا في تجارتهم الى الهند الصينية والصين في كثير من الاحيان ، ولا يبعد أن يكون بعضهم قد وصل الى كوريا • وكانت الرحلة من الساحل العربي الى ساحل الهند الغربي تستغرق مدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر ، وقد تستغرق شهرا واحدا اذا ساعدتها الرياح (١٩٧) وقد كانت تجارة الحرير هي الدافع الاساسي لرحلات التجار الى الصين • فلما انشر هذا النوع في شمال فارس ، قل مسير القوافل الى بلاد الصين (١٩٨) •

وقد كانت السلع تأتي من جميع ارجاء العالم الى العراق ، فحملت الانية من الهند ، والحديد من خراسان ، والرصاص من كرمان ، والنسيج الملون من كشمير ، والعود والمسك والسروج والدار صيني من الصين ، والعطر وأنواع الطيب من اليمن ، والسلاح والمصوغات من فارس ، والآلئ من عيذاب، والخيرزان والكافور والعود والقرنفل والنارجيل والثياب القطنية والقيلة من الهند والسند ، والياقوت والماس من سرنديب • والجلود والرقيق من بلاد الروم ، والفاكهة والسلاح والحديد

(١٩٧) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٥ •

(١٩٨) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٨ •

من بلاد الشام ، وجلود الثعالب من روسية • كذلك فقد وجدت بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر وآسية الصغرى علاقات تجارية • فكان زمرد ساحل الهند الشرقي ينقل الى المغرب عن طريق عدن ومكة ، وكان بالمقابل زمرد مصر العليا وناب القيل من الحبشة يطلب من امراء الشرق الاقصى •

وكان المسلمون في العصر العباسي الاول يصدرون الحنطة والارز والفاكهة وزهور مازندان المشهورة والسكر والزجاج والحريير والاقمشة الصوفية والكتانية والحريرية والزيت والطور كماء الورد والزعفران وماء السوس وزيت البنفسج (١٩٩) •

وقد عني العباسيون بتنظيم التجارة فعهدوا الى المحتسب مراقبة الاسواق والاشراف على الموازين والمكايل ، ومراعاة أثمان الحاجيات منعا للغش أو ابتزاز أموال الاهلين (٢٠٠) •

وقد ساعدت طرق التجارة على اتعاش التجارة ، وسهلت على التجار نقل بضائعهم ، ومن أشهر طرق التجارة :

١ - الطريق البحري من غرب اوربا الى المشرق مارا بمصر ، حيث تحمل المنتجات على الدواب الى القلزم ، ومنه تنقل عبر البحر الاحمر مرورا بموانيه الهامة مثل جدة • ويتجه حتى السند والهند والصين •

٢ - الطريق التجاري بين بلاد الروس والمشرق عن طريق بحر قزوين ، ومنه تنقل التجارة الى بخارى وسمرقند ببلاد ماوراء النهر ومنها الى الصين •

٣ - الطريق التجاري الذي يسير من المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند نحو داخل فارس مارا بولاية سجستان ، والى الشمال من هذا الطريق كانت

(١٩٩) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ •

(٢٠٠) - جميل نخلة : حضارة الاسلام في دار السلام ، ص ١١٦ - ١١٧

قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان وتوصلها الى كابل وغزنة وغيرهما • ومن هنا كانت القوافل تسير نحو خراسان غربا وبخارى شمالا •

٤ - الطريق البري من غرب اوربا الى المشرق ، ويبدأ من بلاد الاثدلس الى طنجة عبر مضيق جبل طارق ، مجتازا المغرب الاقصى والايوسط والادنى عن طريق افريقية حتى يصل الى مصر • ثم يتجه الى بلاد الشام مارا بالرملة ودمشق • ثم الى العراق مارا بالكوفة وبغداد والبصرة ، ثم الى فارس مارا بالاهواز ، ثم الى كرمان والهند والصين (٢٠١) •

حظيت الجاليات الاسلامية التي توطنت في مناطق غير اسلامية بسبب التجارة بمكانة محترمة • كما كان لاشتغال المسلمين بالتجارة اثر كبير في حياتهم العامة سواء اكان من الناحية الاقتصادية أم الاجتماعية ، فمن الناحية الاقتصادية كانت التجارة مصدر ثروة لعدد كبير من الناس واتباعهم • ومن الناحية الاجتماعية ساعدت التجارة على وفود كثير من الارقاء من الاصناف المختلفة الى الدولة العربية الاسلامية •

وكان لعناية الخلفاء بالتجارة واهتمامهم بتسيير طرقها البرية والبحرية اثره في تمهيد السبيل أمام الرحالة • كذلك ربطت التجارة بين الاقطار الاسلامية ربطا محكما • فقلما كان يخلو ركب من التجار من أن يصحبهم بعض العلماء لطلب العلم وخاصة الحديث • وفضلا عما تقدم ، فان التجارة كانت تغذي الفقهاء بالمسائل الكثيرة التي تعرض للتجار ، ولم تكن معروفة من قبل • ذلك ان أعمال التجار وما يصادفونه في حياتهم كانت مبعث اسئلة توجه الى الفقهاء ليجيبوا عنها (٢٠٢)

٤ - الحياة الفكرية :

نمت الحياة الفكرية نموا مطردا في العصر العباسي • وكان لهذا النمو أسباب متعددة يأتي على رأسها :

(٢٠١) - محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٤٨ - ١٥٠ •

(٢٠٢) - محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥ •

١ - دعوة الاسلام الى المعرفة ، وحضه على التعلم ، وتشجيعه على الثقافة .
ولقد تمثل ذلك بالكثير من آيات القرآن (٢٠٣) .

٢ - كانت الدعوة الى الاسلام في الفترة الاولى مبنية على التأمل والتفكر في الكون ، وكان ذلك كافيا في كثير من الاحيان الى جذب عدد كبير الى الاسلام .
وما لبث العرب بعد ان اختلطوا بالامم الاخرى ، واحتاجوا الى دعوة هؤلاء الى الاسلام أن عملوا على استخدام العقل والمنطق في دعوتهم ، اسوة بما يفعل أهل الديانات الاخرى ، فاستندت الدعوة الدينية الى علم الكلام ، وتأثر تفسير القرآن وتفسير الحديث والتشريع بهذا الاثر الفلسفي ، واذا كان هذا في العلوم الدينية فالامر في العلوم الدنيوية أكثر وضوحا ، فالطب والرياضة والهيئة وغيرها قد اعتمدت كل الاعتماد على التجارب وأقوال العلماء وبراهين المنطق (٢٠٤) .

٣ - حركة الترجمة من اليونانية والفارسية وغيرهما الى العربية ، كان لها أثر كبير في امتزاج الثقافات وتقدم الحياة الفكرية (٢٠٥) .

وقبل الخوض في غمار الحياة الفكرية في العصر العباسي لابد من مقدمة توضح فيها السمات العامة للحياة الفكرية في العهد الاموي .

فقد ساد العلم الديني في العصر الاموي ونواته القرآن والحديث . وأضيف عليه في العصر العباسي نواة اخرى تجمعت حولها العلوم الدنيوية أو التجريبية وهي نواة الطب . فحول هذه الدراسة تكونت دراسة الطبيعة والكيمياء وغيرها (٢٠٦) .
وقد عبر ابن خلدون عن هذين النوعين من العلوم تعبيرا صادقا حين قال : ان العلوم صنفت طبيعى للانسان يهتدي اليه بفكره، وصنف ثقلي يأخذه عن وضعه (٢٠٧)

(٢٠٣) - الشكعة : المرجع السابق ، ص ١٠٩

(٢٠٤) - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٩

(٢٠٥) - عن حركة الترجمة ، انظر الشكعة : المرجع السابق ، ص ١٤٠ - ١٤٥

(٢٠٦) - أحمد أمين : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٢

(٢٠٧) - مقدمة ، ص ٣٦٣

وقد وضع في العصر العباسي أسس كل العلوم تقريبا ، فقل أن نرى علما اسلاميا نشأ بعد ذلك . فقد وضع في هذا العصر تفسير القرآن وجمع الحديث ووضعت علومه ، ووضع علم النحو ، ووضعت كتب اللغة ، كما وضع علم العروض ، ودونت أشعار العرب في المعلقة التي دونها حماد الراوية ، والمفضليات التي دونها المفضل الضبي ، والاصمعيات التي دونها الاضمعي ، ووضع الجاحظ أساس الكتب الادبية ، وحذا حذوة ابن قتيبة والمبرد وغيرهما . ودون الفقه على يد الائمة وتلاميذهم ، ودون التاريخ كذلك . وترجمت كتب الفلسفة من منطق ورياضة وهيئة وطب وغيرهما . وبدأ العلماء يؤلفون فيها (٢٠٨) . وقد كان من أسباب تقدم العلوم في العصر العباسي انتقال الدولة العباسية الى العراق ، وما نتج عنه من اختلاط الامم الاسلامية بعضها ببعض مما أدى الى الاخذ والعطاء . بالإضافة للحرية التي اعطيت للامم الاسلامية في هذا العصر ، والتي أدت الى تفتح الذهن والخيال . وفوق ذلك ، فان عامل الزمن كان له دور كبير ، فقد مر على ظهور الاسلام قرن وثلث القرن . يضاف الى ذلك كثرة مصانع الورق ونشاطها ، ورخص أثمان منتجاتها . وقد أدى وجود الورق والكتابة فيه ، الى نشوء صناعة الوراقه وهي نسخ الكتب وتصحيحها وانتشار دكاكين الوراقين . الى جانب سعة رقعة الدولة العباسية ، ووفرة ثروتها ، ورواج تجارتها . وقد ادت هذه العوامل مجتمعة الى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل ، حتى لقد بدا أن الناس جميعا قد غدوا طلابا للعلم وانصارا للادب (٢٠٩) .

كانت معاهد الثقافة تتمثل في المسجد ، حيث كان علماء التفسير والحديث يتخذونه مقرا لهم (٢١٠) . ثم اضيفت اليه الزاوية والمدارس والمارستان والمكتبات ، ومن أشهر المدارس بيت الحكمة التي أمدتها العباسيون بمختلف الكتب (٢١١) . وظلت هذه

(٢٠٨) - انظر فيما سبق .

(٢٠٩) - انظر فيما سبق .

(٢١٠) - ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جزء ١ ، ص ٢٥٧ .

(٢١١) - ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٣ .

الخزائن قائمة حتى استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ . والى جانبها نشأت
مكتبات اخرى هامة .

ولنبداً ببحث العلوم المختلفة التي سادت في العصر العباسي والقاء نظرة سريعة
عليها ، وهي :

آ - العلوم الدينية :

علم القراءات : عني العباسيون بعلم القراءات الذي يعتبر المرحلة الاولى
لتفسير القرآن الكريم (٢١٢) . وقد وجدت على مر الزمن سبع قراءات تمثل كل
واحدة منها مدرسة معترفاً بها ، وما لبث عدد القراءات ان ازداد ، ويرجع اكثر
الاختلافات في القراءات الى رجال عاشوا في القرن الاول كابن عباس وعثمان بن
عفان وابنه أبان ، والى قراء معترف بهم كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب .

ومن أشهر القراء في العصر العباسي الاول يحيى بن الحارث الذماري (ت ١٤٥ هـ)
وحمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦ هـ) وأبو عبد الرحمن المقرئ (ت ٢١٣ هـ) (٢١٣) .

ـ التفسير :

لا ريب أن العرب الذين عاصروا نزول الوحي أدركوا معانيه ، ووقفوا على
الاسباب التي أدت الى نزول الآيات القرآنية . غير أن الامم الاسلامية الاخرى كان
يصعب عليها ادراك معاني الآيات والظروف التي أحاطت بنزولها ، ولهذا نشأ
علم التفسير .

وقد اتجه المسلمون في تفسير القرآن اتجاهين ، يعرف أولهما باسم التفسير
بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة . ومن أشهر مفسري هذا النوع

(٢١٢) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٢٤

(٢١٣) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٢٥

محمد بن جرير الطبري وابن عطية الاندلسي ، والقرطبي . أما النوع الثاني فيعرف باسم التفسير بالرأي ، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل . ومن أشهر مصري هذا النوع المعتزلة والباطنية . وقد فسروا بعض الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع مبادئهم العقلية (٢١٤) . ومن أشهر المفسرين في هذا العصر مقاتل بن سليمان الأزدي (ت ١٥٠ هـ) (٢١٥) . وأشهر كتب التفسير التي وصلت إلينا تفسير الطبري ، الذي يمتاز بتحري الدقة في النقل عن الرسول والصحابة والتابعين (٢١٦) .

ـ الحديث :

هو أحد أضلین قام عليهما التشريع الاسلامي ، وهو يلي القرآن في الاهمية . وكان له رجال عرفوا باسم المحدثين . ومن مصادر الحديث ، صحيح البخاري (٢١٧) . وصحيح مسلم ، والسنن لابي داود ، والجامع للترمذي ، والسنن للنسائي .

كانت علوم الحديث كثيرة . فمنها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه ، وهو أصعبها وذلك لمعرفة الحقيقة حين يتعارض الخبران بالنفي والاثبات ، ويتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل . وإذا تعين تقدم أحدهما ، تقرر أن المتأخر ناسخ (٢١٨) . ومنها النظر في الاسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الاحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط ، ومعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط ، وانما يثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة (٢١٩) . وكذلك مراتب النقلة من الصحابة والتابعين ، وتفاوتهم في ذلك ، وتمييزهم فيه واحدا واحدا . وكذلك تتفاوت الاسانيد باتصالها وانقطاعها . وبالتالي فانهم وصلوا الى تصنيف الاحاديث

(٢١٤) ـ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠

(٢١٥) ـ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢٦

(٢١٦) ـ جولدسيهر : المذاهب الاسلامية ، ص ٨٥ ـ ٨٦

(٢١٧) ـ انظر حوله مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٠٨

(٢١٨) ـ ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤٠٥

(٢١٩) ـ ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤٠٦

في مراتب ، فكان الصحيح منها والحسن والضعيف ، والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك (٢٢٠) .

— الفقه :

هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكرامة والاباحة ، وهي متلقة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة . فاذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه (٢٢١) .

انقسم الفقه الى طريقتين ، طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق ، وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز . وكان على رأس أئمة الفريق الاول ، الامام ابو حنيفة النعمان وعلى رأس أئمة الفريق الثاني الامام مالك ، والامام أحمد ابن حنبل . اما الامام الشافعي ، فقد كان مذهبه وسطا بين الفريقين . وقد ظهرت مذاهب اخرى لم يقدر لها الاستقرار والذیوع امام هذه المذاهب الاربعة (٢٢٢) . منها مذهب الظاهرية وصاحبه داود بن علي وابنه ، توفي الاول ٢٧٠ هـ والثاني ٢٩٧ هـ (٢٢٣) ومذهب الاوزاعية ، ومذهب سفيان الثوري ومذهب اسحق بن راهوية المتوفى سنة ٣٤٠ هـ . وعلى مر الزمن تلاشت هذه المذاهب ، واصبحت السيادة للمذاهب الاربعة . ووقف الاجتهاد عند هؤلاء الاربعة (٢٢٤) . أما الشيعة فقد انفردوا بفقههم وتناولوا بعض أئمة المذاهب بالقدح ، وقالوا بعصمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم (٢٢٥) .

ومن أشهر كتب الفقه التي وصلت الى ايدينا كتاب الموطأ للامام مالك . وله الى جانب هذا الكتاب مجموعة رسائل جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابوري ، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . وكتاب الام للشافعي .

ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤٠٦

ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤٠٦

ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤١١

ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤١١

ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤١١

ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤١١

— علم الكلام ((المعتزلة)) —

هو البحث في أمور العقيدة الاسلامية مثل توحيد الله ، والكلام في ذاته سبحانه وتعالى ، وصفاته وأفعاله ، ثم الكلام في الانبياء والرسل . ويتناول كثير من كتب علم الكلام مسائل عصمة الرسل والامامة . وقد يعرض هذا العلم لمسائل غيبية كالبعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك ، ثم يعرض هذه المسائل على مقاييس العقل والمنطق في معرض جدلي كلامي منطقي .

يعد علم الكلام أساس الفلسفة الاسلامية . كما يعتبر وليد النهضة الثقافية الاسلامية التي تأثرت بثقافات اليونان والفرس والسريان في العصر العباسي الاول (٢٢٦) . ويمكن أن نجل أسباب نشوئه بما يلي :

١ — أسباب داخلية نبعت من طبيعة الاسلام والمسلمين ، تنحصر في شعور المسلمين ، بأن الله تعالى سمح لرسوله بالرد على المشركين ومجادلتهم بالتي هي احسن . فلم لا يسيروا على هديه ، ويزدوا على المخالفين لهم بحجج مقنعة تتناسب مع قوة طعن مخالفهم .

٢ — أسباب خارجية : نتجت عن تفاعل المسلمين مع الثقافات الاجنبية ، وتأثرهم بها الى جانب تأثرهم بالديانات الاخرى السائدة . فنتج عن ذلك ، أن عقل المسلمين أخذ يفلسف الدين ، ويصنع مسائله بصبغة علمية فلسفية .

وقد حمل المعتزلة لواء علم الكلام الذي سيطر على الفكر الاسلامي حيناً من الدهر . ومن اشهر متكلمي المعتزلة واصل بن عطاء (٨٠ — ١٨١ هـ) وعمرو بن هبيل (٨٠ — ١٤٤ هـ) وكلاهما تلميذ للحسن البصري (٢٢٧) . وابو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ . ويعتبر النظام صاحب منزلة لا تداني في عصره ، وهو من تلاميذ العلاف (ت ٢٣١ هـ) ، وقد تتلمذ الجاحظ عليه (٢٢٨) .

(٢٢٦) — ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤٢٨

(٢٢٧) — الشكعة : المرجع السابق ، ص ١١٧

(٢٢٨) — احمد امين : فصحى الاسلام ، جزء ٣ ، ص ٩٧ — ٢٠٧

وقد رويت روايات متعددة عن نشأة فرقة المعتزلة ، بعضها يجعل نشوء هذه الفرقة يعود الى فترة اسلامية مبكرة ، وبعضها يردها الى نهاية العصر الاموي ومن تلك الروايات ، ما يروى من انه في مجلس للحسن البصري ، يضم تلميذه واصل ابن عطاء ، وعمر بن عبيد ، نوقش رأي الخوارج بان مرتكبي الكبيرة يعتبرون كفارا ، فأبدى الحسن البصري رأيه ، فقال : انهم مؤمنون ، وان فسقوا بالكبائر ، وانما يلقون حسابهم على ذنوبهم ، فانبرى واصل بن عطاء لابداء رأيه في ذلك ، فقال : ان الفاسق من هذه الامة ليس بمؤمن وليس بكافر ، بل في منزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن من مجلسه ، فاعتزل عنه ، ثم تبعه عمرو بن عبيد ، فقليل لهما ولا تبعهما معتزله (٢٢٩) .

ينقسم المعتزلة الى قسمين كبيرين ينتسب احدهما الى البصرة ، والاخر الى بغداد . وكان الحسن البصري على رأس فرع البصرة (٢٣٠) ومن تلاميذه واصل بن عطاء (٢٣١) ، وعمرو بن عبيد (٢٣٢) ، وأبو الهذيل العلاف (٢٣٣) ، والنظام (٢٣٤) ، والجاحظ (٢٣٥) . اما فرع بغداد ، ويأتي زمانا في الدرجة الثانية بعد فرع البصرة ، فقد كان على رأسه بشر بن المعتمر (٢٣٦) وأبو موسى المردار ، ومعمربن عباد (٢٣٧) ، واحمد بن ابي دؤاد (٢٣٨) .

وقد اشترك المعتزلة بمبادئ عامة ، عرفت باسم أصول المعتزلة وهي :

-
- (٢٢٩) - الشكعة : الرجوع السابق ، ص ١١٧
(٢٣٠) - الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٧
(٢٣١) - الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٨ - ٥٩
(٢٣٢) - الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٢
(٢٣٣) - الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٢ - ٦٥
(٢٣٤) - الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٢
(٢٣٥) - الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٤ - ٩٦
(٢٣٦) - الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨١
(٢٣٧) - الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨٣ - ٨٨
(٢٣٨) - ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢١

١ - القول بالتوحيد ٢ - القول بالعدل ٣ - القول بالوعد والوعيد

٤ - القول بالمنزلة بين المنزلتين ٥ - الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٣٩)

وقد ناهض أهل السنة المعتزلة (٢٤٠) ، ذلك لانهم رأوا الوقوف عند النص دون التأويل . وقد يكون ذلك منهم لانهم كانوا يرون ان معرفة صفات الله وذاته فوق العقل البشري . وبذلك يكون جوهر الخلاف بين الفريقين في سلطة العقل ومداه وحدودها (٢٤١) .

ان التوحيد من أهم مبادئ المعتزلة ، وهو امر امتاز به المسلمون جميعا . ولكن المعتزلة فلسفوا هذا الامر ، بمعنى انهم استمسكوا بآيات التنزيه ، وشرحوها وجللوا تحليلها فلسفيا .

ففي مسألة رؤية الله بالابصار ، صح لديهم بالادلة العقلية والنقلية ، عدم امكان الرؤيا الا بالقلب . وفي مسألة صفات الله ، قالوا ان ذات الله وصفاته شيء واحد لا يلحقها تغير ، ولا تقوم بها محدثات (٢٤٢) .

وكان طبيعيا بعد ان اثبتت هذه المسائل ان تثار مسألة تتصل بها أشد الاتصال ، وهي مسألة كلام الله وخلق القرآن . وهي أبرز أمر كان في تاريخ المعتزلة ، لما اتصل بها من أحداث تاريخية واجتماعية وسياسية . وقالوا حول ذلك ان القرآن نوع من الكلام الذي يخلقه الله ، وانما سمي كلام الله لانه خلق الله من غير واسطة (٢٤٣) . وقد ناهض المعتزلة في القول بخلق القرآن أهل السنة أو السلف (٢٤٤) . حتى استطاع ابو الحسن الاشعري حل النزاع حول خلق القرآن ،

(٢٣٩) - الاشعري : مقالات الاسلاميين ، ص ١٥٥ - ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤٢٨

(٢٤٠) - المقدمة ، ص ٤٢٩

(٢٤١) - أحمد أمين : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٩ - ٤٠

(٢٤٢) - المقدمة ، ص ٤٢٩ - الشهرستاني : الملل والنحل ، جزء ١ ، ص ٥٥ وص ٦٣

(٢٤٣) - أحمد أمين : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٦

(٢٤٤) - ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤٢٩

وعمل على التقريب بين تعاليم الدين ومبادئ العقل • فهو صاحب مبدأ بلا كيف الذي يقضي بالطاعة اوامر الدين ، والعمل بها دون ممانعة او مناقشة •

أما الاصل الثاني وهو العدل ، فهو من أهم اصول المعتزلة مع التوحيد ، حتى ان المعتزلة عرفوا باسم أهل العدل والتوحيد^(٢٤٥) • وحين بحثوا في عدل الله ، وصلوا الى :

آ — ان الله يسير بالخلق الى غاية ، وانه يريد خير ما يكون لخلقه •

ب — ان الله لا يريد الشر ولا يأمر به •

ج — ان الله لم يخلق أفعال العباد لا خيرا ولا شرا • وان ارادة الانسان حرة • والانسان خالق أفعاله ومن أجل ذلك كان مثابا على الخير ومعاقبا على الشر^(٢٤٦) • بمعنى أن الانسان حر الارادة ، والله حكيم عادل • ولا يجوز ان يريد من العباد خلاف ما يأمر به ، ثم يحكم عليهم ويعاقبهم • فالله خلق أمام الانسان الخير والشر ، والكفر والطاعة ، والايمان والمعصية وخيره^(٢٤٧) • ولو كان الله يريد الكفر للكافر ، والمعصية للعاصي مانهاه عن الكفر والعصيان • ويجب أن يدرك الانسان أن الامور تحوي على صفات ذاتية تجعلها حسنة أو قبيحة ، والشرع حين يأمر بفعل شيء لانه حسن بالعقل ، وحين ينهي عن آخر لانه قبيح بالعقل أيضا • وبالتالي فقد خالف المعتزلة الجبرية ، الذين يرون بأن الانسان مجبر^(٢٤٨) •

وقد أثارت مسألة خلق الافعال عند المعتزلة وخصومهم مسائل كثيرة متفرعة ،

(٢٤٥) — الشهرستاني : الملل والنحل ، جزء ١ ، ص ٥٤

(٢٤٦) — الشهرستاني : المصدر السابق جزء ١ ، ص ٥٥ — ٥٦ — أحمد أمين : المرجع السابق ،

جزء ٣ ، ص ٤٥

(٢٤٧) — الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٣ — المسعودي : مروج الذهب ، جزء ٢ ،

ص ١٩٠ — ١٩١

(٢٤٨) — أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جزء ٣ ، ص ٥٤ — ٥٥

لن نطيل الحديث عنها • منها مسألة التولد ، أي الأعمال التي تتولد عن العمل الأصلي • ومسألة الأشياء التي تحدث عن السبب الأول ، فهل تعزى إليه • وكذلك بحثوا في العلاقة بين السبب والمسبب ، وأيهما موجود أولا (٢٤٩) •

أما الأصل الثالث وهو الوعد والوعيد ، فلهذا فاقته المعتزلة ووصلوا الى أن الايمان بالله هو معرفة بالقلب واقرار باللسان وعمل بالجوارح • وأن كل عمل فرضا كان أو تفلأفهو ايمان • وكلما ازداد الانسان خيرا ازداد ايمانا (٢٥٠) ، والكافر هو عكس ذلك • وعدل الله وصدقه يؤدي الى أن يكون صادقا في وعده ووعيده ، فيعاقب من أساء على ذنبه ، ويجزي من أحسن على عمله • والله لا يغفر لمن فعل ذنبا أو اثما كبيرا ، على حين قد يغفر الذنوب الصغيرة • ويقودنا تصنيف الأعمال في زمر الى الأصل الرابع من أصول المعتزلة الا وهو المنزلة بين المنزلتين •

رأى المعتزلة ان مرتكبي الكبيرة من المؤمنين لا يخلدون في النار لقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره • ومرتكب الكبيرة مؤمن ، ولكنه فعل شرا فيعاقب على الشر الكبير • وهو بذلك في منزلة بين الكفر والايمان (٢٥١) •

هـ - الامر بالمعروف والنهي عن المنكر • وهو تكليف للمؤمنين بالجهاد واقامة حكم الله على كل من خالف امره او نهيه سواء أكان كافرا أم فاسقا (٢٥٢) • وهذا الأصل اسلامي معروف ، ورد في آية قرآنية واضحة التعابير • ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، واولئك هي المفلحون (٢٥٣)

(٢٤٩) - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جزء ٣ ، ص ٥٨ - ٦٠

(٢٥٠) - ابن حزم : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٨٨ - ١٨٩

- الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٥٢ - ٥٣

(٢٥١) - الشهرستاني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٠ - ٦١

(٢٥٢) - المسعودي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٩٠ - ١٨١

(٢٥٣) - آل عمران آية ١٠٤ •

اختلف المسلمون حول قضية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هل يكفيها العمل بالقلب واللسان اذا لم يقدر الانسان ان يفعل اكثر من ذلك ، ام يجب أن يجاهد ويقوم الامر بيده . وقد رأى المعتزلة في ذلك ان الامر بالمعروف ممكن بالقلب وباللسان ان كفى ، وان لم يكف فباليد ، والا فبالسيف . ولم ينل هذا المبدأ من الشرح ما نالته المبادئ السابقة ، وذلك لمساسه بالسياسة .

كان عدد معتنقي مذهب الاعتزال قلة في بادىء الامر ، الا انهم ازدادوا عددا ومكانة في الدور الاول من العصر العباسي ، سيما بعد ان اتخذ المأمون مذهباً رسمياً للدولة . والزم الناس بالقول بخلق القرآن . وعقد مجالس المناظرة من أجل نشره ، ومن لم يقل بخلق القرآن من كبار الشخصيات كان مصيره السجن أو القتل (٢٥٤) . ويبدو أن ثقافة المأمون الواسعة ، وما حمله من ثقافات عصره بما في ذلك الفلسفة ، جعله يرى رأي المعتزلة ، ويقول بخلق القرآن ويوصي أخاه المعتصم بالسير على هديه . ويؤخذ على المأمون العالم فرض ما اعتنقه على الناس بالقوة . سار المعتصم والوائق من بعده سيرة المأمون (٢٥٥) . على حين عاد المتوكل إلى السنة ، واضطهد المعتزلة فضعف شأنهم (٢٥٦) . ولكن نصر السنة الأكبر كان على يد أبي الحسن الأشعري ، الذي تربى بين أحضان مذهب المعتزلة . ثم رفض تعاليمهم ، بعد ان تسليح بالأسلحة المنطقية التي أمدوه بها ، وحاربهم بها بقية حياته ، وقوض دعائم نظرياتهم ، وأعاد لايمان السلف منزلته . وكان ظهوره نهاية لامر المعتزلة (٢٥٧) .

يبدو على هذا الشكل أن المعتزلة كان لهم ككل الفرق الأخرى في الفترة بين بداية القرن الثاني حتى منتصف القرن الثالث ذعاة يجوبون ويعملون على نشر مبادئهم ، ونشطوا من أجل ذلك من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب (٢٥٨)

(٢٥٤) - انظر تفاصيل ذلك في القريري : المصدر السابق ، ورقة ١٢٤ وجه

(٢٥٥) - المسعودي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٤٩ .

(٢٥٦) - المسعودي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٨٨ - أمين : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٨

(٢٥٧) - حتى : تاريخ العرب ، جزء ٢ ، ص ٥١٨ - ٥١٩

(٢٥٨) - أحمد أمين : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٩٢ - ٩٣

هذا ولا بد من القول ان تعاليم المعتزلة كان لها أثر كبير في النهضة الثقافية في
العصر العباسي الاول .

ب - علوم اللغة العربية

- النحو :

رأى اكثر العلماء ان النحو أخذ عن ابي الاسود الدؤلي ، وان أبا الاسود أخذ
ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . وقال بعضهم رسم النحو نصر بن عاصم،
كما قيل ان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية . وعلى الغالب فان أبا
الاسود الدؤلي هو واضع هذا العلم (٢٥٩) .

نشأ علم النحو في مدينتي البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة
في القرن الاول الهجري وكان يقيم في هاتين المدينتين جالية تنسب الى قبائل عربية
مختلفة ، ذات لهجات متعددة ، وآلاف من الصانع والموالي الذين كانوا يتكلمون
الفارسية . ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة الى الفساد ، ودعت الضرورة
الى تقويم اللسان العربي .

نهض أبو الاسود الدؤلي لوضع أساس مدرسة البصرة التي تعتبر أقدم من
مدرسة الكوفة ، وأكثر شهرة منها . وتأثرت هذه المدرسة، بالمنطق أكثر من مثيلتها،
حتى سمي نحاة البصرة أهل المنطق (٢٦٠) .

ويبدو ان وجود المذاهب الفلسفية في البصرة قد أثر على النحاة فيها . وربما
كان من أهم الفروق بين المدرستين ، أن مدرسة البصرة رأت وضع قواعد عامة
للغة في الرفع والنصب والجر والحزم ونحوها تلتزمها وتسير عليها في دقة وحزم ،
على الرغم من وجود مسائل لا تنطبق عليها القاعدة العامة . على حين ان الكوفيين ،
رأوا أن يحترموا كل ما جاء عن العرب ، وأجازوا للناس ان يستعملوا استعمالهم (٢٦١) .

(٢٥٩) - ابن النديم : الفهرست ، ص ٥٩ - ٦٠

(٢٦٠) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٣٨

(٢٦١) - احمد امين : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥

أشهر علماء البصرة أبو عمر بن العلاء ، والخليل بن أحمد صاحب كتاب العين الذي يعتبر أول معجم وضع في اللغة العربية ، مرتب على الحروف الهجائية . أما سيبويه الفارسي صاحب الكتاب الذي يعرف باسمه كتاب سيبويه ، فهو يجمع القواعد التي انتهت إليها مدرسة البصرة منذ عهد أبي الاسود الدؤلي (٢٦٢) . حتى ان علم النحو استمر على ما وضعه سيبويه ، وكل ما جرى بعده هو شرح لغامض أو اختصار لمطول (٢٦٣) . ومنهم أيضا الاصمعي وأبو عبيدة ، وقد تألق نجمهما في عهد هارون الرشيد . والمبرد صاحب كتاب الكامل الذي توفي بعد ذلك بقرن (٢٦٤) . والى جانب هؤلاء يمكن القول ان هناك بعض من أخذ عن الدؤلي امثال يحيى بن يعمر ، وعنبسة بن معدان ، وميمون بن الأقرن ، ونصر بن عاصم (٢٦٥) .

ومن أشهر علماء الكوفة في النحو الكسائي العالم الفارسي الذي عهد اليه الخليفة هارون الرشيد بتهديب ولدية الامين والمأمون ، وهو أحد القراء السبعة . وتلميذه القراء ، والمفضل الضبي الذي صنف كتابه المفضليات وأهداه الى الخليفة المهدي (٢٦٦) .

وقد وضعت في اللغة والنحو كتب عديدة عدا ما ذكر منها كتاب جمهرة اللغة لابن دريد ، والبارع في اللغة لابي علي القالي . وكتاب الامالي في اللغة والادب (٢٦٧) . وقد انتظم علم النحو على يد عالين هما ابن مالك وابن هشام وكلاهما قد اهتم بتنظيم المادة لا تحديدها (٢٦٨) . كما ألفت كتب كثيرة في الاشتقاق والتصريف ، فكان أبو علي الفارسي ، وتلميذه ابن جني صاحب الخصائص (٢٦٩) .

(٢٦٢) - ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٣٠

(٢٦٣) - أحمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ٤ ، ص ٢١٠ - ٢١١

(٢٦٤) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٣٩

(٢٦٥) - ابن النديم : الفهرست ، ص ٦٢

(٢٦٦) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٣٩

(٢٦٧) - ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٩٠ - ٤٩٦

(٢٦٨) - أحمد امين : ظهر الاسلام ، جزء ٤ ، ص ٢١٠ - ٢١١

(٢٦٩) - الثعالبي : يتيمة الدهر ، جزء ١ ، ص ٨٩

ومما يلاحظ أن اللغة والنحو وضعت أسسها في العراق (٢٧٠) . وقد احتمل علماءها في جمع اللغة وابتكار النحو العناية الكبير . فقد عملوا على مخالطة الاعراب في البادية ، وتحملوا السفر وخشونة العيش وصبروا على المكارة في سبيل تحقيق اهدافهم .

ـ الادب :

المقصود بعلم الادب ، الاجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم . وينقسم الى فنين : الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى الذي تتكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية . والكلام المنثور ، وهو الكلام غير الموزون . وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام (٢٧١) .

١ ـ الشعر :

قالوا : الشعر ديوان العرب ، وبذلك فهو فن قديم وجد ونما وبلغ الاوج في الجاهلية ، فما الجديد في العصر العباسي ؟

لقد أشد العرب الشعر في الجاهلية والعصر الاموي ، وتطرقوا الى ابواب متعددة معروفة ومألوفة ، كالمدح والهجاء والرثاء ، بنظم جيد وعبارات بليغة (٢٧٢) . وجاء شعراء العصر العباسي ، فساروا على نهج من سبقهم ، و اضافوا ابوابا جديدة لم يطرقها هؤلاء . كما استعملوا ألفاظا أرق ومعاني أعذب . وكان ذلك نتيجة من نتائج اختلاط الاجناس الاسلامية وتمازجها الثقافي ، مع تغير صور الحياة وقيم الاشياء (٢٧٣) . فكان وصف الكتاب والكتب والاقلام، ووصف أدوات العلم والمعرفة ، وتناول أدوات الحضارة ، والتأريخ للمظاهر الكبرى والاحداث

(٢٧٠) ـ احمد امين : ضحى الاسلام ، جزء ٢ ، ص ٢١٦

(٢٧١) ـ ابن خلدون : مقدمة ، ص ٥٣٢ و ٥٢١

(٢٧٢) ـ ابن خلدون : مقدمة ، ص ٥٣٤ ـ ٥٤١

(٢٧٣) ـ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٤٠

الخطيرة^(٢٧٤) ، والانحياز أحيانا الى الفرق الدينية والسياسية^(٢٧٥) ، الى جانب انشاء الشعر في الفكاهة والضحك واللهو والعبث ، كوصف الخمر والكأس وغيرها^(٢٧٦) .

امتاز هذا العصر بظهور شعراء من الفرس اعتنقوا الاسلام وتعلموا العربية . وقد أمد هؤلاء الشعر العربي بطائفة كبيرة من الآراء والافكار التي اكتسبوها في حياتهم ، وادخلوا فيه الخيال الحي الرقيق ، والتعبير الدقيق ، عميق الاحساس .

وربما ترجع نهضة الشعر والادب الى تشجيع الخلفاء والسلطين والوزراء لرجال الادب ، ومنحهم العطايا الجزيلة تارة ، وتقليدهم المناصب الرفيعة تارة أخرى . ولذلك نلاحظ انتشار المدح في هذا العصر ، واشتداد روح التنافس بين الشعراء والكتاب الذين كان من أهم أغراضهم ان يحظوا بالتقرب الى رجال الحكم رغبة في استدرار عطفهم وكرمهم .

كانت الحركة الادبية في الشام قوية في هذه الفترة ، وتفوقت على غيرها من البلاد الاسلامية الاخرى في القرن الثالث الهجري . أما في النصف الاول من القرن الرابع الهجري وفي بلاط سيف الدولة بالذات ، فقد ظهرت حركة أدبية وعلمية كبيرة فاقت ما كانت عليه في بغداد وقتذاك . وقد شهد الثعالبي لشعراء عرب الشام بأنهم أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها^(٢٧٧) . وكان بعض العراقيين يعجبون بطريقة الشاميين المثلى في الشعر^(٢٧٨) . ولا شك في ان الشام كانت في ذلك الوقت ملهم الشعراء لانهم يستطيعون فيها الجمع بين فصاحة البادية ، وحضارة المدن .

(٢٧٤) - الشكعة : المرجع السابق ، ص ٢٦٤

(٢٧٥) - أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جزء ٣ ، ص ٣٠٨ - حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣

(٢٧٦) - الشكعة : المرجع السابق ، ص ٢٦٤

(٢٧٧) - الثعالبي : يتيمة البحر ، جزء ١ ، ص ٨

(٢٧٨) - الثعالبي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩

وقد نبغ منهم في القرن الثاني الهجري ابو الوليد عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي (٢٧٩) ، ومنصور النمري (٢٨٠) ، وابو خالد التنوخي القسريني (٢٨١) .

امتاز شعراء الشام في القرن الثالث الهجري بمزايا عديدة . منها توفرهم على دراسة الادب العربي واشتغالهم بفنونه ، وعنايتهم باختيار اللفظ ، وابرار معانيهم بأروع صورة من صور الجمال اللفظي في المفردات والتراكيب . وقدم مدحهم ابوبكر الخوارزمي بقوله : (ما فتق قلبي ، وشحد فهمي ، وصقل ذهني ، وأرهف حد لساني ، وبلغ هذا المبلغ بي ، الا تلك الطرائف الشامية ، واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي ، وامتزجت بأجزاء نفسي (٢٨٢)) . وكان على رأس شعراء الشام في ذلك القرن كلثوم العتابي (٢٨٣) ، وأبو تمام الطائي (٢٨٤) ، والبحثري (٢٨٥) ، وديك الجن (٢٨٦) .

ومن أمراء الشعر العباسي في هذه الفترة — عدا شعراء الشام — ابن الرومي ، وأبو نواس ، وهو ممن أذاع القول في الخمر والغزل والصيد ، وغير ذلك من فنون الشعر التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من حضارة وترف . وقد وجد الشعر الجديد قيمة كبيرة لدى عدد من العلماء . فقد قال ابن قتيبة في هذا المجال ، ناقدًا لمقيمي الشعر : (فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم

-
- (٢٧٩) — مجلة المجمع العربي في دمشق ، مجلد ٣٢ ، ص ٤٠١ — ٤٠٢
(٢٨٠) — الاصفهاني : الاغانى ، جزء ١٢ ، ص ١٧
(٢٨١) — ابن المديم : بغية الطلب ، جزء ٨ ، ورقة ٧٦
(٢٨٢) — مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ٥ ، ص ٢٩٦ — ٢٩٩
(٢٨٣) — هو كلثوم بن عمرو ، وكنيته ابو عمرو . انظر : المسعودي : مروج الذهب ، ط الازهرية ١٣٠٣ هـ ، جزء ٢ ، ص ٢٣٩ — ياقوت الحموي : معجم الادباء ، جزء ١٧ ، ص ٢٧ — ٢٨
— مجلة المجمع العلمي بدمشق : مجلد ٥ ، من ص ٢٩٩ حتى ٣٠٤
(٢٨٤) — ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ — مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٥ ، ص ٢٩٦ وص ٣٥٤ .
(٢٨٥) — ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٧٤ — مجلة المجمع العلمي بدمشق ، مجلد ٥ ، ص ٢٩٦ وص ٤١٣ — ٤١٤ .
(٢٨٦) — ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٥٦ — مجلة المجمع العلمي بدمشق مجلد ٥ ، ص ٤٠٥

قائله ، ويضعه مواضع متخيرة ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده ، الا انه
قليل في زمانه) .

٢ - النشر :

تنوع النشر الى حد كبير في العصر العباسي كمثيله الشعر ، وكانت لهذا
التنوع أسباب لا تختلف في كثير أو قليل عن أسباب تنوع الشعر ، كعملية الترجمة
وماتبعها من انتشار الثقافة ، وقضية اختلاط الشعوب الاسلامية المختلفة وماتبع
عنها من نتائج هامة كان منها اكتساب العرب بعض الالفاظ الجديدة الى لغتهم ،
وخاصة فيما يتعلق بأنواع المأكّل والملبس والآت الغناء والدواوين ونظامها وغير
ذلك (٢٨٧) . ويهمننا ان نبحت في تنوع الابواب التي تطرق اليها النشر . فقد استمر
الكتاب في الكتابة في الابواب المعروفة في الفترة السابقة وأضافوا اليها أبوابا
جديدة ، كان منها :

١ - باب الفكاهة المرحّة الخفيفة . وكان على رأس من كتب في هذا المجال
أبو عثمان الجاحظ في رسالته المشهورة ، التي أسماها الترييع والتدوير ، وكذلك
الصابيء في مقاله الطويل عهد التطفل (٢٨٨) .

٢ - باب انشاء المقالات التي تستهدف اصلاح المجتمع من الناحية السياسية
والاجتماعية ، وتدين كل حاكم مستبد ، وتستنكر فداحة الضرائب ، وتحمل على
ظلم القضاة ، كرسالة الخوارزمي في شأن وال ظالم نكب به الناس (٢٨٩) ورسائل
بديع الزمان الهمداني عن ملك ظالم سفاح ، محب لاراقة الدماء (٢٩٠) . وعن قاض
منحرف ، وعن فداحة الضرائب والتنديد بمصادرة الاموال ، ومحاربة الغلاء (٢٩١) .

٣ - باب القصة العربية القصيرة ، التي تمثلت بمقامات بديع الزمان الهمداني .

(٢٨٧) - احمد امين : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٤

(٢٨٨) - الشكعة : المرجع السابق ، ص ٢٥٢

(٢٨٩) - الشكعة : المرجع السابق ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ نقلا عن ديوان رسائل الخوارزمي

(٢٩٠) - الشكعة : المرجع السابق ، ص ٢٥٦ نقلا عن رسائل بديع الزمان

(٢٩١) - الشكعة : المرجع السابق ، ص ٢٥٧

ظهر عدد من الكتاب البارزين في العصر العباسي الاول وعصر سيطرة الاتراك، يأتي على قسنتهم الجاحظ . فقد تثقف بالثقافة العربية التي تلقاها من علماء البصرة أمثال ابي عبيدة والاصمعي وأبي زيد الانصاري والافخش والنظام (٢٩٢) . وقد أولع بالقراءة ، فلم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان . حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر (٢٩٣) . أشهر كتبه البيان والتبيين ، الذي جمع فيه النثر والشعر ، ومستحسن الاخبار وبلغ الخطب . وكذلك كتاب الحيوان وكتاب الطفيليين وكتاب البخلاء ، ورسالة الترييع والتدوير . وقد اهتم في جملة ما اهتم به بدراسة البيئة التي تحيط به ، فترك لنا أدبا اجتماعيا قيما ، وشاركه في ذلك محمد بن اسحق الصيمري (٢٩٤) .

ومنهم أيضا الفضل بن سهل ، وسهل بن هارون ، وابن المقفع الذي يرجع اليه الفضل في نقل كثير من الكتب عن اللغة الفهلوية والسنسكريتية ، وعلى رأسها كتاب كلية ودمنة . ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب النثر في الادب العربي . كما يعد مثلاً أعلى في سلامة الاسلوب وسلاسة العبارة (٢٩٥) .

ويعتبر ابن قتيبة من أدباء القرن الثالث الهجري من خيرة كتاب هذا القرن ، أشهر كتبه المعارف ، والشعر والشعراء ، وأدب الكاتب ، وعيون الاخبار (٢٩٦) .

ومما لا شك فيه أن ادباء هذا العصر أكثر من أن يقعوا تحت حصر ، وكلهم أسهم مساهمة فعالة في مجاله . وسنقتصر على ما أوردنا ، ونحيل القارئ الى مصادر تغنيه في هذا المجال (٢٩٧) .

ج - العلوم التجريبية :

كان لحركة الترجمة أثر كبير في تقدم وتطور العلوم التجريبية في العصر

-
- (٢٩٢) - احمد امين : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢٨٧
 (٢٩٣) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٧١ - ٣٧٢
 (٢٩٤) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣
 (٢٩٥) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٤٣
 (٢٩٦) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٤٤
 (٢٩٧) - انظر الثعالبي : يتيمة الدهر - ياقوت الحموي : معجم الادباء

العباسي • فقد عمل العباسيون على نقل الكتب القديمة من المدن المفتوحة السى عاصمتهم ، حيث قاموا بترجمتها (٢٩٨) • وما ان جاء القرن الرابع الهجري حتى كان العالم الاسلامي قد ترجم الى العربية معظم الكتب اليونانية والفارسية في علوم مختلفة ، الى اللغة العربية (٢٩٩) •

ومن أشهر من ترجم ، ابن المقفع ومحمد بن ابراهيم الفزاري ويوحنا بن ماسويه (٣٠٠) والحجاج بن مطر ويحيى بن خالد البرمكي وآل بختيشوع وهم بختيشوع بن جورجيس الجنديسابوري • وبختيشوع بن جبرائيل ، وبختيشوع ابن يحيى (٣٠١) • ويوحنا بن البطريق (٣٠٢) • وقسطا بن لوقا (٣٠٣) ، وآل حنين وهم حنين بن اسحق ، وابنه اسحق ، وابن اخته حبش بن الاعسم ، ماسرجوية (٣٠٤) ، ويعقوب بن اسحق الكندي •

أما أشهر الكتب المترجمة ، فكان كتاب كيلة ودمنة ، وكتاب السندهند ، وكتاب أرسطو في المنطق ، وكتاب اقليدس ، وكتاب المجسطي (٣٠٥) •

كان من أثر الترجمة ، تطور الحضارة العربية وتفتق عبقریات علمية ، لم تكن لتظهر لولا اهتمام خلفاء العباسيين بالعلم والترجمة • وقد حفظ العرب بما قاموا به في هذا المجال آثار الحضارات السابقة ، فأتاحوا لعلماء العصور الحديثة الفرصة بالاطلاع على علوم العصر القديم • وليس هذا فحسب فقد قدموا اليهم خدمات جليلة بما أضافوه الى هذه الكتب ، وبالملاحظات التي أصدروها • حتى جاء جيل من الكتاب المسلمين ، انتجوا مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم (٣٠٦) •

-
- (٢٩٨) - جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، جزء ٣ ، ص ١٣٦
(٢٩٩) - انظر الثعالبى يتيمة الدهر ، ياقوت الحموي : معجم الادباء
(٣٠٠) - ابن القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣٨٠ - ابن النديم : الفهرست ، ص ٤٢٥
(٣٠١) - ابن القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٠٤ - ١٠٤ •
(٣٠٢) - ابن القفطي : المصدر السابق ، ص ٣٧٩
(٣٠٣) - ابن النديم : المصدر السابق ، ص ٤٢٤
(٣٠٤) - يوسف غنيمه : نزهة المشتاق في تاريخ العراق ، ص ١١٠
(٣٠٥) - جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، جزء ٣ ، ص ١٣٦ •
(٣٠٦) - L. Bernard : The Arab in History., p. 137

حفل الوطن العربي الاسلامي بمراكز حضارية ، كان لها دور كبير في تطوير العلوم ، وعلى رأس هذه المراكز مدرسة الحيرة ، التي اشتهرت بالطب واللغة والفلسفة (٣٠٧) ، ومدرسة حران التي اشتهرت بالفلك والرياضيات والفلسفة (٣٠٨) ، ومدرسة الرها ونصيبين ، اللتين اشتهرتا بالعلوم اللاهوتية الدينية والفلسفة والموسيقى (٣٠٩) . ومدرسة جنديسابور التي اشتهرت بالطب والتشريع (٣١٠) .
ونأتي على رأس العلوم التجريبية :

— الفلسفة :

انتشرت الفلسفة في الدور العباسي الاول لاسباب متعددة منها :

١ — ترجمة كتب الفلسفة اليونانية الى العربية في عهد الرشيد والمأمون وغيرهم من الخلفاء العباسيين الاول ، ودراسة المسلمين لهذه الكتب المترجمة ، وعملهم على تفسيرها والتعليق عليها ، واصلاح أخطائها .

٢ — عناية بعض الخلفاء بالفلسفة ، وخاصة الخليفة المأمون ، وحشهم على دراستها .

٣ — اثر الكنيسة النسطورية في نقل الثقافة اليونانية .

٤ — دور مدارس الرها ونصيبين وحران في ذلك (٣١١) .

من أشهر فلاسفة هذه الفترة ، يعقوب بن اسحق الكندي الذي كان معاصرا للمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، وقد اشتهر في الطب وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم الى جانب الفلسفة . وحذا في تأليفه حذو أرسطو ، فترجم كثيرا من كتب الفلسفة وشرح غوامضها (٣١٢) . وأبو نصر الفارابي الذي لقب المعلم

(٣٠٧) — حسين قاسم العزيز : دور المراكز الثقافية في تفاعل العرب والمسلمين الحضاري ، ص ٣٩٤-٣٩٥

(٣٠٨) — حسين قاسم العزيز : المرجع السابق ، ص ٣٩٨ .

(٣٠٩) — حسين قاسم العزيز ، ص ٣٩٩ — ٤٠٠

(٣١٠) — مصطفى الشكعة : معالم الحضارة الاسلامية ، ص ١٢٩

(٣١١) — دي بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ١٥ — ١٧

(٣١٢) — ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٩٣ — ٣٩٤

الثاني (٣١٣) . وكذلك اخوان الصفا ، تلك الطائفة التي كانت ذات نزعة شيعية متطرفة ، عملت على التوفيق بين العلم والدين ، وهم جماعة سرية تألفت من طبقات متفاوتة أخذت من كل مذهب فلسفي بطرف . وتعتبر رسائلهم البالغة احدى وخمسين رسالة أشبه بدائرة معارف تدل على الرقي العقلي لمؤلفيها . وعلى الرغم من محاولتهم التوفيق بين الدين والعلم ، فانهم لم يستطيعوا ارضاء أهل الدين ولا أهل العلم . فالتكلمون والفقهاء والسنونيون عابوا عليهم طريقتهم في التأويل . والفلاسفة من المتأثرين بفلسفة أرسطو بوجه خاص ، عابوا عليهم مبادئهم الفلسفية (٣١٤) .

ـ الطب :

عني خلفاء العباسيين بالطب عناية كبيرة ، لاهميته بالنسبة لهم ، فهو علم اساسي دارت حوله العلوم التجريبية بكاملها . فمنذ عهد الخليفة المنصور اعتمد في هذا المجال على الطبيب جورجيس بن بختيشوع النسطوري من مدينة جنابيسابور ، ثم على تلميذه عيسى بن شهلا . وقد قام جورجيس أثناء اقامته في بغداد بتعريب كتب كثيرة في الطب عن الفارسية . أما بختيشوع بن جورجيس فقد خدم الهادي والرشيد الى ان توفي ، فقام ابنه جبرائيل بن بختيشوع مكانه ، وعاش حتى خلافة المأمون وقد استمرت أسرة بختيشوع في خدمة الدولة العباسية ، ما يقرب من ثلاثة قرون . فأقامت على التدريس في مدارس بغداد والتطبيب في مستشفياتها (٣١٥) .

والى جانب هذه الاسرة ، فقد نبغ في الطب والتأليف يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣ هـ) (٣١٦) وحنين بن اسحق (ت ٢٦٤ هـ) وثابت بن قره الحراني

(٣١٣) ـ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٢٢٧

ـ أحمد أمين : ظهر الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٣٢

(٣١٤) ـ دي بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٩٨ - ٩٩

(٣١٥) ـ ابن جلجل : طبقات الاطباء والحكماء ، من ص ٦٤ حتى ص ٢٧٦

(٣١٦) ـ عن مؤلفات يوحنا في الطب ، انظر ابن جلجل : المرجع السابق ، ص ٦٥ - ٦٦

(ت ٢٨٨ هـ) (٣١٧) وقسطا بن لوقا البعلبكي (ت ٢٨٨ هـ) (٣١٨) واسحق بن حنين
(ت ٢٩٨ هـ) (٣١٩) • وسنان بن ثابت بن قره (ت ٣٣١ هـ) ومحمد بن زكريا الرازي
(ت ٣١١ هـ) •

والى جانب ذلك ، فقد اصطنع العباسيون أطباء من الهند ، منهم متكة ،
وبازيكر ، وقلبرقل ، وسندباد (٣٢٠) •

كانت الدراسة في مدارس الطب على نوعين ، دراسة نظرية للأمراض وكيفية
علاجها ، ودراسة عملية ، تشتمل على التدريب والتمرين على كيفية التطبيق
والمعالجة ، ويكون ذلك بإشراف رئيس الأطباء • ولا يسمح لطلبة الطب ممارسة
المهنة إلا بعد اجتيازهم امتحانا ينظمه رئيس الأطباء ، فإذا اجتازوا الامتحان نالوا
إجازة بذلك وحق لهم بعد أن يقسموا اليمين ويمارسوا المهنة تحت رقابة الدولة ،
ويعمل الطبيب ضمن اختصاصه • فقد كان هناك طبيب عام ، وطبيب جراح ، وطبيب
فاصد ، وطبيب كحال ، وأسنانى ، وطبيب النساء ، وطبيب المجانين (٣٢١) •

وكانت أولى بؤادر كتب الطب العربية ، عدا الكتب المترجمة ، كتاب فردوس
الحكمة لعلى بن سهل الطبري (ت ٢٣٦ هـ) وهو استاذ أبي بكر الرازي ، وله
مؤلفات عديدة أخرى (٣٢٢) •

أما الرازي فشهرته ومهارته في الطب حديث الجميع • ومن أهم النظم التي
رسخها الرازي نظام التجربة الموجهة • ومن أشهر كتبه كتاب الحاوي ، وكتاب
المنصوري ، ورسالة في الجدري والحصبة ، وكتاب الحصى في الكلى والمثانة ، وكتاب

(٣١٧) - ابن جليل : المصدر السابق ، ص ٦٨ - ٧٦

(٣١٨) - جرجي زيدان : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ١٤٦ - ١٤٨

(٣١٩) - ابن النديم : المصدر السابق ، ص ١٤٥

(٣٢٠) - الجاحظ : البيان والتبيين ، جزء ١ ، ص ٧٨

(٣٢١) - ابن جليل : المرجع السابق ، ص ١٨٦

(٣٢٢) - الماحي : مقدمة في تاريخ الطب العربي •

دفع مضار الاغذية ، وكتاب الى من لا يحضره طبيب ، وكتاب برء ساعة ، وكتاب المرشد ، وكتاب الفائق في الطب ، وكتاب الطب الملوكي (٣٢٣) .

ومن أشهر رؤساء الطب سنان بن ثابت (ت ٣٣١ هـ) . فقد عقد امتحانا في عهد الخليفة المتوكل العباسي لاطباء بغداد رخص بعده لثمانية وستين طبيا بمزاولة مهنة الطب . وقد أمر كل طبيب بأن يحتفظ بصورة من تذكرة الدواء التي يعطيها للمريض ، لتقديمها الى الرئيس ليفحصها ويحكم فيما اذا كان العلاج متفقا مع القوانين . وكان ينزل العقاب بالطبيب اذا مات المريض بسبب اهماله او عدم كفايته (٣٢٤) .

كانت المداواة بالبيمارستانات وهو على نوعين :

آ - البيمارستان الثابت

ب - البيمارستان المحمول .

وقد بنى هارون الرشيد بيمارستانا بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وكذلك بنى البرامكة بيمارستانا . وأنشأ أحمد بن طولون بيمارستانا (٣٢٥) . وبنى الوزير علي بن عيسى آخر . وكان البيمارستان مقسوما الى قسمين منفصلين أحدهما عن الآخر ، قسم للذكور ، وقسم للإناث . وكل قسم من هذين القسمين مجهز بكل ما يحتاج من آلات وأدوات وأطباء ومستخدمين ، ويضم قاعات لمختلف الامراض الباطنية (٣٢٦) . وكان للبيمارستان رئيس يسمى ساعور البيمارستان ، ولكل

(٣٢٣) - انظر فرات فائق : ابو بكر الرازي ، ص ١٢٠

(٣٢٤) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٨٧ . من المعروف ان الخليفة المتوكل قتل سنة ٢٤٧ هـ ، وان سنان بن ثابت توفي سنة ٣٣١ هـ اي انه عاش بعد المتوكل حوالي اربع وثمانين سنة . ومن المؤكد انه يجب ليكون سنان رئيسا للاطباء ان يكون عمره لا يقل عن خمس وعشرين سنة ، فاذا كانت الحادثة المذكورة وقعت في نهاية عهد المتوكل ، فان سنان توفي وعمره يزيد عن ١٠٩ سنة . او ان تاريخ وفاته ورد خطأ .

(٣٢٥) - أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الاسلام ، ص ١٧٨ وص ٢٨٨

(٣٢٦) - زيدان : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ١٨٨

قسم من اقسامه رئيس ، وكان يلحق بالبيمارستان مدرسة يتلقى طلاب الطب علومهم فيها (٢٢٧) .

— علم الفلك والنجوم :

اهتم العرب في جاهليتهم بعلم الفلك ، لحاجتهم اليه . وكانت لهم ملاحظات فلكية كثيرة . وتوقف العمل بعلم الفلك تقريبا في عصر الراشدين والامويين ، ثم عاد نشاط الفلكيين منذ مطلع العصر العباسي . فهذا الخليفة المنصور يقرب اليه المنجمين ويستشيرهم في أمور عديدة . ومن أهم ما اعتمد عليه في التنجيم بناء مدينة بغداد فقد قام المهندسون بهندستها بحضور المنجمين نوبخت الفارسي ، وابراهيم بن محمد الفزاري وغيره . كما قام بوضع أساسها في وقت اختاره نوبخت وما شاء الله اليهودي (٢٢٨) .

كذلك اختار الاسماعيلية ابن حوشب لرئاسة دعوتهم في بلاد اليمن ، لانهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن في نشر الدعوة في اليمن (٢٢٩) .

أصبح المنجمون في العصر العباسي من موظفي الدولة الرسميين ، تصرف لهم الرواتب والارزاق كغيرهم . وأخذ الخلفاء يستشيرونهم في كثير من الامور الادارية والسياسية . ومما لاشك فيه ، أن اهتمام الخلفاء بهذا العلم كان لاسباب متعددة .

١ — ارتباط بعض أحكام الدين الاسلامي بالظواهر الفلكية (٢٣٠) .

٢ — ان الآيات القرآنية التي كانت تتحدث عن الاجرام السماوية وحركاتها ، دفعت المشتغلين بالامور الدينية الى الاهتمام بعلم الفلك (٢٣١) .

(٢٢٧) — أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الاسلام ، ص ١٨ — ١٩

— مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ، ص ١٤٤ — ١٤٥

(٢٢٨) — نلبنو : علم الفلك ، ص ١٤٣ — ١٤٥

(٢٢٩) — عمارة اليمني : تاريخ اليمن ، ص ١٤٠

(٢٣٠) — عباس الغزاوي : تاريخ علم الفلك في العراق ، وعلاقته بالافطار الاسلامية والعربية ، ص ٦

(٢٣١) — نلبنو : علم الفلك ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣

٣ - ان اهتمام الناس بالتنجيم ساعد على الاهتمام بالفلك ودراسته .

قام العرب بمجهودات قيمة في علم الفلك . ففي خلافة أبي جعفر المنصور ، قام أبو يحيى البطريق بنقل كتاب الاربع مقالات لبطليموس في صناعة النجوم (٣٣٢) ، وترجم كتاب (سدهاتنا) الذي عرف باسم السندهند .

اشتهر عدد من الفلكيين في عهد المهدي والرشيد والمأمون . فقد ألف ماشاء الله في الاسطرلاب ودوائره النحاسية ، وألف يحيى بن أبي منصور مع سند بن علي زيجا فلكيا . وألف موسى بن شاكر أزياحه المشهورة . ونهض ابناء موسى بن شاكر بحساب طول درجة من خط نصف النهار بناء على طلب المأمون (٣٣٣) . وألف احمد بن محمد الفرغاني كتاب المدخل في علم الافلاك الذي ترجم الى اللاتينية في القرن الثاني عشر (٣٣٤) . وقد اشتهر كثير غير هؤلاء بهذا العلم ، وساعدوا على تقدمه منهم على سبيل المثال لا الحصر ، ثابت بن قرة ، وحنين بن اسحق ، وسهل بن بشار ومحميد بن محمد السمرقندي . وجعفر بن عمر البلخي (٣٣٥) .

ويمكن ان نسجل هنا بعض ماحققه العرب من منجزات فلكية في هذه الفترة . وتبدأ تلك المنجزات بنقل المؤلفات الفلكية للامم السابقة الى اللغة العربية ، ككتب اليونان والكلدان والبابليين والهنود والسريان وغيرهم . ولم يكتفوا بالترجمة بل عملوا على تطوير تلك المؤلفات بما أضافوه اليها ، وبما صححوه من الاخطاء التي وقعت بها تلك الامم .

وكذلك فانهم عملوا على تطبيق ما عرفوه نظريا بالوجهة العملية . فحققوا نجاحا ملموسا (٣٣٦) . ومن جملة انجازاتهم في هذا المجال ، قياسهم لقوس من دائرة

(٣٣٢) - ابن القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٢

(٣٣٣) - طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ١١٢

(٣٣٤) - مجلة المقتطف ، عدد فبراير ١٩١١ ، جزء ٣ ، ص ١٤٧

(٣٣٥) - طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ١١٣

(٣٣٦) - طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ١١٥

نصف النهار (٣٣٧) ، وتقريرهم لحقيقة ان رؤية الكواكب عند الافق او بالقرب منها ، أكبر منها وهي عند السميت أو قريبا من وسط السماء (٣٣٨) . وكذلك فان ابن الهيثم أقر بأن ارتفاع القطب يساوي عرض المكان (٣٣٩) . كذلك فقد حسب العرب على يد الفلكي البتاني ميل فلك البروج على فلك معدل النهار ، فكان ٢٣° و ٣٥ دقيقة كما حسب طول السنة الشمسية ، وحسب بعد الشمس عن مركز الارض . ووضح مواقع عدد من النجوم . كما اكتشف العرب كروية الارض وحركتها حول الشمس (٣٤٠) .

قام العباسيون ببناء مراصد فلكية عديدة ، وقد كان المأمون اول من نهض بهذه المهمة فأنشأ دار رصد في الشماسية . وبنى في دمشق مرصدا آخر ، استخدم فيها آلات الرصد المعروفة (٣٤١) . وكذلك أنشأ بنو شاذلي مرصدا على طرف الجسر المتصل بباب الطاق ، واستخرجوا فيه حساب العرض الأكبر من عروض القمر (٣٤٢) . كما بنوا مرصد سامراء ، وفيه آلة ذات شكل كروي دائري تحمل صور النجوم ورموز الحيوانات في وسطها ، وتديرها قوة مائية (٣٤٣) . ومرصد ابن الاعلم (٣٤٤) .

أما أهم آلات الرصد عند العرب هو الاسطرلاب (٣٤٥) ، والحلقة الاعتدالية ، وذات الجيب (٣٤٦) . والربع المسطري ، والمزاويل الشمسية (٣٤٧) .

-
- (٣٣٧) - ثلثينو : علم الفلك ، ص ٢٨١
(٣٣٨) - طوفان : المرجع السابق ، ص ١١٧
(٣٣٩) - طوفان : المرجع السابق ، ص ١١٦
(٣٤٠) - مجلة المقتطف ، عدد فبراير ١٩١١ ، جزء ٣ ، ص ١٤٨
(٣٤١) - زيدان : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٣
(٣٤٢) - ناجي معروف : المراصد الفلكية ببغداد ، ص ١٢
(٣٤٣) - زيفريدهونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ١٢٢
(٣٤٤) - هو المرصد الذي كان يعمل به الفلكي صاحب الزيج علي بن الحسن أبو القاسم العلوي المعروف بابن الاعلم ، انظر - ابن القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٣٥
(٣٤٥) - عن وصف الاسطرلاب انظر ناجي معروف : المراصد الفلكية ، ص ٢٧
(٣٤٦) - حاجي خليفة : كشف الظنون ، جزء ١ ، ص ١٤٥ - ١٤٦
(٣٤٧) - محمد صديق الجليلي : المزاويل الشمسية ، مجلة التربية الاسلامية ، العدد ١٢ ، ص ٥١٩

— علم الرياضيات .

يشمل هذا العلم على فروع كثيرة ، منها علم الحساب وعلم الجبر وعلم الهندسة ، وعلم المثلثات وعلم الحيل . وكانت هذه العلوم ضرورية لكل صاحب علم . حتى انه كان يقال بأن الانسان لا يكون فيلسوفا ولا طبيا حاذقا الا بدراسة فروع الرياضيات (٣٤٨) كما كانت هناك علاقة وثيقة بين هذا العلم ، وعلم التنجيم والفلك .

وضع العرب مؤلفات في علوم الرياضيات المختلفة كان لها تأثير كبير على الحركة العلمية في الغرب ، ففي الحساب وضعت كتب متعددة ، كان منها كتاب في الجمع والتفريق ، وحساب الدور ، والحساب الهندي . وفي الثلاثين مسألة الغريبة . وكان ذلك بجهود العلماء الرياضيين محمد بن موسى الخوارزمي ، وابي كامل شجاع الحاسب ، وسانان بن الفتح الحراني ، وأحمد بن عمر الكرايسي ، ويعقوب بن محمد الرازي ، ويعقوب بن اسحق الكندي ، وابو حنيفة الدينوري ، وسلم بن علي المنجم (٣٤٩) .

أما في الجبر فيمكن ان نقول ، ان العرب اول من ألف في هذا العلم بصورة علمية منظمة . فقد أخذوا فكرة المعادلات غير المعينة من ديوفنطس ، فأضافوا اليها ووضحوها . واهتموا بالجذور الصماء ، فكان محمد بن موسى الخوارزمي أول من استخدم كلمة أصم للدلالة على العدد الذي ليس له جذر ، وانتقل معنى هذه الكلمة الى الغرب . كذلك فانه ألف كتاب الجبر والمقابلة الذي يعتبر مصدرا أساسيا اعتمد عليه كثيرون (٣٥٠) . وألف أبو كامل شجاع بن أسلم كتاب كمال الجبر وتمامه والزيادة في أصوله ، وكتاب الوصايا بالجبر والمقابلة . وكان من أبلغ الرياضيين في طريقة حل المعادلات الجبرية ، واستعمالها لحل المسائل الهندسية ،

(٣٤٨) — دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ص ٨٠

(٣٤٩) — ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٧١ — ٣٧٣ وص ٤٠٦ — القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٠٦

— طوقان : المرجع السابق ، ص ٢١١ — كحالة : معجم المؤلفين ، جزء ٢ ، ص ٣٣

(٣٥٠) — طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ١٥٩ — ١٦٠

وقد حل في مؤلفاته معادلات كثيرة بطرق لم يسبقه عالم اليها (٣٥١) * ولف أحمد ابن داؤد الدينوري كتاب الجبر والمقابلة (٣٥٢) * ولف ثابت بن قرة كتاب في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية (٣٥٣) وغيرهم كثيرون (٣٥٤) *

قام العرب بالهندسة بقسط لا بأس به ، ولكنه أقل مما قاموا به في الجبر * فقد ترجم العرب كتاب اقليدس في الهندسة الى اللغة العربية ، ودرسوه دراسة شاملة ، فشرحه بعضهم وعلق عليه ، واختصره آخرون ، وألفوا على نسقه ، وأضافوا اليها نظريات جديدة * فقد وضعوا نظرية الخطوط المتوازية ، وعرفوا علم تسطيح الكرة (٣٥٥) * وعلى رأس الكتب التي ألفها العرب في الهندسة ، كتاب المساحة والهندسة لابي كامل شجاع (٣٥٦) ، وكتاب اغراض كتاب اقليدس ليعقوب ابن اسحق الكندي ، الى جانب كتب اخرى متعددة تبلغ حوالي عشرين كتابا (٣٥٧) ، وكتاب الشكل الهندسي لمحمد بن موسى بن شاكر ، وكتاب الشكل المسدور والمستطيل لحسن بن موسى بن شاكر ، ولاخيهما الثالث أحمد مساهمات هندسية عملية (٣٥٨) * وكتاب في استخراج المسائل الهندسية ومدخل الى كتاب اقليدس لثابت بن قرة (٣٥٩) ، وكتاب المساحة لابن برزة الفضل بن محمد بن عبد الحميد (٣٦٠) * وكتاب تفسير المقالة العاشرة لكتاب الاصول لابي راهوية الارجاني (٣٦١) * ومن أهم ما يذكر للعرب تطبيقهم للمعارف والنظريات الهندسية على فن البناء ، فكانت الابنية الفخمة المتينة *

-
- (٣٥١) - طوفان : المرجع السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥
(٣٥٢) - حاجي خليفة : كشف الظنون ، جزء ٢ ، ص ١٤٠٧
(٣٥٣) - القفطي : المصدر السابق ، ص ١١٩ - ١٢٢
(٣٥٤) - ابن النديم : المصدر السابق ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ وص ٤٠٨ - القفطي : المصدر السابق ، ص ٧٧ - ٧٨
(٣٥٥) - حاجي خليفة : كشف الظنون ، جزء ١ ، ص ٤٠٣
(٣٥٦) - ابن النديم : الفهرست ، ص ٤٠٦
(٣٥٧) - القفطي : المصدر السابق ، ص ٣٧١
(٣٥٨) - ابن النديم : المصدر السابق ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ - جرجي زيدان : المرجع السابق ، جزء ٣ ، ص ١٩٠
(٣٥٩) - ابن النديم : المصدر السابق ، ص ٣٩٤
(٣٦٠) - ابن النديم : الفهرست ، ص ٤٠٥
(٣٦١) - طوفان : تراث العرب العلمي ، ص ٢١٠

أما علم المثلثات ، فقد عرف عند العرب بعلم الانساب ، وإلى العرب يعود الفضل في جعل هذا العلم علما منفصلا عن الفلك ، ومستقلا عن العلوم الرياضية الأساسية الأخرى ، فأصبحوا بحق المؤسسين الحقيقيين لعلم المثلثات ، حتى أن العلم اعتبر عربيا (٣٦٢) .

ويعتبر أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان المعروف بالبتاني من العلماء الذين ساعدوا على أن يصبح علم المثلثات علما مستقلا ، فهو الذي اكتشف غالبية النسب المثلثية ، كما تستخدم في الوقت الحاضر . وهو أول من ابتكر الجداول الرياضية لنظير المماس . ومن أهم مؤلفاته رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات (٣٦٣) . وكذلك نبغ في هذا العلم أبو الوفاء البوزجاني (٣٦٤) ، وأبو اسحق ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الحراني (٣٦٥) .

— التاريخ : —

يجعل ابن خلدون التاريخ علما ، ويعرفه تعريفا طويلا ، واضح العبارة ، جاء فيه : (أن التاريخ يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا) (٣٦٦) .

حين بدأ العرب بكتابة تاريخهم وجدوا أمامهم مصادر هامة تتمثل في القرآن الكريم وسنة الرسول والشعر والروايات . فكتبوا أول الامر في سيرة الرسول ومغازيه . وكان موطن هذه الدراسة المدينة (٣٦٧) . ولا نجد في غيرها من المدن

-
- (٣٦٢) — عبد الحليم منتصر : التراث العلمي العربي في الميزان ، مجلة الهلال ، العدد ٤ سنة ١٩٧٣
(٣٦٣) — أحمد شلبي : دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص ٧٠ — أحمد شوكت الشطي : مجموعة أبحاث عن تاريخ العلوم الرياضية ، ص ٣٥ — ٣٦ — طوقان : المرجع السابق ، ص ٢٤٦
(٣٦٤) — الدوميلي : العلم عند العرب ، ص ٢١١
(٣٦٥) — ابن القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٧٥
(٣٦٦) — المقدمة ، ص ١٢
(٣٦٧) — جب : المرجع السابق ، ص ١٤٧

علماء في المغازي الا في القرن الثاني الهجري (٣٦٨) . وكان تتاج هذه الدراسات كتاب السيرة والمغازي لابن اسحق ، وتهذيب السيرة لابن هشام . ثم نهض ابن سعد بكتابة الطبقات ، الذي أرخ فيها سيرة الرسول وسيرة الصحابة والتابعين . وقد احبا ابن سعد في كتابته لسيرة الرسول منحى احتذاه جميع كتاب السيرة الذين جاؤوا بعده .

ثم توسعت الكتابة حتى شملت التاريخ بالمفهوم العام . وكان جل جامعي الروايات التاريخية من الفقهاء والمحدثين . وتبدت في منتصف القرن الثالث ، الكتابة التاريخية بمعناها الواسع ، حيث اصبح التدوين جزءا لا يتجزأ من الثقافة الاسلامية . وجمعت الكتابة التاريخية بين مواد مستمدة من السيرة النبوية ودراسة تاريخ الامة الاسلامية (٣٦٩) . فكانت كتب الفتوح والتواريخ العامة وغيرها . فقد ألف البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) كتابه فتوح البلدان الذي يعتبر من المصادر التاريخية الهامة ، وكذلك كتابه انساب الاشراف . والدينوري (ت ٢٧٦ هـ) كتابه الامامة والسياسة ، وكتابه المعارف ، وكتابه عيون الاخبار ، واليعقوبي (ت ٢٨٢ هـ) كتاب التاريخ المعروف باسمه والذي يعتبر من المصادر التاريخية الهامة . وانطربي (ت ٣١٠ هـ) وكتابه تاريخ الامم والملوك من أمهات الكتب التاريخية وهو مصدر هام للاحداث التاريخية حتى سنة ٣٠١ هـ ، اعتمد عليه كثير من المؤرخين الذين أتوا بعده . ولاغرو فالطبري أكثر تحقيقا ممن سبقه من المؤرخين .

— الجغرافية :

خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة علمية هامة ، كانت خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم التي اكتسبوها من أسفارهم . ومما لا شك ان هذه الثروة لم تكن لو لم تنشأ الرحلات ، وقد ساعد على القيام بهذه الرحلات ونجاحها :

(٣٦٨) — نحيل القارئ في هذا المجال ، الى ما كتبه هاملتون جب من ص ١٤٣ حتى ١٧٢ — فرانز روزنثال : علم التاريخ عند العرب — عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب — حسين نصار : نشأة التدوين التاريخي عند العرب
(٣٦٩) — جب : المرجع السابق ، ص ١٥٣

١ - تأمين طرق التجارة تعبيدا وأمنا ، فلولا وجود الطرق المعبدة المريحة ، ولولا سيادة الامن في هذه الطرق لما كانت الرحلات •

٢ - اتساع نطاق التجارة في العصر العباسي ، وحاجة الحضارة الزاهية في بغداد الى منتجات الشرق وغيرها ، والربح الكبير الذي كان يحصل عليه التجار من وراء تجارتهم ، مهد السبيل أمام الكاشفين والرحالة •

قام عدد من الرحالة المسلمين برحلات كانت على درجة من الاهمية ، لما أسفرت عنه من كتابة مصادر أصيلة تعتبر ثروة كبيرة ، بسبب كونها خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم • ويعتبر ابن خرداذبة الذي عاش في النصف الاول من القرن الثالث الهجري من أقدم جغرافيين المسلمين ، ولكتابه المسالك والممالك أهمية كبيرة

أما اليعقوبي (ت ٢٨٢ هـ) ، فقد ترك لنا كتاب البلدان ، بعد أن قام برحلات طويلة في أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب • وعلى رأس هؤلاء الرحالة المسعودي (ت ٣٤٥ هـ) فقد زار كل أرجاء العالم المعروف في عصره وله كتب كثيرة ضاع معظمها وعلى رأس كتبه المتداولة ، كتاب مروج الذهب ومعادن الجواهر ، وكتاب التنبيه والإشراف • وكذلك فإن الهمداني (ت ٣٣٤ هـ) ألف لنا كتاب صفة جزيرة العرب • ولاننسى الاصطخري ، وابن بطالان ، وأبا زيد البلخي وابن حوقل وغيرهم •

٥ - الحركة العمرانية :

نشطت الحركة العمرانية في هذه الفترة العباسية ، وأسفر هذا النشاط عن بناء مدن متعددة في شرقي أراضي الخلافة وغربيها وشمالها في منطقة الثغور ، وسأقتصر على بناء مدينتين فقط هما مدينة بغداد ومدينة سامراء • ويجب ان نذكر ان تغيرات جوهرية دخلت في أساليب الفن المعماري • منها استعمال الاجر بدلا من الحجر ، والاكتاف بدلا من الاعمدة ، وتفضيل الزخارف الجصية على الزخارف الحجرية (٢٧٠) •

(٢٧٠) - أبو صالح الألفي : الفن الاسلامي ، اصوله ، فلسفته ، مدارس ، دار المعارف بمصر طبعة ثانية ، ص ١٦٤

كان لابد للخلافة العباسية من بناء عاصمة تليق بعظمتها ، فقرر الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور اتخاذ حاضرة له وسط مناطق خصبة سهل فيها الاتصال بمناطق الخلافة ، وتتوافر فيها سبل المعيشة (٣٧١) .

خرج الخليفة المنصور بنفسه يرتاد لها موزعا بالمواصفات المذكورة . فتنقل بأماكن عديدة ، فقد انحدر الى جرجرايا ، ثم صار الى بغداد ، ثم مضى الى الموصل ، ثم عاد الى بغداد فقال : هذا موضع معسكر صالح ، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء ، يأتينا فيها كل مافي البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك . وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقعة وما حول ذلك . فنزل وضرب عسكره على الصراة ، وخط المدينة ، ووكل بكل ربع قائدا (٣٧٢) . هذه رواية من روايات كثيرة ذكرها المؤرخون حول اختيار مكان عاصمة العباسيين ، ومما يقال في ذلك ان المنصور بعد أن أعجبه المكان ، أراد ان يتعرف على رأي أهالي المنطقة فيه . فدعا أهل هذه النواحي وسألهم عنها قائلا : وكيف هي في الحر والبرد والامطار وغيرها ، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم . فلم يكتف بذلك ، بل بعث رجالا من عنده فباتوا في هذه النواحي وأتوه بأخبارها ، فاستقر أمره عليه (٣٧٣) .

كان مكان بغداد قرية قديمة بناها بعض ملوك الفرس ، وتقع على الشاطئ الغربي لنهر دجلة ، في أعلى المكان الذي يلتقي فيه نهر الصراة بدجلة (٣٧٤) .

اختلف المؤرخون كثيرا حول اشتقاق لفظ بغداد ومعناه ، ولكنهم في كل تفسيراتهم لا يخرجون عن تحليلين ، كون الكلمة مركبة ، وأصلها فارسي . وقد سماها المنصور مدينة السلام (٣٧٥) .

(٣٧١) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٦٣

(٣٧٢) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٦١٤

(٣٧٣) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٦١٦ - ٦١٧

(٣٧٤) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٦١٨

(٣٧٥) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ ، من اجل اسمها ومعناه ،

انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ١ ، ص ٤٥٦ - مجلة المورد العراقية ، المجلد

الثامن ، العدد الرابع لسنة ١٤٠٠ هـ مقال عن بغداد مركز العلم والثقافة العالمية في القرون

الوسطى للدكتور جليل كمال الدين ، ص ٢٤٧

أمر المنصور باحضر المهندسين والبنائين والفعلة والصناع من النجاريين والحدادين من الشام والموصل والنجف والكوفة وواسط . وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة ، فجمعهم وتقدم اليهم ان يشرفوا على البناء (٣٧٦) .

وضع المنصور أساس مدينة بغداد في الوقت الذي اختاره المنجمون . بعد ان تأكد من رسمها . فقد أمر أن تخط طريق المدينة بالرماد ، ثم دخل من موضع كل باب ، ومر في طرقات المدينة ورحابها وهي مخطوطة بالرماد ، ثم امر ان يوضع على تلك الخطوط حب القطن ، ويصب عليه النفط ، وتوقد فيه النار ، فنظر اليه والنار تشتعل ، فوقف على رسم مدينته الجديدة (٣٧٧) .

كان البدء في حفر الاساس في سنة ١٤٥ هـ ، ووضع المنصور بيده أول لبنة قائلا : بسم الله والحمد لله ، والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ثم قال لرجاله : ابنوا على بركة الله (٣٧٨) . وشرع العمال في بناء سورها . وكان السور : ضاعفا ، الاول داخلي عرضه من أسفله خمسون ذراعا ومن أعلاه عشرون ذراعا . والآخر خارجي ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه كعرض السور الداخلي . يحيط به من الخارج خندق عميق أجري فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا . وعلى السور أبراج سمك كل منها خمسة أذرع . وبين السورين ستون ذراعا تسمى الفصيل (٣٧٩) .

كان للمدينة أربعة أبواب ، باب خراسان ، وباب البصرة ، وباب الكوفة ،

(٣٧٦) - ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٥٨ - مجلة المورد ، العدد السابق ، مقال

عن تخطيط مدينة بغداد للدكتور صبري فارس الهيتي ، ص ١٠

(٣٧٧) - مجلة المورد ، العدد والمقال السابق ، ص ١٠ - حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٦٩

(٣٧٨) - ياقوت الحموي : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٤٥٨

(٣٧٩) - الطبري : المصدر السابق جزء ٧ ، ص ٦١٩ - حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٧٠ - ٣٧٢ - مجلة المورد : العدد والمقال السابق ، ص ١٠

وباب الشام • وكان بين البابين دهليز ورجبة توصل الى الفصيل الدائر بين السورين ، ويسمى الاول باب الفصيل والثاني باب المدينة (٣٨٠) •

كان قطر مدينة بغداد من باب خراسان الى باب الكوفة ٢٢٠٠ ذراع • وقد بنى المنصور قصره الذي يعرف باسم قصر الذهب وجامعه في وسط المدينة المدورة ، أي في مركزها • • حيث يتفرع عن هذا المركز أربعة شوارع رئيسية منظمة متجهة خارج المدينة على شكل محاور الدائرة حتى تنتهي الى الخندق (٣٨١) • ومد اليها قناتين من الماء ، احدهما من نهر دجيل ، والثانية من نهر كرخايا ، استخدمها لتوزيع الماء في الشوارع والدروب والارباض (٣٨٢) • ثم تطورت العاصمة ببناء ضاحيتي الرصافة في الشرق (٣٨٣) والكرخ في الغرب • فجعلت الاولى بمثابة ثكنات للجيش في البداية ، ولكنها ما لبثت ان توسعت وظهرت فيها الحدائق والمنتزهات والميادين الواسعة والمباني الفخمة • والثانية بمثابة اسواق للمدينة (٣٨٤) •

عرف الجانب الغربي لبغداد في العصور الاسلامية باسم الزوراء • وقد اختلف في سبب هذه التسمية • ف قيل انها سميت كذلك لازورار قبلتها • كما قيل ان المنصور لما عمرها ، لم يجعل الابواب الداخلية على سمت الابواب الخارجية • وقيل أيضا لازورار نهر دجلة عند مروره بها ، أو لانحراف محاريب مساجدها • على حين يسمى الجانب الشرقي الروحاء ، لانبساط مجرى دجله عنده (٣٨٥) • وقد سميت أيضا المدينة المدورة (٣٨٦) •

عني المنصور بنظافة مدينته عناية كبيرة • فكانت تكنس شوارعها ورحابها في

(٣٨٠) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٧١ - مجلة المورد ، العدد والمقال السابق ، ص ١٠

(٣٨١) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٧١ - ٣٧٢

(٣٨٢) - ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٦٠

(٣٨٣) - انظر عن بناء الرصافة : المورد ، ص ١٤ - ١٦

(٣٨٤) - انظر الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٦٥٣ - ٦٥٤

(٣٨٥) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٦٧ - مجلة المورد ، ص ١١

(٣٨٦) - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٦٥١

كل يوم ، ويحمل التراب خارجها (٣٨٧) . وكان اهتمام المنصور بها يتناسب مع النفقات الكبيرة التي انفقت في سبيل اشادة مثل هذا البناء الضخم ، وعلى الرغم من اختلاف الروايات في تقدير تكاليف البناء ، فان الارجح ان تكاليفها بلغت ١٨ مليون دينار من الذهب (٣٨٨) ، ويجب ان لا ننظر الى هذا الرقم بضوء قيمته الشرائسية الحالية ، بل حسب قيمته في عهد المنصور ، حين كان ثمن الكبش درهما واحدا (٣٨٩) .

ب - مدينة سامراء :

اتفق المؤرخون على سبب قيام المعتصم ببناء مدينة سامراء ، وملخصها ان أهالي بغداد شكوا الى المعتصم من عنت الاتراك وعسفهم ، وهدوده بقتاله بسهام السحر ، فأعلن لهم المنصور ، بأنه لا طاقة له على قتالهم ، وقرر اتخاذ عاصمة جديدة له يسكن بها مع جنده . فقرر اتخاذ مدينة سامراء .

كان موضع سامراء قبل بنائها مرتادا من قبل خلفاء العباسيين ، وبقال ان ابا العباس شرع ببناء مدينة له في منطقة لم يتح لها الظهور ، ثم بنى الرشيد فيها قصرا وحفر عندها نهرا سماه القاطول . ثم بنى المعتصم في ذلك المكان أيضا قصرا أعطاه لقائده التركي أشناس . وقيل ان هذا المكان كان عامرا في العصور القديمة ، وكان فيه مدينة لسام بن نوح . وقيل انها كانت مدينة عتيقة من مدن الفرس (٣٩٠) .

تقع سامراء على نهر القاطول على مسافة مائة كيلو متر عن شمال بغداد بينها وبين تكريت شرقي نهر دجلة . أما أسمها فيقال انها سميت باسم سر من رأى ، فخففها الناس وقالوا سامراء (٣٩١) . شرع المنصور في تخطيط حاضرتة الجديدة سنة ٢٢١ هـ ، فأحضر العمال والصناع وأرباب المهن من سائر الامصار الاسلامية لهذه المهمة . فوضع أساس قصره ، وجعل للاتراك قطائع خاصة بهم ، ولعلمائه من

(٣٨٧) - ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٦ .

(٣٨٨) - انظر حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٧٩ نقلا عن الطبري .

(٣٨٩) - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ١ ، ص ٤٥٩ .

(٣٩٠) - انظر عن ذلك ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

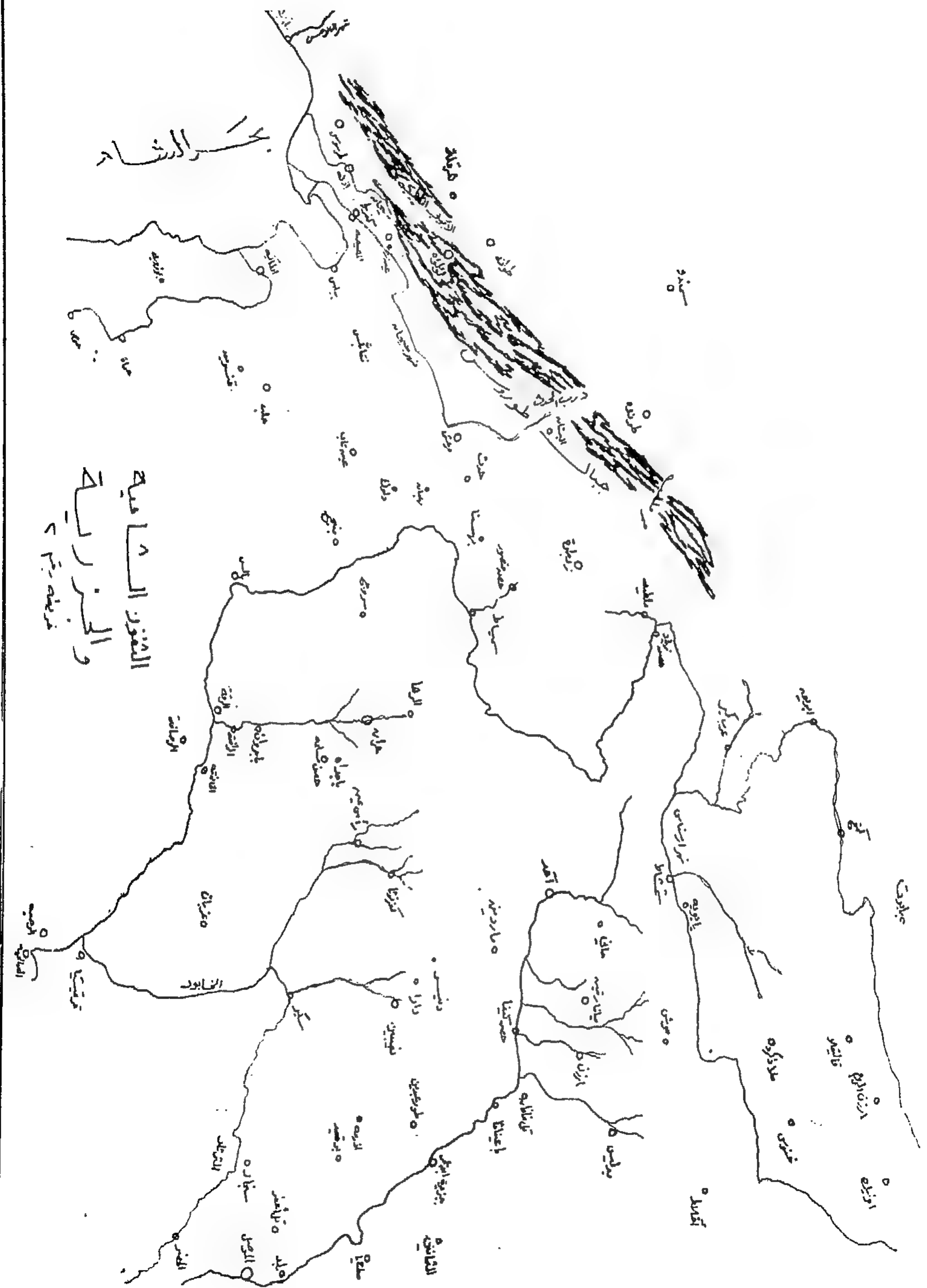
(٣٩١) - ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٣ .

أهل خراسان ومن المغاربة • وأفرد للتجار وأرباب الحرف والصناعات أسواقا خاصة • وبني فيها مسجدا جامعاً فخماً ، واشتق من دجله قناتين أدخلهما المدينة ، وجعلهما تمران من الجامع ، وتخللان شوارع سامراء (٣٩٢) •

نقل المعتصم الى مدينته الاشجار والثمار (٣٩٣) وبني بها عددا من القصور الجليلة ، وكذلك فعل الخليفة المتوكل ، ومن أشهر هذه القصور ، القصر المعروف بالسروس ، الذي أنفق المتوكل على بنائه ثلاثين مليون درهم ، وقصر المختار الذي بلغت تكاليفه خمسة ملايين درهم ، وقصر الوحيد وتكاليفه مليوناً درهم ، والجعفري عشرة ملايين درهم ، والغريب أيضا عشرة آلاف درهم ، ويعدد ياقوت الحموي القصور حتى تبلغ سبعة عشر قصرا (٣٩٤) •

يرى ياقوت الحموي بأن سر من رأى مازالت في علو وعمارة منذ أيام المعتصم حتى آخر أيام المنتصر بن المتوكل ، ثم بدأت بالتراجع منذ عهد المستعين حين قويت شوكة الأتراك ، واستبدوا بالملك والتولية والعزل ، بالإضافة الى الخلاف بين رؤسائهم • وبقيت كذلك حتى غادرها الخليفة المعتضد بالله الى بغداد • فبدأ الخراب يمتد اليها (٣٩٥) ، ولم يبق فيها الا موضع المشهد ، الذي ترى الشيعة ان به سرداب القائم المهدي ، ومحلة اخرى بعيدة عنها يقال لها كرخ سامراء (٣٩٦) •

-
- (٣٩٢) - ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٥
(٣٩٣) - حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٨١
(٣٩٤) - ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٤ - ١٧٥
(٣٩٥) - ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٦
(٣٩٦) - ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ١٧٦



المعز الساعية
والجزر الساعية

خريطة رسمت

جبل الشاه

البحر

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

1000

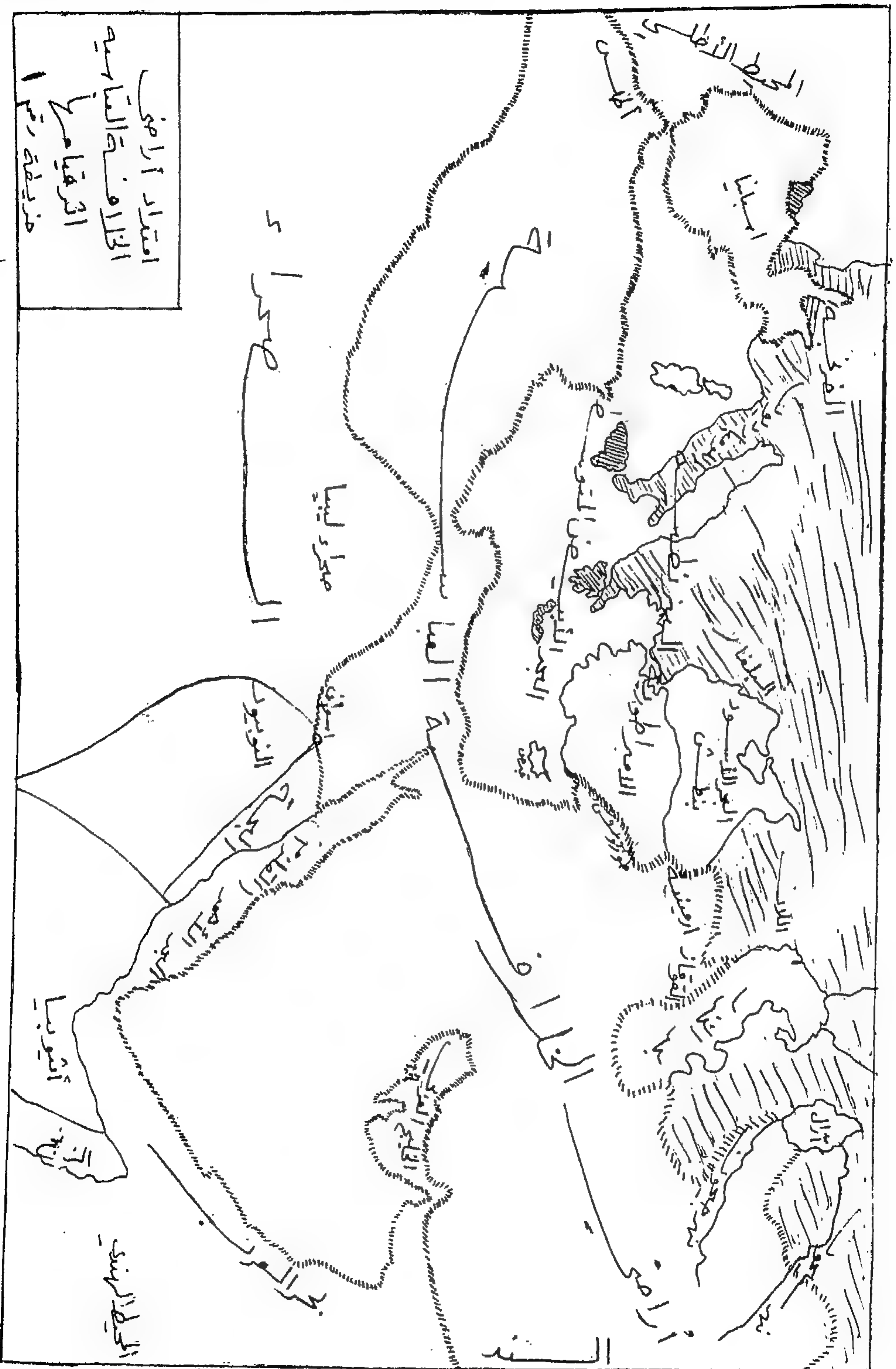
1000

1000

1000

1000

1000



امتداد أراضي
الخلافة العباسية
الترقية مسرا
خريطة رقعة

المصادر والمراجع

أ - المصادر الخطية

ب - المصادر المطبوعة

ج - المراجع العربية

د - المراجع الاوربية

هـ - الدوريات

أ - المصادر الخطية

- ١ - ابن ظافر الازدي (ت ٦٢٣ هـ) الدول المنقطعة او اخبار الزمان في تاريخ بني العباس ، مخطوطة مصورة بدار الكتب رقم ٨٩٠ تاريخ .
- ٢ - بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوطة مصورة بجامعة القاهرة رقم ٥٤٠٢٦ - ٥٤٠٢٧ .
- ٣ - الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) مخطوطة تاريخ الاسلام بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ .
- ٤ - ابن شداد (ت ٦٨٤ هـ) الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، مخطوطة مصورة بجامعة الدول العربية رقم ٤٣ تاريخ .
- ٥ - ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) تاريخ دمشق او التاريخ الكبير ، مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق تسعة عشر جزءا تبدأ من رقم ٣٣٦٦ حتى ٣٣٨٤ .
- ٦ - ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) مسالك الابصار في ممالك الامصار ، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ و ٥٥٩ معارف عامة .
- ٧ - العيني : (ت ٨٥٥ هـ) عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ و ٥٥٩ معارف عامة .
- ٨ - ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ) بغية الطلب في تاريخ حلب ، مخطوطة مصورة عن نسخة احمد الثالث ، جامعة الدول العربية ، معهد المخطوطات رقم ٩٠ تاريخ .
- ٩ - المقرئزي (ت ٨٤٥ هـ) المقفى في تاريخ مصر والواردين اليها ، نسخة مصورة عن مجلدة باريس في مكتبة الدكتور سهيل زكار .
- ١٠ - النويري : (ت ٧٣٢ هـ) : نهاية الارب في فنون الادب ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

ب - المصادر المطبوعة

- ١ - ابن الاثير (ت ٦٣٠) : الكامل في التاريخ ، طبعة المنيرية ١٣٥٧ هـ ، وطبعة دار صادر بيروت ١٩٥٧ م .
 - ٢ - ابو زكريا الازدي (٣٣٤ هـ) : تاريخ الموصل ، تحقيق دكتور علي حبيب ، طبعة المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ١٩٦٧ .
 - ٣ - ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٧ هـ) : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥ .
 - ٤ - ابن تغري بردي الاتابكي (ت ٨٧٤ هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الطبعة الاولى دار الكتب سنة ١٣٥١ هـ .
 - ٥ - ابن سعيد الاندلسي (ت ٦٧٣ هـ) : المغرب في حلى المغرب ، عني بنشرة زكي محمد حسن ، وشوقي ضيف وسيدة كاشف . الجزء الاول من القسم الخاص بمصر ، مطبعة جامعة فؤاد الاول سنة ١٩٥٣ م .
 - ٦ - الانطاكي (ت ٤٥٨ هـ) : صلة كتاب اوتبخا المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، من سلسلة Patrologia Orientalis طبعة باريس ١٩٣٢ م .
 - ٧ - الاصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) : الاغاني ، طبعة بولاق .
 - ٨ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ، القاهرة ١٩٥٠ .
 - ٩ - الاصطخري : (ت ٣٤٠ هـ) صور الاقاليم ، طبعة ليدن ١٩٦٧ .
 - ١٠ - البحتري (ت ٢٨٤ هـ) : ديوان البحتري ، مطبعة الجوائب القسطنطينية ، سنة ١٣٠٠ .
 - ١١ - البيروني (ت ٤٤٠ هـ) : الاثار الباقية من القرون الخالية ، ليبزغ ١٩٢٣ .
 - ١٢ - سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨ هـ) : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ،
- ٤١٧ - العصر العباسي م - ٢٧

ويليه تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ، طبعة بيروت ، مطبعة الالباء اليسوعيين
سنة ١٩٠٩ .

١٣ - ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ) : تحفة النظار وعجائب الاسفار ، الطبعة الاولى
بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ .

١٤ - الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) : تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، مطبعة
السفاد ، القاهرة ١٣٤٩ هـ .

١٥ - ابن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٨ هـ) : مرصد الاطلاع على اسماء الامكنة
والبقاع ، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ،
عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الاولى ١٩٥٤ م .

١٦ - البغدادي (ت ٤٢٩ هـ) : الفرق بين الفرق ، علق عليه محمد بدر ، طبعة
مصر ١٣٢٨ ، وطبعة دار الافاق الجديدة ، بيروت .

١٧ - ابن الساعي البغدادي (ت ٦٧٤ هـ) : اخبار الخلفاء ، أو مختصر اخبار
الخلفاء ، المطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٣٠٩ هـ .

١٨ - البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) فتوح البلدان ، طبعة بريل ١٨٦٦ هـ .

١٩ - عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، طبعة دمشق ١٣٣١ هـ

٢٠ - البلوي (ت في القرن الرابع الهجري) : سيرة احمد بن طولون ، تحقيق محمد
كرد علي ، نشر المكتبة العربية في دمشق ، مطبعة الترقى ١٣٥٨ .

٢١ - التنوخي (ت ٣٨٤ هـ) : جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة واخبار
المذاكرة ، تصحيح مرجليوث مطبعة أمين هندية
بمصر ١٩٢١ م

٢٢ - _____ : المستجد من فعاليات الاجواد ، تحقيق ونشر
محمد كرد علي ، مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤٦ .

٢٣ - _____ : الفرج بعد الشدة ، جزآن ، مطبعة الهلال
بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٤

٢٤ - الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) : يتيمة الدهر ، مطبعة الصاوي ، الطبعة الاولى
١٣٥٢ وطبعة دار الكتب العلمية

- ٢٥ - _____ : لطائف المعارف ، تحقيق ابراهيم الابياري ،
وحسن كامل الصيرفي ، دار احياء الكتب العربية ،
عيسى البابي وشركاه سنة ١٩٦٠
- ٢٦ - بنيامين التطيلي (ت ٥٦٩ هـ) : الرحلة ، ترجمها عن العبرية عزرا حداد ،
المطبعة الشرقية بفداد ١٩٤٥ م .
- ٢٧ - الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) : البيان والتبيين وأهم الرسائل ، المطبعة الكاثوليكية
بيروت لبنان ١٩٥٩ ، وطبعة دار الكتب العلمية
بيروت
- ٢٨ - _____ : فضائل الاتراك وما اختصوا به من الشجاعة وعلو
الهمة وحسن البلاء في خدمة الاسلام ، المطبعة
العمومية بمصر ١٨٩٨ م
- ٢٩ - _____ : المحاسن والاضداد ، الطبعة الاولى ، مطبعة
الفتوح الادبية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ
- ٣٠ - _____ : رسائل الجاحظ ، نشر فان فلوطن
- ٣١ - الجهشياري (ت ٣٣١ هـ) : الوزراء والكتاب ، حققه ووضع فهرسه مصطفى
السقا ، و ابراهيم الابياري والشلبي ، مطبعة البابي ، القاهرة ١٣٥٧ هـ .
- ٣٢ - ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، طبعة حيدر آباد
١٣٥٩ م .
- ٣٣ - قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠ هـ) : نبد من كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، وهو
يلي كتاب ابن خرداذبة المسالك والممالك ، طبعة ليدن ١٨٨٩ .
- ٣٤ - ابن جلجل (ت بعد سنة ٣٨٤ هـ) : طبقات الاطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد
سيد ، المعهد العلمي الفرنسي القاهرة ١٩٠٨ م
- ٣٥ - ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) : معجم الادباء ، نشر مرغليوث ، مطبوعات دار
المأمون طبعة ١٩٣٦ وطبعه دار احياء
التراث العربي بيروت

٣٦ - _____ : معجم البلدان الطبعة الاولى مطبعة

السعادة القاهرة ١٣٢٤ هـ ، وطبعة

لايزغ ١٨٦٧ م ، وطبعة دار صادر

بيروت

٣٧ - عبد الله بن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز على مارواه الامام مالك بن
انس واصحابه ، نشر وتوزيع مكتبة ربيع بحلب .

٣٨ - ابن حوقل (ت ٣٨٠ هـ) صورة الارض ، ليدن .

٣٩ - ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) الفصل في الملل والنحل ، وبهامشه الملل والنحل
لشهرستاني المطبعة الادبية ، القاهرة ١٣١٧ هـ .

٤٠ - ابو فراس الحمداني (ت ٣٥٧ هـ) ديوان ابي فراس الحمداني ، تحقيق سامي
الدهان ، مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٤٤ م .

٤١ - ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) : مقدمة ، منشورات الاعلمي بيروت ١٩٧١ ،
ونشرة دار الشعب .

٤٢ - _____ : العبر وديوان المبتدا والخبر ، طبعة بولاق
١٢٨٤ ، ومؤسسة الاعلمي بيروت

٤٣ - ابن خرداذبه (ت تقريبا سنة ٣٠٠) المسالك والممالك ، ويليه نبذ من كتاب
الخراج وصناعة الكتابة لابي الفرج قدامة بن جعفر ، طبعة ليدن ١٨٨٩ م .

٤٤ - ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) : وفيات الاعيان ، وانباء الزمان ، تحقيق محمد
محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة العربية مصر ١٩٤٨ م وطبعة دار صادر
بيروت .

٤٥ - الخوارزمي (ت ٣٨٧ هـ) مفاتيح العلوم ، المطبعة المنيرية القاهرة .

٤٦ - حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ) : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ،
استانبول ١٩٤١ .

٤٧ - الدواداري (ت في القرن الثامن بعد سنة ٧٣٦ هـ) : الدرة المضيئة في اخبار
الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، وهو الجزء السادس من كتاب
كنز الدرر وجامع الغرر ، طبعة القاهرة ١٩٦١ .

- ٤٨ - ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) : المعارف ، تحقيق ثروت عكاشه ، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر ١٩٦٩
- ٤٩ - _____ : الامامة والسياسية، مطبعة النيل ١٩٠٤
- ٥٠ - _____ : عيون الاخبار ، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب ، طبعة ١٩٦٣ م
- ٥١ - ابو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢ أو ٢٩٠ هـ) : الاخبار الطوال ، طبعة ليدن ١٨٨٨ م .
- ٥٢ - الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) : دول الاسلام ، طبعة حيدر اباد سنة ١٣٦٥ هـ وطبعة الهيئة المصرية للكتاب .
- ٥٣ - ظهير الدين الروذراوري (ت ٤٨٨ هـ) ذيل تجارب الامم ، طبعة القاهرة ١٩١٤ م
- ٥٤ - ابن رسته (ت بعد ٢٩٠) الاعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ م .
- ٥٥ - الربيعي (ت ٤٤٤ هـ) فضائل الشام ودمشق ، تحقيق المنجد مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٠ م .
- ٥٦ - ابن عبد ربه (ت ٣٢٧ هـ) العقد الفريد ، مطبعة الوقائع المصرية ، طبعة سنة ١٢٩٣ هـ وطبعة دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٥ م .
- ٥٧ - السيوطي (ت ٩١١ هـ) : تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين ، وبهامشه كتاب آثار الاول في ترتيب الدول طبعة المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣٠٥
- ٥٨ - _____ : حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ، طبعة المطبعة الشرفيه ١٣٢٧ هـ
- ٥٩ - ثابت بن سنان وابن العديم : تاريخ اخبار القرامطة ، وترجمة الحسن الاعصم القرمطي ، تحقيق سهيل زكار ، طبعة دار الامانة بيروت ١٩٧١ م .
- ٦٠ - الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) الملل والنحل على هامش ابن حزم الفصل في الملل والنحل ، المطبعة الادبية بمصر سنة ١٣١٧ هـ .
- ٦١ - ابن الشحنة محب الدين ابو الفضل محمد (ت ٨٩٠ هـ) : الدر المنتخب في تاريخ مملكه حلب ، طبعة بيروت ١٩٠٩

٦٢ - الشابستى (ت ٣٨٨ هـ) : الديارات تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف بغداد ١٩٥١ .

٦٣ - الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) : امراء دمشق في الاسلام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، طبعة دمشق ١٩٥٥ م .

٦٤ - الصولي (ت ٣٣٥ هـ) اخبار الراضي بالله ، والمتقي لله ، وهو جزء من كتاب الاوراق ، مطبعة الصاوي ، درب الجمايز ، مصر ١٩٣٥ وطبعة دار المسيرة بيروت .

٦٥ - الصابىء (ت ٤٤٨ هـ) تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٥٨ م .

٦٦ - الطبري (ت ٣١٠ هـ) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ .

٦٧ - ابن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ) الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار بيروت ١٩٦٦ م .

٦٨ - ابن طيفور (ت ٢٨٠ هـ) تاريخ بغداد ، طبعة ليبزغ ١٩٠٨ .

٦٩ - ابن طولون (ت ٩٥٣ هـ) : قضاة دمشق ، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٦ م .

٧٠ - ابن العميد (ت ٦٧٢ هـ) تاريخ المسلمين ، طبعة ليدن ١٠٣٤ هـ .

٧١ - ابن العبري (ت ٦٨٤ أو ٦٨٥ هـ) تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين بيروت ١٨٩٠ .

٧٢ - ابو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) : اثار الاول في ترتيب الدول وهو بهامش تاريخ السيوطي مطبعة مصر ١٣٠٥ .

٧٣ - ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ) : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، طبعة المعهد الفرنسي ١٩٥١ م .

٧٤ - صاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) نصره مذاهب الزيدية ، تحقيق الدكتور ناجي حسن ، مطبعة الجامعة بغداد .

- ٧٥ - العمري (ت ٧٤٩ هـ) : مسالك الابصار في ممالك الامصار ، الجزء الاول ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .
- ٧٦ - الفزالي (ت ٥٠٥ هـ) احياء علوم الدين ، اربعة اجزاء القاهرة ١٩٣٩ م .
- ٧٧ - ابن عساكر (ت ٥٧٥ هـ) : خطط دمشق ، المجلد الاول والثانية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات الجمع العلمي العربي بدمشق .
- ٧٨ - ابن فضلان : رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، الطبعة الثانية .
- ٧٩ - أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ) : تاريخ أبي الفداء ، مطبعة القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ، وطبعة دار المعرفة بيروت .
- ٨٠ - ابن الفقيه (ت ٢٩٠ هـ) مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٩٦٧ م .
- ٨١ - القفطي (ت ٦٤٦ هـ) اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ليبزج ١٣٢٠ هـ .
- ٨٢ - القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) : صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، ١٤ جزءا ، المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٣٣٥ هـ .
- ٨٣ - ابن دحية الكلبى (ت ٦٣٣ هـ) كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، تصحيح عباس العزاوي ، مطبعة المعارف بغداد ١٣٦٥ هـ .
- ٨٤ - الكندي (ت ٣٥٠ هـ) الولاة وكتب القضاة ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ .
- ٨٥ - ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية في التاريخ ، مطبعة السعادة في مصر
- ٨٦ - المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ وطبعة مطبعة السعادة بمصر تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ١٩٦٤
- ٨٧ - _____ : التنبيه والاشراف ، دار الصاوي للطبع والنشر ١٩٣٨ وطبعة دار التراث بيروت
- ٨٨ - مسكويه (ت ٤٢١ هـ) : تجارب الامم ، مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر ١٩١٤ .
- ٨٩ - مؤلف مجهول : العيون والحدائق ، الجزء الاول ، والجزء الثالث ، والرابع بقسميه الاول والثاني .

٩٠ - المقرئزى (ت ٨٤٥ هـ) : اتعاظ الءنفا باءبار الائمة الفاطمىىن الءلفاء نشر الشىال ، طبعة دار الفكر العربى ١٩٤٨ م ، وطبعة المجلس الاعلى للشؤون الاسلامىة القاهرة ١٩٦٧ م

٩١ - _____ : المواظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، اءزاء ، مطبعة النيل بمصر ١٣٢٤ هـ

٩٢ - _____ : اغائة الامة بكشف الفمة ، نشره محمد مصطفى زىاءة وءمال الءىن الشىال مطبعة لءنة التألىف والترءمة والنشر ١٩٤٦

٩٣ - _____ : النزاع والتءاصم فىما بىن بنى أمىة وبنى هاشم ، المطبعة الابراهىمىة ١٩٣٧

٩٤ - المقدسى مطهر بن طاهر (من علماء القرن الرابع) : البءء والتارىء المنسوب الى ابى زىء اءمء بن سهل البلخى ، مكتبة المثنى بءءاء ، طبعة مءىنة شالون بمطبعة برطونء سنة ١٩١٩ م .

٩٥ - المقدسى شمس الءىن ابو عبءالله المءروف بالبشارى (ت ٣٨٧ هـ) : اءسن التءاسىم فى مءرفة الاقالىم ، طبعة لىءن ١٩٠٦ .

٩٦ - ابن المعمار الءنبلى : كتاب الفتوة بءءاء ١٩٦٠ .

٩٧ - الماورءى (ت ٤٥٠ هـ) الاحكام السلطانىة ، طبعة مصر ١٢٩٨ .

٩٨ - المقرئ (ت ١٠٤١ هـ) نفء الطىب من غصن الانءلس الرطىب ، ءءقىق محمد مءىى الءىن عبء الءمىء ، دار الكتاب العربى ، بىروت .

٩٩ - ابن المءتز : ءىوان ابن المءتز

١٠٠ - النرشخى : تارىء بءارى ترءمة عربىة القاهرة ١٩٦٥ .

١٠١ - القاضى النعمان (ت ٣٦٣ هـ) : افتتاع الءعوة ، ءءقىق فرءات الءشراوى ، الشركة التونسىة للتوزىع .

١٠٢ - _____ : المءالس والمساىرات ءءقىق الءبىب الفقى، وابراهىم شىبوح ، ومحمد الءعلاوى،

طبع المطبعة الرسمية للجمهورية
التونسية ١٩٧٨

١٠٣ - النويري (ت ٧٣٢ هـ) : نهاية الارب في فنون العرب ، مطبعة دار الكتب
المصرية ١٩٢٥ .

١٠٤ - ابن النديم (ت ٣٧٧ هـ) الفهرست ، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ .

١٠٥ - النيسابوري : استتار الامام ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، المجلد
الرابع ، الجزء الثاني مايو ١٩٣٦ ، لايفانوف .

١٠٦ - الهمداني (ت ٥٢١ هـ) تكملة تاريخ الطبري ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ،
الطبعة الثانية ١٩٦١ م .

١٠٧ - ابن الوردي (ت ٧٥٠ هـ) : تاريخه ، المطبعة الوهبية ١٢٨٥ هـ .

١٠٨ - اليعقوبي (ت بعد ٧٩٢ هـ) : تاريخ اليعقوبي ، مطبعة النجف ١٣٥٨ هـ

١٠٩ - _____ : البلدان مع كتاب الاعلاق النفسية لابن
رسته ، لندن ١٨٩١

١١٠ - محمد بن محمد اليماني : سيرة جعفر ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ، المجلد
الرابع الجزء الثاني ، لايفانوف .

١١١ - أبو يوسف (ت ١٩٢ هـ) : كتاب الخراج ، الطبعة الاولى ، المطبعة الاميرية
ببولاق سنة ١٣٠٢ هـ .



ج - المراجع العربية

- ١ - أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ٤ أجزاء ، طبعة القاهرة ١٩٤٥
- ٢ - ——— : ضحى الاسلام ، الطبعة السابعة مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٦
- ٣ - ——— : فجر الاسلام ، الطبعة العاشرة ١٩٦٥
- ٤ - أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ٥ - عواد مجيد الأعظمي : تراث العرب العمراني في فلسطين في ظل الحكم الاسلامي (المجلة التاريخية العراقية للتاريخ والآثار العدد الثالث سنة ١٩٧٤ م .
- ٦ - أبو صالح الالفى : الفن الاسلامي ، أصوله فلسفته مدارسه ، دار المعارف بمصر ، طبعة ثانية .
- ٧ - أحمد بدر : دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها ، جزء ١ ، طبعة دمشق ١٩٦٩ م .
- ٨ - مصطفى طه بدر : مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٤ م .
- ٩ - موسى الوف البعلبكي : تاريخ بعلبك ، بيروت ١٩٢٦ .
- ١٠ - دي بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية نقله الى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٣٨ .
- ١١ - أمينة بيطار : الحياة السياسية في بلاد الشام منذ قيام الخلافة العباسية ، حتى الفتح الفاطمي
- ١٢ - ——— : موقف القبائل العربية في الشام والعراق من الدولة الفاطمية
- ١٣ - عارف تامر : القرامطة أصلهم نشأتهم تاريخهم حروبهم ، طبعة دار الكاتب العربي بيروت .

- ١٤ - عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ، الامبراطور يوحنا تزيماكس وسياسته الشرقية طبعة ١٩٦٦
- ١٥ - _____ : الامبراطور تقفور فوكاس واسترجاع الاراضي المقدسة ، طبعة الاسكندرية ١٩٥٩ م
- ١٦ - ترتون : أهل الذمة في الاسلام ، ترجمة حسن حبشي ، طبع ونشر دار الفكر العربي ١٩٤٩ .
- ١٧ - هاملتون جب : دراسات في حضارة الاسلام : دار العلم للملايين بيروت .
- ١٨ - محمد صديق الجليلي : المزاويل الشمسية ، مجلة التربية الاسلامية ، العدد ١٢ .
- ١٩ - جولد تسيهر : المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ، ترجمة علي حسن عبد القادر ، القاهرة ١٩٤٤ م .
- ٢٠ - بيتشوف الجرمانى : تحف الانباء في تاريخ حلب الشهباء ، بيروت ١٨٨٠ م .
- ٢١ - فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، طبعة دار الثقافة بيروت ١٩٥٩ م
- ٢٢ - _____ : لبنان في التاريخ منذ اقدم العصور حتى أيامنا ، ترجمة انيس فريجة ، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، نيويورك - بيروت ١٩٥٩
- ٢٣ - _____ : تاريخ العرب ، ٣ أجزاء ، طبعة دار الكشاف للنشر ، القاهرة طبعة اولى ١٩٤٨
- ٢٤ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ١٩٦٤
- ٢٥ - _____ : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤
- ٢٦ - حسن ابراهيم حسن ، وطه شرف : عبيد الله المهدي ، امام الشيعة الاسماعيلية ، ومؤسس الدولة الفاطمية ، الازهر ١٩٤٧ م .
- ٢٧ - زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، الطبعة الاولى ١٩٤٨ م .

- ٢٨ - خاشع المعاضيدي : دولة بني عقيل في الموصل من سنة ٣٨٠ - ٤٨٩ هـ ،
مطبعة شفيق بغداد سنة ١٩٦٨ م .
- ٢٩ - مجيد خدوري : الصلات الدبلوماسية بين هارون الرشيد وشارلمان ،
بغداد ١٩٣٩ م .
- ٣٠ - دي خويه : القرامطة نشأتهم دولتهم ، وعلاقاتهم بالفاطميين ، ترجمة وتحقيق
حسني زينة .
- ٣١ - زهدي الداية : هارون الرشيد وشارلمان ، مجلة الهلال ١٩٣٢ م .
- ٣٢ - أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية ، طبعة مطبعة السعادة بجوار
محافظة مصر ١٣٣٠ هـ .
- ٣٣ - الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي .
- ٣٤ - ——— : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب
- ٣٥ - ——— : نشأة الاقطاع في المجتمعات الإسلامية بغداد ١٩٧٠
- ٣٦ - ——— : دراسات في العصور العباسية المتأخرة
- ٣٧ - يوسف الياس الدبس : تاريخ سورية ، مطبعة بيروت العمومية سنة ١٩٠٠ م
- ٣٨ - فرانز روزنثال : علم التاريخ عند العرب ، ترجمة صالح أحمد العلي ، مكتبة
المثنى ١٩٦٣ م .
- ٣٩ - ثابت اسماعيل الراوي : العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية
والإدارية والاجتماعية ، مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٥ م .
- ٤٠ - أحمد فريد الرفاعي : عصر المأمون ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٦ .
- ٤١ - رنسيما : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦١ م .
- ٤٢ - أسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم
بالعرب ، طبعة بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٥٦ م .
- ٤٣ - محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، الطبعة
الثالثة ١٩٦٩ م دار المعارف بمصر .

- ٤٤ - مليحة رحمة الله : الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، مطبعة الزهراء بغداد ١٩٧٠ م .
- ٤٥ - زكار : تاريخ العرب والاسلام ، دار الفكر بيروت ١٩٧٥ م .
- ٤٦ - جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، طبعة مطبعة الهلال ، طبعة رابعة ١٩٢٦ م .
- ٤٧ - وصفي زكريا : عشائر الشام ، طبعة دمشق ١٩٤٥ م .
- ٤٨ - الزركلي : الاعلام ، مطبعة كوستاتسوماس وشركاه سنة ١٩٥٥ م .
- ٤٩ - خليل داود الزور : الحياة العلمية في الشام في القرن الاول والثاني الهجري ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧١ م .
- ٥٠ - عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ ، مطابع رمسيس بالاسكندرية طبعة ١٩٦٧ م .
- ٥١ - محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر وسياساتها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، مطبعة دار الفكر ١٩٦٥ - ١٩٦٦
- ٥٢ - _____ : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ، الطبعة الثانية ١٩٦٧
- ٥٣ - _____ : سياسة الفاطميين الخارجية ، طبعة دار الفكر العربي ١٩٦٧
- ٥٤ - _____ : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الاول والثاني بعد الهجرة ، طبعة دار الفكر العربي ١٩٦٤
- ٥٥ - _____ : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، دار الفكر العربي ١٩٦٤
- ٥٦ - حسام قوام السامرائي : المؤسسات الادارية في الدولة العباسية خلال الفترة ٢٤٧ - ٣٣٤ ، مكتبة دار الفتح بدمشق .
- ٥٧ - كي ل سترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة الرابطة بغداد ١٩٥٧ م .

- ٥٨ - حورية عبده سلام : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الفسطاط منذ الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية ، رسالة ماجستير .
- ٥٩ - عبد الفتاح السرنجاوي : النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية ، الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٥٤ م .
- ٦٠ - مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا .
- ٦١ - مصطفى الشكعة : معالم الحضارة الاسلامية ، دار العلم للملايين .
- ٦٢ - أحمد شلبي : دراسات في الحضارة الاسلامية .
- ٦٣ - أحمد شوكت الشطي : العرب والطب ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٠ م .
- ٦٤ - ليلى صباغ : معالم العصر العباسي .
- ٦٥ - أحمد زكي صفوت : عمر بن عبد العزيز ، من سلسلة اقرأ ، دار المعارف بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٣ م .
- ٦٦ - الطباخ : أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء ، طبعة حلب الاولى ، ١٩٢٥ م .
- ٦٧ - طوقان . تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٦٨ - عباس العزاوي : تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقته بالاقطار الاسلامية والعربية ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٥٨ م .
- ٦٩ - حسين قاسم العزيز : دور المراكز الثقافية في تفاعل العرب والمسلمين الحضاري ، بغداد ١٩٧٤ م .
- ٧٠ - ابراهيم احمد العدوي : الاساطيل العربية في البحر الابيض المتوسط ، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٧
- ٧١ - _____ : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥١ م
- ٧٢ - _____ : الامويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، طبعة ثانية

- ٧٣ - نبيه العاقل : دراسات في تاريخ بني أمية جامعة دمشق ٧٥ - ٧٦
- ٧٤ - ————— : عصر الرسول والراشدين ، جامعة دمشق ٧٥ - ٧٦
- ٧٥ - فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ، دار القلم للطباعة بيروت
- ٧٦ - ————— : العباسيون الاوائل ، طبعة دمشق ١٩٧٣
- ٧٧ - ————— : طبعة الدعوة العباسية ، الطبعة الاولى ، دار الارشاد بيروت ١٩٧٠
- ٧٨ - سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ،
- ٧٩ - محمد عبد الفتاح عايان : قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ م .
- ٨٠ - محمد كرد علي : خطط الشام ، دمشق ١٩٢٥ وطبعة دار العلم للملايين بيروت
- ٨١ - ————— : الاسلام والحضارة العربية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، طبعة ١٩٣٦
- ٨٢ - ————— : الادارة الاسلامية في عز العرب ، مطبعة مصر ١٩٣٤ م
- ٨٣ - عارف العارف : الحرم المقدسي : مطبعة دار اليتام الاسلامية الصناعية بالقدس ١٩٤٧ م .
- ٨٤ - عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ١٩٧١ م .
- ٨٥ - فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ م .
- ٨٦ - يوسف العش : الخلافة العباسية ، دمشق دار الكتاب .
- ٨٧ - أحمد عيسى : آلات الطب والجراحة عند العرب ، مطبعة مصر ، القاهرة .
- ٨٨ - يوسف غنيم : نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، مطبعة الفرات بغداد ١٩٢٤ م .
- ٨٩ - عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٢ م .
- ٩٠ - يوليوس فلهاوزن : احزاب المعارضة في صدر الاسلام ، ترجمة بدوي : الطبعة الثانية .

- ٩١ - فان فلوتن : السيادة العربية في عهد بني أمية ، مطبعة السعادة ١٩٣٤ م .
- ٩٢ - فازيليف : العرب والروم ، ترجمة شعيرة ، طبعة دار الفكر العربي .
- ٩٣ - فرات فائق : أبو بكر الرازي حياته ومآثره ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٧٣ م .
- ٩٤ - عمر رضا كحاله : معجم القبائل العربية ، طبعة دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٨ م
- ٩٥ - ————— : معجم المؤلفين ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٥٩ م
- ٩٦ - كلود كاهين : العرب والشعوب الاسلامية . ترجمة بدر الدين القاسم ، بيروت دار الحقيقة ١٩٧٢ م
- ٩٧ - سيدة كاشف : مصر في عهد الاخشيديين ، طبعة جامعة فؤاد الاول ، القاهرة ١٩٥٠
- ٩٨ - ————— : أحمد بن طولون : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥
- ٩٩ - شاكز مصطفى : في التاريخ العباسي : مطبعة الجامعة السورية ، دمشق ١٩٥٧ م
- ١٠٠ - عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، طبعة الانجلو المصرية ١٩٥٧ م
- ١٠١ - محمد جواد مغنية : الشيعة والحاكمون : منشورات المكتبة الاهلية بيروت .
- ١٠٢ - آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ م .
- ١٠٣ - صلاح الدين المنجد : مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين طبعة دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٦٧ م
- ١٠٤ - ————— : بين الخلفاء والخلفاء ، طبعة دار الحياة ١٩٥٧ م
- ١٠٥ - حسن محمود وأحمد ابراهيم الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي ، الطبعة الاولى ، دار الفكر العربي ١٩٦٦ م
- ١٠٦ - حسن محمود : مصر الاسلامية ، العصر الطولوني ، مكتبة النهضة العربية ١٩٦٠

- ١٠٧ - مشرفة : القضاء في الاسلام . شركة الشرق الاوسط ، الطبعة الثانية ١٩٦٦ م
- ١٠٨ - الماحي : مقدمة في تاريخ العلم العربي ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٥٩ م .
- ١٠٩ - ناجي معروف : المرصد الفلكية ببغداد .
- ١١٠ - عبد الحليم منتصر : التراث العلمي العربي في الميزان ، مجلة الهلال ، العدد ٤ سنة ٩٧٣ .
- ١١١ - عجاج نويهض : أبو جعفر المنصور ، مطابع دار الصحافة بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦٢ م .
- ١١٢ - جميل نخله : حضارة الاسلام في دار الاسلام .
- ١١٣ - نلليو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، روما ١٩١١ م .
- ١١٤ - حسين نصار : نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، النهضة المصرية .
- ١١٥ - هاري وهازارد : اطلس التاريخ الاسلامي ، ترجمة وتحقيق خورشيد وزيادة وغيرهم .
- ١١٦ - زيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب .
- ١١٧ - هيوارث : مادة الاسماءيلية ، دائرة المعارف الاسلامية .
- ١١٨ - جورج يني : تاريخ سورية ، طبعة بيروت ، المطبعة الادبية ١٨٨١ م .

هـ - الدوريات العربية والاوربية

- ١ - دائرة المعارف الاسلامية .
- ٢ - المجلة التاريخية العراقية للتاريخ والآثار .
- ٣ - مجلة المؤرخ العربي .
- ٤ - مجلة المجمع العربي بدمشق .
- ٥ - مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية .
- ٦ - مجلة معهد المخطوطات العربية .
- ٧ - مجلة المقتطف .
- ٨ - مجلة التربية الاسلامية .
- ٩ - مجلة الهلال .
- ١٠ - مجلة المورد العراقية .
- ١١ - Encyclopedia of Islam

د - المراجع الاجنبية

- 1 — L. BERNARD : The Arab in History.
- 2 — CANARD : Histoire de la Daynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie; A leger 1951.
- 3 — _____ : Le expédetions des Arabes Contre Constantinople dans L'Histoire et dans la légende 1926.
- 4 — _____ : Sayf Al Dawla. Recueil de textes relatifs à L'émir Sayf Al Dawla le Hamdanide- A leger 1934.
- 5 — _____ : Une Lettre de Muhammad Ibn Tugj Al Ikshid- A leger 1936.
- 6 — CLAUDE CAHEN : Les Syrie du nord; à L'epoque de Croisades et la principauté Franque D'Antioche; Paris 1940.
- 7 — Cambridge Mediaeval History- Vol. IV.
- 8 — JUWAYNI : TA'RIKH -1- JAHN - GUSHAY... Being a facsimile of a Manuscript dated A.H. 690 with an introduction by Sir Denison Ross; Vol. III; London 1931.
- 9 — LE STRANGE : Palestine Under The Moslems- London, 1890.
- 10— _____ : Baghdad during the Abbassid Caliphate., London 1924.
- 11— LANE POOL : Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in : the Khedivial Library at Cairo; London 1897.
- 12— _____ : The History of Egypt in the Middle Ages; London, 1901.
- 13— _____ : The Mohammadan Dynasties.
- 14 — MARMARDJI : Textes Geographique sur Palestine; Paris 1951.
- 15 — MUIR : The Caliphate; Its Rise Decline and Fall; Beirut 1963.
- 16— SAUVAGET : Les Perles Choiesies 'D'Ebn Achihna; Tome I; Beyrouth, 1933.
- 17— SCANLON (G) : Leadership in Qarmatian sect (in Bulletin De L'institut Français D'Archéologie Orientale; Tome LIX; 1960).
- 18 — WIET : L'Egypte Arabe; Paris.
- 19— ZAKY HASSAN : Les Tulunides. Etude de L'Egypte Musulmane à la fin du IX^e Siécle; Paris 1933.

الفهرس

دراسات في تاريخ العصر العباسي من سنة ١٣٢ - ٣٣٤ هـ

الباب الاول :

تمهيد

- أ - الاوضاع العامة للخلافة الاسلامية ، والعالم المحيط بها
- ١ اثر قيام الخلافة العباسية ١
- ب - عوامل سقوط الخلافة الاموية ٥
- ١٧ الدعوة العباسية ١٧
- ١ - المرحلة السرية ١٧
- ٢ - المرحلة العلنية ، ومراحل حروب الدعوة ٣١
- أ - المرحلة الاولى : فتح خراسان ٣٥
- ب - المرحلة الثانية : فتح العراق ٣٦
- ج - المرحلة الثالثة : معركة الزاب ٣٧
- د - المرحلة الرابعة : فتح الشام ٣٩
- ٣ - اعلان الخلافة العباسية ومميزاتها ٤٧
- الباب الثاني :** ٥٩
- الدور العباسي الاول ٥٩
- مميزات هذا الدور ٦٥
- الفصل الاول :** توطيد وتثبيت اركان الحكم العباسي ٦٧
- ١ - الموقف العدائي المتبادل بين العباسيين وبنو امية وانصارهم ٦٧

- ٦٨ - سياسة العباسيين تجاه الامويين
- ٧١ - سياسة العباسيين تجاه القبائل العربية والمدن الشامية
- ٧٥ أ - ثورة نصر بن شبيب العقيلي
- ٧٩ ب - ثورة أجناد الشام وموقف العباسيين منها
- ٧٩ - ثورة حوران والبثنية/ثورة حبيب بن مرة المري
- ٨٠ - ثورة قنسرين وحلب/أبو الورد الكلابي والسفياني
- ٨٣ - ثورة الجزيرة/اسحق بن مسلم العقيلي
- ٨٤ - ثورات دمشق
- ٨٩ - ثورات لبنان وحمص / اهل الذمة
- ٩٢ - ثورة فلسطين والاردن / المبرقع اليماني
- ٩٤ ٢ - الصراع بين افراد الاسرة العباسية
- ٩٥ - الصراع بين عبد الله بن علي والخليفة المنصور
- ٩٨ - الصراع بين الخليفة المنصور والمهدي ، وعيسى بن موسى
- ٩٩ - الصراع بين الاخوين الهادي والرشيد
- ١٠٠ - الصراع بين الاخوين الامين والمأمون ونتائج هذا الصراع
- ١٠٩ - الصراع بين المأمون وابراهيم بن المهدي
- ١٠٩ - الصراع بين المعتصم وابن أخيه العباس
- ١١٠ ٣ - حركات الخوارج في الدور العباسي الاول
- ١١٧ ٤ - حركات الشيعة في الدور العباسي الاول
- ١١٨ - ثورة محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم
- ١٢٥ - ثورة الحسين بن علي بن الحسن
- ١٢٦ - ثورة ادريس بن عبد الله وأخيه يحيى
- ١٢٨ - نهاية موسى الكاظم بن جعفر الصادق
- ١٢٩ - العلويون في عهد المأمون

١٣٢	- نهاية محمد بن القاسم
١٣٣	٥ - الصراع بين العرب والموالي
١٣٥	- الصراع السلمي
١٣٥	٢ - الصراع بين المنصور وأبي مسلم
١٣٩	ب - الصراع بين الخلفاء والوزراء
١٥٤	ج - الشعوبية
١٥٧	د - الزندقة
١٦٣	- الصراع المسلح بين العباسيين والموالي
١٦٣	- ثورة الراوندية
١٦٦	ب - المقنع الخراساني
١٦٩	ج - بابك الخرمي
١٧٢	د - ثورة أستاذ سيس
١٧٣	الفصل الثاني : الاوضاع العامة في شمال افريقيا والاندلس
١٧٣	١ - الاوضاع في مصر وبلاد النوبة
١٨٢	٢ - الاوضاع العامة في بلاد المغرب
١٨٤	٣ - الاوضاع في الاندلس
١٨٧	الفصل الثالث :
١٨٧	- العلاقات الخارجية
١٨٧	١ - العلاقات مع البيزنطيين
٢١٧	٢ - العلاقات مع الفرنجة (الكارولنجيين)
٢٢١	الباب الثالث :
٢٢١	- عصر سيطرة الاتراك ٢٣٢ - ٣٣٤ هـ
٢٢١	مقدمة : صفات عصر الاتراك

الفصل الأول : عصر سيطرة الاتراك ٢٢٣

١ - ظهور العنصر التركي في بلاد الخلافة الاسلامية ٢٢٣

٢ - الصراع حول السلطة في عصر النفوذ التركي ٢٢٧

الفصل الثاني : ٢٤٣

الصراع الاجتماعي والسياسي والديني - المذاهب الاسلامية .. ٢٤٣

١ - حركة الزنج ٢٤٤

٢ - حركة القرامطة ٢٤٨

أ - ظهور قرامطة العراق والشام ٢٤٨

ب - قرامطة البحرين ٢٥١

ج - الوضع الاجتماعي عند القرامطة ٢٥٤

٣ - التيارات السنية والشيعة : ٢٥٦

- المذاهب الشيعية ٢٥٧

أ - الامامية الاثنا عشرية ٢٥٨

ب - الاسماعيلية ٢٦١

ج - الزيدية ٢٦٧

- السنة ٢٦٩

- التصوف ٢٧٢

الفصل الثالث ٢٧٧

تفكك وحدة الخلافة الاسلامية ٢٧٧

- الدول الفارسية ٢٨٠

أ - الدولة الطاهرية ٢٨٠

ب - الدولة الصفارية ٢٨١

ج - الدولة السامانية ٢٨٦

- الدول التركية : ٢٩٠

٢ - الدولة الطولونية في مصر والشام ٢٩٠

- تأسيس الدولة ٢٩٠

- علاقة الطولونيين بالخلافة العباسية ٢٩٢

- جيش وهارون ابن خمارويه ٩٢٨

- نهاية الدولة الطولونية ٣٠٠

ب - الدولة الاخشيدية في مصر والشام ٣٠١

الفصل الرابع : ٣١١

العلاقات العربية البيزنطية ٣١١

١ - العباسيون يتولون الدفاع عن الثغور ٣١١

٢ - الطولونيون والبيزنطيون ٣١٣

٣ - العباسيون والبيزنطيون - احوال الثغور بين الامارتين

الطولونية والاخشيديية ٣١٥

٤ - الاخشيديون والبيزنطيون ٣١٨

الباب الرابع : ٣٢١

اهم مظاهر الحضارة العربية الاسلامية من سنة ١٣٢ - ٣٣٤ هـ ٣٢١

١ - نظام الحكم ٣٢٢

٢ - النظام السياسي

- الخلافة ٣٢٢

- الوزارة ٣٢٣

- الكتابة والحجابة ٣٢٤

ب - النظام الاداري ٣٢٦

- الولايات والولاة ٣٢٧

- الدواوين ٣٢٩

ج - النظام العسكري: الجيش ٣٣٢

٣٣٧	د - النظام المالي ..
٣٤٠	هـ - النظام القضائي ..
٣٤٠	- القاضي ..
٣٤٣	- النظر في المظالم ..
٣٤٥	- الحسبة ..
٣٤٧	٢ - الحياة الاجتماعية ..
٣٤٨	- عناصر السكان ..
٣٤٨	أ - العناصر الجنسية والرق ..
٣٥٢	ب - الطوائف الدينية ..
٣٥٤	- الطبقات الاجتماعية ..
٣٥٩	٣ - الحياة الاقتصادية ..
٣٦٠	- الزراعة ..
٣٦٤	ب - الصناعة ..
٣٦٨	ج - التجارة ..
٣٧٤	٤ - الحياة الفكرية ..
٣٧٧	أ - العلوم الدينية ..
٣٧٧	- علم القراءات ..
٣٧٧	- التفسير ..
٣٧٨	- الحديث ..
٣٧٩	- الفقه ..
٣٨٠	- علم الكلام : المعتزلة ..
٣٨٦	ب - علوم اللغة العربية ..
٣٨٦	- النحو ..
٣٨٨	- الادب : ..

٣٨٨	١ - الشعر ..
٣٩١	٢ - النثر ..
٣٩٢	ج - العلوم التجريبية : ..
٣٩٢	- الترجمة ..
٣٩٤	- الفلسفة ..
٣٩٥	- الطب ..
٣٩٨	- علم الفلك والنجوم ..
٤٠١	- علم الرياضيات ..
٤٠٣	- التاريخ ..
٤٠٤	- الجغرافية ..
٤٠٥	٥ - الحركة العمرانية ..
٤٠٥	- بناء بغداد ..
٤٠٩	ب - بناء سامراء ..
٤١١	- الخرائط ..
٤١٥	- المصادر ..



.....







صدر بإشراف لجنة الانجاز

سعر المبيع للطالب ١٢٥ ل.س

مطبعة جامعة دمشق